

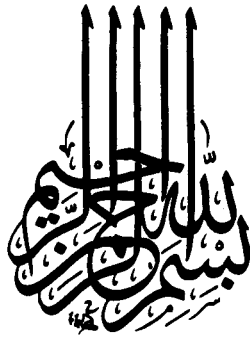
المفيد في

خطب الجمعة والعيد

تأليف
إبراهيم بن محمد راحقيل

الجزء الثاني

دار الخيرية



رمضان والحج

- | | |
|-------------------------------|---------------------------|
| ٥٠- رمضان والتوبة (١) | ٦٤- توديع رمضان |
| ٥١- رمضان والتوبة (٢) | ٦٥- خطبة عيد الفطر ١٤١٧هـ |
| ٥٢- رمضان والتقوى | ٦٦- خطبة عيد الفطر ١٤١٨هـ |
| ٥٣- رمضان والقرآن | ٦٧- خطبة عيد الفطر ١٤١٩هـ |
| ٥٤- رمضان والجود | ٦٨- خطبة عيد الفطر ١٤٢٠هـ |
| ٥٥- رمضان والمواساة | ٦٩- خطبة عيد الفطر ١٤٢٢هـ |
| ٥٦- رمضان والمجاهدة | ٧٠- خطبة عيد الفطر ١٤٢٣هـ |
| ٥٧- رمضان والمراقبة | ٧١- خطبة عيد الفطر ١٤٢٤هـ |
| ٥٨- رمضان والقوة | ٧٢- ماذا بعد رمضان (١) |
| ٥٩- رمضان والصبر | ٧٣- ماذا بعد رمضان (٢) |
| ٦٠- رمضان والعفو | ٧٤- فضل عشر ذي الحجة |
| ٦١- العشر الأواخر والدعاء (١) | ٧٥- خطبة عيد الأضحى |
| ٦٢- العشر الأواخر والدعاء (٢) | المبارك |
| ٦٣- العشر الأواخر والاعتكاف | ٧٦- فضل أيام التشريق |

٥٠- رمضان والتوبة (١)

الجمعة ٢٩/٨/١٤١٩هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المؤمنون: فضلُ الله تعالى على عباده المؤمنين ليس يحصيه العد، ولا يحده الحد؛ بل هو عامٌّ شامل مطلق. خلقهم فأحسن خلقهم، وصورهم فأحسن صورهم، ورزقهم وأعطاهم، ثم وفقهم للحسنى فهداهم، وفتح لهم باب الرجعة إن ضلوا الطريق، أو أزاغهم الشيطان. ولا يزال الباب مفتوحاً ما دامت الشمس تطلع من مشرقها، ما لم

يغرغر العبدُ بالموت. والعبد يحتاج التوبة في كل وقت؛ لأنه يخطئ في كل وقت، وقد يشعر بخطئه وقد لا يشعر، فكان لا بد أن يلزم التوبة في ساعاته وأيامه.

والتوبة عبادة وقربة قبل أن تكون استعتاباً ورجعة، بل هي من أعظم العبادات وأجلها؛ إذ بها تنال محبة الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٢٢٢) [البقرة]، قال بعض العلماء: «دعوت الله سبحانه وتعالى ثلاثين سنة أن يرزقني توبة نصوحاً، ثم تعجبت في نفسي وقلت: سبحان الله، حاجة دعوت الله فيها ثلاثين سنة فما قضيت إلى الآن، فرأيت فيما يرى النائم قائلاً يقول لي: أتعجب من ذلك؟! أتدري ماذا تسأل الله تعالى؟ إنما تسأله سبحانه أن يحبك، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٢٢٢) [البقرة]»^(١).

والتوبة النصوح هي: ترك الذنب وعدم العودة إليه، عرفها بذلك عمر رضي الله عنه^(٢).

والمغفرة تحصل للعبد إذ حقق التوبة ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ

(١) انظر: غذاء الألباب للسفاريني (٢/ ٥٩٠).

(٢) هكذا جاء عن عمر كما في مستدرک الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/

٤٩٥) ونحوه جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه وكذا عن الحسن البصري

ومجاهد والضحاك رحمهم الله تعالى، وانظر: جامع البيان للطبري (٢٨/

١٠٧) ومدارج السالكين (١/ ٣٠٩) والآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٨٦).

وَعَمَلٌ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾ [طه]، والفلاح معلق بالتوبة ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ ﴿٣١﴾ [النور] ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ [القصص].

ومهما عمل العبد من السيئات، وارتكب من الموبقات؛ بل لو وقع في الشرك والكفر ثم تاب تاب الله عليه، ذلك أن الإسلام يَجِبُ ما كان قبله، وأن التوبة تهدم ما كان قبلها^(٣). وروى أبوهريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو أخطاتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب عليكم» أخرجه ابن ماجه بسند حسن^(٤). ومن عظيم أثر التوبة: تبديل السيئات إلى حسنات، فتقلب سيئات العاصي بعد التوبة النصوح إلى حسنات، وتبيض صحائفه بعد أن كانت سوداء ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿٧٠﴾ [الفرقان]، عن أبي الطويل شَطَبَ الممدود رضي الله عنه «أنه أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أرأيت من عمل الذنوب كلها، ولم يترك منها شيئاً، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها، فهل لذلك من توبة؟ قال: «فهل أسلمت؟»

(٣) كما في حديث عمرو بن العاص عند مسلم في الإيمان باب كون الإسلام يهدم ما كان قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١) وأحمد (١٩٨/٤).

(٤) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ذكر التوبة (٤٢٤٨) وحسنه البوصيري في الزوائد (٣٠٧/٣) والعراقي في تخريجه على الإحياء (١٣/٤) وجود إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٩٠/٤).

قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، قال: «تفعلُ الخيرات، وتترك السيئات، فيجعلهن الله لك خيرات كلهن» قال: وغدراتي وفجراتي؟ قال: «نعم»، قال: الله أكبر فما زال يكبر حتى توارى» أخرجه البزار والطبراني بإسناد جيد^(٥).

(٥) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٣٥٤٤) والطبراني في الكبير (٣١٤/٧) برقم (٧٢٣٥) والخطابي في غريب الحديث وعزاه لابن خزيمة (٢٥٤/١) والخطيب في تاريخه (٣٥٢/٣) وابن الأثير في أسد الغابة وعزاه لأبي نعيم وابن منده (٥٢٥/٢) وابن عبد البر في الاستيعاب (١٦٧/٢) وعزاه الحافظ في الإصابة للبغوي وابن الزبتر - أبو سليمان محمد بن عبد الله الربيعي كما في السير (٤٤٠/١٦) - وابن أبي عاصم وابن السكن، وقال الحافظ: على شرط الصحيح (١٥٢/٢) وقال الهيثمي: رجال البزار رجال الصحيح غير محمد بن هارون أبي نشيط وهو ثقة (٣٢/١) وأيضاً (٢٠٢/١٠) بنحوه، وقال المنذري عن إسناد الطبراني: وهذا إسناد جيد قوي. ثم ذكر أن (شطب) ذكره غير واحد في الصحابة إلا أن البغوي ذكر في معجمه أن الصواب عن عبدالرحمن بن جبير بن نفير مرسلاً أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم طويل شطب، والشطب في اللغة: الممدود، فصحفه بعض الرواة وظنه اسم رجل، انظر: الترغيب والترهيب (٢٠/٤)، وهذا غير مسلم؛ إذ إن أبا الطويل شطباً الممدود الكندي ترجم له الحفاظ وذكره في الصحابة، وممن ترجم له ابن عبد البر في الاستيعاب: رقم (١٢٠٢) وابن الأثير في أسد الغابة برقم (٢٤٤٠) وابن حجر في الإصابة (٣٩٣٠) وذكر التصحيف محتمل. وإثباته في الصحابة متيقن فلا يترك اليقين إلى الاحتمال، ومن علم حجة على من لم يعلم والله أعلم، وقوله في الحديث: «لم يترك حاجة ولا داجة»، المراد بالحاجة: الحاجة الصغيرة، وبالداجة: الحاجة الكبيرة، قال الخطابي: الحاجة: القاصدون=

والتوبة تشمل الإسلام كله، وهي غاية المؤمن في جميع أحواله وأوقاته، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «التوبة هي دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى التوبة. وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله؛ فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإنما يحب الله من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه. فإذا التوبة هي الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً، ويدخل في مسماها الإسلام والإيمان والإحسان، وتتناول جميع المقامات.

ولهذا كانت غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته، وهي الغاية التي وُجد لأجلها الخلق، والأمر بالتوحيد جزءٌ منها؛ بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها. وأكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها، فضلاً عن القيام بها علماً وعملاً وحالاً. ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه، ولولا أن التوبة اسمٌ جامع لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان، لم يكن الربُّ تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم. فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيلها وآثارها» اهـ^(٦)

= البيت، والداجة: الراجعون، والمشهور بالتخفيف، انظر: غريب الحديث للخطابي (١/٢٥٤). وقال ابن الأثير: الحاجَّ والحاجة: أحد الحاجاج، والداج والداجة: الاتباع والأعوان يريد الجماعة الحاجة ومن معهم من أتباعهم اهـ. انظر: النهاية (١/٣٤١).

(٦) انظر: مدارج السالكين (١/٣٠٦-٣٠٧).

أيها الإخوة: ومن رحمة الله تعالى أنه يقبل توبة عبده في أي وقت من ليل أو نهار، ويفرح بها أشدَّ الفرح مع أنه تعالى لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها» أخرجه مسلم. ^(٧)

ومن رافة النبي صلى الله عليه وسلم بقومه ورحمته لهم أن اختار لهم المهلة على العذاب، رغم ما لحقه منهم من صدود وأذى شديد، وما ذاك إلا رجاء أن يتوبوا، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم: «ادعُ ربك يجعل لنا الصفا ذهباً؛ فإن أصبح ذهباً اتبعناك. فدعا ربه فأتاه جبريل عليه السلام فقال: «إن ربك يُقرئك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً فمن كفر منهم عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحتُ لهم باب التوبة والرحمة، قال: بل بابُ التوبة والرحمة» أخرجه أحمد والحاكم ^(٨).

(٧) أخرجه مسلم في التوبة باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة (٢٧٥٩).

(٨) أخرجه أحمد (٣٤٥/١) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢٤٠/٤) وقال ابن كثير في البداية والنهاية: إسناده جيد (٥٢/٣) وعزاه الهيثمي للطبراني وقال: ورجاله رجال الصحيح (١٩٦/١٠) وصححه الشيخ شاکر في شرحه للمسند برقم (٢١٦٦).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ
 أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ
 الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا
 تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ
 بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥)﴾ [الزمر] بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ .

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، أحمده
 وأشكره وأتوب إليه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
 له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى
 آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين .
 أما بعد: فاتقوا الله تعالى وتوبوا إليه ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى
 اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحريم: ٨] .

أيها المؤمنون: يظن كثير من الناس أن التوبة لا تكون إلا للمسرفين
 على أنفسهم في العصيان ، وأن المحافظ على الفرائض ، المجتنب للنواهي
 لا يحتاج إلى التوبة . وهذا غرور وظن سيئ؛ إذ التوبة مطلوبة من العبد
 ولو كان أعبد الناس وأزهدهم ، وأتقاهم وأورعهم وأعلمهم . وكلما
 كان العبد أعلم بربه كان أكثر توبة وإنابة واستغفاراً .

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الخلق بربه ، وأتقاهم
 له ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهو مع ذلك أكثر الناس

توبة يقول عليه الصلاة والسلام «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» أخرجه البخاري^(٩). وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إن كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مئة مرة من قبل أن يقوم «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم» أخرجه الترمذي وصححه^(١٠).

وأكثر شيء يردُّ الناس عن التوبة أو يجعلهم يسوفون فيها: طول الأمل في الدنيا، وما يتقبلون فيه من نعيم. وإلا فإن المصائب إذا نزلت بالعبد أسرع للتوبة، وإذا نزل بلاء عام على العباد رأيت كثرة التائبين، فحذار - أيها الإخوة - أن ينسينا طول الأمل المبادرة إلى التوبة، قال يحيى بن معاذ: «الذي حجب الناس عن التوبة طول الأمل، وعلامة التائب إسبالُ الدمعة، وحبُّ الخلوة، والمحاسبةُ للنفس عند كل همّة»^(١١).

أيها الإخوة: وها هو ذا رمضان قد أقبل بخيره وإحسانه، فلا أجمل من أن نشكر الله تعالى على نعمته بتجديد التوبة، وكثرة الاستغفار، والمحافظة على الطاعة، واجتناب المعصية، ومن يدري لعل منا من لا

(٩) أخرجه البخاري في الدعوات باب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم والليلة (٦٣٠٧).

(١٠) أخرجه أبو داود في الصلاة باب في الاستغفار (١٥١٦) والترمذي في الدعوات باب ما يقول إذا قام من مجلسه وقال: حسن صحيح غريب (٣٤٣٠) وابن ماجه في الأدب باب الاستغفار (٣٨١٤).

(١١) انظر: ذم الهوى لابن الجوزي (١٧٤).

يدركُ آخره، أو يصومُ بعضه، ولا يدركُ أكثره، بل لعل منا من لا يدركُ منه شيئاً.

فاتقوا الله ربكم، والزموا التوبة في أحيانكم كلها؛ فإن العمر مهما طال قليل، والموعِد مهما استبطأه الناس قريب، وسوف يجد كل عبد ما عمل من خير وشر ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)﴾ [آل عمران] ألا وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

٥١- رمضان والتوبة (٢)

الجمعة ١٤١٧/٩/١ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن من نعمة الله تعالى على عباده أن كرّر لهم مواسم الخيرات، ونوع فيها الطاعات. مواسم تعود عليهم كل عام، حينما يستغرق العبد في اللهو بالولد والمال، وينسى ربه، ويخل بشعائر دينه، ويجتره الشيطان إليه، فيمارس أنواعاً من المعاصي في غفلته وسكره؛ يأتي رمضان فينبهه من غفلته، ويقوده إلى ربه، ويدعوه إلى تجديد توبته. فرمضانٌ جديرٌ بأن تجدد التوبة فيه؛ إذ فيه تكثر الحسنات، وتمحى السيئات، وتقال العثرات، وتُرفع الدرجات، لمن كان أهلاً لذلك، يعرف رمضان حق المعرفة، ويؤدي فيه حق الله بإخلاص واجتهاد.

وإذا كان العبد مطلوباً منه أن يتوبَ في كل وقت وحين، فالتوبة في رمضان تتأكد؛ لأنه شهرٌ عظيم، تنزل فيه رحمةُ رب العالمين، ويحتاج العباد فيه إلى الإقبال على الله تعالى، فأين هم الذين أسرفوا على أنفسهم؟ وقضوا الأيام والليالي في العصيان؟ وقابلوا نعم المولى بالكفران؟ وحاربوا الله في أرضه؟ ونابدوه في ملكه؟ أين هم فليتوبوا؟ وهل منا من يسلم من الخطأ؟ ويبرأ من المعصية؟! كلا؛ بل نحن الخطّاءون العاصون، لكن نرجوا أن نكون من التوابين، «فخير الخطّائين التوابون» كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١).

إن باب التوبة مفتوح فأين التوابون؟ وإن دين الإسلام ليس فيه واسطة بين العبد وربه، كما هو الحال في دياناتٍ أخرى، يقرر فيها الحبر أو الراهب أن توبة العبد لا تقبل حتى يدفع إليه مالا. يحكم بقبول التوبة عندهم عبيد مثلهم لا يملكون ضراً ولا نفعاً، يأكلون أموال الناس بالباطل، ويقودونهم إلى دار السعير. أما التوبة في الإسلام فهي بالمجان، لا يمنّ عليك راهب أو حبر أن هداك، فالفضل للهادي سبحانه وتعالى.

في الإسلام كل عبد يجد ما عمل، ولا يحمل أحد إلا وزره، ولا يتحمل العباد خطيئة أبيهم آدم ولا غيره كما هو الحال في دياناتٍ

(١) أخرجه عن أنس الترمذي في صفة القيامة باب المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه (٢٥٠١) وابن ماجه في الزهد باب ذكر التوبة (٤٢٥١) والدارمي في الرقاق باب في التوبة (٣٠٣/٢) وأحمد (١٩٨/٣).

أخرى، لفت انتباه أفرادها قولُ الله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر: ١٨] فقادت هذه الآية بعضهم إلى الإسلام؛ لأنه كان ثابتاً في دينهم أنهم مهما عملوا صالحاً فعليهم وزر الخطيئة الأولى؛ لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألغى تلك الخرافات، وجاء بالدين الصحيح من عند الله تعالى.

ليس في الإسلام يأسٌ من رحمة الله تعالى مهما عمل العبد من المعاصي والفجور؛ بل مهما اقترف من الشرك والكفر، إذا تاب وآمن نال رحمة الله تعالى، فالتوبة تهدم ما قبلها، والإسلام يجب ما قبله. واليأس والقنوط سلاحٌ لإبليس يُمضيه في العاصي حتى يستمر على عصيانه؛ لكن الله تعالى رحيم بعباده، رؤوف بهم يناديهم دائماً مهما أسرفوا على أنفسهم ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) [الزمر] واليأس من صفات الكافرين ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧) [يوسف].

ومن عظيم رحمة الله تعالى بعباده، وتفضله عليهم أنه يفرح فرحاً شديداً بتوبة أحدهم مع أنهم إن أطاعوه لم ينفعوه شيئاً، وإن عصوه لم يضره شيئاً، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كيف تقولون بفرح رجل انفلتت منه راحلته تجرُّ زمامها بأرض قفر ليس بها طعام ولا شراب، وعليها له طعام وشراب، فطلبها حتى شقّ عليه، ثم مرّت بجذالٍ شجرة فتعلّق زمامها، فوجدها

معلقةً به؟» قلنا: شديداً يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما والله، الله أشد فرحاً بتوبة عبده من الرجل براحلته» أخرجه مسلم^(٢).

سبحان الله!! يفرحُ اللهُ بتوبة عباده، وهو غنيٌ عنهم وهم فقراءُ إليه، وهو قادرٌ فوقهم وهم عاجزون تحته، يناديهم بالتوبة ويُعَلِّقُ فلاحهم عليها، فهل يأبى ذلك إلا الخاسرون ﴿وَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣١) [النور].

ومهما كرّر العبدُ الذنوب، فإن عليه أن يتوب، ويصدقَ في توبته مع الله تعالى حتى لا يكون كذاباً.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: «أُذنبُ عبدٌ ذنباً، قال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنبُ عبدي ذنباً، علم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنبُ ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنبُ عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك»^(٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب التوبة باب الحض على التوبة (٢٧٤٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ﴿يريدون أن يبدلوا

كلام الله﴾ (٧٥٠٧) ومسلم في التوبة باب قبول التوبة من الذنوب وإن

تكررت الذنوب والتوبة واللفظ له (٢٧٥٨).

قال المنذري: «معناه والله أعلم: أنه مادام كلما أذنب ذنباً استغفر وتاب منه ولم يعد إليه؛ بدليل قوله: ثم أصاب ذنباً آخر، فليفعل إذا كان هذا دأبه ما شاء؛ لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفارة لذنبه فلا يضره، لا أنه يذنبُ الذنب فيستغفره منه بلسانه من غير إقلاع ثم يعاوده فإن هذه توبةُ الكذابين» (٤) اهـ.

ومن تاب إلى الله تعالى فإن الله تعالى يحبه ويقربه، فيكون من أوليائه، قال بعض العلماء: «دعوتُ الله سبحانه وتعالى ثلاثين سنة أن يرزقني توبةً نصوحاً ثم تعجبتُ في نفسي وقلت: سبحان الله، حاجةٌ دعوتُ الله فيها ثلاثين سنة فما قُضيت إلى الآن، فرأيت فيما يرى النائم قائلاً يقول لي: أتعجبُ من ذلك؟ أتدري ماذا تسألُ الله تعالى؟ إنما تسأله سبحانه أن يحبك، أما سمعت قول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٢٢٢)» [البقرة] (٥).

والتوبة سبب لتبديل السيئات إلى حسنات، تنقلب صحائف العاصي التي سودها بالسيئات إلى بيضاء من تبديل الله لها بالحسنات ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧٠) [الفرقان: ٧٠].

هذا هو فضل التوبة، وهذا شهر التقوى، وإنما تنال التقوى بالتوبة، فتوبوا إلى الله في هذا الشهر العظيم؛ فربكم يناديكم بها ويخبركم أنه

(٤) الترغيب والترهيب (٩١/٤) وعنه السفاريني في غذاء الألباب (٥٩١/٢).

(٥) غذاء الألباب للسفاريني (٥٩٠/٢).

يغفر الذنوب مهما عظمت، وشهركم شهر الرحمة والمغفرة والعق من النار، يناديكم ربكم فأجيئوا.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (٨٢) [طه] اللهم تب علينا، وارزقنا التوبة النصوح، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى فأنتم في شهر التقوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣) [البقرة].

أيها الإخوة المؤمنون: لا تتحقق توبة العبد حتى يُقلع عن الذنب، ويعزم عزمًا صادقاً على أنه لا يعود إليه أبداً. أما إن كان يستغفر بلسانه، وقلبه يتحرك لفعل المعصية، ونفسه تراوده إليها، فتلك توبة من فسد قلبه، ويخشى عليه أن لا تقبل توبته.

وعلامه العزم على عدم مقارفة الذنوب: الندم على ما سلف منها، يبكي على ذنوبه، ويندم على ما اقترفت يده. يندم على مسارعة في

المعصية، وتقصيره في الطاعة. قال عمر بن ذر: «كلُّ حزنٍ يبلى إلا حزن التائب على ذنوبه»^(٦). وما ذاك إلا لأنه يتخيلُ قبح ذنوبه، ويتأملُ عظمة الله تعالى في خلقه، فيطير قلبه من هول ذلك، كيف ارتكب القبائح في حق من اتصف بهذه العظمة والجبروت؛ فيقطع الندم على ماسلف، ويقوده ذلك إلى المسارعة في الخيرات، واكتساب الحسنات. ومن كان محسناً فإنه يتوب ويندمُ على أنه لم يزد إلى إحسانه إحساناً، فهذا هو دأب السلفِ الصالح، هذا أنس بن النضر رضي الله عنه يفوته القتال في بدر مع أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخرج لقتال؛ ولكن القتال حدث بعد ذلك إرادةً من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِثُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]، وبعض الصحابة كانوا في المدينة لا يعلمون أن ثمة قتال، ومنهم أنس بن النضر، فيظهر عليه التأثر والندم على عدم حضوره بدرًا، فيقول للنبي صلى الله عليه وسلم: «يا رسول الله، غبت عن أول قتالٍ قاتلت فيه المشركين، والله لئن أشهدني قتالهم ليرين ما أفعل» هكذا قال، وسجل ندمه على ما فات، فكانت نتيجة هذا الندم عزمٌ على قتال المشركين بشدة، وتأتي أحدٌ فتُصدِّقُ ندمه حيث كانت النتيجة أن وجد في جسمه بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية، وما عرفته أخته إلا بينانه؛ وذلك بسبب إقدامه وتفانيه في حرب المشركين، وفيه وفي أمثاله نزل قول الله تعالى ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

(٦) سير أعلام النبلاء (٦/٣٨٨) ونحوه في الحلية عن الفضيل (٨/١٠١).

رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ [الأحزاب: (٧)].

نعم، صدقوا والله في توبتهم وفي ندمهم، لم يتكلموا كثيراً؛ لكنهم صدقوا مقالهم بأفعالهم. ونحن قد نتكلم ونعزم على التوبة، ويظهر منا ندم ما على الذنوب؛ لكننا قد نضعف أمام إغراءات الشيطان في هذا الشهر المعظم، وربما أعجبنا السهر إلى السحر في مجالس اللهو والغفلة والحرام، ونقول: إننا نتوب، فهل هذه توبة؟ قال شقيق البلخي: «علامة التوبة: البكاء على ما سلف، والخوف من الوقوع في الذنب، وهجران إخوان السوء، وملازمة الأخيار»^(٨). فهل توجد هذه العلامات في توبتنا؟ أم ما زلنا لا نخاف من الذنب، ولا نهجر إخوان السوء؛ بل نهجر الأخيار، ثم نقول بعد ذلك: إننا نتوب!! أي كذب هذا؟ أنكذب على الله تعالى وهو يرانا؟ سبحانه الله ما أعظم ذنبنا! وما أقل شكرنا، فنسألك اللهم أن تعفو عنا، وأن تردنا إليك رداً جميلاً، وأن تصلح ما فسد من قلوبنا إنك سميع مجيب، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

(٧) قصة أنس بن النضر أخرجها البخاري في المغازي باب غزوة أحد (٤٠٤٨) ومسلم في الإمارة باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠٣) والترمذي وقال: حسن

صحيح (٣٢٠٠) وغيرهم.

(٨) سير أعلام النبلاء (٣١٥/٩).

٥٢- رمضان والتقوى

الجمعة ٤/٩/١٤١٨هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن التقوى منقبة جامعة لصنوف البر والخير؛ لذلك عظمت عناية القرآن بها، وحسبك أن المواطن التي ذكرت فيها التقوى ومشتقاتها في كتاب الله العزيز قد نيفت على أربعين ومئتي موطن^(١)، تأمر بالتقوى، وتحث عليها، وتربط الفلاح بها، وتبرز منزلة المتقين في الدنيا والآخرة، عند الله تعالى وعند الناس ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ

(١) انظر: التقوى في الكتاب والسنة للدكتور محمد أديب الصالح (٦/١).

لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿١٨٩﴾ [البقرة: ١٨٩].

فالتقوى خير، ولباسها خير لباس، وزادها أنفع الزاد، وكيفيها شرفاً أن الله تعالى أمر عباده بها ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [الزمر: ١٠] وفي آية أخرى ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧] وفي ثالثة ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وهي وصية الله لنا ولمن قبلنا ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وللتقوى ثمرات عظيمة، ونتائج كبيرة؛ لأن الله تعالى ما أمر العباد بها وكرر ذلك إلا لعظيم مكانتها عنده تعالى وتقدس؛ لذا كان الجزاء عليها متناسباً مع عظيم منزلتها. ثمرات وفوائد في الدنيا والآخرة، فالعاقبة والنصر لأهلها ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه] ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وبالتقوى يفرق العبد بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين الضار والنافع، وتغفر له خطيئاته ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

لا يزال النور يلزم أهل التقوى، نور البصائر مع نور الأبصار؛ لأن البصائر هي التي تعمى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] لكن المتقين حَفِظُوا بتقواهم من

عمى البصائر فهم بنور التقوى يوفقون في أعمال دنياهم وأعمال آخرهم .
وقد جاء النداء القرآني أمراً بالتقوى من أجل الحصول على ذلك النور
حتى تستنير به البصائر مع نور الأبصار ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨] .

والتفاضل عند الله تعالى لم يكن بالجاه ولا السلطان ولا المال .
ففرعون مانعه سلطانه ، وهامان ما سرته وزارته ، وقارون ما أغنى
عنه ماله . ولم يكن القرب من الله تعالى بالأحساب والأنساب ، فكبار
قريش وسادة مكة الذين كانوا أميز الناس حسباً ، وأوسطهم نسباً ،
يتحلقون حول الكعبة ينتظرون ذلك العبد الحبشي بلال بن رباح رضي
الله عنه وأرضاه يصعد على ظهر الكعبة ، وأقدامه فوق هام السادات ؛
ليعلن النداء بالتوحيد بعد الفتح . ما كان بين عبوديته وبين مكانته تلك
إلا سنوات قلائل ، وعمُّ النبي صلى الله عليه وسلم أبو لهب ، في نار
ذات لهب .

إنه العدل الرباني في إلغاء وسائل التفاضل بين البشر كلها إلا
وسيلة التقوى ، وهي التي يستطيع أن ينالها كل أحد متى ماتخلى عن
الشهوات ، وسارع إلى الطاعات ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:
١٣] أتقاكم ! وليس أعزكم حسباً ، ولا أوسطكم نسباً ، ولا أوفرهم مالاً ،
ولا أعظمكم جاهاً ، ولا أقواكم سلطاناً ، بل أكرمكم أتقاكم وحسب .
ويكفي المتقين شرفاً معية الله تعالى لهم يحوطهم ويرعاهم

ويحفظهم ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (١٢٨) [النحل] ثم إنهم نالوا ولاية الله تعالى ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٤) [الأنفال] فكانت النجاة لهم يوم القيامة ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ [مريم] ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦١) [الزمر].

ولما كانت النجاة نصيبهم في القيامة كانوا أبعد الناس عن الخوف والحزن ﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٥) [الأعراف] بُشِّروا بالجنة، وهل أعدت الجنة إلا لهم ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [ق: ٣١] ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ (٦٣) [مريم] ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (٣٥) [الرعد] ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) [آل عمران].

ولا تسلم عن ندم أهل النار على تقصيرهم في حق التقوى حينما يقول قائلهم ﴿يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ﴾ (٥٦) أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) [الزمر].

والتقوى سهلة السَّيْلُ لمن وفق الله من عباده؛ لكن ما أعسرها على من كان عن الرحمة مبعداً. يحصل العبد عليها متى ما تخلى عن الشهوات، وسارع إلى الطاعات، ومن يستطيع ذلك إلا من كان

من عباد الله موفقاً.

عرّف التقوى طلقُ بن حبيب بكلمات مختصرات فقال رحمه الله تعالى: «هي العمل بطاعة الله، على نور من الله، رجاء ثواب الله، وتركُ معاصي الله، على نور من الله، مخافةُ عذاب الله»^(٢). وقال ميمون بن مهران: «لا يكون الرجل تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه وحتى يعلم من أين ملبسه ومطعمه ومشربه»^(٣).

أيها الإخوة: ورمضان من أعظم مواسم التقوى، والصيام مسلك من مسالكها؛ لذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الصيام جنة^(٤) أي: وقاية يقي صاحبها الفحش والمحرمات، وقد علل الله الصيام بالتقوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]. فمن أجلّ حكم الصيام: الحصول على التقوى. ولكن هل فهم المسلمون هذا المعنى من الصيام؟! إن كثيراً منهم وللأسف لم يفهموا منه إلا الإمساك عن الطعام والشراب والنكاح؛ لكنهم عن كثير من الشهوات لم يمسكوا!! أمسكوا عما أحل الله لهم لكنهم أفطروا على ما حرم الله عليهم! فأي معنى لهذا الصيام؟ وأي تقوى تنال به؟! يجمع واحداهم حسنات كثيرة من

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٦٠٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/٧٤).

(٤) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري في الصوم باب فضل الصوم (١٨٩٤) ومسلم في الصيام باب فضل الصيام (١٥١).

ذكر وقرآن، وصلاة وقيام، وصدقة وإحسان، فما يبرح إلا قليلا حتى ينفق ما جمع من حسنات ويستزيد عليها سيئات وخطيئات؛ وذلك حين تغرب شمس ذلك اليوم الذي صامه، وتنقضي تراويحه، فينطلق في ميادين الشهوات مع جلساء السوء وأهل الفراغ، في لهو وغفلة، وقيل وقال، وجهل وزور، ونيكم صلى الله عليه وسلم يقول: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»^(٥). ووالله الذي لا يحلف بغيره إن ما يعرض في الفضائيات وغيرها لمن أشد الجهل وأعظم الزور: هدمٌ للعقيدة، ونيلٌ من التوحيد، وتشويةٌ للشريعة، وتميعٌ للنصوص، وضربٌ لبعضها في بعض، وأخذ بعضها دون بعض. جعلوا رمضان مجرد طقوس وعادات من تعليق الفوانيس، وصنع الحلوى، والاجتماع على البدعة. عرضٌ لنداءاتٍ وحداءاتٍ وابتهالاتٍ تُغنى على أنغام الأوتار، في بعضها شرك وفي سائرها بدعة وعصيان. وأما مسابقاتهم فهي الميسر عينه، وفيها استقسام بالأزلام. هذا ما يخص جانب العبادة عندهم. أما جوانب الفحش والسوء فلا تسل عنها من عري وانحلال، أو غل

(٥) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري في الصوم باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم (١٩٠٣) وفي الأدب باب قوله تعالى ﴿واجتنبوا قول الزور﴾ وزيادة لفظ (والجهل) في هذه الرواية (٦٠٥٧) وأبي داود في الصوم باب الغيبة للصائم (٢٣٦٢) والترمذي في الصوم باب ما جاء في التشديد في الغيبة للصائم (٧٠٧).

في مداعبة الغرائز، حتى نقل الفاحشة من درك المعصية والكبيرة إلى منزلة الفكر والكفر: الفكر تحت شعار الحرية، والكفر بالانطلاق من قيود الدين وتعاليمه. لم يكفهم ما يعيشونه من فساد وانحلال، إنما يريدون فرضه على الأمة كلها.

لم يتركوا العباد في محاريبهم حتى نالوا منهم تحت مصطلح الأصولية، ولم يفتؤوا عن تغريب الشعوب المسلمة، وإفساد المرأة المسلمة، والطفل المسلم، وتدمير البيت الآمن.

إذا أراد الناس الفساد بادروا بعرضه، وإذا أرادوا الدين منعوه من، وحالوا بينهم وبينه بحجة أنهم لا يدركون مصالحهم!! وتحت شعارهم الحرية تنتهك الحرية، وتقتل الحرية.

يريد المتحررون المفسدون أن يبقى الدين في المسجد لا يتعدى عتبه؛ ولا يخرج من بابه؛ كما كان دين النصارى في الكنيسة لا يتعداها، وأكثر ما يزعجهم أن يكون الدين موجوداً في الأسواق، متغلغلاً داخل البيوت، حاكماً على التعليم والتربية، والاقتصاد والسياسة، والإعلام والصحافة. إنه النفاق الذي أبدوه وأعلنوه.

وينخدع المشاهد المسكين بما يعرضونه في فضائياتهم من برنامج ديني وهو أبعد ما يكون عن الدين، أو فيه لبس حق بباطل، مع ترسيخ لقاعدتهم القديمة: دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله. يعقب برنامجهم الديني غناءً رقيق، أو فيلم خليع، أو تقرير بدعة، أو حوار زندقة، تحت مسمى تلاقح الأفكار وسماع الرأي الآخر ولو كان ذلك سبباً

للذات الإلهية، أو قدحاً في الدين، أو تشكيكاً في الثوابت والمسلّمات .
 فيالصائم المسكين، حقٌّ أن يرثى لحاله، حينما أهبطوه من
 منازل الصيام العالية، وجردوه من معانيه السامية، إلى حضيض الشبهات
 ومستنقع الشهوات، ومع ذلك يزعمون أنهم بفضائياتهم مصلحون
 يريدون الارتقاء بالعقل العربي، والفكر العربي، وهم يُسفون إسفافاً
 بليغاً ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢) [البقرة] بلى والله
 إن أكثرهم يشعرون؛ ولكنهم في طغيانهم يعمهون، وفي غيهم يترددون،
 ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (٢٠٧) [الأعراف] فأين التقوى
 من قلوب هؤلاء؟ وأين التقوى من قلوب المتسمرين أمام الشاشة؟!
 أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
 بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ
 (٢٨) ﴿[ص] بَارِكِ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،
 أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
 لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك
 عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم
 الدين .

أما بعد: فيا عباد الله، اتقوا الله تعالى فإنكم في شهر التقوى حيث تتأكد التقوى.

أيها الإخوة: قد يغيبُ عن ذهن المؤمن معنى الصيام، وحقيقة التقوى، فينجرف مع المنجرفين خلف الجهل والزور؛ ولكنه سرعان ما يُذكر فيتذكر، ويؤوب إلى الله تائباً منيباً. وهذا هو وصف المتقين ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢٠١) [الأعراف] يصيب الواحد منهم ذنباً في غفلة وإجلابٍ من الشيطان، ثم يتذكر عقابَ الله وثوابه فيسارع بالتوبة والاستغفار^(٦)، ولا تزال الشياطين به تحاول إفساده، شياطينُ الجن والإنس، في مجالس الباطل واللهو وعبر الشاشات والأثير ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (٢٠٢) [الأعراف] وهو في جهاد معها؛ فإن غلبته الشياطين انفرط من عقد المتقين، وتخلف عن ركب الصائمين. وإن تغلب عليها وعلى شهواته، فهو في طليعة المتقين، ولربما قاد ركب الصائمين. وكان من أوائل الداخلين مع باب الريان الذي أعد للصائمين في جنات النعيم.

أيها الإخوة: ما كان هذا إلا تذكيراً في أوائل هذا الشهر المعظم الذي ينشط فيه أهلُ الباطل، وتتنافس فيه الفضائيات على إفساد صيام الصائمين، وتقوى المتقين. ولعل حكمة الله البالغة قد اقتضت أن ينشط شياطينُ الإنس بغية تغطية الفراغ الذي خلفه إخوانهم من شياطين الجن لما صُفِّدَت في رمضان، وكل ذلك امتحان للعباد وابتلاء.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير عند الآية (١٠٢) من سورة الأعراف (٢/٤٤١).

فهذا تذكير والذكرى تنفع المؤمنين، ومن لا يقبل التذكير والوعظ فأرجو أن لا يكون داخلاً في قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)﴾ [البقرة].

فاتقوا الله ربكم، واحفظوا صيامكم، وحذار حذار أن تجمعوا حسنات النهار فتنفقوها في الليل، ثم تكتسبوا أضعافها سيئات وأوزاراً، احفظوا صيامكم، واحفظوا بيوتكم وأهليكم وأولادكم، وقوهم ﴿نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦] فالأمر ليس بالهين، والحساب عسير، والموت أقرب إلى أحدنا من شراك نعله، والسعيد من اتعظ بغيره، والشقي من كان عظة وعبرة للناس، ثم صلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

٥٣- رمضان والقرآن

الجمعة ١١/٩/١٤١٨هـ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝﴾ [الكهف: ١] أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أخشى الناس لربه، واتقاهم لمولاه صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله أيها المؤمنون، فمن بعد عن التقوى في هذا الموسم فمتى يتقي؟ ومتى ينال حظه من التقوى؟ وهل يأمن في الدنيا والآخرة إلا المتقون؟ ﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

أيها الإخوة في الله: في رمضان يقبل كثير من الناس على كتاب الله تعالى قراءة وحفظاً، وأحياناً تفسيراً وتدبراً، وما ذاك إلا لأن رمضان موسم للخيرات، تتنوع فيه الطاعات، وينشط فيه العباد بعد أن سلسلت الشياطين، وفتحت أبواب الجنان، وغلقت أبواب النيران.

ورمضان هو الشهر الذي أنزل فيه القرآن، ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وكان جبريل يدارس فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن، فالحديث عن القرآن في رمضان، له مناسبتة وله خصوصيته ولا سيما مع إقبال الناس عليه.

وُصِفَ هَذَا الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢) ﴿[البقرة] يَهْتَدُونَ بِآيَاتِهِ وَمَعَانِيهِ فَيُخْرِجُهُم مِّن ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ وَالْجَهْلِ وَالذُّنُوبِ إِلَى نُورِ التَّوْحِيدِ وَالْعِلْمِ وَالطَّاعَةِ. يَهْتَدُونَ بِهِ فِيمَا يَعُودُ عَلَيْهِم بِالصَّلَاحِ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ﴾ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٩) ﴿[الإسراء: ٩].

عبره أعظم العبر، ومواعظه أبلغ المواعظ، وقصصه أحسن القصص، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٣) ﴿[يوسف]﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) ﴿[يونس] شِفَاءٌ لِّلصُّدُورِ مِنْ الشَّيْءِ وَالشُّكُوكِ، وَالرَّيْبِ وَالْأَمْرَاضِ الَّتِي تَفْتَكُ بِالْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ^(١)، وَلَكِنْ هَذَا الشِّفَاءُ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢) ﴿[الإسراء]﴾ ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

وهو مع هدايته للمؤمنين حسم أكثر الخلاف بين اليهود والنصارى في كثير من مسائلهم وتاريخهم وأخبارهم، كاختلافهم في عيسى وأمه عليهما السلام، واختلافهم في كثير من أنبيائهم^(٢) ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٧٦) ﴿وَأِنَّهُ لَهْدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٧) ﴿[النمل]﴾. فأهل الكتاب لو كانوا يعقلون لأخذوا تاريخهم وأخبار

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٦٥٢).

(٢) المصدر السابق (٣/٥٩٧).

سابقهم من هذا الكتاب الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت: ٤٢] لكن كيف يفعل ذلك أهل الكتاب وكثير من المؤمنين قد زهدوا في كتابهم، وتبعوا اليهود والنصارى حذو القذة بالقذة؟! فالؤمن بهذا الكتاب يمتلك من أخبار الصدق ما لا يمتلك اليهود والنصارى عن دينهم الذي زورت كثير من حقائقه وأخباره على أيدي أحبار السوء، ورهبان الكذب.

ثم إن هذا القرآن العظيم حوى كثيراً من علوم الدنيا تصريحاً أو تلميحاً، أو إشارة أو إيماء. ولا يزال البحث العلمي في علوم الإنسان والحيون، والنبات والثمار، والأرض والبحار، والفضاء والأفلاك، والظواهر الكونية والأرضية يتوصل إلى معلومات حديثة مهمة، ذكرها القرآن قبل قرون طويلة، مما جعل كثيراً من الباحثين الكفار يؤمنون ويهتدون. ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩] ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ويتميز هذا القرآن بميزة تظهر لكل أحد وهي سهولة لفظه، ووضوح معناه، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ (١٧) ﴿ [القمر] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «أي: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراد ليتذكر الناس»^(٣). وقال مجاهد: «هُوَ تَأْوِيلُهُ»^(٤)، وقال السدي:

(٣) المصدر السابق (٤/٤١١).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٩٦/٢٧) وعزاه السيوطي في الدر المنثور لعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات وآدم بن أبي إياس (٦/١٨٠).

«يسرنا تلاوته على الألسن»^(٥)، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «لولا أن الله يسره على لسان آدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل»^(٦)، ﴿فَإِنَّمَا يَسِرَّنَا بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ (٩٧) [مريم].

وهذه آية من أعظم الآيات، ودليل من أوضح الأدلة على عظمة هذا القرآن؛ فحفظه وإتقانه أيسر وأهون من سائر الكلام. وقراءته ميسرة حتى إن بعض الأعاجم ليستطيع قراءته وهو لا يعرف من العربية سواه، وحتى إن كثيراً من الأميين لا يستطيع أن يقرأ غيره.

وأما المعنى فتجد أن الواحد من الناس يأخذ منه حسب فهمه وإدراكه، فالعامي يفهمه إجمالاً، وطالب العلم يأخذ منه على قدر علمه، والعالم البحر يغوص في معانيه التي لا تنتهي، حتى يستخرج منه علوماً وفوائد ربما أمضى عمره في سورة أو آية واحدة ولم ينته من فوائدها ومعانيها. قيل: إن شيخ الإسلام أبا أسماعيل الهروي رحمه الله تعالى عقد على تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١] ثلاثمئة وستين مجلساً^(٧)، وتصانيف العلماء في سورة أو آية واحدة كثيرة ومشهورة، وما ذاك إلا لغزارة المعاني والعلوم التي حواها هذا الكتاب العظيم.

(٥) تفسير ابن كثير (٤/٤١١).

(٦) المصدر السابق (٤/٤١١).

(٧) سير أعلام النبلاء (١٨/٥١٤).

والمقصود الأعظم من إنزاله : فهم معانيه ، وتدبر آياته ، ثم العمل بما فيه ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (٢٩) [ص] ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا ﴾ [الفرقان : ٥٠] ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٨٢) [النساء] ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٢٤) [محمد] ، وكلما كثر تدبر العبد لآياته عظم انتفاعه به ، وزاد خشوعه وإيمانه .

ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أخشع الناس وأخشاهم وأتقاهم ؛ لأنه أكثرهم تدبراً لكلام الله تعالى . قال ابن مسعود رضي الله عنه : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم «اقرأ علي القرآن» فقلت : يا رسول الله ، اقرأ عليك وعليك أنزل قال : «إني أشتهي أن أسمع من غيري» ، قال : فقرأت النساء ، حتى إذا بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ (٤١) [النساء] رفعت رأسي ، أو غمزني رجل إلى جنبي فرفعت رأسي ، فرأيت دموعه تسيل»^(٨) .

ولاشك في أن تدبر القرآن والانتفاع به يقود إلى الزهد في الدنيا ، والرغبة في الآخرة . يقول الحسن رحمه الله : «يا ابن آدم ، والله إن قرأت القرآن ثم آمنت به ليطولن في الدنيا حزنك ، وليشتدن في الدنيا خوفك ،

(٨) أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب البكاء عند قراءة القرآن (٥٠٥٥) ومسلم في صلاة المسافرين باب فضل استماع القرآن (٨٠٠) والترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة النساء (٣٠٢٤) و(٣٠٢٥) وأبو داود في العلم باب في القصص (٣٦٦٨) .

وليكثرن في الدنيا بكاؤك»^(٩).

كم اهتدى بهذا القرآن من أناس كانوا من الأشقياء؟ نقلهم القرآن من الشقاء إلى السعادة، ومن الضلال إلى الهدى، ومن النار إلى الجنة. قوم ناوؤوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وناصبوه العدا، وأعلنوا حربهم؛ سمعوا هذا القرآن فما لبثوا إلا يسيراً حتى دخلوا في دين الله أفواجاً، ثم من أتى بعدهم كان فيهم من كان كذلك، وأخبارهم في ذلك كثيرة مشهورة.

ولعل من عجائب ما يذكر في هذا الشأن: قصة توبة الإمام القدوة الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى حيث كان شاطراً يقطع الطريق، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تالياً يتلو ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦] فلما سمعها، قال: بلى يا رب، قد آن، فرجع، فأواه الليل إلى خربة، فإذا فيها سابلة، فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا، قال: ففكرت، وقلت: «أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين ها هنا يخافونني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام»^(١٠).

(٩) الحلية (٢/١٣٤) و (٦/١٩٨) والسير (٤/٥٧٥).

(١٠) السير (٨/٤٢٣).

فرحم الله الفضيل بن عياض ، قاده آية من كتاب الله إلى طريق الرشاد فكان من العباد المتألهين ، ومن العلماء العاملين ، فهل نتأثر بالقرآن ونحن نقرؤه ونسمعه بكثرة هذه الأيام .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾ [المائدة] بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين ، وأشهد أن محمد عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - واعلموا أن أكثر الناس انتفاعاً بالقرآن هم المؤمنون المتقون .

وأما الكفار فإنهم لا ينتفعون به بسبب إعراضهم عنه ، وتكذيبهم له . وأما أهل المعاصي والفجور فهم أقل انتفاعاً به بسبب هجرانهم له ، وانكبابهم على شهواتهم ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي

أَذَانَهُمْ وَقُرْأَ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴿[الإسراء]. هذا حال الكفار قد حجبوا عن الانتفاع به .

أما أهلُ المعاصي فقد اكتفوا بغيره بديلاً عنه حتى هجروه؛ لذا عظمت شكاية الرسول إلى الله منهم ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ ﴿٣٠﴾ [الفرقان] ذكر ابن كثير رحمه الله: «أنهم عدلوا عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره». (١١)

وكم من أناس في هذا الزمن تولعوا بالغناء والمعازف حتى لا تفارق أسماعهم! وهجروا كلام الله تعالى فلا يقرؤنه، ولا يطيقون سماعه، ولا تجتمع محبة القرآن ومحبة الغناء في قلب واحد. بيوت يحيا ليلها، ويقضى نهارها بسماع الغناء والمعازف؛ حتى إن أصواتها لتنبعث من وراء الجدران، مبالغة في الجهر بالعصيان.

بيوت خلت من ذكر الرحمن، وعلا ضجيجها بمزمار الشيطان؛ فانتشرت الشياطين في أرجائها وأركانها، وجالت في قلوب أصحابها، فحرفتهم عن سبيل الهدى والرشاد إلى سبل الغي والفساد، فكثر فيهم الأمراض النفسية، والانفعالات العصبية، والأحلام المزعجة ﴿اسْتَخُودَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿١٩﴾ [المجادلة].

ويخشى على من كان كذلك أن يختم له بالسوء، وأن ينعقد لسانه

حال احتضاره عن شهادة الحق، وقد اشتهرت حوادث كثيرة في ذلك. وما راجت سوق الغناء والمعارف، وكثر المغنون والمغنيات إلا بسبب كثرة السامعين والسامعات، فلا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم. أما أهل الإيمان والقرآن ففرحهم بلقاء ربهم لا يوصف؛ عظموا كتاب الله عزوجل فرزقهم الله حسن الختام، وأكثروا قراءته وتدبره والعمل به فاستقبلتهم الملائكة في مواكب مهية تبشرهم بالرضى والجنان، فشاهدوا حال احتضارهم وهم في أمن وطمأنينة. هذا الإمام المقرئ المحدث الفقيه أبو بكر ابن عياش رحمه الله تعالى لما حضرته الوفاة بكت أخته! فقال لها: «ما يبكيك؟ انظري إلى تلك الزاوية فقد ختم أخوك فيها ثمانية عشر ألف ختمة»^(١٢). فهل يستوي هذا مع من سمع آلاف الأغاني، وقضى آلاف الساعات في العصيان؟ كلا والله لا يستويان. ومما يؤسف له أن يربى الأولاد الصغار على الأغاني والمعارف، ويفاخر بهم في هذا الشأن!! وكان الأولى؛ بل الواجب أن يربوا على كلام الله تعالى. فاتقوا الله ربكم، وعظموا كلامه، واقرووه واحفظوه واعقلوه وتدبروه واعملوا به، واحذروا المعاصي والآثام، فلا سعادة في الدنيا ولانجاة في الآخرة إلا بسلوك صراط الله المستقيم، ألا وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

٥٤- رمضان والجود

الجمعة ٨/٩/١٤١٧هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن رمضان يمتاز عن غيره من الشهور بأنه الشهر الذي بعث فيه نبي الإسلام، ونزل فيه الأمين بالوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهو شهر الوحي، وشهر القرآن، وشهر الجود والعطاء؛ إذ إن الله تعالى قد جاد على عباده بنزول القرآن، وإرسال خاتم الرسل لإخراج الناس من الظلمات إلى النور. وأيُّ جود أعظم من هذا الجود؟! ويجود الله تعالى على عباده فيه بالرحمة والمغفرة والعتق من النار، ثم إن أجود الناس وأجزلهم عطاءً، وأسخاهم نفساً رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أجود ما يكون في رمضان، فاجتمع الجودان جودُ

رمضان، وجوده صلى الله عليه وسلم.

وكان جوده بجميع أنواع الجود من بذل العلم والمال، وبذل نفسه لله تعالى في إظهار دينه وهداية عباده، وإيصال النفع إليهم بكل طريق من إطعام جائعهم، وقضاء حوائجهم، وتحمل أثقالهم، لم يزل على هذه الخصال الحميدة منذ نشأ^(١) حتى قالت خديجة في أول بعثته: «والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق»^(٢).

كان الجود سجية له صلى الله عليه وسلم جبله الله عليها، وزاد جوده وكرمه بعد البعثة، وتحمل الرسالة أضعافاً مضاعفة، فهو أكمل الناس إيماناً، وأعلمهم وأيقنهم أن ما عند الله خير وأبقى، فكان لا يمسك من المال شيئاً، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس» متفق عليه^(٣)، وفي صحيح مسلم عنه رضي الله عنه قال: «ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم، أسلموا؛

(١) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف للعلامة ابن رجب الحنبلي (٣٠٦).

(٢) قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري في بدء الوحي (٣) ومسلم في الإيمان باب بدء الوحي برسول الله صلى الله عليه وسلم (١٦٠).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد باب الشجاعة في الحرب والعجن (٢٨٢٠) ومسلم في الفضائل باب شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم وتقدمه للحرب (٢٣٠٧).

فإن محمداً صلى الله عليه وسلم يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة»^(٤).
قال أنس: «إن كان الرجلُ ليسلم ما يريدُ إلا الدنيا فما يمسي حتى يكون الإسلامُ أحبَّ إليه من الدنيا وما عليها»^(٥).

وقال صفوان بن أمية رضي الله عنه: «والله لقد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ فما برح يعطيني حتى إنه لأحبُّ الناس إليّ» قال الزهري رحمه الله تعالى: «أعطاه يوم حنين مئة من النعم ثم مئة ثم مئة»^(٦)، وقال الواقدي: «أعطاه يومئذ وادياً مملوءاً إبلًا ونَعَمًا حتى قال صفوان: «أشهد ما طابت بهذا إلا نفسُ نبي»^(٧). وأخبر عنه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فقال: «ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال: لا»^(٨).

وكان صلى الله عليه وسلم يُقدِّم الناس على نفسه فقد روى البخاري من حديث سهل رضي الله عنه «أن امرأة جاءت النبي صلى الله عليه وسلم ببردةٍ منسوجة فيها حاشيتها، أتدرون ما البردة؟ قالوا: الشملة، قال: نعم، قالت: نسجتها بيدي فجئت لأكسوكها، فأخذها النبي صلى

(٤ ، ٥) أخرجه مسلم في الفضائل باب في سخائه صلى الله عليه وسلم (٢٣١٢).
(٦) صحيح مسلم كتاب الفضائل باب في سخائه صلى الله عليه وسلم (٢٣١٣)
والنسائي في الزينة باب لبس البرود (٨/ ٢٠٤) وابن ماجه في اللباس باب لباس رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣٥٥٥).

(٧) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٥٤).

(٨) أخرجه البخاري في الأدب باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٦٠٣٤) ومسلم في الفضائل باب في سخائه صلى الله عليه وسلم (٢٣١١).

الله عليه وسلم محتاجاً إليها فخرج إلينا وإنها إزاره، فحسّتها فلان، فقال: اكسنيها ما أحسنها، قال القوم: ما أحسنت، لبسها النبي صلى الله عليه وسلم محتاجاً إليها ثم سألته وعلمت أنه لا يرد قال: إني والله ما سألته لألبسها، إنما سألتها لتكون كفني، قال سهل: فكانت كفنه»^(٩).

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «وكان جوده صلى الله عليه وسلم كله لله عز وجل، وفي ابتغاء مرضاته؛ فإنه كان يبذل المال إما لفقير أو محتاج، أو ينفقه في سبيل الله، أو يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه... وكان يؤثر على نفسه وأهله وأولاده، فيعطي عطاءً يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا يؤقّد في بيته نار، وربما ربط على بطنه الحجر من الجوع. وكان قد أتاه صلى الله عليه وسلم سبي مرة فشكت إليه فاطمة ما تلقى من خدمة البيت، وطلبت منه خادماً يكفيها مؤنة بيتها، فأمرها أن تستعين بالتسييح والتكبير والتحميد عند نومها وقال: «لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع»^(١٠) وكان جوده صلى الله عليه وسلم يتضاعف في شهر رمضان على غيره من الشهور

(٩) أخرجه أحمد (٣٣٤/٥) والبخاري في الجنائز باب من استعد للكفن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينكر عليه واللفظ له (١٢٧٧) والنسائي في الزينة باب لبس البرود (٢٠٤/٨).

(١٠) جزء من حديث أخرجه أحمد (١٥٣-١٠٦-٧٩/١) والبخاري في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باب مناقب علي بن أبي طالب (٣٧٠٥).

كما أن جودَ ربه يتضاعف فيه أيضاً؛ فإن الله جبله على ما يحبه من الأخلاق الكريمة؛ وكان على ذلك من قبل البعثة...

كان صلى الله عليه وسلم يجاور في حراء من كل سنة شهراً يطعم من جاءه من المساكين، حتى إذا كانت سنة بعثه للناس نبياً وهادياً؛ خرج إلى حراء كما كان يخرج كل عام حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله تعالى برسالته، ورحم العباد بها، جاءه جبريلُ من الله عز وجل. ثم كان بعد الرسالة جودُه في رمضان أضعاف ما كان قبل ذلك حيث كان جبريل يدارسه القرآن.

فجبريل أفضل الملائكة، والقرآن أشرف الكتب، ومحمد صلى الله عليه وسلم خير البشر، وخاتم الرسل، فاجتمع الشرف كله في هذا الاجتماع، وتلك المدارس.

ولقد كان هذا القرآن لرسول الله صلى الله عليه وسلم خلقاً، يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه، ويسارع إلى ما حث عليه، ويمتنع مما زجر عنه؛ فلهذا كان يتضاعف جوده في هذا الشهر لقرب عهده بمخالطة جبريل عليه السلام، وكثرة مدارسته له هذا الكتاب الكريم الذي يحث على المكارم والجود^(١١).

أيها الإخوة: ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة، وهو لنا قدوة، وقد كان يجود في رمضان. مع ما في الجود في هذا الشهر من فوائد لا تحصى ومزايا لا تعد، حيث شرف الزمان، ومضاعفة

(١١) لطائف المعارف (٣٠٨-٣٠٩).

أجر العمل ، والصدقة فيه تعين الفقراء الصائمين القائمين الذاكرين على الطاعة ، فيستوجب المعين لهم مثل أجرهم ، «ومن فطر صائماً فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجر الصائم شيء»^(١٢) ، وتفتير الصائمين جوداً وكرم .

وإذا كان الله يَجُود على عباده في رمضان بالرحمة والمغفرة والعق من النار لا سيما في ليلة القدر ، فأولى أن يستحق ذلك أهل الجود الذين يرحمون عباد الله وقد قال صلى الله عليه وسلم «إنما يرحم الله من عباده الرحماء» متفق عليه^(١٣) فمن جاد على عباد الله تعالى جاد الله عليه بالفضل والعطاء .

ينضم إلى هذا الفضل العظيم أن الجمع بين الصيام والصدقة من موجبات الجنة ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : «إن في الجنة غرفاً يُرى ظهورُها من بطونها وبطونها من ظهورها ، قالوا : لمن هي يا رسول الله ؟ قال : لمن طُيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام» أخرجه أحمد والترمذي^(١٤) . وهذه الخصال كلها تكون

(١٢) جاء ذلك في حديث زيد بن خالد عند الإمام أحمد (١١٤/٤) والترمذي في الصوم باب ما جاء في فضل من فطر صائماً وقال : حسن صحيح (٨٠٧) وابن ماجه في الصيام باب في ثواب من فطر صائماً (١٧٤٦) .

(١٣) أخرجه البخاري في الجنائز باب قول النبي صلى الله عليه وسلم «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سته» (١٢٨٤) ومسلم في الجنائز باب البكاء على الميت (٩٢٣) .

(١٤) أخرجه الترمذي في البر والصلة باب ما جاء في قول المعروف وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن إسحاق وقد تكلم بعض =

في رمضان، فيجتمع فيه للمؤمن الصيام والقيام والصدقة وطيب الكلام. بل إن من معاني الصيام العظيمة: إحساس الأغنياء بحاجة إخوانهم الفقراء فيسدوا حاجتهم، ويجودوا عليهم، سئل أحد السلف: «لم شرع الصيام؟ قال: ليزوق الغني طعم الجوع فلا ينسى الجائع»؛ لذا كان كثير من السلف يواسون من إفطارهم، أو يؤثرون به ويجوعون.

كان ابن عمر رضي الله عنهما يصوم ولا يفطر إلا مع المساكين فإذا منعهم أهله عنه لم يتعش تلك الليلة. وكان إذا جاءه سائل وهو على طعامه أخذ نصيبه من الطعام وقام فأعطاه السائل فيرجع وقد أكل أهله ما بقي في الجفنة فيصبح صائماً ولم يأكل شيئاً.

واشتهى أحد الصالحين من السلف طعاماً وكان صائماً فوضع بين يديه عند فطوره فسمع سائلاً يقول: من يقرض المليّ الوفيّ الغني، فقال: عبده المعدم من الحسنات فقام فأخذ الصحيفة فخرج بها إليه وبات طاوياً.

وجاء سائلٌ إلى الإمام أحمد فدفع إليه رغيفين كان يُعهدهما لفطره ثم طوى وأصبح صائماً.

= أهل الحديث في عبد الرحمن هذا من قبل حفظه وهو كوفي... (١٩٨٤) (٢٥٢٧) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٦١٦) و (٢٠٥١) وفي مشكاة المصابيح (٢٣٣٥). وأخرجه أحمد من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه (٣٤٣/٥). وأخرجه الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما وقال: صحيح ووافقه الذهبي (١/ ٨٠-٣٢١).

فله درُّ تلك النفوس ما أسخاها، وما أشد إثارها، وما أعظم رغبتها فيما عند مولاها. قال الشافعي رحمه الله تعالى: «أحبُّ للرجل الزيادة بالجود في شهر رمضان اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم، ولتشاغل كثيرٍ منهم بالصوم والصلاة عن مكاسبهم»^(١٥).

فأين الأغنياء والموسرون؟! شهر الجود دونكم فجودوا جاد الله عليكم ﴿وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠] ﴿إِنْ تَقْرَضُوا مِنَ اللَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعَفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله «واتقوا النار ولو بشق تمره فمن لم يجد فبكلمة طيبة»^(١٦).

(١٥) لطائف المعارف (٣١٥) والآثار التي قبله منه أيضاً.

(١٦) حديث أخرجه البخاري في الزكاة باب الصدقة قبل الرد (١٤١٣) وباب اتقوا النار ولو بشق تمره والقليل من الصدقة (١٤١٧).

أيها الإخوة المؤمنون: كون رمضان شهراً للجود والإنفاق ليس معناه أن ينقلب موسماً للتسول وتجارة الذل، وإيذاء الناس في المساجد والطرق والأسواق، وفي كل مكان، فتلك تجارة مذمومة، وصاحبها إن لم يكن محتاجاً فهو يأكل سحتاً وناراً.

وأكثر هؤلاء السُّؤال إنما يسألون الناس تكثراً، قد امتهنوا تلك المهنة الرديئة. والمحتاجون حقاً أكثرهم لا يسألون، فقد أخبر الله تعالى عنهم وهو أعلم بحال الجميع قائلاً ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَقُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، هذا هو وصف المحتاجين حقاً، وليسوا أولئك الطوائف على الناس. لذا كان عكرمة مولى ابن عباس إذا رأى السُّؤال يوم الجمعة سبهم ويقول: كان ابن عباس يسبهم ويقول: «لا تشهدون جمعة ولا عيداً إلا للمسألة والأذى. وإذا كانت رغبة الناس إلى الله كانت رغبتهم إلى الناس»^(١٧).

وقد أعان الموسرون على بروز تلك الظاهرة السيئة حينما يدفعون صدقاتهم وزكواتهم إلى أقرب سائل ولا يتحرون حاله، فأسهموا في زيادة جشع السائلين، وحرّموا منها محتاجين متعفين، ظاهرهم الاستغناء والله أعلم بحالهم.

فيا أيها الإخوة: حتى تبرأ الذمة في دفع الزكاة، وتقبل الصدقات لابد من التحري والبحث عن المحتاجين المتعفين الذين لا يسألون الناس. فمن دفع زكاته إلى غني وقد فرط في التحري لم تبرأ ذمته منها، واستعينوا بأهل العلم والصلاح ليدلوكم عليهم، ثم إن من مقاصد الزكاة أن يخالط الأغنياء الناس، ويطلعوا على أحوال الفقراء، لا أن يتخلصوا من الزكاة كيفما اتفق.

ومن الخطأ - أيها المسلم - أن تستمر في دفع زكاتك لأناس كانوا فقراء ثم أغناهم الله تعالى بعد ذلك، كذلك من الخطأ أن تدفع الزكاة إلى محتاج مع العلم بوجود من هو أشد حاجة منه إلا القرابة فلهم حقهم، فاتقوا الله تعالى، وتحروا في صدقاتكم؛ حتى يحصل الغرض الذي شرعت من أجله، وحتى تكون مقبولة عند الله تعالى، ثم صلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم...



٥٥- رمضان والمواساة

الجمعة ٣/٩/١٤٢٣هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله... ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: من طبيعة الإنسان الغفلة والنسيان، ومن صفات الدنيا الغرور والإلهاء، وإذا ما اجتمع على الإنسان غفلة ونسيان، ومتاع الدنيا وزخرفها فإن قلبه يقسو، ونفسه تعصي، ومن ثم يضعف إيمانه بالله تعالى، وتقل رغبته في الدار الآخرة، ويجتمع همه كله للدنيا؛ ففي حظوظها ينافس، وفي سبيلها يُجاهد.

وإذا ما انتشر في البشرية كلها هذا الداء الويل؛ فإنهم يستحيلون

إلى وحوشٍ كاسرة يأكل بعضها بعضاً، فلا يرحمون في ضعيف ضعفه، ولا يرأفون بمسكين، ولا يرقون ليتيم، ولا يعرفون حق قريب أو بعيد!! ولهذا فإن الله تعالى قد رحم البشرية بالنبوءات، وشرع لها الشرائع التي تدلها على التوحيد والإيمان، وتهذب فيها السلوك والوجدان، وتزرع فيها الرحمة والرأفة بالعباد؛ فبرحمة الله تعالى يتراحمون، وبها يتواصلون ويتعاطفون، ويرق قلوبهم لضعيفهم، ويعين قادرهم عاجزهم، ويحنو كبيرهم على صغيرهم.

وهذه الخصال الحميدة يتحلى بها أهل الإسلام والإيمان، وإذا ما ضعف إيمانهم، أو قلَّ إحسانهم، أو فترت عزائمهم، أو تسلطت عليهم شياطينهم فجمحت بهم إلى زخارف الدنيا جاءهم ما يذكرهم ربهم، ويزيد في إيمانهم، ويجدد رغبتهم في الآخرة؛ كما في شهر رمضان الذي يعود كل عام، تنبعث فيه النفوس من كسلها، ويتجدد نشاطها، وتقوى عزائمها، ويزداد إيمان المؤمنين، وتشتد رغبتهم فيما عند الله تعالى؛ فلا تراهم إلا ركعاً سجداً يذكرون الله تعالى، ويتلون كتابه، ويخلصون الدعاء له وحده، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، مع محبة وخشوع وإنابة؛ فتزكو نفوسهم، وترق قلوبهم، وتجدد مدامعهم، وترخص الدنيا في ميزانهم؛ فيرفع عنهم التحاسد والتباغض والتقاطع؛ لأن الحسد والبغضاء والقطيعة أخلاق فاسدة، كان سببها حب الدنيا، وقد سما بهم إيمانهم عند الدنيا فأصبحوا من طلاب الآخرة.

إنك ترى مظاهر ذلك في رمضان أينما يمت وجهك في بلد من

بلدان المسلمين، أو أي بقعة فيها مسلمون يصومون لله تعالى ويصلون. ترى كثرة المتصدقين، وتشاهد موائد لإفطار الصائمين، وتلاحظ المواساة بين الناس. وهذا مقصد عظيم من مقاصد الصوم، ومعنى أرادته الشارع الحكيم؛ ليهذب الأخلاق، ويسمو بنفوس الصائمين؛ كما سئل أحد السلف: «لم شرع الصيام؟ قال: ليزوق الغني طعم الجوع فلا ينسى الجائع»^(١).

إن الصيام طريق إلى المواساة، ومسلك من مسالك الإحسان. من حقق الصيام الشرعي الذي أمره الله تعالى به، واجتنب ما يخل به من قول الفحش أو سماعه، أو النظر إلى الحرام أو فعله؛ فهو حري أن يواسي إخوانه، ويحسن إلى الناس. قدوته في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان الإحسان إلى الناس ومواساتهم خلقاً من أخلاقه عليه السلام؛ كما قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «إننا والله قد صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في السفر والحضر، يعود مرضانا، ويتبع جنائنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير، وإن ناساً يُعَلِّمُونِي عَسَى أَنْ لَا يَكُونُ أَحَدُهُمْ رَأَى قَطُّ» رواه الإمام أحمد بسند حسن^(٢).

(١) لطائف المعارف للحافظ ابن رجب (٣١٥).

(٢) أخرجه أحمد (٦٩/١)، والبخاري (٤٠١)، قال الهيثمي في الزوائد: «رواه البزار ورجاله ثقات» (٢٩/٣)، وحسنه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٥٠٤).

وهكذا سار صحابته رضي الله عنهم، والتابعون لهم بإحسان على هذا المنهج القويم من مواساة إخوانهم، والإحسان إليهم، ويزداد هذا الخلق فيهم إذا كانوا صياماً؛ كما كان ابن عمر رضي الله عنهما يصوم ولا يفطر إلا مع المساكين، فإذا منعهم أهله عنه لم يتعش تلك الليلة! وكان إذا جاءه سائل وهو على طعامه أخذ نصيبه من الطعام وقام فأعطاه السائل، فيرجع وقد أكل أهله ما بقي في الجفنة فيصبح صائماً ولم يأكل شيئاً.

واشتهى أحد الصالحين طعاماً وكان صائماً فوضع بين يديه عند فطوره فسمع سائلاً يقول: «من يقرض الملي الوفي الغني، فقال: عبده المعدم من الحسنات؛ فقام فأخذ الصحيفة فخرج بها إليه، وبات طاوياً». وجاء سائل إلى الإمام أحمد رحمه الله تعالى فدفع إليه رغيفين كان يُعدهما لفطره، ثم طوى وأصبح صائماً.

قال الشافعي رحمه الله تعالى: «أحب للرجل الزيادة بالجود في شهر رمضان؛ اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم؛ ولتشاغل كثير منهم بالصوم والصلاة عن مكاسبهم»^(٣). إن رمضان شهر المواساة؛ فالشبعان من المسلمين يصوم ويجوع ليواسي إخوانه الجوعى، ويقاسمهم طعامه، ولربما لو لم يصم ولم يصبه الجوع ما تذكرهم.

(٣) انظر هذه الآثار عن السلف في: لطائف المعارف (٣١٥).

وصاحب الثراء يصوم كذلك ليتذكر حال إخوانه الفقراء والمحتاجين؛
فيدفع لهم زكاته، ويتصدق عليهم من فضول أمواله.

وكم في الناس من أثرياء كانوا من قبل فقراء معدمين قد ذاقوا
قُرْصَ الجوع، وألم الحرمان، أنعم الله عليهم بالخير الوفير، فأصابهم
الثراء بعد الفقر، فأسرفوا في رزق الله تعالى لهم، ولم يؤدوا حقه
عليهم، ونسوا أن لهم إخواناً لا زالوا يذوقون قرص الجوع الذي ذاقوه
هم من قبل، ويعالجون الفقر الذي أصابهم فيما مضى، فإذا ما صاموا
وجاعوا تذكروا ماضيهم البئيس، وما أنعم الله عليهم به من الغنى والخير،
فشكروا الله تعالى على ذلك، وتابوا من سرفهم، وواسوا إخوانهم
المحرومين.

ذكر الشيخ السباعي رحمه الله تعالى أنه يعرف أباً كان ذا نعمة
ومال وفير، وقد عوّد أولاده الطعام الطيب، واللباس الفاخر، ثم قدر
الله تعالى عليه الفقر، فأعسر بعد اليسر، فجاء رمضان وهو لا يجد ما
ينفق كما كان ينفق من قبل، وله من مكانته وحيائه ما يمنعه أن يسأل
الناس صدقة أو ديناً، فلم يكن يستطيع أن يقدم لعائلته ما تفرط عليه
إلا الجبن والزيتون والفلول، واحتمل أبناءه ذلك أول يوم، وثانيه، حتى
قال صغيرهم في اليوم الثالث: يا أبت، لقد أحرق بطوننا الجبن والزيتون،
ونحن صيام نحتاج إلى ما يبيل الأوام، ويرطب الجوف في هذا الحر
الشديد، ويكاد يغمى علينا من روائح الطعام عند جيراننا، فلماذا لا
تطعمنا كما يطعم جارنا أولاده، وكما كنت تطعمنا من قبل؟ وطفرت

دمعة من عين الصبي .

خرج الأب بعدها إلى جانب مظلم من الدار ثم بكى ؛ لأنه لا يريد أن تفتح قلوب أبنائه أول ما تفتح في الحياة على غدر المجتمع ؛ وقسوة الناس الذين لم يرحموا فيه عسره ، وتحوله من الغنى إلى الفقر^(٤) . وإذا ما اقتربت الشمس من مغيبها ، وتهيات الأسرة لإفطارها ، ومدت الموائد بأنواع الطعام والشراب هل نتذكر إخواناً لنا شردتهم قوى الظلم والطغيان فهم في العراء ، لا بيوت تكنهم ، ولا لباس يقيهم بأسهم ، يبيتون بلا طعام ، ويتسحرون بلا سحور ، ويفطرون على ماء ، يتسولون الجمعيات التنصيرية بلُغَةً من عيش ، أو كفاً من دقيق ، أو رغيفاً من خبز ، فلا تدفع إليهم إلا بعد مساومتهم على دينهم وعلى صلاتهم وصومهم !!

إنهم إخوان لنا قد شهدوا شهادة الحق ، وصدّقوا المرسلين ، كان ثباتهم على دينهم ، ومطالبتهم بحقوقهم سبباً في تشريدهم من ديارهم ، وحشرهم في ملاجئ تفتقد ضروريات الحياة ، فهلا شعرنا بهم ونحن نتهياً لإفطارنا ، واقتصدنا في موائدنا ، ودفعنا إليهم حق الله تعالى علينا ، وحق أخوتهم لنا ، ورفعنا أكف الضراعة بالدعاء لهم ؟!

فإن كنا في كل ليلة نفرح بفطرتنا ، فإن تلك الفرحة قد نسوها مذ شردوا من أوطانهم ، نسأل الله تعالى أن يفرج عنهم ، وأن لا يحرمهم الفرحة الثانية ، كما نسأله عز وجل أن لا يعذبنا بنسيانهم ، وأن لا يجعل

(٤) انظر: أحكام الصيام وفلسفته للدكتور مصطفى السباعي (٦٥) .

فرحتنا واحدة، وأن يجمع لنا ولهم بين الفرحتين اللتين ذكرهما النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «للصائم فرحتان يفرحهما، إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه»^(٥).

ونحن في كل يوم - بحمد الله وشكره - نُحَسُّ الفرحة الأولى عند فطرننا، فعسى أن لا نحرم الثانية بتقصيرنا في حق إخواننا.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَقُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ، ،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى؛ فإن من أجلَّ حكم الصيام نيل التقوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ

(٥) أخرجه البخاري في الصوم باب: هل يقول: إني صائم إذا شتم (١٩٠٤) ومسلم في الصيام باب فضل الصيام (١١٥٠) (١٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تَتَّقُونَ ﴿البقرة: ١٨٣﴾.

أيها المسلمون: بسبب ضعف المواساة بين الناس ، وعدم اتصال الأغنياء بالفقراء ، وتلمس حاجاتهم ؛ صار الأغنياء يحتارون أين يضعون صدقاتهم ، ولمن يدفعون زكواتهم؟! فظهر لهم في طرقاتهم ومساجدهم وأسواقهم ووظائفهم تجار يتاجرون بالسؤال ، ويتقمصون شخصيات الفقراء وأصحاب العاهات ، وكثير منهم ليس بمحتاج ولكنه يسأل الناس تكثرأ ، والمحتاج منهم حقاً لا خوف عليه ؛ لأنه سيجد من الناس من يعطيه ؛ ولكن الخوف على أسر منعها التعفف والكرامة أن تُخرج نساءها وأطفالها يسألون الناس ؛ فباتوا طاوين جائعين ، إن فطن لهم رجل صالح يتحسس أحوال المحتاجين حقاً جاءهم الفرج وإلا بقوا في بؤسهم إلى ما شاء الله تعالى .

ولو أن الناس كفوا أيديهم عن السائلين ، وخالط الأغنياء الفقراء ؛ لوقعت الزكوات والصدقات في يد من يستحقها ؛ ولقضي على مظاهر التسول المذموم . أما والذي جعل الصيام مساواة بين الناس ، ومواساة للبؤساء والمعدمين لو أن كل صائم مقتدر أطعم صائماً معوزاً ، ولو أن كل أسرة موسرة أسعفت عائلة معسرة ؛ لما بقي في المسلمين بائس ولا فقير ؛ ولكان الصيام موسماً للخير لا تنتهي بركاته وحسناته ؛ ولحققنا الخيرية التي وصفنا الله تعالى بها بقوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ، ففتشوا - أيها الصائمون - عن جيرانكم ، فتشوا عن أقاربكم ، فتشوا عن إخوانكم اللاجئين ، وحذار أن تنسوا برهم وإسعادهم ،

وإشراكهم معكم في نعمة الله تعالى عليكم.

أيها الصائمون: اذكروا حين تجتمعون مع نسائكم وأطفالكم لتملؤوا بطونكم رياً وشبعاً، اذكروا في تلك اللحظات جوع الجائعين، ولوعة الملتاعين، وعبرات البائسين^(٦)، خافوا أن لا يتقبل الله لكم صياماً ولا طاعة وحولكم بطون جائعة تستطيعون إشباعها، ونفوس حائرة تملكون إسعادها، واذكروا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه»^(٧).

(٦) بتصرف من أحكام الصيام وفلسفته (٦٦).

(٧) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما البخاري في الأدب المفرد (١١٢)، وأبو يعلى (٢٦٩٩)، وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده (٦٩٤)، وابن أبي شيبة في الإيمان (١٠٠)، والطبراني في الكبير (١٥٤/١٢) برقم: (١٢٧٤١)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢٨/١)، وهناد في الزهد (١٠٤٤)، والبيهقي (٣/١٠)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١٦٧/٤)، وقال الهيثمي في الزوائد: «رواه الطبراني وأبو يعلى ورجاله ثقات» (١٦٧/٨)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: «رواه الطبراني وأبو يعلى ورواته ثقات» (٣٥٨/٣). وله شاهد من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «ليس المؤمن الذي يبيت شبعان وجاره طاوي» أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١١٩)، والطبراني في الكبير بلفظ آخر نحوه (٢٣٢/١) برقم: (٧٥١)، وحسنه الحافظ في القول المسدد في الذب عن مسند الإمام أحمد (٦١)، والهيثمي في الزوائد (١٦٧/٨)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٥٨/٣).

وله شاهد من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلفظ: «لا يشبع المؤمن دون جاره - أو قال: الرجل دون جاره» أخرجه أحمد في الزهد (٦١٨) وفي المسند (٥٥/١)، وابن المبارك في الزهد (٥١٣)، وأبو نعيم في الحلية (٢٧/٩)، =

وتحروا في صدقاتكم أهل الحاجات، ولا تتخلصوا منها بإلقائها في يد أقرب سائل؛ فإن الذمة لا تبرأ إلا بعد الاجتهاد والتحري، وأسألوا أهل الخبرة في ذلك من الصالحين والعاملين في مجالات البر والإحسان إن كنتم تعجزون عن البحث بأنفسكم.

﴿وَمَا تَقْدِمُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم، ، ،

= والحاكم وسكت عنه (١٦٧/٤)، وقال الذهبي: «سنده جيد».

وله شاهد ثالث من حديث عائشة رضي الله عنها عند الحاكم (١٢/٢) وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٩).

٥٦- رمضان والمجاهدة

٨/٩/١٤٢٢ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: جعل الله الدنيا دار بلاء وامتحان، وجهاد ومجاهدة، وصبر ومصابرة، فمن اجتاز البلاء، وصبر في ذات الله تعالى، وجاهد في سبيله كان حقاً على الله تعالى أن يرضى عنه، ويدخله الجنة. والعبد منذ تكليفه إلى أن يرفع عنه التكليف يخوض معركة مع نفسه وشيطانه، فنفسه تدعوه إلى هواها، وشيطانه يؤزره إلى ما يريده ويهلكه، والناس على فريقين: من يغلبه شيطانه، ويركن إلى دنياه

فيحب من شهواته، وينسى حقوق ربه، فمصييره ما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٣٩]. وعكسه من غلب شيطانه، وقهر نفسه، ولم يركن إلى الدنيا، وتمتع بما أحل الله له من الشهوات، ولم يجاوز ذلك إلى ما حرم الله عليه، وقام بحق الله تعالى خير قيام؛ فهو السعيد المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

من أحب الله تعالى، وعظم شعائره؛ خالف هواه إلى ما يحب الله تعالى، وقصر نفسه على ما أحل الله له. ومن أتبع نفسه هواها، وأرخص لها زمامها؛ ففي محبته لله تعالى نقص بقدر اتباعه لهواه، وعصيانه لربه.

قال أبو عمرو بن بُجيد رحمه الله تعالى: «من كرم عليه دينه، هانت عليه نفسه»^(١)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «محبّة الله توجب المجاهدة في سبيله قطعاً؛ فإن من أحب الله، وأحبه الله، أحب ما يحبه الله، وأبغض ما يبغضه الله، ووالى من يواليه الله، وعادى من يعاديه الله، لا تكون محبة قط إلا وفيها ذلك بحسب قوتها وضعفها؛ فإن المحبة توجب الدنو من المحبوب، والبعد عن مكروهاته، ومتى كان مع المحبة نبذ ما يبغضه المحبوب فإنها تكون تامة»^(٢).

(١) فتح الباري لابن حجر (١١/٣٤٥).

(٢) قاعدة في المحبة (٨٩).

إن معالجة النفس ومجاهدتها من أعظم أنواع الجهاد؛ لأنه جهاد يستغرق العمر كله، وإذا طال الأمد ضعفت النفس، فاحتاجت إلى مجاهدة أكثر. يقول سفيان الثوري رحمه الله تعالى: «ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نفسي، مرة لي ومرة علي»^(٣)، وكان عمر رضي الله عنه يخاطب نفسه، ويقهرها حتى لا تجمع به فتخرجه عن الجادة. دخل رضي الله عنه حائطاً فبدأ يخاطب نفسه ويحاسبها، قال أنس رضي الله عنه: فسمعتة يقول: «عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين، بخ بخ، والله يا ابن الخطاب لتتقين الله أو ليعذبنك»^(٤).

إن الإنسان قد يجاهد غيره لكنه ينسى نفسه التي تحتاج إلى جهاده، فيذرّها تركب هواها، وتنال مطلوبها، ولا يحسب أنها تحتاج إلى مجاهدة، بل قد ينكر ذلك ويرى أنه على أحسن حال، أو على الأقل ليس أسوأ الناس، وهذا يقعه عن المجاهدة، فيسير في الردى، ويوشك أن يهلك. وفي هذا المعنى قال علي رضي الله عنه: «أول ما تنكرون من جهادكم أنفسكم»^(٥)، ولما سأل رجل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن الجهاد قال رضي الله عنه: «ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزها»^(٦).

(٣) الحلية (٥/٧ - ٦٢)، وإحياء علوم الدين (٣/٧١).

(٤) موطأ مالك (٢/٩٩٢)، وسنده صحيح.

(٥) جامع العلوم والحكم (١/١٩٦).

(٦) المصدر السابق (١/١٩٦)، وفي شرح حديث لبيك لابن رجب ذكره عن عبد

الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (١٢٨).

إن الخطوة الأولى لمجاهدة النفس الاعتراف بأنها تحتاج إلى مجاهدة، والنظر إلى نقصها وعيوبها وخطئها، ومقارنة ذلك بالنفوس التي تفضلها وتتفوق عليها. ومن لم يعترف بتقصيره وخطئه فكيف يجاهد نفسه؟! ومن ثم الاستمرار على المجاهدة العمر كله.

قال أبو يزيد البسطامي: «عملت في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدت شيئاً أشد علي من العلم ومتابعته...»، ويقول أيضاً: «عاجلت كل شيء فما عاجلت أصعب من معالجة نفسي، وما شيء أهون عليّ منها»^(٧).

وما دامت النفس ضعيفة، والشيطان موجوداً فإن العبد يحتاج إلى مجاهدة دائمة، ولا سيما أن الشيطان لا يكل ولا يملّ من قذف وساوسه وخطراته في قلوب العباد، وعلاج ذلك دوام المجاهدة.

عن سبرة بن أبي فاكه رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الشيطان يقعد لابن آدم بأطرقه، قعد في طريق الإسلام، فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك؟ فعصاه وأسلم، وقعده له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر وتذر أرضك وسماؤك؟ وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول، فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد؟ فهو جاهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل؛ فتتخ المرأة، ويقسم المال! فعصاه فجاهد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فمن

(٧) الحلية لأبي نعيم (٣٦/١٠)، وصفة الصفوة (١٠٧/٤)، والاستقامة (١)

(٩٥)، ومدارج السالكين (٤٦٤/٢).

فعل ذلك كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة» رواه النسائي وصححه ابن حبان^(٨).

وكما أن اجتناب المعاصي يحتاج إلى مجاهدة للشيطان، ومقاومة للنفس الأمارة بالسوء، فإن التزام الطاعة والمحافظة عليها، وأداء الفرائض والمندوبات يحتاج إلى مجاهدة النفس الميالة بطبعها إلى الراحة والكسل، وإلى مجاهدة الشيطان الذي يثبط العزائم، ويضعف الهمم، ويزين للعبد ترك اكتساب الحسنات. وهذا هو دأب الصالحين من عباد الله تعالى من النبيين والصحابة، والتابعين لهم بإحسان دوام المجاهدة في سبيل الله تعالى، وقهر النفس على اكتساب الحسنات، وترك السيئات. ومن صدق مع الله تعالى، واجتهد في هذا الباب وفقه الله للهدى، وبلغه ما تمنى، وضعف تسلط الشيطان عليه، كما قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فالهداية من الله تعالى، ويستحقها المحسنون من عباده، الذي جاهدوا في الله تعالى حتى بلغهم الله ما أرادوا من الهداية.

وواقع المجاهدين يدل على ذلك: فهذا نبي الله يوسف عليه السلام دعاه الشيطان إلى مقارفة الحرام مع امرأة العزيز التي زينت لها نفسها

(٨) أخرجه أحمد (٤٨٣/٣)، والنسائي في الجهاد باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، (٢١/٦ - ٢٢)، والطبراني في الكبير (٦٥٥٨)، وصححه ابن حبان (٤٥٩٣)، وحسنه الحافظ في الإصابة (٦٤/٣).

الأمارة بالسوء عملها فراودته عن نفسه، لكنه عليه السلام جاهد نفسه، ولم يستسلم للشيطان ولهواه، فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، واعترف بعجزه وضعفه رغم مجاهدته، وسأل الله تعالى العافية من هذا الابتلاء، ودعا فقال: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿[يوسف: ٣٣، ٣٤].

وهذه الاستجابة من الله تعالى ليوسف عليه السلام كانت بعد مجاهدة منه، وصدق في التوجه إلى الله تعالى.

ولما سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم مرافقته في الجنة قال له: «أعني على نفسك بكثرة السجود»^(٩)، وهذا يحتاج إلى مجاهدة، إذا حققها العبد بلغ ما تمنى، وأعطاه الله ما سأل؛ إذ نيل المطالب يحتاج إلى عمل، ولا تنال بالتمني فقط، فإذا اجتمع العمل مع صدق التوجه إلى الله عز وجل نال العبد ما أراد.

قال أبي بن كعب رضي الله عنه: «كان رجل لا أعلم رجلاً أبعد من المسجد منه، وكان لا تخطئه صلاة، قال: فقيل له: لو اشتريت حماراً تركبه في الظلماء وفي الرمضاء، قال: ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد، إني أريد أن يكتب لي ممشي إلى المسجد، ورجوعي

(٩) أخرجه مسلم في الصلاة باب فضل السجود والحث عليه (٤٨٩)، من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه.

إذا رجعت إلى أهلي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قد جمع الله لك ذلك كله» رواه مسلم^(١٠).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أُنَبِّئُكُمْ إِنَّ رَاهِمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ، ،

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، وراقبوه فلا تعصوه.

أيها المسلمون: تتجلى المجاهدة في الصيام أكثر من غيره من العبادات. فالعبد في رمضان يجاهد نفسه، ويكبح شهوته؛ إرضاءً لله تعالى. يشتهي الطعام فلا يأكله، ويظمى فيرى الماء ولا يشربه، ويجاهد نفسه عن سائر المفطرات ابتغاء رضوان الله تعالى.

فالصيام يدرّب الصائم على المجاهدة؛ حتى ترتاض نفسه عليها،

(١٠) أخرجه مسلم في الصلاة باب فضل كثرة الخطأ إلى المساجد (٦٦٣).

ومن قدر على الصيام عن المفطرات طوال النهار فهو قادر على الصيام عن المحرمات طوال الليل، ومن صام عن المحرمات في رمضان، فقد أثبت أنه قادر على تركها في غير رمضان، وهذه هي المجاهدة.

إننا - معشر الصائمين - قد استطعنا كبح شهواتنا المباح منها والمحرم في نهار رمضان، فلماذا لا نكبح نفوسنا عن الحرام في ليالي رمضان؟! إننا جاهدنا نفوسنا في النهار، فقصينا أوقاتنا فيما يرضي الله تعالى من قراءة قرآن، وذكر، ودعاء، فلماذا لا نفعل ذلك في الليل؟ ولماذا لا نفعل ذلك في غير رمضان؟!

إن مجاهدتنا لأنفسنا وشياطيننا في نهار رمضان تدل على قدرتنا على المجاهدة، وبراعتنا في قهر نفوسنا، ودحر شياطيننا، فلماذا لا نستمر على تلك المجاهدة حتى تكتب لنا الهداية، وننال درجة الإحسان التي هي ثمن المجاهدة الصادقة؟!

إن كثيراً من البرامج السمعية والمرئية في الإذاعات والفضائيات العربية هي ميدان لإبليس وجنده من شياطين الجن والإنس، وتحتاج منا إلى مجاهدة قوية لدفع شرها عن أنفسنا؛ وذلك بإنكارها وعدم قبولها، وحفظ أنفسنا وبيوتنا وأولادنا منها. وإذا ضعفنا أمامها وما فيها من زخرف ومؤثرات ومشوقات؛ فإننا بذلك نثبت انهزامنا مع أنفسنا، وانتصار الشيطان والهوى علينا، وهذا هو السبب الرئيس لضعفنا وذلتنا؛ لأن مجموع هزائم كل واحد منا شكلت كماً كبيراً من الهزائم والانتكاسات، حتى صارت أمتنا أعداداً لا قيمة لها، وصدق فينا وصف الغثائية الذي

أخبرنا به النبي صلى الله عليه وسلم، إلا من رحم الله وقليل ما هم.
ألا فاتقوا الله ربكم، وجاهدوا أنفسكم، وجاهدوا الشيطان وجنده
في هذا الشهر العظيم، واحفظوا أنفسكم وبيوتكم مما حرم الله عليكم.
وصلوا وسلموا على نبيكم محمد كما أمركم بذلك ربكم، ، ،

٥٧- رمضان والمراقبة

١٤٢٢/٩/١ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: من دلائل الصلاح والتقوى مراقبة الله عز وجل في السر والعلن، وتلك هي درجة الإحسان التي تفوق درجتي الإسلام والإيمان، وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم «بأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١)، مراقبة دائمة لله عز وجل، يشعر^(١) كما في حديث عمر رضي الله عنه الذي أخرجه مسلم في الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٨)، وأبو داود في السنة باب في القدر (٤٦٩٥)،

العبد معها بأنه لا يستطيع أن يعصي الله تعالى؛ لأنه يعلم أنه إن غاب عن أعين الناس فإنه لا يغيب عن الله تبارك وتعالى.

إن المراقبة سبيلٌ يوصل العبد إلى الطاعات، ويحجزه عن المعاصي والمحرمات، وهي سببٌ لأن يستظل العبد بظل الرحمن يوم لا ظلَّ إلا ظله، فإن عدداً من السبعة الذين يظلمهم الله يوم القيامة^(٢)، بسبب طاعات أدوها أو معاصٍ تركوها إنما دفعهم إلى ذلك مراقبتهم لله تعالى. فالإمام العادل راقب الله تعالى في رعيته فعدل بينهم، ولو كان عادلاً بلا إيمان لما نفعه عدله في الآخرة. فإيمانه دفعه إلى مراقبة الله تعالى في رعيته فعدل بينهم، فاستحقَّ ظل الله يوم القيامة.

والشابُّ الذي نشأ في عبادة الله تعالى الظنُّ أنه دائم المراقبة لله تعالى، وكذلك الرجلُ الذي قلبه قد عُلِّقَ بالمساجد قد راقب الله عزَّ وجلَّ في هذه الفريضة العظيمة.

ومثلهما الرجلان المتحابان في الله اجتماعاً عليه وتفرقاً عليه، فمراقبتهما لله تعالى جعلت حبهما لبعضهما لا يتغير في حال افتراقهما؛ لأنها محبة خالصة لله تعالى، وهما يراقبانه، ويعلمان أنه مطلع عليهما، ويعلم

والتزمذي في الإيمان باب ما جاء في وصف جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم الإيمان والإسلام (٢٦١٠)، والنسائي في الإيمان باب نعت الإسلام (٩٨/٨)، وابن ماجه في المقدمة (٦٣)، وأحمد (٢٧/٨)، وغيرهم.

(٢) حديث السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم القيامة أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه البخاري في الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، وفضل المساجد (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

ما في قلوبهما .

وتتجلى المراقبة واضحة في الثلاثة المذكورين في آخر الحديث وهم : رجل دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، فخوفه من الله تعالى كان بسبب مراقبته لله تبارك وتعالى . . تيسرت له سبل الفاحشة ، ودعته إليها دواع كثيرة ؛ فالمرأة جميلة تدفعه إليها غريزته الفطرية ، وهي ممتنعة من أن يلحق بها أو بمن يعاشرها أي أذى ؛ لأنها ذات منصب . فالخوف من أذى الناس وعقابهم غير موجود بسبب منصبها ، وما بقي مانع يمنع من وقوع الفاحشة إلا مراقبة الله تعالى التي أسعفت هذا الرجل التقي فقال : إني أخاف الله .

ومثله ذلك الرجل الذي تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، فهو يعلم أن الله تعالى يراقبه ، وهو يستحضر تلك المراقبة عند كل صدقة يتصدق بها ؛ ولذلك أخفاها عن أعين الناس لئلا يطلع عليها إلا الله تعالى ، وبالع في إخفائها أشد المبالغة حتى صار بعض جسمه لا يطلع عليها .

وكذلك الرجل الذي ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، فمراقبته لله تعالى حركت قلبه حين ذكر الله تعالى ، فجادت عيناه بالدمع .

فمن لازم مراقبة الله تعالى في سره وعلنه فهو حري أن يستظل بظل الله تعالى في عرصات القيامة .

والمراقبة سبب رئيس لتفريج الكربات ، والخلوص من المضائق والأزمات في الدنيا قبل الآخرة ، ففي قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت

إلى غار فانحدرت عليهم صخرة فأغلقت عليهم الغار فسألوا الله تعالى بأعمال صالحة عملوها فأزال الله عنهم الصخرة، وفرج كربتهم^(٣)، والملاحظ أن مراقبتهم لله تعالى كانت سبباً في أعمالهم الصالحة التي عملوها، وكانت هذه الأعمال سبباً لخلوصهم من شدتهم.

فأولهم: كان يحلب بهائمهم لوالديه وأولاده، فيسقي والديه أولاً ثم يسقي أولاده، فتأخر يوماً فما عاد إلا وقد نام والداه، فلم يوقظهما بل وقف بالحليب عند رأسيهما ينتظر استيقاظهما، وكره أن يسقي أولاده قبلهما، وصبيته يصيحون من الجوع يريدون الحليب حتى طلع الفجر، واستيقظ والداه فسقاها. فلولا مراقبته لله تعالى في والديه الكبيرين لنام وتركهما، أو سقى أطفاله قبلهما ولاسيما أنهما نائمان لا يدريان بأفعاله؛ ولكنه راقب الله تعالى فعمل معهما في نومهما ما يعمل معهما في يقظتهما.

وأما الثاني: فكان له ابنة عم قد أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء، وقد راودها عن نفسها فامتنعت منه، فلما احتاجت إليه علّق قضاء حاجتها على موافقتها، فوافقته على ذلك حتى استمكن منها، وجلس بين رجلها فقالت له: «يا عبد الله، اتق الله ولا تفض الخاتم

(٣) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما البخاري في الإجارة باب من استأجر أجيراً فترك أجره فعمل فيه المستأجر فزاد أو من عمل في مال غيره فاستفضل (٢٢٧٢)، ومسلم في الرقاق باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، والتوسل بصالح الأعمال (٢٧٤٣).

إلا بحقه»، فقام عنها ولم يقض منها حاجته، وترك لها ما أعطاه من مال. فلولا مراقبته لله تعالى لما أثرت في قلبه كلمتها حينما قالت له: «يا عبد الله، اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه»، ولا سيما أنه يحبها وقد استمكن منها، فغلب خوفه من الله تعالى، ومراقبته له، شهوته، ومحبه لها.

وأما الثالث منهم: فاستأجر أجيراً فأدى عمله، فأعطاه حقه؛ لكن الأجير لم يأخذ حقه ورحل عنه، فعمل صاحب العمل على تنمية مال الأجير حتى صار مالاً عظيماً من زرع ونعم، فجاء الأجير يوماً من الدهر يطلب حقه، فأخبره أن كل ما يرى من الزرع والنعم هو له قد نمّا خلال غيبته، فأخذه الأجير. فلولا مراقبة صاحب العمل لله تعالى لأكل مال الأجير، أو على الأقل لأعطاه حقه واحتفظ بما نتج عنه من أرباح كثيرة، ولا سيما أن الأجير لا يعلم ذلك حتى إنه قال له لما أخبره أن كل ما يرى له: اتق الله ولا تستهزئ بي، فقال له: إني لا أستهزئ بك. لكن صاحب العمل علم أن الأجير إن لم يكن يراقبه فإن الله تعالى رقيب عليه.

فكانت هذه الأعمال الصالحة التي نتجت عن مراقبة الله تعالى سبباً لتفريج كربتهم، وإزاحة الصخرة عنهم، فخرجوا يمشون. فمراقبة الله تعالى سبب من أسباب تفريج الكربات في الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا دلّ عليها حديث الغار، وفي الآخرة دلّ عليها حديث السبعة الذين يظلمهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله.

عن زيد بن أسلم قال: «مرَّ عبدالله بن عمر براع فقال: يا راعي الغنم، هل من جوره؟ قال الراعي: ليس ههنا ربها، فقال له ابن عمر: تقول له: إنه أكلها الذئب، قال: فرفع الراعي رأسه إلى السماء ثم قال: فأين الله؟ قال ابن عمر: فأنا والله أحق أن أقول: أين الله؟ فاشتري ابن عمر الراعي، واشتري الغنم فأعتقه وأعطاه الغنم»^(٤).
وقد سئل ابن المبارك عن تفسير المراقبة فقال: «كن أبداً كأنك ترى الله عزَّ وجلَّ»^(٥).

وقال رجل للجنيد رحمه الله: بم أستعين على غض البصر؟ فقال: «بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه»^(٦).
وقال أبو عثمان النيسابوري: قال لي أبو حفص: «إذا جلست للناس فكن واعظاً لنفسك وقلبك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك؛ فإنهم يراقبون ظاهرك، والله رقيب على باطنك»^(٧).
تلك هي المراقبة يا عباد الله، من حقق العمل بها، ونال منزلتها كان حقيقاً بعمل الخيرات، واجتناب الموبقات، وكان حرياً بأن تفرج له الكربات في الدنيا والآخرة.

(٤) شعب الإيمان (٨٦١٤ - ٥٢٩١)، وصفة الصفوة (١٨٨/٢)، ونقلها الغزالي في إحياء علوم الدين عن عمر من حديث عبد الله بن دينار (٣٩٨/٤).
(٥) جاء من حديث زيد بن أرقم مرفوعاً وموقوفاً كما في جامع العلوم والحكم (٧٢/١) ونقله عن ابن المبارك الغزالي في إحياء علوم الدين (٣٩٧/٤).
(٦) جامع العلوم والحكم (١٦٢/١)، وإحياء علوم الدين (٣٩٧/٤).
(٧) مدارج السالكين (٦٦/٢)، وإحياء علوم الدين (٣٩٧/٤).

أسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يراقبه في السر والعلن، وأن يصلح قلوبنا وأعمالنا إنه سميع مجيب.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿طه: ٧، ٨﴾.

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - فإنكم قد أدركتم شهراً تتأكد فيه التقوى، نسأل الله تعالى أن يبلغنا آخره، وأن يحسن عملنا فيه، وأن يتقبل منا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أيها المسلمون: بين المراقبة والصيام صلة وثيقة؛ ذلك أن الصيام يبنى على المراقبة، وترك المفطرات سرّاً لا يطلع عليه إلا الله تعالى؛ فإن العبد قد يدعى الصيام، ويجلس مع الصائمين وهو مفطر، والناس يظنونهم صائماً، ولا يعلم حقيقته إلا الله تعالى.

ولذا جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل عمل ابن آدم يضاعف: الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به،

يدع شهوته وطعامه من أجلي» رواه الشيخان^(٨).

إن الصائم يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجل الله تعالى، وليس من أجل الناس؛ لخشاء أمره على الناس، وإطلاع الله تعالى على حاله، بخلاف كثير من الأعمال الصالحة الأخرى؛ فالمصلي قد يصلي من أجل الناس، وكذلك الحاج والمعتمر والمتصدق إذا أظهر صدقته، وهكذا كثير من الأعمال الصالحة، ولا يعني ذلك أن الصيام لا يدخله الرياء - ولا سيما صيام التطوع - فإن العبد قد يصوم تطوعاً ويظهر صيامه للناس بإخبارهم به، أو بتعمد إظهار ما يدل على صيامه، لكن من ادعى الصوم من الناس فلا يعلم بحقيقة صومه إلا الله عز وجل؛ إذ قد يفطر سراً والناس لا يدرون، فالصيام سر بين العبد وربه؛ ولذلك كان الجزاء عليه من الله تعالى مباشرة بلا واسطة، وإلا فإن كل الأعمال جزاؤها من الله تعالى.

على أنه قد ذكر سبب آخر لاختصاص الله تعالى بالجزاء على الصوم وهو أن كل العبادات التي يتقرب بها المؤمنون لله تعالى قد تقرب بها المشركون إلى آلهتهم من الصلاة والحج والطواف والصدقة وغيرها، إلا الصوم فإنه لم يسمع أن طائفة من طوائف المشركين في الأزمان المتقدمة قد عبدت آلهتها بالصوم، ولا تقربت إليها به، ولا دانته به، ولا عرف الصوم في العبادات إلا من جهة الشرائع؛ فلذلك قال الله

(٨) أخرجه البخاري في الصوم باب فضل الصوم (١٨٩٤)، ومسلم في الصيام باب حفظ اللسان (١١٥١).

عزَّ وجلَّ: «الصوم لي» أي: لم يشاركني فيه أحد، ولا عُبد به غيري، فأنا حينئذ أجزي به على قدر اختصاصه بي، وأنا أتولى الجزاء عليه بنفسي، لا أكله إلى أحد غيري من ملك مقرب أو غيره^(٩).

ألا فاتقوا الله ربكم، وحققوا المراقبة في صيامكم، راقبوا الله تعالى في أسماعكم فلا تسمع حراماً، راقبوه في أبصاركم فلا تبصر حراماً، راقبوه في جوارحكم فلا تعمل حراماً، راقبوه في خطاكم فلا تمشوا إلى حرام، ولا تجلسوا في مجالس اللهو والباطل.

إن كثيراً من الصائمين يراقبون الله تعالى في صيامهم من جهة الأكل والشرب وسائر المفطرات الحسية، ويشددون على أنفسهم في ذلك حتى تجدهم يسألون عن قطرة العين والأنف والأذن، وعن الغبار والدخان والطيب هل هي من المفطرات؟ ويجتنبونها احتياطاً لصومهم، ولكنهم لا يتقون الله تعالى ولا يراقبونه فيما يخل بالصوم، أو يذهب أجره كالغيبة والنميمة والزور والبهتان، والنظر إلى المحرمات وسماعها. وهذا من أعظم الخلل في فهم حقيقة الصوم، وهو من الحرمان العظيم؛ إذ حرموا أنفسهم مما أحل الله لهم في غير الصيام.. وأحلوا ما حرم الله عليهم حال صيامهم وحال فطرهم.

(٩) ذكر ذلك ابن الأثير في جامع الأصول نقلاً عن الأمير مجاهد الدين أبو منصور قيمان، وذكر أنه مما وقع له ابتكاراً ولم يحفظه من أحد، ولا وقف عليه في كتاب، قال ابن الأثير: «لم أسمعنا أنا من غيره، ولقد أصاب فيما وقع له وأحسن وفقه الله بعرفانه» اهـ. انظر: جامع الأصول (٩/٤٥٤).

فاحذروا - عباد الله - خوارم الصيام، وراقبوا الله تعالى في صومكم؛ فإنه لله تعالى، والله تعالى قد تولى الجزاء عليه، وهو الغني الكريم الذي يعطي العطاء الجزيل، فلا تحرموا أنفسكم عطايه بشهوات تقارفونها في ليالي رمضان، تذهب حلاوتها ويبقى وزرها، واتقوا الله في ليالي رمضان كما تتقونه في نهاره.

وصلوا وسلموا على نبيكم محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم.

٥٨- رمضان والقوة

١٤٢٣/٩/١٠ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: خلق الله تعالى البشر، وفاوت بينهم في القدرة والقوة، والشجاعة والحلم والأناة، وفي غيرها من الصفات، وجعل سبحانه في الواحد من الناس الصفة وضدها، وتغلب إحدى الصفتين الأخرى بإغنائها، وتحريك بواعثها، وتعاهدها بالرعاية والرياضة، وتنطفئ الأخرى بإهمالها وقهرها، ومجانبة أسباب حياتها.

فالإنسان قابلٌ للخير كما هو قابلٌ للشر، وهو قادرٌ وعاجزٌ، وقويٌ

وضعيفٌ، وحليمٌ وغضوبٌ، ومتأنٌ وعجولٌ، وشجاعٌ وجبانٌ، وكريمٌ وبخيلٌ، وحازمٌ ومترددٌ، فالصفة وضدها موجودتان فيه؛ ولكن إحداهما تغلب الأخرى وتلغيها، بحسب تربية المرء وبيئته وأقرانه؛ فالذي يخالط الكرماء يتأثر بهم فتراه كريماً، والذي يعيش بين البخلاء يؤثر عليهم فيصبح بخيلاً، وهكذا يقال في باقي الصفات.

وهذه الحقيقة التي اكتشفها الطب والعلوم الإنسانية حديثاً^(١) قد دلت عليها النصوص قديماً؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن الحلم يكتسب كما تكتسب سائر العلوم والمعارف، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم»^(٢)، وأخبر الأحنف بن قيس رحمه

(١) انظر: مقالة: هل يمكن تغيير الطباع؟ للأستاذ الدكتور/ فهد بن محمد الحضيبي، مجلة الجندي المسلم عدد (١٠٤) ص (٤٦).

(٢) جاء هذا الحديث من طرق مرفوعاً وموقوفاً؛ فأخرجه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً الطبراني في الأوسط (٢٦٨٤)، وفي مسند الشاميين (٢١٠٣)، وأبو نعيم في الحلية (١٧٤/٥)، والخطيب في تاريخه (١٠٢/٥)، والدارقطني في العلل (٢١٩/٦)، وفي سنده محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني ضعفه الأئمة، وردوا حديثه، قال الإمام أحمد: ضعيف الحديث، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، وقال الدارقطني: لا شيء، وقال ابن حبان: منكر الحديث يروي عن الثقات المعضلات، وقال الذهبي: وضعفه جماعة، ونقل عن النسائي قوله: متروك الحديث وكذبه ابن معين. انظر: الجرح والتعديل (٢٢٥/٦)، والضعفاء للعقيلي (٤٨/٤ - ٤٩)، والمجروحون (٢٧٦/٢)، والمغني للذهبي (٥٦٨/٢)، قال الهيثمي في الزوائد (١٢٨/١) بعد أن عزاه للطبراني في الأوسط: وفيه محمد بن الحسن بن أبي يزيد وهو كذاب، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (١٠٧): وابن الحسن كذاب.

الله تعالى - وكان مشهوراً بالحلم - أنه كان يجالس الحلماء لاكتساب الحلم منهم كما يختلف إلى الفقهاء لأخذ الفقه عنهم^(٣).

والقوة من الصفات الحسنة المرغوبة عند البشر، سواء كانت قوة الجسد، أم قوة الجاه، أم قوة المال، أم غيرها من أنواع القوة؛ فكل البشر يحبون القوة، ويودون أن يكونوا أقوياء، ويكرهون الضعف، ولا يريدون أن يصبحوا ضعفاء. والشريعة جاءت بمدح القوة التي تعود على صاحبها بالنفع، وبذمها إذا رجعت عليه بالضرر، وبينت أن أفضل قوة يتحلى بها الإنسان هي قوة الإيمان؛ لأن العبد إذا امتلكها سخر كل قوة لديه في خدمة مقتضيات إيمانه؛ مما يكون سبباً في الخير العاجل والآجل له؛ ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القوي

= وأخرجه مرفوعاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه الخطيب في تاريخه (٩/ ١٢٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٤٢)، وفي صحيح الجامع (٢٣٢٨).

وله شاهد مرفوع من حديث معاوية رضي الله عنه ليس فيه ذكر الحلم ولفظه: «يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيراً يفقه في الدين، وإنما يخشى الله من عباده العلماء» أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/ ٣٩٥) برقم (٩٢٩) وحسنه الحافظ في الفتح (١/ ١٦١) فقال: إسناده حسن إلا أن فيه مبهماً اعتضد بمجيئه من وجه آخر.

وجاء موقوفاً على أبي الدرداء بسند صحيح كما في الزهد لهناد بن السري (١٢٩٤) والعلم لأبي خيثمة (١١٤) وجاء موقوفاً أيضاً عن ابن مسعود رضي الله عنه، من دون ذكر الحلم رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٦١٢٣) وعزاه الحافظ في الفتح للبزار (١/ ١٦١).

(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة (١/ ٤٠٢).

خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف» رواه مسلم^(٤).

إن قوة الإيمان تقود إلى قوة الأخذ بعزائم الشريعة؛ والثبات على أحكام الملة، وتحمل الابتلاءات والمحن في سبيل ذلك، وعدم الالتفات إلى المخذلين والمرجفين من ضعاف الإيمان، وذوي القلوب المريضة الضعيفة؛ كما كان حال الأنبياء عليهم السلام مع المكذبين؛ إذ أمرهم بشريعة الله تعالى، وتحملوا في سبيل ذلك القتل والتعذيب، والسخرية والتشريد، والاستهزاء والتكذيب، وصبروا على ذلك حتى أتاهم فرج الله تعالى؛ لأن الله تعالى أمرهم بأن يأخذوا شريعته بقوة وعزم وثبات، ويبلغوها للناس، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، وأمر سبحانه موسى عليه السلام بأن يأخذ مواعظه وأحكامه، ويبلغها لبني إسرائيل بقوة وثبات فقال عز من قائل: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وخاطب سبحانه النبي الخاتم محمدًا صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

والصدع لا يكون إلا بقوة، وصوت جهير، وإعلان على الملأ، وتحدي للمكذبين والمعارضين.

فجمع عليه الصلاة والسلام الناس، وخطب فيهم، وصدع بالحق

(٤) أخرجه مسلم في القدر باب في الأمر بالقوة وترك العجز (٢٦٦٤).

أمامهم بكل ثباتٍ وعزمٍ وقوة^(٥).

وفعل الطاعة في وقتها الفاضل مع المشقة سماه النبي صلى الله عليه وسلم قوة؛ لأن من أتى بها مع المشقة قد حمّله إيمانه القوي على تحمل المشقة في سبيلها، قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه: «أيّ حينٍ توتر؟ قال: أول الليل، بعد العتمة، قال: فأنت يا عمر؟ فقال: آخر الليل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أما أنت يا أبا بكر فأخذت بالوثقى، وأما أنت يا عمر فأخذت بالقوة»^(٦).

وإذا بُلغت الدعوة للناس، وصُدع بالحق فيما بينهم، فلا بد أن يوجد من يعارضها ويحاربها، من أحزاب الشياطين، وأهل الأهواء والمصالح الذين يريدون تعبيد الناس لأهوائهم وشياطينهم، ويرفضون أن تكون عبوديتهم خالصةً لله تعالى، وهؤلاء لا يمكن ردعهم إلا بالقوة على حد قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ

(٥) وذلك مثل مناداته لقريش وقوله لهم: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما البخاري في التفسير باب: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] (١: ٤٨٠)، ومسلم في الإيمان باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] (٢٠٤).

(٦) أخرجه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أحمد (٣/ ٣٣٠) والطحاوي (١٦٧١) وابن أبي شيبة (٢/ ٢٨٢)، وعبد الرزاق (٤٦١٧)، وأبو يعلى (١٨٢١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنن فيها، باب التوتر أول الليل (١٢٠٢) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٣٤٢)، وحسنه البوصيري في الزوائد (١/ ٣٩٧). وله شواهد من حديث أبي قتادة وحديث أبي هريرة وحديث ابن عمر وحديث عقبة بن عامر رضي الله عنهم.

رَبَّاطِ الْخَيْلِ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴿[الأنفال: ٦٠].

وأمثال هؤلاء المحاربين من الكفار والمنافقين لا يمكن التعامل معهم إلا بحزم وقوة وغلظة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

وذكر الله تعالى في وصف النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم أنهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان أهل الحديبية أشدَّاء على الكفار، أي: غلاظٌ عليهم كالأسد على فريسته»^(٧).

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: «هذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيماً برأ بالأخيار، عبوساً غضوباً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن»^(٨).

ولما كانت غزوة بدر، وأُسر من المشركين سبعون، واقترح عمر أن يدفع كل أسير إلى قريبه من المسلمين فيقتله؛ ليعلم الكفار أنه لا هوادة في الدين، وأن قوة الإيمان تعلو وشائج القرابة؛ صوّب الله تعالى رأي عمر، وعاتب النبي صلى الله عليه وسلم على قبول فدائهم؛ لأن ما

(٧) الجامع لأحكام القرآن (١٦/١٩٣) وانظر: معالم التنزيل (٤/٢٠٦).

(٨) تفسير ابن كثير (٤/٣١٢).

رآه عمر كان فيه حزم وقوة في الحق^(٩)، ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

إن قوة الإيمان هي المحرك لكل قوة نافعة، وهي الباعث على الشجاعة والصدع بالحق؛ لأن من آمن بقوة القوي العزيز، وأيقن بأن أية قوة مهما بلغت فهي ضعيفة عاجزة أمام جبروت الجبار وعزته وبطشه؛ فلن يرهب قوة الأقوياء، ولن يخاف جبروت الجبارين، ولن يبقى في قلبه محل إلا لخوف الله تعالى ومحبه ورجائه.

والضعف أمام المخلوقين، والخوف منهم إنما ينشأ عن ضعف الثقة بالله تعالى، وتزعزع التوكل عليه، وعدم إحسان الظن به؛ ولذا فإن تقوية الإيمان بالله تعالى في القلوب، وزرع التوكل عليه، وإحسان الظن به كفيلٌ بقوة القلب وشجاعته، وتعلقه بالله تعالى، وإقدامه على المنايا في سبيله بنفس رضية مطمئنة.

وتقوية الإيمان في القلوب تكون بدوام التفكير في قوة الله تعالى وعزته وعظمته وجبروته، ومعرفة أسمائه وصفاته، والمحافظة على الفرائض، واتباعها بالنوافل، والنظر في نصوص الوعد والوعيد نظرة تدبر ورجاء واعتبار وخوف.

وذكر الله تعالى، وكثرة استغفاره، لها تأثير عجيب في قوة القلوب

(٩) انظر: مسند الإمام أحمد (١/ ٣٠ - ٣١) وصحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة (١٧٦٣) وجامع البيان للطبري (١٠/ ٤٤).

والأبدان؛ كما قال هود عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، والقوة هنا عامة؛ فتشمل قوة القلوب وشجاعتها، وقوة الأجساد وشدتها، كما تشمل قوة الأفراد، وقوة الأمة بمجموعها إذا لازمت الاستغفار، وجانبت المعاصي؛ فتصبح أمة قوية، محاطة بهيبة دين الله تعالى، محفوظة بحفظه ورعايته. فاللهم احفظنا بحفظك، واملأ قلوبنا إيماناً و يقيناً، وارزقنا قوة تقذف بها المهابة منا في قلوب أعدائنا، إنك سميع قريب.

وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما أمر، والشكر له على عظيم نعمه وآلائه فقد تأذن بالزيادة لمن شكر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - فإن الأيام تمضي، والأعمار تنقص، وما أكثر العصيان، وما أقل الاستغفار والتوبة!! ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

أيها المؤمنون: الصوم الذي فرضه الله تعالى على المسلمين سبيل

من سبل بناء القوة فيهم ؛ فهو يجمع بين تقوية قلوبهم وتقوية أجسادهم ، فأما أجسادهم : فيُدفع عنها بالصيام الكثير من العلل والأدواء بتخليتها من زوائد الأطعمة التي اعتادت عليها طوال العام ، وأما تقوية القلوب فمن وجوه كثيرة : فالمسلم في رمضان يصبر على وطأة الجوع والعطش ، ويترك كل ما اعتاده في النهار من ملذات ، ويصبر على الحرمان بطوعه واختياره .

والصبر الاختياري على ملذات النفس وأهوائها أكثر فائدة للنفس وللأمة من الصبر الذي تحمل عليه الفاقة ، أو يلجئ إليه الحرمان ، أو تبعث عليه الرهبة من العقاب والحساب^(١٠) .

إن الصبر على الشدائد قوةٌ معنوية ينالها أهل الصيام ، هي من أقوى الأسلحة التي تتسلح بها الأمم في مواجهة أعدائها ، والصبر على الحرمان في قلب المعركة يعد من أهم عوامل النصر ، ومن المعلوم أن من أكبر الأزمات التي تواجه الجيوش الحديثة تموين أفرادها بالطعام ، وتوفير الرفاهية لهم حين يطول بعدهم عن بلادهم وأهليهم ؛ ولذا عمدت كثير من الجيوش غير المسلمة إلى اصطحاب فرق من النساء الساقطات مع الجيوش ؛ للقيام بترفيه الجنود ، أو بتجنيد نسائهم ليتسلى بهن جندهم حين يطول مقامهم في معاركهم ومرابطاتهم .

أليس من العجب - أيها الإخوة - أن الجيوش المسلمة كانت تنطلق

(١٠) انظر: أحكام الصيام وفلسفته في ضوء القرآن والسنة للدكتور مصطفى السباعي (٤٧) .

في صدر الإسلام من قلب جزيرة العرب لتخوض غمار حروب كبرى استمرت عشرات السنوات، ثم لم يحدث أن وجدت القيادة أو الخلافة نفسها إزاء مشكلة التموين أو الترفيه!!

أما التموين فكان أفراد الجيش المسلم صوّماً عبّاداً، يقنعون بالقليل من الطعام، وأما الترفيه فما كانت لذتهم إلا في عبادة ربهم، يحيون ليلهم في التهجد والذكر وقراءة القرآن، ويقضون نهارهم على صهوات خيلهم ينازلون الأعداء، في وقت كان أعداؤهم لا يحضرون القتال إلا وبصحبتهم المسكرات والمومسات، ولا يتقدمون للمنازلة إلا بعد ضمان توفير الطعام والشراب؛ فكانوا مستعبدين لشهواتهم، منهارين في معنوياتهم^(١١).

لقد جاء الإسلام بما يقوي الإرادة، ويشحذ العزيمة، ويعلي من الهمة، ويجعل المسلم يستعلي على شهوته وهو محتاج إليها، ويقهر نفسه على الصيام مع مسيس حاجته إلى الفطر؛ وذلك حينما رتب النبي صلى الله عليه وسلم الأجور العظيمة، والثواب الجزيل على الصيام في حال الجهاد والرباط؛ وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: «من صام يوماً في سبيل الله بعّد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً» رواه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه^(١٢).

(١١) انظر: المصدر السابق (٤٨).

(١٢) أخرجه البخاري في الجهاد باب فضل الصوم في سبيل الله (٢٨٤٠) ومسلم في الصوم باب فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه (١١٥٣).

وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من صام يوماً في سبيل الله جعل الله بينه وبين النار خندقاً كما بين السماء والأرض»^(١٣)، وفي حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من صام يوماً في سبيل الله باعد الله منه جهنم مسيرة مئة عام»^(١٤).

(١٣) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الصوم في سبيل الله (١٦٢٤)، والطبراني في الكبير (١٩٨/٨) برقم: (٧٨٠٦).
(١٤) أخرجه النسائي في الصوم باب ما يكره من الصيام في السفر (١٧٤/٤)، وأبو يعلى في مسنده (١٧٦٧)، والطبراني في الكبير (٣٣٥/١٧) برقم: (٩٢٧)، وجاء بلفظه من حديث عمرو بن عبسة عند عبد بن حميد في المنتخب من مسنده (٣٠٣)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٩٠)، وفي الأوسط (٣٢٤٩). وهذه الأحاديث التي جاء فيها فضل الصوم في سبيل الله تعالى اختلف الشُّراح في المقصود بقوله عليه السلام: «في سبيل الله» على قولين:
الأول: أن المقصود به أن يصوم وهو مجاهد أو مرابط في سبيل الله تعالى.
الثاني: حمله على الإخلاص.

والراجع الأول؛ لأنه الظاهر من اللفظ؛ ولعدم وجود الصارف عنه إلى غيره، فإن لفظة: «في سبيل الله» إذا أُطلقت يراد بها الجهاد.

قال محمد بن الحسن رحمه الله تعالى: «والمراد من الحديث أن يجمع بين الصوم والجهاد، فالطاعات كلها في سبيل الله تعالى؛ لأنه يُبتغى بها رضى الله تعالى، غير أنه عند الإطلاق يُفهم منه الجهاد، والجمع بينهما أشد على النفس فيكون أفضل» شرح السير الكبير (١١/١).

وقال النووي رحمه الله تعالى: «فيه فضيلة الصيام في سبيل الله، وهو محمول على من لا يتضرر به، ولا يفوت به حقاً، ولا يختل به قتاله، ولا غيره من مهمات غزوه» شرح صحيح مسلم (٣٣/٨).

وفي الصيام تربية على الطاعة والامثال؛ لأن الصائم حبس نفسه عن شهواته باختياره طاعةً لله تعالى، وإذا كان كذلك كان عنده من قوة الإرادة، وصلاح القلب ما يجعله يقدم مصلحة الجماعة على مصلحة نفسه، ويسمع ويطيع لقادته ولمن ولأه الله أمره؛ كما فعل خالد بن الوليد رضي الله عنه حينما عزله عمر عن قيادة الجيوش خوفاً على الناس من الفتنة به، فصار جندياً بعد أن كان قائداً، ولم يتمرد، أو يعص، أو ينغزل عن الجيش، أو يرجع من الغزو؛ لأن إرادته كانت

= ونقل الحافظ في الفتح (٥٦/٦) عن ابن الجوزي قوله: «إذا أطلق ذكر سبيل الله فالمراد به الجهاد».

وقال ابن دقيق العيد: «في سبيل الله: العرف الأكثر فيه استعماله في الجهاد، فإذا حمل عليه كانت الفضيلة لاجتماع العبادتين - أعني عبادة الصوم والجهاد - ويحتمل أن يراد بسبيل الله: طاعته كيف كانت، ويعبر بذلك عن صحة القصد والنية منه، والأول أقرب إلى العرف» إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (٣٧٠ / ٢).

وقال الحافظ في الفتح (٥٦/٦) بعد أن ساق المعنيين: «ثم وجدته في فوائد أبي الطاهر الذهلي من طريق عبد الله بن عبد العزيز الليثي عن المقبري عن أبي هريرة بلفظ: «ما من مرابط يرابط في سبيل الله فيصوم يوماً في سبيل الله...» الحديث، ثم قال الحافظ: «ولا يعارض ذلك أن الفطر في الجهاد أولى؛ لأن الصائم يضعف عن اللقاء... إلى أن قال: لأن الفضل المذكور محمول على من لم يخش ضعفاً، ولا سيما من اعتاد به فصار ذلك من الأمور النسبية، فمن لم يضعفه الصوم عن الجهاد فالصوم في حقه أفضل ليجمع بين الفضيلتين» وانظر: تحفة الأحوذى (٢٠٧ - ٢٠٨)، وشرح السيوطي على سنن النسائي (١٢٧/٤)، ونيل الأوطار (٣٠٤/٤).

للآخرة، وطلبه لما عند الله تعالى كان أقوى من حظوظ نفسه، فسمع وأطاع، ونقلت عنه مقولته المشهورة: «إني لا أقاتل لعمر، ولكني أقاتل لرب عمر»^(١٥).

(١٥) على شهرة هذه المقولة عن خالد رضي الله عنه بين الكتاب المعاصرين فإنني لم أوفق في العثور عليها في كتب التاريخ والتراجم، وقد سمع خالد وأطاع؛ لأنه لم يكن ليعص الأمير من أجل القيادة، وكنتم أبو عبيدة خبر عزله، فلما علم خالد قال لأبي عبيدة: «رحمك الله ما منعك أن تعلمني حين جاءك، فقال: إني كرهت أن أكسر عليك طربك، وما الدنيا أريد، ولا للدنيا أعمل، وما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع، وإنما نحن إخوان، وما يضر الرجل أن يليه أخوه في دينه ودنياه» (البداية والنهاية ٧/ ٢٠).

وقد اختلف أهل السير والمغازي في السبب الذي جعل عمر يعزل خالداً عن قيادة الجيوش، ومما ذكروا في ذلك:

السبب الأول: أن عزله كان بسبب شدته، وكان عمر رضي الله عنه شديداً؛ فما أراد أن يكون الخليفة شديداً وقائد الجيوش كذلك، وكان أبو بكر رضي الله عنه ليناً فناسب أن يكون قائد جنده شديداً، فلما ولي عمر عزل خالداً وولى أبا عبيدة وكان أبو عبيدة ليناً، فناسب مع أبي بكر ولينه خالد وشدته، وناسب مع عمر وشدته أبو عبيدة ولينه، رضي الله عنهم.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «فلما انتهت الخلافة إلى عمر عزل خالداً وولى أبا عبيدة بن الجراح، وأمره أن يستشير خالداً؛ فجمع للأمة بين أمانة أبي عبيدة وشجاعة خالد» (البداية والنهاية ٧/ ٧٦).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وهكذا أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله عنه ما زال يستعمل خالداً في حرب أهل الردة، وفي فتوح العراق والشام، وبدت منه هفوات كان له فيها تأويل، وقد ذكر له عنه أنه كان له فيها هوى، فلم يعزله من أجلها بل عاتبه عليها؛ لرجحان المصلحة على المفسدة في بقاءه، وأن غيره لم يكن يقوم مقامه؛ لأن=

= المتولي الكبير - أي الخليفة - إذا كان خلقه يميل إلى اللين فينبغي أن يكون خلق نائبه يميل إلى الشدة، وإذا كان خلقه يميل إلى الشدة فينبغي أن يكون خلق نائبه يميل إلى اللين؛ ليعتدل الأمر؛ ولهذا كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يؤثر استنابة خالد، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يؤثر عزل خالد واستنابة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه؛ لأن خالدًا كان شديدًا كعمر بن الخطاب، وأبا عبيدة كان لينًا كأبي بكر، وكان الأصلح لكل منهما أن يتولى من ولاه ليكون أمره معتدلاً؛ السياسة الشرعية (١٨/١)، وانظر: مجموع الفتاوى (٢٥٨/٢٨).
ويؤيد ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: أن عمر رضي الله عنه لما كان يسعى في عزل خالد أيام أبي بكر رضي الله عنه كان يقول: «أعزله فإن في سيفه رهقاً، فقال أبو بكر: لا أشيم - أي لا أغمد - سيفاً سله الله على الكفار» انظر: البداية والنهاية (٢٤١/٦).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «والمقصود أنه لم يزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحرض الصديق ويذمره على عزل خالد عن الإمرة، ويقول: إن في سيفه لرهقاً؛ حتى بعث الصديق إلى خالد بن الوليد فقدم عليه المدينة، وقد لبس درعه التي من حديد، وقد صدئ من كثرة الدماء... إلخ (٢٤٢/٦).
ويشهد لشدة خالد أيضاً قتله للأسرى لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي جذيمة؛ فقتل الأسرى الذين قالوا: صبأنا صبأنا، ولم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فوداهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى رد إليهم ميلغة الكلب، ورفع يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» انظر: سيرة ابن هشام (٥/٩٥ - ٩٦)، والاستيعاب (٤٢٨/٢)، وطبقات ابن سعد (١٤٨/٢)، وخبرهم هذا أخرجه البخاري في الأحكام باب إذا قضى الحاكم بجور أو خلاف أهل العلم فهو رد (٧١٨٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وكذلك قتله رضي الله عنه لمالك بن نويرة اليربوعي، وملخص خبره: أن مالكا صانع سجاح التميمية التي ادعت النبوة، ثم ندم مالك على ما كان منه، وقصد=

= خالد البطاح وعليها مالك، فبث خالد السرايا في البطاح يدعون الناس، فاستقبله أمراء بني تميم بالسمع والطاعة، وبذلوا الزكوات، إلا ما كان من مالك بن نويرة فإنه متحير في أمره، متنح عن الناس، فجاءته السرايا فأسروه وأسروا معه أصحابه، واختلفت فيهم السرية؛ فشهد أبو قتادة - الحارث بن ربيعي الأنصاري - أنهم أقاموا الصلاة، وقال آخرون: إنهم لم يؤذنوا ولا صلوا، فيقال: إن الأسارى باتوا في كبولهم في ليلة باردة شديدة البرد، فنادى منادي خالد: أن دفنوا أسراكم، فظن القوم أنه أراد القتل فقتلوه. . . فلما بلغ ذلك خالدًا قال: إذا أراد الله أمرًا أصابه، وقيل: إن خالدًا استدعى مالك بن نويرة فأثبه على ما صدر منه من متابعة سجاح، وعلى منعه الزكاة، وقال: ألم تعلم أنها قرينة الصلاة؟ فقال مالك: إن صاحبكم كان يزعم ذلك، فقال: أهو صاحبنا وليس بصاحبك؟ يا ضرار: اضرب عنقه، فضربت عنقه، وأمر برأسه فجعل مع حجرين وطبخ على الثلاثة قدرًا، فأكل خالد من القدر تلك الليلة؛ ليرهب بذلك الأعراب من المرتدة وغيرهم. واعتذر خالد من فعلته تلك بمالك لأبي بكر لما استدعاه، فعذره أبو بكر، وتجاوز عنه ما كان منه في ذلك، وودى مالك بن نويرة. انظر: البداية والنهاية (٦/ ٢٤١ - ٢٤٢).

السبب الثاني: أن عمر رضي الله عنه عزل خالدًا رضي الله عنه؛ لما كان ينفق من أموال الغنائم دون الرجوع إلى الخليفة، وهذا ما نقله الحافظ في الإصابة (٧٣/ ٣) عن الزبير بن بكار قال: «كان خالد إذا صار إليه المال قسمه في أهل الغنائم، ولم يرفع إلى أبي بكر حسابًا، وكان فيه تَقَدُّمٌ على أبي بكر، يفعل أشياء لا يراها أبو بكر»، ونقل الزبير بن بكار عن مالك بن أنس قوله: «قال عمر لأبي بكر: اكتب إلى خالد لا يعطي شيئًا إلا بأمرك، فكتب إليه بذلك، فأجابه خالد: إما أن تدعني وعملي، وإلا فشانك بعملك، فأشار عليه عمر بعزله، فقال أبو بكر: فمن يعزئني جزاء خالد؟ قال عمر: أنا، قال: فأنت، فتجهز عمر حتى أتى الظهر في الدار، فمشى أصحاب النبي صلى الله =

= عليه وآله وسلم إلى أبي بكر فقالوا: ما شأن عمر يخرج وأنت محتاج إليه؟ وما بالك عزلت خالداً وقد كفاك؟ قال: فما أصنع؟ قالوا: تعزم على عمر فقيم، وتكتب إلى خالد فقيم على عمله، ففعل، فلما قبل عمر كتب إلى خالد أن لا تعطي شاة ولا بعيراً إلا بأمرى، فكتب إليه خالد بمثل ما كتب إلى أبي بكر، فقال عمر: ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنفذه، فعزله، ثم كان يدعوه إلى أن يعمل فيأبى إلا أن يخليه يفعل ما يشاء، فيأبى عمر.

ويؤيد ذلك ما نقل عن عمر من قوله: «إني ما عتبت على خالد إلا في تقدمه، وما كان يصنع في المال» الإصابة (٧٤/٣).

وذكر الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٨٠/٧) ذلك فقال: «وقيل: عزله لأنه أجاز الأشعث بن قيس بعشرة آلاف، حتى إن خالداً لما عُزل ودخل على عمر سأل: من أين لك هذا اليسار الذي تجيز منه بعشرة آلاف، فقال: من الأنفال والسهمان».

ويؤيده ما رواه الإمام أحمد بسند جيد (٤٧٥/٣)، أن عمر اعتذر من الناس في الجابية فقال: «وإني أعتذر إليكم من خالد بن الوليد: إني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان، فنزعته وأمرت أبا عبيدة» وأخرجه النسائي في السنن الكبرى (٨٢٨٣)، والبيهقي (٤٧٥/٣)، والطبراني في الكبير (٢٩٨/٢٢ - ٢٩٩) برقم (٧٦٠ - ٧٦١) قال الهيثمي في الزوائد (٣٤٩/٩): «رواه أحمد والطبراني بنحوه، ورجالهما ثقات». السبب الثالث: أن عمر عزل خالداً رضي الله عنهما خشية افتتاح الناس به فإن خالداً رضي الله عنه ما هُرم له جيش لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وقد جمع الله تعالى له بين الشجاعة والقوة والرأي والمكيدة في الحرب، وحسن التخطيط والتدبير والعمل فيها، وقلَّ أن تجتمع هذه الصفات في شخص واحد.

= ويدل على ذلك ما يلي :

١- أن عمر رضي الله عنه كتب إلى الأمصار: «إني لم أعزل خالدًا عن سخطه ولا خيانه، ولكن الناس فتنوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع» البداية والنهاية (٨١/٧).

٢- ما رواه سيف بن عمر أن عمر رضي الله عنه قال حين عزل خالدًا عن الشام، والمثنى بن الحارث عن العراق: «إنما عزلتهما ليعلم الناس أن الله تعالى نصر الدين لا بنصرهما وأن القوة لله جميعاً» البداية والنهاية (٩٣/٧).

٣- قول ابن عون: «ولي عمر فقال: لأنزعنَّ خالدًا حتى يُعلم أن الله تعالى إنما ينصر دينه، يعني بغير خالد» سير أعلام النبلاء (٣٧٨/١).

فقد يكون عزله لسبب من هذه الأسباب، أو لها مجتمعة، ورأى عمر رضي الله عنه المصلحة في عزله، وأما تَقَدُّمُ خالد على الخليفة، ودفعه للأموال دون مراجعته فقد كان اجتهداً منه رضي الله عنه، ولعله رأى تأليف قلوب من يعطيهم، ولا سيما أنه كان رضي الله عنه خبيراً بالحرب، عارفاً بمكائد عدوه، فلا يظن به إلا أن يعطي من ينتفع بالإسلام بإعطائه، أو يكفي الإسلام شره. وقد نقل بعض المؤرخين بعض الروايات التي يشم منها رائحة اتهام الصحابة رضي الله عنهم بالهوى، وأن عزل عمر لخالد رضي الله عنهما كان لهوى في نفسه، وكراهية لخالد، ويذكرون قصة مصارعة قديمة بين خالد وعمر رضي الله عنهما وفيها: أن خالداً صرع عمر وكسر رجله، فحملها عمر في نفسه، فلما تولى الخلافة عزله... إلخ.

وهذه النقول وما أشبهها باطلة من وجوه عدة، منها:

أولاً: أن الأصل في الصحابة رضي الله عنهم سلامة صدور بعضهم على بعض؛ كما وصفهم الله تعالى بذلك في قوله في وصف أهل الحديبية: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وعمر رضي الله عنه من أهل الحديبية، فكيف يكون في صدره شيء على مؤمن مجاهد كخالد رضي الله عنه؟! وقال سبحانه =

= في وصف التابعين للصحابة بإحسان: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٣] فإذا كان هذا الوصف في التابعين فالصحابة أولى به ولا سيما من كان من المهاجرين السابقين كعمر بن الخطاب رضي الله عنه، والقادة المجاهدين كخالد بن الوليد رضي الله عنه.

فلا يترك هذا الأصل المتين لمجرد روايات تاريخية يتناقلها القصاص والإخباريون ليس لها خطام ولا زمام.

ثانياً: أن من المستفيض أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أنصح الناس للأمة، وزهده وعدله وسيرته تنضح بالأمثلة والشواهد الكثيرة على ذلك، فلا يظن به وهو الناصح الأمين الذي كان يتفقد أحوال الرعية أن يغش الأمة، ويعزل قائداً هي محتاجة إليه لولا أنه رأى المصلحة تقتضي ذلك، وليس لنفسه أي حظ من ذلك.

ثالثاً: أن عمر رضي الله عنه من كبار الصحابة، ومن الخلفاء الراشدين المهديين الذين أمرت الأمة كلها على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم باتباع سنتهم، واقتفاء سيرتهم؛ وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ» أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦ - ١٢٧)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي وقال: حسن صحيح (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٤)، وصححه ابن حبان (٥)، والحاكم ووافقه الذهبي (٩٥/ ١). فلو كان عمر رضي الله عنه صاحب هوى يقدم هواه على مصلحة الأمة هل كان النبي صلى الله عليه وسلم سيزكيه، ويأمر الأمة باتباع سنته؟! وهل يقره الله تعالى على هذه التزكية؟! مما يدل على بطلان هذه الروايات التاريخية التي فيها نيل من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وينبغي لكل مسلم قرأ قصة، أو اطلع على خبر لا يليق بالصحابة رضي الله عنهم أن لا يقبله ويسلم به؛ بل يرجع إلى النصوص الثابتة في الكتاب والسنة =

= ويقضي بها على هذه الروايات التي غالباً ما تكون منقولة عن أهل البدع والضلالات، أو في أسانيدھا مجاهيل لا يعرفون، أو مناكير لا يقبلون، أو كانت بلا أسانيد. فمن سار على هذه الطريقة كان منهجه صواباً؛ لأنه قدم الثابت من المنقول على غير الثابت.

ولا يلزم من هذا التأصيل الحكم بعصمة الصحابة رضي الله عنهم؛ بل هم بشر يجتهدون فيصيبون ويخطئون، وهم أقرب إلى الصواب من غيرهم، ولا سيما من كان من السابقين منهم إلى الإسلام، بيد أن تلك التهمة التي اتهم بها عمر، يلزم منها خيانة الأمة، وتقديم هوى النفس على المصلحة العامة، وحرمان المسلمين من قائد ما نكست له راية!! وهذا الاتهام غير مقبول في الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

رابعاً: أن الروايات التاريخية المستفيضة تدل على أن خالداً رضي الله عنه كان مجتهداً في أفعاله التي لم يرضها الصديق ولا الفاروق رضي الله عنهما، كما تدل على اجتهاد عمر في عزله لتحقيق مصلحة أكبر من مصلحة بقائه قائداً. وتدلل أيضاً على دوام المحبة بينهما حتى بعد العزل، وهذه الروايات تدحض كل ما ينقل مما فيه اتهام لعمر رضي الله عنه بالهوى، ومن تلکم الروايات سوى ما ذكرناه سابقاً:

١ - أن عمر رضي الله عنه كان عازماً على تولية خالد رضي الله عنه الخلافة من بعده، ومعلوم أن منصب الخلافة أعظم من مجرد قيادة الجيوش في الشام؛ ولكن خالداً رضي الله عنه توفي قبل وفاة عمر رضي الله عنه، ودليل ذلك ما رواه الشاسي في مسنده عن أبي العجفاء السلمي قال: «قيل لعمر: لو عهدت يا أمير المؤمنين، قال: لو أدركت أبا عبيدة ثم وليته ثم قدمت على ربي فقال لي: لم استخلفته؟ لقلت: سمعت عبدك وخليتك يقول: لكل أمة أمين، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة، ولو أدركت خالد بن الوليد ثم وليته، فقدمت على ربي لقلت: سمعت عبدك وخليتك يقول: خالد سيف من سيوف الله سله=

.....

= الله على المشركين» السير (٣٧٣/١).

٢ - ما ذكره سيف بن عمر من أن عمر رضي الله عنه لما رأى زوال ما كان يخشاه من افتتان الناس بخالد رضي الله عنه عزم على أن يوليه بعد أن يرجع من الحج، ولكن القدر سبق إلى خالد رضي الله عنه فتوفي قبل ذلك، انظر: الإصابة (٩٨/٨).

٣ - أن عمر أمر أبا عبيدة أن يستشير خالداً رضي الله عنهم أجمعين في أمور الحرب حتى بعد عزله. انظر: البداية والنهاية (٦٧/٧)، فلو كان في نفس عمر شيء على خالد رضي الله عنهما لما جعله مستشاراً لأبي عبيدة رضي الله عنه.

٤ - أن خالداً لما حضرته الوفاة أوصى لعمر رضي الله عنهما، وتولى عمر وصيته كما في السير (٣٨٢/١)، والإصابة (٧٤/٣)، وهذا يدل على المحبة بينهما؛ لأن الشخص لا يوصي إلا لمن يحب ويثق في أمانته وحزمه وورعه.

٥ - تركية خالد لعمر عند أبي الدرداء رضي الله عنهم، وإخباره بأن عمر باب مغلق دون الفتن والمنكرات، فقد قال خالد لأبي الدرداء رضي الله عنهما: «والله يا أبا الدرداء لئن مات عمر لترين أموراً تنكرها» السير (٣٨٢/١).

٦ - تأثر عمر بموت خالد رضي الله عنهما، ورثاؤه له، ومدحه بما يستحقه، ومن كان في نفسه شيء لا يفعل ذلك، روى ثعلبة بن أبي مالك: أن خالداً لما مات، استرجع عمر مراراً ونكس، وأكثر الترحم عليه، وقال: «كان والله سداً لئلا لنحر العدو، ميمون النقية، فقال علي: لم عزلته؟ قال: عزلته لبذله المال لأهل الشرف وذوي اللسان، قال: فكنت عزلته عن المال، وتركه على الجند، قال: لم يكن ليرضى، قال: فهلا بلوته» السير (٣٨٣/١)، والبداية والنهاية (١١٧/٧).

ونقل الحافظ في الإصابة (١١٢/١٣) عن محمد بن إسحاق قال: «لما مات خالد بن الوليد خرج عمر في جنازته فإذا أمه تندبه وتقول: أنت خير من ألف ألف من القوم إذا ما كنت في وجوه الرجال =

وعقد النبي صلى الله عليه وسلم لواءاً لأسامة بن زيد رضي الله عنهما، ولما يبلغ العشرين من عمره على رأس جيش فيه شيوخ الصحابة، وكبار قاداتهم فسمعوا وأطاعوا. ولما توفي النبي صلى الله عليه وسلم ولما يذهب الجيش أشار عمر على أبي بكر رضي الله عنهما أن يولي عليهم من هو أكبر سنّاً، وأكثر حنكة من أسامة، فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما: «يوليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعزله أنا!

= قال: فقال عمر: صدقت والله، إن كان كذلك».

وروى إسحاق بن يحيى بن طلحة عن عمه موسى قال: «خرجت مع أبي طلحة إلى مكة مع عمر، فبينما نحن نحط رواحلنا إذ أتى الخبر ب وفاة خالد، فصاح عمر: يا أبا محمد، يا طلحة، هلك أبو سليمان، هلك خالد بن الوليد...» السير (٣٨٢/١)، والإصابة بنحوه (٤٧/٣).

ونقل الحافظ في الإصابة (١١٢/١٣): «أن خالداً رضي الله عنه لما جهز بكتبه البواكي ف قيل لعمر: ألا تنهاهن؟ فقال: وما على نساء قريش أن يبيكين أبا سليمان ما لم يكن نقعاً ولا لقلقة» والنقع: وضع التراب على الرؤوس، واللقلة: رفع الصوت بالبكاء.

وورد بنحوه عن أبي وائل عند الحاكم (٢٩٧/٣)، وابن عبد البر في الاستيعاب (١٦٩/٣) وعلقه البخاري في صحيحه، وقال الحافظ في الفتح (١٦١/١): وصله المصنف في التاريخ الأوسط، وانظر: التاريخ الأوسط (٣٣) والتاريخ الصغير (٤٦/١)، فهذه الروايات الكثيرة تثبت مدى محبة الصحابة بعضهم لبعض رضي الله عنهم، كما تثبت أن عزل عمر لخالد رضي الله عنهما كان اجتهاداً رأى فيه عمر مصلحة الأمة، ولم يكن لهذا العزل تأثير على بقاء المحبة والألفة بينهما إلى أن مات خالد فتولى عمر وصيته، والله أعلم.

لا أبا لك»^(١٦)، ماذا ترون في هذه الطاعة العجيبة للنبي صلى الله عليه وسلم وامثال أمره حياً وميتاً من قوم كانت إراداتهم أقوى من شهواتهم، وطلبهم للآخرة أعظم من نظرهم إلى الدنيا!!

أين هذه القلوب القوية، والنفوس الكبيرة من قوم يصومون عن الطعام والشراب، ويفطرون على ما حرم الله تعالى، قد أسرتهم برامج هزلية تُسطّح العقول، وتفسد القلوب، يفطرون عليها كل يوم؟! أين هذه القلوب من قلوب أقوام لا يصبرون في ليالي رمضان عمّا

(١٦) قال أبو هريرة رضي الله عنه: «والله الذي لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استخلف ما عبد الله، ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة، فقليل له: مه يا أبا هريرة، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه أسامة بن زيد في سبعمته إلى الشام فلما نزل بذي خشب، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم وارتدت العرب حول المدينة، فاجتمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبا بكر رد هؤلاء، يتوجه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب، فقال: والله الذي لا إله إلا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ما رددت جيشاً جهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا حللت لواء عقده رسول الله»، وفي رواية: «والله لو علمت أن السباع تجر برجلي إن لم أردّه ما رددته عن وجهه وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر أسامة أن يمضي لوجهه ذلك»، وفي رواية أنه قال: «لو أني أعلم أن السباع تأكلني في هذه المدينة لأنفذ جيش أسامة» انظر: الرياض النضرة (٤٨/٢).

وفي البداية والنهاية (٣٠٥/٦) عن الحسن البصري أن أبا بكر رضي الله عنه لما صمم على تجهيز جيش أسامة قال بعض الأنصار لعمر قل له: فليؤمر علينا غير أسامة، فذكر له عمر ذلك، فيقال: إنه أخذ بلحيته، وقال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، أوامر غير أمير رسول الله؟!.

تقذفه الفضائيات من كل خبيث مسموع ومشاهد يخدش الحياء، ويدمر الأخلاق، ويفسد العقول والقلوب؟!!

أين هي الإرادة القوية التي يتربى عليها الصائم كل يوم، أما نفعته في حجب نفسه وأهله وأسرته عما حرم الله تعالى عليهم، وقصرها على ما أحل الله تعالى لهم..

إنها قلوب ضعيفة، وإرادات هزيلة، ومعنويات منهارة، وعزائم خائرة، ونفوس منهزمة، شكلت بمجموعها ضعفاً في الأمة، ضرب عليها الذلة والمسكنة بسببها، ولن يرفع عنها إلا بعودة جادة إلى الله تعالى؛ فتوبوا أيها المؤمنون، وأنيبوا إلى ربكم، وحذار حذار من مفسدات الصوم، فمن صامت حواسه عما حرم الله تعالى عليه فهو المقبول إن شاء الله تعالى، ومن صام عن الطعام والشراب وأفطر بصره على الحرام، وسمعه على سماعه، وقلبه على الاستئناس به؛ فيخشى عليه من رد الصيام والقيام، وحبوط العمل، نسأل الله العافية.

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم.

٥٩- رمضان والصبر

٥/٩/١٤٢٤هـ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: خلق الله تعالى البشر، وابتلاهم بعبادته، ووعدهم إن هم أطاعوه الجنة، وإن هم عصوا فالنار مثوى لهم.

وجعل على طريق الجنة دعاة يدعون الناس إليها، ويرغبونهم فيها، وجعل على طريق النار دعاة يجرون الناس إليها، ويقذفونهم فيها.

وطريق الجنة محفوفة بالمكاره، مليئة بالعوائق، محاطة بالابتلاءات، وطريق النار محفوفة بالشهوات، مزدانة بالزخارف، مليئة بما يرغب الناس في سلوكها؛ ولذا كان سالكوها أكثر من سالكي طريق الجنة، وأهل النار أكثر من أهل الجنة كما دلت على ذلك الأحاديث^(١).

من أجل ذلك كان على العبد الذي يريد النجاة من العذاب، والفوز بالجنان أن يصبر نفسه على الطاعات، ويصابر عن الشهوات وفي الابتلاءات، ويرابط على ذلك، قائماً بأمور ربه، ثابتاً على دينه إلى أن يلقي الله تعالى، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وبالصبر على الحق ينال العبد الإمامة في الدين، ويمكن له في الأرض؛ كما مكن الله تعالى للمؤمنين من بني إسرائيل لما صبروا على ظلم فرعون وجبروته، وثبتوا على دينهم، فأورثهم الله تعالى الأرض بسبب صبرهم ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعين...» أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب قصة يأجوج ومأجوج (٣٣٤٨)، ومسلم في الإيمان باب يقول الله لأدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعين (٢٢٢)، ونحوه حديث أبي هريرة عند البخاري في الرقاق باب الحشر (٦٥٢٩).

صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وبسبب صبرهم نالوا الإمامة في الدين، وشرفوا بهداية الناس إلى الحق؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

ولما صبر يوسف عليه السلام على طاعة الله تعالى، وثبت على دينه، وصابر في الابتلاءات نال الإمامة في الدين والدنيا، ورفع الله تعالى من مملوك يخدم في قصر العزيز، إلى أمين على خزائن الأرض، وقد نسب ما هو فيه من العز والرفعة إلى فضل الله تعالى بسبب صبره على البلاء وتقواه لله، ﴿قَالُوا أَأَتَتْكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وأجر الصابرين عظيم، وثوابهم جزيل، ﴿إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، والله تعالى مع الصابرين، يحوطهم بعنايته ورعايته، وينصرهم على أعدائهم، ﴿كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ولهم البشري من الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

والصبر من عزم الأمور ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]. قال سعيد بن جبیر رحمه الله تعالى: «يعني لمن حق

الأمور التي أمر الله تعالى بها، أي: من الأمور المشكورة، والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل، وثناء جميل»^(٢).

وقد علق النبي صلى الله عليه وسلم الخير على الصبر بقوله لابن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر» رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح^(٣). وقال عمر رضي الله عنه: «وجدنا خير عيشنا بالصبر»^(٤).

وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له: «ما الإيمان؟ قال: الصبر والسماحة»^(٥)، وأخبر عليه الصلاة والسلام أن: «الصبر

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٠).

(٣) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أحمد (١/ ٢٩٣-٣٠٧)، وأبو يعلى (٢٥٥٦)، وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده (٦٣٦)، والترمذي في صفة القيامة باب (٥٩) (٢٥١٦)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. والطبراني في الكبير (١١/ ١٢٣)، برقم: (١١٢٤٣)، والحاكم (٣/ ٥٤١)، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٤٥).

(٤) أخرجه البخاري معلقاً في الرقاق، فاتحة باب الصبر عن محارم الله، قبل حديث رقم: (٦٤٧٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥٠)، وابن أبي عاصم في الزهد (١/ ١١٧)، وابن المبارك في الزهد (٦٣٠) و (٩٩٧).

(٥) أخرجه من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه أحمد (٤/ ٣٨٥)، وعبد بن حميد (٣٠٠)، والخراطي في مكارم الأخلاق (٥٩-٦٠)، وابن ماجه في الجهاد باب القتال في سبيل الله سبحانه وتعالى (٢٧٩٤) ولم يرد فيه ذكر الصبر والسماحة، وفي سننه محمد بن ذكوان وهو ضعيف كما ذكر البوصيري في زوائد ابن ماجه وقال: «لكن لم ينفرد به محمد بن ذكوان فقد رواه عبد بن حميد أنبأنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن عمرو بن عبسة =

ضياء»^(٦)، قال القرطبي في معنى ذلك: «هو الصبرُ على العبادات والمشاق والمصائب، والصبر على المخالفات والمنهيات، كاتباع هوى النفس والشهوات، وغير ذلك، فمن كان صابراً في تلك الأحوال، متبثاً فيها، مقابلاً لكل حالٍ بما يليق به؛ ضاءت له عواقب أحواله، ووضحت له مصالح أعماله، فظفر بمطلوبه، وحصل له من الثواب على مرغوبه»^(٧).

وأما في الآخرة فإن أهل الإيمان واليقين يُجْزَوْنَ الغرفة ويلقون فيها تحية وسلاماً؛ وذلك بسبب صبرهم على طاعة الله تعالى، ومجانبتهم ما يسخطه، ومقابلتهم الابتلاءات والإغراءات بالصبر والمصابرة، والثبات والمرابطة على ما يرضى الله عزَّ وجلَّ.

= عن النبي صلى الله عليه وسلم. فذكره مطولاً كما أوردته في زوائد المسانيد العشرة» اهـ من مصباح الزجاجة (٢/٤٠٤)، وأصل حديث عمرو بن عبسة عند مسلم (٨٣٢)، وأبي داود (١٢٧٧)، والترمذي (٣٥٧٩)، والنسائي (١/٢٧٩) من طريق أبي أمامة عن عمرو بن عبسة، وجاء من حديث جابر رضي الله عنهما عند أبي يعلى في مسنده (١٨٥٤)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (٦١). وله شاهد آخر مرسل منقطع من حديث الحسن رحمه الله عند عبد الرزاق في مصنفه (٤٨٤٣).

(٦) أخرجه من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أحمد (٣٤٢/٥)، ومسلم في الطهارة باب فضل الوضوء (٢٢٣)، والترمذي في الدعوات باب في فضل الوضوء والحمدلة والتسبيح (٣٥١٧)، والنسائي في الزكاة باب وجوب الزكاة (٥/٥)، وابن ماجه في الطهارة وسننها باب الوضوء شطر الإيمان (٢٨٠).

(٧) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/٤٧٧).

إن الصبر هو طريق الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وبه تحلوا وتكملوا،
 مدحوا به في القرآن الكريم، وأثنى الله تعالى به عليهم ﴿وَأَسْمَاعِيلَ
 وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]، وأيوب عليه السلام
 ابتلاه الله تعالى في جسده ابتلاءً شديداً ثماني عشرة سنة، حتى جفاه
 القريب والبعيد^(٨)، وصبر هذه المدة الطويلة على هذا البلاء العظيم،
 وسأل الله تعالى أن يكشف ضره؛ فعافاه الله سبحانه، وأثنى على صبره
 فقال سبحانه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

وإسماعيل عليه السلام أخبر أباه أنه صابر على ابتلاء الله تعالى
 لهما عليهما السلام بذبحه ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ
 فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾
 [الصافات: ١٠٢].

وإمام المرسلين، وخاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أمره الله تعالى بأن يصبر صبر أولي العزم من المرسلين ﴿فَاصْبِرْ
 كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فصبر
 عليه الصلاة والسلام على أذى المشركين، ثم على أذى المنافقين، ودعاهم

(٨) جاء ذلك في حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
 «إن أيوب نبي الله كان في بلائه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا
 رجلان من إخوانه كانا من أخص إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان إليه...»
 أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٦٧)، وأبو يعلى (٣٦١٧)، والبزار كما في
 كشف الأستار (٢٣٥٧)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٧٤)، وصححه ابن حبان
 (٢٨٨٧)، والحاكم ووافقه الذهبي (٥٨١/ ٢).

إلى الله تعالى، وقابل صدودهم بالصبر، وأذاهم بالعفو، ويأتيه الملائكة عليهم السلام يستأذنونه في إهلاك المكذبين من قومه، فيأبى ويصبر، ويقول: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً» رواه الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها^(٩).

وكانت الحمى مضاعفة عليه، وتمسه كما تمس رجلين من أمته، حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه: «دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوعك فقلت: يا رسول الله، إنك توعك وعكاً شديداً، قال: أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم...» رواه الشيخان^(١٠).

تلك هي طريق الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام: صبر في الابتلاءات، ومصابرة عن الشهوات، وثبات على الحق مهما كلف الأمر.

فمن رام مدارج السالكين، وابتغى منازل الصابرين، فعليه بالصبر على طاعة الله تعالى وعبادته، والصبر عن معصيته مهما زينها له الناس،

(٩) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٢٣١)، ومسلم في الجهاد باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥).

(١٠) أخرجه البخاري في المرضى باب أشد الناس بلاء الأنبياء (٥٦٤٨)، ومسلم في البر والصلة باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك (٢٥٧١).

والصبر على مكاره الدنيا ومصائبها، فمن حقق ذلك جوزي على صبره بلا حساب. جعلني الله وإياكم من الصابرين، وسلك بنا دروب الأنبياء والصالحين، وحمانا من سبل الهالكين إنه سميع مجيب.

﴿يَا بَنِي آدَمُ اقْمِ الصَّلَاةَ وَآمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرُوا عَلَى مَا أَصَابَكُمْ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، ﴿لَتَبْلُؤُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].
بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أمّا بعد: فاتقوا الله تعالى - أيها المسلمون - وتحلوا بالإيمان والصبر فإنكم في شهر الصبر ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، قال الطبري رحمه الله تعالى: «أمرهم بالصبر على ما كرهته نفوسهم من طاعة الله تعالى، وترك معاصيه، وأصل الصبر: منع النفس محابها، وكفها عن هواها؛ ولذلك قيل للصابر على المصيبة: صابر؛ لكفه نفسه عن الجزع، وقيل لشهر رمضان: شهر الصبر؛ لصبر صائمه عن المطاعم

والمشارب نهاراً»^(١١).

وقد جاء في السنة النبوية النصُّ الصريحُ على تسمية رمضان بشهر الصبر، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «صوم شهر الصبر وثلاثة أيامٍ من كل شهر صوم الدهر» رواه الإمام أحمد^(١٢).

وجاء رجل من باهلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد هزل جسده، وتغير لونه، من ديمومته على الصيام فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «من أمرك أن تعذب نفسك؟ صم شهر الصبر رمضان، وثلاثة أيام من كل شهر» رواه أحمد وأبو داود^(١٣).

وجاء في حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من سره أن يذهب كثير من وحر صدره فليصم شهر الصبر وثلاثة أيام من

(١١) جامع البيان (١/ ٢٥٩ - ٢٦٠).

(١٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨٤)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١٢)، والطيالسي (٢٣٩٣)، والنسائي في السنن الكبرى (٢٧١٦)، والبيهقي (٤/ ٢٩٣)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٧٥٧٦)، والألباني في صحيح الجامع (٣٨٠٣).

(١٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٨)، وأبو داود في الصيام باب في صوم أشهر الحرم (٢٤٢٨)، والنسائي في الكبرى (٢٧٤٣)، وابن ماجه في الصيام باب صيام أشهر الحرم (١٧٤١)، وعبد بن حميد (٣٤١)، والبيهقي (٤/ ٢٩١)، والطبراني في الكبير (٣٥٨/ ٢٢) برقم: (٩٠١)، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثنائي (١٢٥٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٩٤).

كل شهر»^(١٤)، قال الأصمعي والكسائي: وَحَرُّ الصَّدْر: غشه وبلا بله^(١٥). وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «صوم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر، ويذهب مَعَلَّةُ الصدر، قال: قلت: وما مَعَلَّةُ الصدر؟ قال: رجس الشيطان» رواه أحمد^(١٦).

أيها الإخوة: بان بهذه النصوص الكثيرة أن رمضان يُسمى شهر الصبر؛ وذلك لأن الصبر حبسٌ للنفس، والصائم يحبس نفسه عن مشتهاها من المأكَل والمشرب والنساء؛ طاعةً لله تعالى، قال سبحانه في الحديث القدسي: «يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي»، وأخبر سبحانه أن الصوم له فقال في الحديث القدسي: «الصوم لي وأنا أجزي به»^(١٧). وقد قال في الصبر: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

(١٤) أخرجه أحمد (٧٨/٥)، وعبد الرزاق في مصنفه (٧٨٧٧)، وابن أبي شبة (٣٦٦٣٥)، والنسائي في الصوم باب صوم الدهر (٢٠٨/٤)، وصححه ابن حبان (٦٥٥٧)، والألباني في صحيح الجامع (٣٨٠٤) من حديث النمر بن تولب رضي الله عنه.

(١٥) وحر الصدر: غشه ووساوسه، وقيل: الحقد والغيط، وقيل: العداوة، ويقال: «إن أصل هذا من الدويبة التي يقال لها: الوحرة، شبهت العداوة والغل بها، شبهوا العداوة ولزوقها بالصدر بالتزاق الوحرة بالأرض، وفي صدره وحرٌ أي: وغرٌ من غيط وحقد» اهـ من اللسان (٢٨١/٥)، مادة (وحر).

(١٦) أخرجه أحمد (١٥٤/٤)، والطيالسي (٤٨٢).

(١٧) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه البخاري في الصوم باب فضل الصوم (١٨٩٤)، ومسلم في الصيام باب فضل الصيام (١١٥١).

[الزمر: ١٠]، فعلم بذلك أن من الصابرين الذين يُوفون أجورهم بغير حساب: الصائمين، الذين صبروا عن شهواتهم؛ طاعة لله تعالى، وتقرباً إليه، فما أعظمها من منزلة ينالها الصائمون أن توفى لهم أجورهم بغير حساب! وأن يتولى الكريم الجواد الذي وسع فضله العالمين، وعمَّ إحسانه الخلق أجمعين، يتولى جزاءهم بلا مقدار يحدده، ولا ثواب يسميه؛ بل جعل ذلك إليه! والكريم يجزي على قدر كرمه، وربنا أكرم الأكرمين، ويعطي العطاء الجزيل، خزائنه لا تنفد، وعطاؤه لا ينقطع، فالمحروم من حرم فضل الجواد الكريم جل جلاله.

وما أكثر المحرومين في هذا الزمن الذي كثر فيه التكالب على الدنيا وشهواتها، وقلَّت الرغبة في الآخرة عند كثير من الناس؛ حتى إنهم ما صبروا عن المعاصي في شهر الصبر، ولا صبروا عما تشتهي أسماعهم وأبصارهم مما حرمه الله تعالى في رمضان وغير رمضان؛ فإذا ما أفطروا تحلقوا وأسرهم أمام الشاشات، يأكلون نعمة الله تعالى، ويشاهدون ما تشتهي أبصارهم؟

فماذا يشاهدون؟ وماذا يسمعون؟! إنهم يشاهدون برامج صنعت خصيصاً لرمضان؛ فيها مداعبة للغرائز، وإثارة للشهوات! وأعظم من ذلك وأشدُّ أنهم يجتمعون على مشاهدة برامج هزلية، ومسلسلات فكاهية، تتندر بأحكام الشريعة، وتسخر من الملة، وتستعزئ بعباد الله تعالى في أشكالهم وألوانهم، أو في لهجاتهم ولغاتهم، أو في لباسهم وهيئاتهم، أو في تصرفاتهم وحركاتهم.

برامج ومسلسلات مأفونة، قد تآزر فيها الفُجْرُ مع النفاق، والشر مع الفساد، تعلن رفضها الصريح لولاية الرجل على المرأة، وقوامة الزوج على الزوجة، والمحرمية للمرأة في السفر، ومشروعية تعدد الزوجات، وتكرّسُ تمرد البنات على آبائهن، والزوجاتِ على أزواجهن في مشاهد وحلقات هزلية، تسخر من حكم الشريعة، وتستعزى بمظاهر السنة من إكرام للحى، وتقصير للثياب، والتزام بالسواك، فلا تعرض هذه المظاهر وأمثالها إلا في صور دراويش منغلقيين، ومتخلفين رجعيين. صورٌ ومشاهدٌ قد انجذب إليها كثير من الصائمين، فلا يفطرون إلا عليها؛ لما فيها من أقوال هازلة، وحركات ماجنة، وتصرفات لا يفعلها إلا البُلهُ والمعاتيةُ من الناس، والأبله والمعتوه قد يأتي بما يضحك الناس، ولولا هذه المشاهد لما استحسناها الناس، وأقبلوا عليها!! وإضحاك الناس من خوارم المروءات عند الفقهاء، ومن شُهْرَ به فلا تقبل شهادته عند القضاة؛ لضعف عقله، وقلة مروءته، والقدح في عدالته.

ومع ذلك فكثير من الناس لا يتورع عن مجالس تحوي مثل هذا الخبال، ولا عن مسلسلات تعرضه، فكيف وفيها سخريّة بالدين وأهله، وحملته والتمسكين به، واستهزاء بعباد الله تعالى؟!

والله تعالى قال في حق من سخروا من القراء على عهد النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿أَبَاللّٰهُ وَأَيَّاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿[التوبة: ٦٥-٦٦]، فكيف بمن يسخر بالحجاب والتعدد، والمحرمية للمرأة في السفر، وأحكام القوامة والولاية، وغير

ذلك مما أوجبه الشريعة؟!

ووالله الذي لا إله إلا هو إن من صام ثم حضر تلك المجالس، واستلذ بتلك المشاهد، ليخشى عليه من رد الصيام والقيام، وحبوط الأعمال نسأل الله السلامة.

وقد جعل الله تعالى حضور مجالس المستهزين بالدين وأحكامه مثل المستهزين سواء بسواء إذا لم ينكروا عليهم، ويفارقوا مجالسهم، فقال سبحانه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، فإذا كان هذا هو الوعيد الشديد فيمن صادف مجلساً فيه استهزاء بالدين، فكيف بمن حضره قاصداً له، مصراً عليه، متفكهاً بمشاهد يُسخر فيها بشريعة الله تعالى؟! لا شك في أنه على خطر عظيم، ويؤىء بإثم كبير، إن لم يبادر بتوبة عاجلة.

والعجب كل العجب من أناسٍ يدعون الحمية الوطنية، ويزعمون أن الوطن جامعٌ للناس، وأن الدين يفرقهم، ثم إذا هم بمشاهدتهم الهزلية، ومسلسلاتهم الرخيصة؛ يكرسون الأحقاد، ويزرعون الضغائن، بالسخرية بلهجة أقوام من بني وطنهم، والهزء بعادات آخرين، وتصويرهم للمشاهدين في صور الحمقى والمغفلين، فهل يرضى هؤلاء وأولئك بأن تمس كرامتهم، ويُسخرَ من لسانهم وعاداتهم؟! إنها مشاهد ومسلسلات تفرق ولا تجمع، وتفسد ولا تصلح، وتهدم ولا تبني، وتستجلب سخط الجبار جلّ وعلا

ونقمته، فمن أنكرها فقد برئ، ومن جلس إليها وشاهدها فقد رضي ووافق، ويخشى على دينه.

فاتقوا الله ربكم، وحافظوا على صيامكم مما ينقصه ويذهب به، واحفظوا دينكم من هُزءِ المستهزين، وسخرية الساخرين، وتلاعب الفسقة الما جنين؛ فإن ربكم جلّ جلاله غيور يغار على حرّماته، وغيرته سبحانه أن تؤتى محارمه، فكيف بمن يسخر بأحكامه التي شرعها، وشعائره التي أنزلها؟! نعوذ بالله من ذلك، ونبرأ إليه مما فعل السفهاء منّا، اللهم لا تؤاخذنا بأقوالهم وأفعالهم، اللهم خصهم بنقمتك وعذابك، ولا تجعل ذلك عامّاً على عبادك.

اللهم إنا نبرأ إليك من كل فاسق وفاسقة، وفاجر وفاجرة، يسخرون بدينك، ويستهزئون بشريعتك، اللهم عاملهم بعدلك، وخصهم بعقابك، واحفظ المسلمين من شرهم ومكرهم إنك سميع مجيب.

ألا وصلوا وسلموا على من أمركم ربكم بالصلاة والسلام عليه، ،

٦٠- رمضان والعفو

١٢/٩/١٤٢٤هـ

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: خلق الله تعالى البشر، وجعل بعضهم سخرة لبعض، وفطرهم على الاستئناس ببعضهم، فهم يتعاملون ويتبايعون، ويتجالسون ويتزاورون، ويختلط بعضهم ببعض في غالب أوقاتهم.

ولما كانوا كذلك مجتمعين فإنه لا بد أن يقع منهم الخطأ والظلم والاعتداء بالفعل أو القول. والشريعة جاءت بإحقاق الحق، وإقامة

العدل، وإنصاف المظلوم، وردع الظالم، ورغبت في السماحة والعفو، والصفح وقبول العذر، ومقابلة السيئة بالحسنة، والقطيعة بالصلة، والجهل بالحلم، ورتبت على ذلك الأجور العظيمة، والثواب الجزيل من رب العالمين جل في علاه.

وربنا سبحانه وتعالى عفوٌ كريم يحب العفو، ويحب أهل العفو من خلقه، ويعلي منزلتهم، ويجزل ثوبتهم.

وكم يتجاوز سبحانه عن سيئات خلقه، ويعفو عنهم، يخلقهم ويرزقهم وهم يكفرونه، ويدفع عنهم البلايا والمحن فلا يشكرونه إلا من رحم الله تعالى وقليل ما هم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أحدٌ أصبر على أذى سمعه من الله، يدعون له الولد ثم يعافيه» ويرزقهم» رواه الشيخان^(١).

ومن عفوه سبحانه عن عباده أنه يقبل تائبهم، ويعفو عن مذنبهم ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥]، قال علي رضي الله عنه: «ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله تعالى حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وسأفسرها لك يا علي: ما أصابكم من مرضٍ أو عقوبةٍ أو بلاءٍ في

(١) أخرجه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه البخاري في التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] (٧٣٧٨)، ومسلم في صفات المنافقين باب في الكفار (٢٨٠٤).

الدنيا فيما كسبت أيديكم، والله تعالى أكرم من أن يثني عليهم العقوبة في الآخرة، وما عفا الله تعالى عنه في الدنيا فאלله تعالى أحلم من أن يعود بعد عفوہ» رواه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي^(٢).

وامتدح من عباده الكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، وجعل جزاءهم جنة عرضها السموات والأرض، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالعفو عن الناس، ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: «أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو من أخلاق الناس»^(٣) يعني قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، قال بعض السلف عن هذه الآية: «ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها»^(٤).

(٢) أخرجه أحمد (٨٥/١)، وأبو يعلى (٤٥٣)، وحسنه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند، (٦٤٩)، وأخرجه مختصراً أحمد (٩٩/١)، والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٤٤٥/٢)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٧٧٥).

(٣) أخرجه البخاري معلقاً في التفسير باب: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] (٤٦٤٤)، وأبو داود في الأدب باب في التجاوز في الأمر (٤٧٨٧)، والطبري في تفسيره (١٥٤/٩)، والحاكم (٢١٣/١).

(٤) معالم التنزيل للبغوي (٢١٣/١)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/٣٤٥)، وتفسير النسفي (٥٢/٢)، وروح المعاني للألوسي (١٤٧/٩).

وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام متخلقاً بأخلاق القرآن، مسترشداً بآياته، وقافاً عند أوامره ونواهيه، وما ترك العفو إلا في حرمة من حرمت الله تعالى تنتهك؛ فكان عليه الصلاة والسلام يغضب لله تعالى، ولا ينتصر لنفسه. وقد جاء من أوصافه في التوراة أنه عليه السلام: «لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر»^(٥)، وكم من مرة جهل عليه الجاهلون، واعتدى المعتدون، وآذاه المشركون والمنافقون؛ فصبر على أذاهم، ثم لما استمكن منهم، وخضعت له رقابهم؛ عفا عنهم، وتناسى ما جرى منهم، فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(٦).

قائده في ذلك كتاب الله تعالى الذي أمره بالعفو، وقدوته إخوانه من المرسلين قبله، فهذا إبراهيم عليه السلام قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ويوسف عليه السلام حسده إخوانه، وألقوه في الجُب، وجرت عليه العبودية من جراء ذلك، فصار يباع ويشترى، وأوذي وابتلي، فلما أعزه الله تعالى، وأمكنه من الانتصار لنفسه؛ عفا وصفح وقال: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، وهذا عيسى عليه السلام قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

(٥) أخرجه من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما البخاري في البيوع باب كراهية السخب في السوق (٢١٢٥)، وأحمد (٧٤/٢)، والبيهقي (٤٥/٧)، وجاء أيضاً من حديث عائشة وابن عباس وابن سلام وكعب رضي الله عنهم.

(٦) انظر: سيرة ابن هشام (٧٨/٤)، وسنن البيهقي (١١٨/٩).

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم، والتابعون لهم بإحسان رحمهم الله تعالى، كانوا يعفون عمن ظلمهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، ويحلمون على من جهل عليهم، نُقل عن عمر رضي الله عنه قوله: «كل الناس مني في حل»^(٧).

وسُرقت دراهم لابن مسعود رضي الله عنه، فدعا الناس على السارق، فقال ابن مسعود: «اللهم إن كان حمله على أخذها حاجةً فبارك له فيها، وإن كان حملته جرأةً على الذنب فاجعله آخر ذنوبه»^(٨).
وأُتي عبد الملك بن مروان بأسارى ابن الأشعث فقال لرجاء بن حيوة: «ماذا ترى؟ قال: إن الله تعالى قد أعطاك ما تحب من الظفر فأعط الله ما يحب من العفو، فعفا عنهم»^(٩).

وقد قال إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى يصف سلفنا الصالح: «كانوا يكرهون أن يُستذكروا، فإذا قدرُوا عَفَوْا»^(١٠).

إن العفو مقامٌ يلحظه أهل اليقين، ومنزلة تليق بالمتقين، الذين يؤثرون الآجلة على العاجلة، ويرجون ثواب الله في الآخرة، ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

(٧) الآداب الشرعية لابن مفلح (١/٧١).

(٨) انظر: إحياء علوم الدين (٣/١٨٤).

(٩) إحياء علوم الدين (٣/١٨٤).

(١٠) أخرجه البخاري معلقاً في المظالم باب الانتصار من الظالم، وذكر الحافظ

ابن حجر في الفتح أن عبد بن حميد وابن عيينة وصلاه في تفسيريهما (٥/

أنهم هذا الأجر، فلم تتناول الآية ذكر ماهيته وكميته، وإنما أسندت ذلك إلى الله عز وجل، ومن كان أجره على الله تعالى فلن يخاف قلة الأجر، ولن يخشى أي بخس، فالله جواد كريم، عفو رحيم، يعطي العطاء الجزيل.

وليس ذلك في الآخرة فحسب، فالعبد قد ينال بفضل الله عز وجل أجراً في الدنيا جزاءً على عفوهِ مع أجر الآخرة المدخر له؛ كما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» رواه مسلم^(١١).

ولما كان أكثر الناس معاشرة لك أهلك وولدك كانوا أحوج الناس إلى صفحك وعفوك؛ لأن الخطأ يكثر منهم، والجهل يغلب عليهم، وإساءتهم تتكرر، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤]. وخدمك يحتاجون إلى عفوك عن أخطائهم، وصفحك عن زلاتهم، وقد جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله، كم نغفو عن الخادم؟ فصمت النبي صلى الله عليه وسلم، فأعاد عليه الكلام فصمت، فلما كان في الثالثة قال صلى الله عليه وسلم: «اعفوا

(١١) أخرجه مسلم في البر والصلة باب استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨)، وأحمد (٢/٢٣٥)، والترمذي في البر والصلة باب ما جاء في التواضع (٢٠٢٩)، وابن خزيمة (٢٤٣٨)، والبغوي في شرح السنة (١٦٣٣).

عنه في كل يوم سبعين مرة» رواه أبو داود^(١٢).

وكان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم كثرة سؤال الله تعالى العفو والعافية؛ كما روى ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي» رواه أبو داود وابن ماجه^(١٣). وكان من دعائه في آخر وتره من الليل: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك» رواه أبو داود^(١٤).

(١٢) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أحمد (١١١/٢)، وأبو داود في الأدب باب في حق المملوك (٥١٦٤)، والترمذي في البر والصلة باب ما جاء في العفو عن الخادم، وقال: حسن غريب (١٩٤٩)، والبيهقي (١٠/٨)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٥٨٩٩).

(١٣) أخرجه أحمد (٢٥/٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٥/٦) برقم: (٢٩٢٧٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٩٨)، وأبو داود في الأدب باب ما يقول إذا أصبح وإذا أمسى (٥٠٧٤)، والنسائي في الاستعاذة باب الاستعاذة من الخسف (٨/٢٨٢)، وابن ماجه في الدعاء باب ما يدعو الرجل إذا أصبح وإذا أمسى (٣٨٧١)، وصححه ابن حبان (٩٦١)، والحاكم ووافقه الذهبي (٥١٧/١)، والشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٤٧٨٥).

(١٤) أخرجه من حديث علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أبو داود في الوتر باب القنوت في الوتر (١٤٢٧)، والنسائي في قيام الليل باب الدعاء في الوتر (٣/٢٤٨)، والبيهقي (٤٢/٣)، والطيالسي (١٢٣)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣٠٦/١)، وجاء عن عائشة رضي الله عنها أنه قاله في السجود، أخرجه مسلم في الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٦).

فحري بالمسلم أن يتخلق بالعتو والصفح، ويتجاوز عن المسيء، ويُعرض عن الجاهل؛ حتى ينال منازل أهل العفو، ويسأل الله تعالى الإعانة على نفسه الأمانة بالسوء، الجامحة به إلى الانتقام والانتصار، كما يسأله العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ، ،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - كما أمر، واجتنبوا الفواحش ما بطن منها وما ظهر؛ فإن الأيام تجري، والأعمار تمضي، ولن ينفع العبد في الآخرة إلا إيمانه وتقواه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

أيها الناس: شهر رمضان شهر العفو والغفران، والرحمة والإحسان، والعتق من النار؛ فكم يعفو فيه الرب عن ذنوب عباده، ويقبل التائبين، ويتجاوز عن المذنبين، ويعتق خلقاً كثيراً من النار؟! .

وأولى الناس بعفو الله عزَّ وجلَّ أهلُ العفو من خلقه، الذين صاموا فصانوا الصيام، وقاموا فأحسنوا القيام، فإن جهل عليهم أحد، واعتدى بسب أو شتم أو قتال حجزهم صيامهم عن الانتصار لأنفسهم، وقابلوا ذلك بالصفح والعفو؛ ولذلك كان الصيام جُنَّةً، يستجن بها العبد مما يقبح من قول أو فعل؛ كما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الصيام جنة فلا يرفث ولا يجهل، وإن امروء قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم، إني صائم» رواه الشيخان^(١٥). وفي لفظ لابن خزيمة: «لا تساب وأنت صائم فإن سابك أحد فقل إني صائم، وإن كنت قائماً فاجلس»^(١٦).

وفي لفظ آخر: «ليس الصيام من الأكل والشرب إنما الصيام من اللغو والرفث»^(١٧).

وفي لفظ لابن حبان: «فمن كان صائماً فلا يرفث ولا يجهل فإن امروء شتمه أو آذاه فليقل: إني صائم، إني صائم»^(١٨). إنه يقابل من شاتمه أو آذاه بقوله: «إني صائم، إني صائم» يقولها

(١٥) أخرجه مالك (١/ ٣١٠)، وأحمد (٢/ ٢٤٥)، والبخاري في الصوم باب هل يقول إني صائم إذا شتم (٤/ ١٩٠)، ومسلم في الصيام باب حفظ اللسان للصائم (١١٥١).

(١٦) صحيح ابن خزيمة (١٩٩٤).

(١٧) صحيح ابن خزيمة (١٩٩٦)، ونحو هذا اللفظ عند ابن حبان (٣٤٧٩)، والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي (١/ ٤٣٠ - ٤٣١).

(١٨) صحيح ابن حبان (٣٤١٦).

جهرأ سواء كان الصيام فرضاً أم نفلاً؛ ليجبس نفسه عن الانتصار والانتقام؛ وليبين عذره لخصيمه في إمساكه عن الرد، وهذا أشد زجراً لمن بدأه بالعدوان^(١٩).

(١٩) اختلف العلماء في هذه المسألة على أقوال:

الأول: أنه يقول ذلك بلسانه ليسمعه خصيمه فيزجره عن نفسه.
 الثاني: أنه يقول ذلك لنفسه، أي لا يُسمعُ صاحبه، وذلك خوفاً من الرياء.
 قال النووي في المجموع (٣٩٨/٦): «والتأويلان حسان، والأول أقوى، ولو جمع بينهما لكان ذلك حسناً».
 الثالث: التفريق بين صيام الفرض وصيام النفل، ففي الفرض يجهر به مطلقاً، وفي النفل يقوله في نفسه خشية الرياء.
 وذكر ابن العربي فيما نقله عنه الشوكاني في نيل الأوطار: «أن الخلاف إنما هو في التطوع، وأما في الفرض فليقل بلسانه قطعاً» (٢٤٧/٤).
 ورجحه ابن القيم فقال في زاد المعاد (٥٢/٢): «فأمره أن يقول لمن سابه: «إني صائم» فقل: يقول بلسانه، وهو أظهر، وفي التطوع في نفسه؛ لأنه أبعد عن الرياء».
 والراجح القول الأول؛ لأنه ظاهر الحديث، فلم يفرق فيه بين الفرض والنفل، فيبقى على عمومه، ثم إنه قال في الحديث «إذا كان صوم يوم أحدكم» فنسب الصيام إلى الشخص وهذا يدخل فيه النفل قطعاً.
 قال القرطبي في المفهم (٣١٥/٣): «وظاهره - أي الحديث - أن الصائم يقول ذلك القول المأمور به للساب ليسمعه؛ وليعلمه اعتصامه بالصوم، فيتكف عن سبه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في منهاج السنة النبوية (٥/١٩٧) بعد أن ساق الأقوال الثلاثة: «والصحيح أنه يقوله بلسانه كما دل عليه الحديث، فإن القول المطلق لا يكون إلا باللسان، وأما في النفس فمقيد كقوله: «عما حدثت به أنفسها» ثم قال: «ما لم تتكلم أو تعمل به» فالكلام المطلق إنما =

وفي رمضان ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر، أرشد النبي صلى الله عليه وسلم من أدركها إلى أن يسأل الله تعالى العفو؛ فقد روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «قلت: يا رسول الله، أرأيت إن

= هو الكلام المسموع، وإذا قال بلسانه إني صائم بين عذره في إمساكه عن الرد، وكان أزجر لمن بدأه بالعدوان» اهـ.

وقال في الفتاوى الكبرى: (٤/ ٤٦٠): «وإذا شتم الصائم استحَب أن يجيب بقوله: «إني صائم» وسواء كان الصوم فرضاً أو نفلاً وهو أحد الوجوه في مذهب أحمد» اهـ.

ورجحه أيضاً ابن مفلح في الفروع (٣/ ٦٦) فقال عقب نقله لكلام شيخ الإسلام: «وهو ظاهر الحديث وكلام الأصحاب» اهـ.

وانظر: كشاف القناع (٢/ ٣٣١) وشرح منتهى الإرادات (١/ ٤٨٨)، والتمهيد لابن عبد البر (١٩/ ٥٥ - ٥٦)، والاستذكار (١٠/ ٢٤٦).

تنبيهه: ورد في الحديث عند البخاري ومسلم وغيرهما لفظ: «فإن سابه أحد أو قاتله» ولفظ: «فإن امرؤ شاتمه أو قاتله» اختلف في معنى المقاتلة هنا فهي تحتمل حقيقة القتال، وقد يراد بها الشتم والسباب؛ لأن اللعن والشتم يطلق عليه قتل، وقد جزم ابن عبد البر في الاستذكار بأن المعنى في الحديث: مقاتلته بلسانه (١٠/ ٢٤٦).

ولو اعتدى عليه أحد باليد يريد مقاتلته فله دفعه بالأخف كالقول والتهديد ونحوه، فإن لم يندفع فهو كالصائل له مقاتلته ولو كان صائماً حماية لنفسه، قال الحافظ: «وفائدة قوله: إني صائم، أنه يمكن أن يكف عنه بذلك فإن أصرَّ دفعه بالأخف فالأخف كالصائل، هذا فيمن يروم مقاتلته حقيقة، فإن كان المراد بقوله: «قاتله»: شاتمه؛ لأن القتل يطلق على اللعن، واللعن من جملة السب - ويؤيده ما ذكرت من الألفاظ المختلفة فإن حاصلها يرجع إلى الشتم - فالمراد من الحديث أنه لا يعامله بمثل عمله بل يقتصر على قوله: «إني صائم» اهـ من الفتحة (٤/ ١٢٦).

وافقت ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: قولي: اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني» رواه أحمد والترمذي وصححه (٢٠).

وهذا الدعاء الجامع من أنفع الدعاء؛ فالعفو في الدنيا تكون نتيجته العافية، وإذا عافاه الله تعالى سلمه من المصائب والابتلاءات والمكاره في الدنيا. والعفو في الآخرة يستلزم النجاة من النار، ودخول الجنة، فمن عفا الله تعالى عنه عافاه في الدنيا والآخرة، ومن عافاه في الدنيا والآخرة فلن يعرف المكاره والمصائب، ولن تفارقه السعادة والحبور، فنسأل الله تعالى أن يعفو عنا، اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عنا، اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة. ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك ربكم...

(٢٠) أخرجه أحمد (١٧١/٦) وإسحاق بن راهويه في مسنده (١٣٦١)، والترمذي في الدعوات باب في فضل سؤال العافية والمعافاة، وقال: حسن صحيح (٣٥١٣)، وابن ماجه في الدعاء باب الدعاء بالعفو والعافية (٣٨٥٠)، والنسائي في السنن الكبرى (٧٧١٢)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٤٧٤)، والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٥٣٠/١).

٦١- العشر الأواخر والدعاء (١)

الجمعة ١٤١٧/٩/٢٢هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فعندما تنزل الحاجة بالعباد فإنه ينزلها بأهلها الذين يقضونها، وحاجات العباد لا تنتهي. يسألون قضاءها المخلوقين؛ فيجابون تارة ويردون أخرى. وقد يعجز من أنزلت به الحاجة عن قضائها. لكن العباد يغفلون عن سؤال من يقضي الحاجات كلها؛ بل لا تقضى حاجة دونه، ولا يعجزه شيء، غني عن العالمين وهم مفتقرون إليه. إليه ترفع الشكوى، وهو منتهى كل نجوى، خزائنه ملأى، لا تغيضها نفقة، يقول لعباده ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)﴾

[النحل].

كل الخزائن عنده، والملك بيده ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) [الملك] ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١) [الحجر]، يخاطب عباده في حديث قدسي فيقول: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر» أخرجه مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه ^(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٥) [فاطر].

لا تنقص خزائنه من كثرة العطايا، ولا ينفد ما عنده، وهو يعطي العطاء الجزيل ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «يدُ الله ملأى لا تغيضها نفقه، سحَاءُ الليل والنهار، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ» أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري ^(٢).

أيها الإخوة: هذا غنى الله، وهذا عطاؤه، وهذه خزائنه، يعطي العطاء الكثير، ويجود في هذا الشهر العظيم؛ لكن أين السائلون؟ وأين

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم في البر والصلة باب تحريم الظلم (٢٥٧٧).

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب

التفسير باب (وكان عرشه على الماء) وهذا لفظه، (٦٨٤) ومسلم في الزكاة

باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (٩٩٣) والترمذي في تفسير

القرآن باب ومن تفسير سورة المائدة بلفظ: يمين الرحمن ملأى (٣٠٤٥).

من يحولون حاجاتهم من المخلوقين إلى الخالق؟ أين من طرّقوا الأبواب فأوصدت دونهم؟ وأين من سألوا المخلوقين فرّدوا؟ أين هم؟ دونكم أبواب الخالق مفتوحة! يحب السائلين فلماذا لا تسألون؟ ينزل كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر ينادي في عباده «من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له، من يدعوني فأستجيب له»^(٣).

ونحن نعيش أفضل الليالي، ليالٍ تُعظّم فيها الهبات، وتنزل الرحمات، وتقال العثرات، وترفع الدرجات. فهل يعقل أن تقضى تلك الليالي في مجالس الجهل والزور، ورب العالمين ينزل فيها ليقضي الحوائج. يطلع على المصلين في محاريبهم، قانتين خاشعين، مستغفرين سائلين داعين مخلصين، يُلحّون في المسألة، ويرددون دعاءهم: ربنا ربنا. لانت قلوبهم مع سماع القرآن، واشربت نفوسهم إلى لقاء الملك العلام، واغرورقت عيونهم من خشية الرحمن. فهل هؤلاء أقرب إلى رحمة الله تعالى وأجدر بعطاياه أم قوم قضوا ليلهم فيما حرم الله، وغفلوا عن دعائه وسؤاله؟ كم يخسرون زمن الأرباح؟ وساء ما عملوا؟ ما أضعف همهم، وما أخط نفوسهم، لا يستطيعون الصبر ليالي معدودات!! أيها الإخوة المؤمنون: هذا زمن الريح، وفي تلك الليالي تقضى الحوائج فعلقوا حوائجكم بالله العظيم، فالدعاء من أجل العبادات

(٣) قطعة من حديث أخرجه البخاري في التهجد باب الدعاء والصلاة من آخر الليل (١١٤٥) ومسلم بعدة روايات في صلاة المسافرين وقصرها باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه (٧٥٨).

وأشرفها، والله لا يخيب من دعاه ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴿[الأعراف].

وآيات الصيام جاء عقبها ذكرُ الدعاء ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] قال بعض المفسرين: «وفي هذه الآية إيماءٌ إلى أن الصائم مرجو الإجابة، وإلى أن شهر رمضان مرجوة دعواته، وإلى مشروعية الدعاء عند انتهاء كل يوم من رمضان»^(٤) والنبى صلى الله عليه وسلم يقول: «ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء» أخرجه الترمذي وحسنه^(٥). بل إن الله تعالى يغضب إذا لم يُسأل؛ كما قال النبى عليه الصلاة والسلام: «من لم يسأل الله يغضب عليه» أخرجه أحمد^(٦).

(٤) التحرير والتنوير للظاهر ابن عاشور (١٧٩/٢).

(٥) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الدعوات باب ما جاء في فضل الدعاء وقال: حسن غريب (٣٣٧٠) وابن ماجه في الدعاء باب فضل الدعاء (٣٨٢٩) وصححه ابن حبان (٨٧٠) والحاكم ووافقه الذهبي (٤٩٠/١).

(٦) أخرجه أحمد (٤٤٢/٢) والترمذي في الدعوات باب من لم يسأل الله يغضب عليه (٣٣٧٣) وابن ماجه في الدعاء باب فضل الدعاء (٣٨٢٧) وحسنه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٩٦٩٩) ثم الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٣٨/٣).

ومهما سأل العبد فالله يعطيه أكثر، عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعةٌ رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها. قالوا: إذا نكث، قال: الله أكثر» أخرجه أحمد^(٧).

وإذا دعا العبد استحيا الله منه كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن ربكم تبارك وتعالى حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً»^(٨).

والدعاء يرد القضاء كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر» أخرجه الترمذي وحسنه^(٩). وفي حديث آخر قال: «الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم

(٧) أخرجه أحمد (١٨/٣) وأبو يعلى كما في المقصد العلي للهيتمي (١٦٩١) والبخاري كما في كشف الأستار (٣١٤٣-٣١٤٤) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤٩٣/١) قال الهيتمي في مجمع الزوائد: ورجال أحمد وأبي يعلى وأحد إسنادي البخاري رجال الصحيح غير علي بن علي الرفاعي وهو ثقة (١٠/١٤٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٨) أخرجه أبو داود في الوتر باب الدعاء (١٤٨٨) والترمذي في الدعوات باب: إن الله حيي كريم، وحسنه (٣٥٥٦) وابن ماجه في الدعاء باب رفع اليدين في الدعاء (٣٨٦٥) والحاكم وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي (٤٩٧/١).

(٩) أخرجه الترمذي في القدر باب ما جاء: لا يرد القدر إلا الدعاء وقال: حسن غريب (٢١٣٩) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤٩٣/١) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٤).

عباد الله بالدعاء» أخرجه أحمد والحاكم^(١٠).

إن الدعاء فيه ذلٌ وخضوع لله تعالى، وانكسارٌ وانطراح بين يديه، قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «وقد كان بعض الخائفين يجلس بالليل ساكناً مطرقاً برأسه ويمد يديه كحال السائل، وهذا من أبلغ صفات الذل وإظهار المسكنة والافتقار، ومن افتقار القلب في الدعاء، وانكساره لله عز وجل، واستشعاره شدة الفاقة إليه، والحاجة لديه. وعلى قدر الحرقة والفاقة تكون إجابة الدعاء، قال الأوزاعي: كان يقال: أفضل الدعاء الإلحاح على الله والتضرع إليه» اهـ^(١١).

أيها الإخوة: من سأل الله تعالى وفي قلبه كبرٌ وعُجبٌ إما بكثرة ما يرى من طاعته وعبادته، أو بماله وجاهه وقوته فهو حريٌّ بالرد لمنافاته كمال الذل، ومن أسباب رد الدعاء: أكلُ الحرام، وعدمُ التحري في كسب المال، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أيها الناس: إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥١) [المؤمنون] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب! يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه

(١٠) أخرجه أحمد (٢٣٤/٥) والحاكم (٤٩٣/١) وحسنه الألباني في صحيح

الجامع (٣٤٠٢).

(١١) الخشوع في الصلاة لابن رجب (٧٢).

حرام، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ فَأَتَى يُسْتَجَابُ لَذَلِكَ» أخرجه مسلم ^(١٢).
وفي مقابل هذا قد يوجد من لا يؤبه به لفقره وضعفه وذلته؛ لكنه
عزيز على الله تعالى لا يرد له سؤالاً، ولا يخيب له دعوة، كالمذكور
في قول النبي صلى الله عليه وسلم «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو
أقسم على الله لأبره» أخرجه مسلم ^(١٣).

فاتقوا الله ربكم، وطيبوا مكاسبكم، وألحوا في الدعاء على الله
تعالى؛ فإن الله تعالى يحب الملحين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ
أُجِيبُ دُعَاةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦)
[البقرة] بَارَكَ اللَّهُ وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله صلى الله عليه وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على
نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن من الخطأ أن يترك المرء الدعاء؛ لأنه يرى أنه لم
يستجب له، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يستجاب لأحدكم

(١٢) أخرجه مسلم في الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها

(١٠١٥) والترمذي في التفسير باب ومن سورة البقرة (٢٩٩٢).

(١٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والأدب باب فضل الضعفاء والخاملين (٢٦٢٢).

مالك يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي» متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه^(١٤).

قال مُورِّقُ العجلي: «ما امتلأت غضباً قط ولقد سألت الله حاجة منذ عشرين سنة فما شفّعني فيها وما سئمت من الدعاء»^(١٥).

وكان السلف يحبون الإطالة في الدعاء قال مالك: «ربما انصرف عامر بن عبد الله بن الزبير من العتمة فيعرض له الدعاء فلا يزال يدعو إلى الفجر»^(١٦). ودخل موسى بن جعفر بن محمد مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسجد سجدة في أول الليل فسمع وهو يقول في سجوده: «عظمُ الذنبُ عندي فليحسنِ العفوُ عندك يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة، فما زال يرددّها حتى أصبح»^(١٧).

وينبغي - أيها المسلم - أن تقتفي أثر الأنبياء في الدعاء، سئل مالك عن الداعي يقول: يا سيدي، فقال: «يعجبني دعاء الأنبياء: ربنا ربنا»^(١٨).

واجتنابُ المعاصي والذنوب سبب لإجابة الدعاء، قال يحيى بن

(١٤) أخرجه البخاري في الدعوات باب يستجاب للعبد ما لم يعجل (٣٦٤٠)

ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب بيان أنه يستجاب للداعي ما

لم يعجل فيقول: دعوت فلم يستجب لي (٢٧٣٥).

(١٥) جامع العلوم والحكم (١/١٤٦) والسير (٤/٣٥٥).

(١٦) الحلية (٣/١٦٦) والسير (٥/٢٢٠).

(١٧) السير (٦/٢٧١).

(١٨) السير (٨/٩٧).

معاذ: «لا تستبطن الإجابة وقد سددت طريقها بالذنوب»^(١٩).

أيها الإخوة: هذا بعض ما يقال في الدعاء، ونحن في أيام الدعاء وإن كان الدعاء في كل وقت؛ لكنه في هذه الأيام أكد؛ لشرف الزمان، وكثرة القيام. فاجتهدوا في هذه الأيام الفاضلة فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشد فيها مئزره، ويحيي ليله، ويوقظ أهله. كان يقضيها في طاعة الله تعالى؛ إذ فيها ليلة القدر لو أحيا العبد السنة كلها من أجل إدراكها لما كان ذلك غريباً أو كثيراً لشرفها وفضلها، فكيف لا يُصبر العبد نفسه ليالي معدودة؟!

فاحرصوا على اغتنام هذه العشر، وأروا الله تعالى من أنفسكم خيراً. فلربما جاهد العبد نفسه في هذه الأيام القلائل فقبل الله تعالى منه، وكتب له سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وهي تمرُّ على المجتهدين واللاهين سواء بسواء؛ لكن أعمالهم تختلف، كما أن المدون في صحائفهم يختلف، فلا يغرنكم الشيطان فتضيع هذه الأيام كما ضاع مثيلاتها من قبل.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من المقبولين، ومن عباده الصالحين، وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

٦٢- العشر الأواخر والدعاء (٢)

الجمعة ٢١/٩/١٤١٩ هـ

الحمد لله، جاد على عباده فشرع لهم مواسم الخيرات، وامتن عليهم بجزيل العطايا والهبات، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره؛ خزائنه ملاءى، وإنعامه لا يعد ولا يحصى. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، ويبيده الضر والنفع، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ ما دخلت عشر رمضان إلا شد منزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الناس اتقوا الله ربكم، واغتنموا ما بقي من شهركم، فيوشك على الانقضاء، وإذا ما انقضى فيوشك أن لا ترى في الليل راکعاً، ولا بالدعاء في الأسحار لاهجاً. والأيام تمضي، والعمر ينقضي، وما أشد الغفلة، وأقل الانتباه.

أيها المؤمنون: لا يوجد مؤمن صحيح الإيمان إلا ويعلم أن النافع الضار هو الله سبحانه، وأنه تعالى يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ويرزق من يشاء بغير حساب، وأن خزائن كل شيء بيده، وأنه تعالى لو أراد نفع عبد فلن يضره أحد ولو تمالأ أهل الأرض كلهم عليه، وأنه لو أراد الضر بعبد لما نفعه أهل الأرض ولو كانوا معه. لا يوجد مؤمن إلا وهو يؤمن بهذا كله؛ لأن من شك في شيء من ذلك فليس بمؤمن

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)﴾ [يونس: ١٠٧].

نعم والله لا ينفع ولا يضر إلا الله تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ (٥٣)﴾ [النحل] ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] سقطت كل الآلهة، وتلاشت كل المعبودات وما بقي إلا الله تعالى ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح: ١١].

لا يسمع دعاء الغريق في لجة البحر إلا الله. ولا يسمع تضرع الساجد في خلوته إلا الله. ولا يسمع نجوى الموتور المظلوم وعبرائه تردد في صدره، وصوته يتحشرج في جوفه إلا الله. ولا يرى عبدة الخاشع في زاويته والليل قد أسدل ستاره إلا الله ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨)﴾ [طه].

يغضب إذا لم يُسأل، ويحب كثرة الإلحاح والتضرع، ويحب دعوة المضطر إذا دعاه، ويكشف كرب المكروب إذا سأله ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾ [النمل].

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من

يستغفرني فأغفر له؟» متفق عليه ^(١).

الله أكبر، فضلٌ عظيم، وثواب جزيل من رب رحيم، فهل يليق بعد هذا أن يسأل السائلون سواه؟ وأن يلوذ اللائذون بغير حماه؟ وأن يطلب العباد حاجاتهم من غيره؟ أيسألون عبيداً مثلهم، ويتركون خالقهم؟! أيلجؤون إلى ضعفاء عاجزين، ويتحولون عن القوي القاهر القادر؟! هذا لا يليق بمن تشرف بالعبودية لله تعالى، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تُسدَّ فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل» صححه الترمذي والحاكم ^(٢).

إن الدعاء من أجلّ العبادات؛ بل هو العبادة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم؛ ذلك لأن فيه من ذلّ السؤال، وذلّ الحاجة، والافتقار لله تعالى، والتضرع له، والانكسار بين يديه، ما يظهر حقيقة العبودية لله تعالى؛ ولذلك كان أكرم شيء على الله تعالى كما قال النبي عليه الصلاة

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب قوله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] (٧٤٩٤) ومسلم في صلاة المسافرين باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه (٧٥٨).

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة باب في الاستعفاف (١٦٤٥) والترمذي في الزهد باب ما جاء في الهم في الدنيا وحبها وقال: حديث حسن صحيح غريب (٢٣٢٦) والحاكم وصححه (٥٤٣/١).

والسلام: «ليس شيءٌ أكرم على الله من الدعاء» صححه الحاكم وابن حبان والذهبي^(٣).

وإذا دعا العبد ربه فهو أقربُ إليه من نفسه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «في ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر كما روى ابن ماجه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم «إن للصائم عند فطره دعوةٌ ما ترد»^(٤).

دعوةٌ عند الفطر ما ترد، ودعاءٌ في ثلث الليل الآخر مستجاب، وليلةٌ خير من ألف شهر، فالدعاء فيها خير من الدعاء في ألف شهر. ما أعظمه من فضل! وأجزله من عطاء في ليالٍ معدودات. فمن يملك نفسه وشهوته، ويستزيد من الخيرات، وينافسُ في الطاعات، ويكثرُ

(٣) أخرجه أحمد (٣٦٢/٢) والطيالسي (٢٥٣/١) والترمذي في الدعوات باب ما جاء في فضل الدعاء وقال: حسن غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمران القطان (٣٣٧٠) وابن ماجه في الدعاء باب فضل الدعاء (٣٨٢٩) وصححه ابن حبان (٨٧٠) والحاكم ووافقه الذهبي (٤٩٠/١) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (١٣٨/٣).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٣٢٨/١) عند تفسير الآية (١٨٦) من سورة البقرة، والحديث أخرجه ابن ماجه في الصيام باب في الصائم لا ترد دعوته (١٧٥٣) وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (٣٨/٢).

التضرع والدعاء؟!

ومهما أكثر العبدُ من الدعاء فخرائن الله أكثر، وعطاؤه أكثر، وهو تعالى أكرم، يقول النبي عليه الصلاة والسلام «ما على وجه الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله تعالى إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، فقال رجل من القوم: فإذا نكث، قال: الله أكثر» صححه الترمذي والحاكم^(٥)، فالله تعالى أكثر إجابة، وأكثر عطاءً.

والله تعالى يعطي عبده على قدر ظنه به، فإن ظن أن ربه غني كريم جواد، وأيقن بأنه تعالى لا يخيب من دعاه ورجاه، مع التزامه بآداب الدعاء أعطاه الله تعالى كلَّ ما سأل وزيادة، ومن ظن بالله غير ذلك فبئس ما ظن، يقول الله تعالى في الحديث القدسي «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني» متفق عليه^(٦).

وإذا أكثر العبدُ الدعاءَ في الرخاء فإنه مع ما يحصل له من الخير العاجل والآجل يكون أخرى بالإجابة إذا دعا في حال شدته من عبد لا يعرف الدعاء إلا في الشدائد. روى أبوهريرة رضي الله عنه عن

(٥) أخرجه أحمد (١٨/٣) والترمذي في الدعوات باب في انتظار الفرج وغير ذلك وقال: حسن صحيح غريب (٣٥٧٣) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤٩٧/١).

(٦) أخرجه البخاري في التوحيد باب قول الله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] (٧٥٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٥) وزيادة «وأنا معه إذا دعاني» لمسلم دون البخاري.

النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر من الدعاء في الرخاء» صححه الحاكم ووافقه الذهبي^(٧).
ومع أن الله تعالى خلق عبده ورزقه، وأنعم عليه وهو غني عنه؛ فإنه تعالى يستحي أن يرده خائباً إذا دعاه، وهذا غاية الكرم، والله تعالى أكرم الأكرمين. روى سلمان رضي الله عنه فقال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله حييٌ كريمٌ يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خاليتين» حسنه الترمذي وصححه الحاكم وابن حبان^(٨).

أيها الإخوة: كانت تلك جملة من فضائل الدعاء وأثره، وهذه أيام الدعاء وإن كان الدعاء في كل وقت، ولكن من لم يكثُر من الدعاء في هذه الأيام والليالي التي لها مزية فضل على غيرها، وخصت بليلة هي خير من ألف شهر، فمتى يا ترى يدعو الله تعالى؟!
أسأل الله تعالى أن لا يجعلني وإياكم من المحرومين؛ فإن المحروم من حرم فضل الله تعالى ورحمته، وفرط في أمره وطاعته.

(٧) أخرجه الترمذي في الدعاء باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة وقال: حسن غريب (٣٢٨٢) والحاكم في المستدرک وصححه ووافقه الذهبي (٥٤٤/١).
(٨) أخرجه أبو داود في الوتر باب الدعاء (١٤٨٨) والترمذي في الدعوات باب إن الله حيي كريم وحسنه (٣٥٥٦) وابن ماجه في الدعاء باب رفع اليدين في الدعاء (٣٨٦٥) والحاكم في المستدرک وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي (٤٩٧/١).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [٦٠] ﴿ غافر: ٦٠ ﴾
بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى .
أحمده وأشكره ، وأتوب إليه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك
عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين .

أما بعد: فاتقوا الله تعالى ، وأكثروا من الدعاء في هذه الأيام
المباركة ، وأخلصوا لله تعالى في دعائكم وأعمالكم ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ
لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [١٤] ﴿ غافر ﴾ ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا
يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [٥٥] وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا
إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [٥٦] ﴿ الأعراف ﴾ قال ابن جرير رحمه
الله تعالى : « تَضَرُّعًا : تَذَلُّلاً وَاسْتِكَانَةً لِّطَاعَتِهِ ، وَخُفْيَةً : بِخُشُوعِ قُلُوبِكُمْ ،
وَصَحَّةِ الْيَقِينِ بُوْحْدَانِيَّتِهِ وَرَبُوبِيَّتِهِ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ ، لَا جَهَاراً وَلَا مَرَاءةً ،
وَقُلُوبِكُمْ غَيْرَ مَوْقِنَةٍ بِوَاِحْدَانِيَّتِهِ وَرَبُوبِيَّتِهِ ، فَعَلَ أَهْلُ النِّفَاقِ وَالْخِدَاعِ لِلَّهِ
تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » (٩) .

قال الحسن : « إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ،

وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده زواره وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عملٍ يقدر أن يعملوه في السر فيكون علانيةً أبداً. لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم وذلك أن الله يقول ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] وذلك أن الله تعالى ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (٣) [مريم] وقال ابن جريج: يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء، ويؤمر بالتضرع والاستكانة^(١٠).

أيها الإخوة: هذه الليالي العشر سوق المؤمنين، وربحها مضمون لمن وفقه الله وقبل منه، فمن أشد حرماناً ممن أضاع على نفسه الفرصة. ليالٍ تقسم فيها الغنائم، وتوزع الأرزاق، وتفتح الأبواب، وتنزل الرحمات، فهل يليق بمسلم أن تمضي عليه وهو في نوم وغفلة؟ فكيف إذا كان يقضيها في محرم وعلى معصية؟! فنعوذ بالله من الخذلان، ونعوذ به من الحرمان. فاجتهدوا فيها، وأروا الله من أنفسكم خيراً، وأكثروا الدعاء والتضرع والإلحاح على الله تعالى وأنتم موقنون بالإجابة؛ ففي ذلك خيرٌ كثيرٌ، ثم صلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم.

(١٠) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥٤) عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأعراف.

٦٣- العشر الأواخر والاعتكاف

الجمعة ١٩/٩/١٤٢٤هـ

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: مع تعدد المشاغل، وكثرة الصوارف؛ تمضي الأيام والليالي ولا يشعر الناس بها، حتى تنقضي الأعمار سريعاً، ولما تنته الأعمال، ولا قضيت كل الحاجات، وما من مقبور إلا وله أعمالٌ كان سينجزها لكن الموت حال بينه وبينها! وينتهي العمر ولا تنتهي أشغال الإنسان وحاجاته. والمغبون من ضاع عمره فيما لا ينفع، أو كان نفعه

مقصوراً على حظ الدنيا، والرابع من بنى آخرته ولو فاته شيء من الدنيا، على أن ما كتب له منها سيناله؛ إذ لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها.

إن من مساوئ انفتاح الدنيا على الناس اشتغالهم بالفضول، وفضول الفضول من شؤون الدنيا، وغفلتهم عن الآخرة، حتى يتمنى الواحد منهم ساعة في يومه وليلته يقرأ فيها القرآن، ويذكر الله عزَّ وجلَّ، فلا يجد تلك الساعة؛ لكثرة مشاغله، وتعدد صوارفه، وضيق وقته، ويعد نفسه بأنه سيفرغها لطاعة الله تعالى في مستقبل عمره، بعد انتهاء ما يشغله؛ فينتهي عمره ولا تنتهي مشاغله.

إنها معاناة يجدها كل واحد من الناس في هذا العصر إلا من هدى الله تعالى قلبه، فأعطى الدنيا بعض وقته، وجعل همه ومهمته للدار الآخرة، فحافظ على الفرائض، وأتبعها بالنوافل، وعمر مواسم الخير والبركات بطاعة الله عزَّ وجلَّ، وخصها بمزيد جد واجتهاد، فكان سعيه للآخرة، ولم تفتته الدنيا.

كم يحتاج العباد إلى الخلوة بربهم، والانقطاع عن الدنيا لذكره وشكره وحسن عبادته! وكم في هذا الانقطاع في أيام معدودات من إصلاح للقلوب، وتزكية للنفوس، ورياضة لها على طاعة الله عزَّ وجلَّ، والاجتهاد في ما يرضيه، والأنس به دون خلقه؟!!

كم يحتاج رب الأسرة التي شغلته طوال العام بمطالبها الدنيوية، وحاجاتها المتكررة، إلى انقطاع عن أسرته بعد أن يؤدي إليهم نفقتهم،

ويقيم من يصلح شؤونهم، ينقطع عشر ليالٍ لله تعالى وفي مرضاته!
وكم يحتاج التاجر الذي شغله الضرب في الأسواق، وحساب
الخسائر والأرباح إلى أن يختلي بنفسه، ويحاسبها أشدَّ الحساب، ويعكف
على طاعة الله تعالى!

وكم يحتاج من أثقلته المسؤوليات، وشغلته المشاغل إلى أن يفرغ
قلبه في العشر المباركات؛ ليجدد إيمانه، وليصفو قلبه من كدر الدنيا
وعلائقها!

بل ويحتاج إلى ذلك العلماء والدعاة وطلاب العلم؛ فكثير منهم
قد يشتغل بتعليم الناس وإفتائهم ووعظهم وتوجيههم لأعمال البر،
وينسى هو نفسه في خضم هموم الأمة، وحاجات الناس إليه؛ فيقسو
قلبه، وتقل عبادته، فهو أحوج ما يكون إلى الخلوة بربه، والعكوف
في مسجده؛ طاعة لله تعالى، وقد روى الطبراني من حديث جندب
رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل العالم الذي
يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق
نفسه»^(١).

إن الخلوة بالله عزَّ وجلَّ أنيس الصالحين من عباد الله تعالى، وإن

(١) أخرجه موقوفاً على جندب ابن أبي شيبة في مصنفه (١٨٢/٧) برقم:
(٣٥١٦١)، وأخرجه مرفوعاً ابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٢٣١٤)،
والطبراني في الكبير (١٦٥/٢) برقم: (١٦٨١ - ١٦٨٥)، وصححه الألباني
في صحيح الجامع (٥٨٣٧).

الانقطاع للعبادة أياماً معدودات سنة أتباع المرسلين عليهم السلام، وقد فعله الصالحون في الأمم الخالية، ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف، واعتكف أصحابه معه، واعتكف أزواجه من بعده^(٢).

وخيرُ الاعتكاف ما كان في رمضان، وأفضله ما كان في العشر الأواخر منه؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم اعتكف العشر الأوائل، ثم الأوسط، ثم قيل له: إن ليلة القدر في العشر الأواخر، فاعتكف العشر الأواخر^(٣)، فعلم أن اعتكافه كان لأجل تحري ليلة القدر، فلما علم أنها في العشر الأواخر نقل اعتكافه إليها.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا اعتكف لا يدخل بيته إلا الحاجة الإنسان^(٤).

قال ابن عبد البر رحمه الله تعالى: «وفي ذلك دليل على أن المعتكف

(٢) كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري في الاعتكاف باب الاعتكاف (٢٠٢٦)، ومسلم في الصيام باب اعتكاف العشر الأواخر (١١٧٢).

(٣) كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند البخاري في الأذان باب السجود على الأنف في الطين (٨١٣)، ومسلم في الصيام باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها (١١٦٧).

(٤) كما في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري في الاعتكاف باب لا يدخل البيت إلا الحاجة (٢٠٢٩)، ومسلم في الحيض باب جواز غسل الحائض رأس زوجها... (٢٩٧).

لا يشتغل بغير ملازمة المسجد للصلوات، وتلاوة القرآن، وذكر الله، أو السكوت ففيه سلامة . . . ومن جهة النظر فإن المعتكف ناذرٌ، جاعلٌ على نفسه المقام في المسجد لطاعة الله، فواجب عليه الوفاء بذلك، وأن لا يشتغل بما يلهيه عن الذكر والصلاة، ولا يخرج إلا لضرورة كالمرض البين»^(٥).

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه عكوف القلب على الله تعالى، وجمعيته عليه، والخلو به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق، والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبه، والإقبال عليه، في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلها، ويصير الهم كله به، والخطرات كلها بذكره، والتفكير في تحصيل مرضيه وما يقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق، فيُعدهُ بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور حين لا أنيس له، ولا ما يُفرح به سواه، فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم. ولما كان هذا المقصود إنما يتم مع الصوم، شرع في أفضل أيام الصوم، وهو العشر الأخير من رمضان» اهـ^(٦).

إنه اعتكاف يخلو فيه القلب إلا من الله تعالى، ويتفرغ فيه العبد من كل المشاغل إلا ما كان في عبادة الله عزَّ وجلَّ، فهي شغله الشاغل. يقوم فيطيل القنوت، ويكثر الركوع والسجود، ويقرأ القرآن بتدبر

(٥) الاستذكار (١/ ٢٧٧ - ٢٧٨).

(٦) زاد المعاد (٢/ ٨٧).

وخشوع، ويذكر الله تعالى في كل أحيانه، ولا يضيع دقيقة واحدة من وقت اعتكافه في غير طاعة.

يمسك عن فضول الطعام والشراب؛ لئلا يثقل عن العبادة، ويجتنب فضول الكلام؛ لأنه أوقف لسانه حال اعتكافه لله تعالى، ويتعد عن الخلطة بالناس ولو في المسجد؛ لأنه اختار الخلوة بالله العظيم، ويخشى أن يفسد أحد عليه خلوته وأنسه بالرب تبارك وتعالى.

يتفكر في عظمة الله تعالى وقدرته، ويلحظ آلاءه ونعمته، ويحاسب نفسه على ضياع ما مضى من عمره في لغو الكلام، وما لا ينفع من الأعمال؛ فيقوم في قلبه من خشية الله تعالى وإجلاله وتعظيمه ما يقشعر له بدنه، وتدمع معه عينه، ويلهج لسانه بذكر الله تعالى، وحمده على نعمه، وشكره على إحسانه، ويستغفر الله تعالى من ذنوبه.

فإذا ما ثقلت نفسه عن العبادة، وفتر لسانه عن الذكر، وجاءه الشيطان يذكره لهو اللاهين، ومجالس البطالين، وأنس الناس بأهلهم وأولادهم؛ أنهى فكره، وقطع وساوسه، وانتفض يذكر الله تعالى ويستغفره، ويذكر نفسه بأن مطلوبها الأئس بالله تعالى، والتفرغ لعبادته، والانقطاع لذكره، وتحري ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، ويستحضر ما أعد الله تعالى للمتقين، فيرجو فضله ورضوانه وجنته، ويجعل وسيلة ذلك كثرة الصلاة والذكر والعبادة. ويتذكر ما أعد الله تعالى للمذنبين؛ فيخاف أن يكون منهم، فيتقي عذاب الله تعالى بما يقوم به حال اعتكافه من أعمال صالحة، مع رجاء ثواب الله تعالى، وخوف من عذابه،

وإخلاص له، وإلحاح عليه، ويقين بوعده، وحسن ظن به.
فمن فعل ذلك كان حظه من اعتكافه كبيراً، وكان أجره جزيلاً،
وكان رمضان خير رمضان، وعشره خير عشر إن قبله الله تعالى، والله
لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

جعلني الله وإياكم من أهل طاعته، وجنبنا ما يسخطه، وأسبغ
علينا نعمه ظاهرة وباطنه، إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،
أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك
عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، واعمروا عشر رمضان الأخيرة
بطاعة الله تعالى؛ اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم فإنه كان إذا دخلت
العشر أحيا ليله، وشد مثزره، وأيقظ أهله، وجدَّ واجتهد في عبادة
الله تعالى^(٧).

أيها الناس: احذروا الذنوب والمعاصي؛ فإنها رافعة النعم، جالبة
النقم، وما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة، وقد قال الله تعالى:

(٧) كما في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري في فضل ليلة القدر باب
العمل في العشر الأواخر من رمضان (٢٠٢٤)، ومسلم في الاعتكاف باب
الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٤).

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، فالإفساد في الأرض وهي فاسدة محرم، فإذا كانت صالحة فالإفساد حينئذ يكون أشدّ تحريماً، والله تعالى خلق الأرض صالحةً، وما أفسدها إلا بنو آدم بعصيانهم وبغيهم وظلمهم، واعتداء بعضهم على بعض.

وإن من أعظم الظلم، وأكبر الفساد في الأرض: ترويع الأمنين، واستهداف النفوس المعصومة من مسلمين ومعاهدين، وإتلاف الأموال والعمران بالتخريب والتفجير^(٨).

ولا يستحل ذلك إلا من حاد عن شريعة الله عزّ وجلّ، وافتات على قواعد الإسلام، وخرج عن إجماع الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، والأئمة المهديين، والعلماء المجتهدين المتبوعين؛ كما فعل الخوارج على عهد الصحابة رضي الله عنهم؛ فاستحلوا دماء المسلمين، وقتلوا الخليفين الراشدين عثمان وعلي رضي الله عنهما، وفعلوا الأفاعيل بالمسلمين.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن المؤمن لا يزال في فسحة من دينه ما لم يُصب دماً حراماً^(٩)، فكيف بمن يبيّت إخوانه المسلمين،

(٨) هذا إشارة إلى ما حصل قبل أيام من تفجير لمجمع المحيا السكاني بمدينة الرياض، نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

(٩) وذلك في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند البخاري في الديات باب قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣]، (٦٨٦٢)، وأحمد (٩٤/٢).

فيزهق النفوس المعصومة، ويروع الآمنين، لا شك في أن هذا من الجرم العظيم، والإثم الكبير.

والله تعالى قد أمرنا بإيفاء العهد لأهل العهد، وعدم خفر ذمة أهل الذمة فقال سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا الْبَيْعَ عَنْهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة» رواه البخاري^(١٠).

إن الكفر المجرد لا يبيح الدماء كما هو مذهب جماهير العلماء؛ ولذا جاز إقرار الكافر على كفره، ولا يكره على الإسلام إذا خضع لسلطان المسلمين ولم يحاربهم، أو يظاهر من حاربهم، ولا يجوز مقاتلة إلا المقاتلين المحاربين من الكفار، أو المعينين لهم على المسلمين؛ كما هو مبسوط في كتب الفقه وشروح الحديث.

والجهل بأحكام الشريعة سبب للوقوع في المحرمات من الأقوال والأفعال، كما أن الهوى سبب لفساد الدين والعمل، وإذا ما اجتمع الجهل مع الهوى عظمت الفتن، واستحلت الحرمت، ورفع الأمن، وحل محله الخوف، نسأل الله العفو والعافية، ونسأله تبارك وتعالى

(١٠) أخرجه من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما البخاري في الجزية والموادعة باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم (٣١٦٦)، وابن ماجه في الديات باب من قتل معاهداً (٢٦٨٦)، وجاء أيضاً من حديث أبي بكره نفيع بن الحارث رضي الله عنه.

أن يحفظ بلادنا وبلاد المسلمين من الفتن ما ظهر منها وما بطن، اللهم
من أراد البلاد والعباد والإسلام والمسلمين بسوء فاشغله في نفسه، ورد
كيده إلى نحره، واكفنا شره.

اللهم من أراد الإفساد في الأرض، وقصد الأمنين المعصومين فأحبط
كيده، واهتك ستره، واكشف أمره.

اللهم اهد ضال المسلمين، وأمن خائفهم، وأطعم جائعهم، واكسو
عاريهم، وارزقهم من حيث لا يحتسبون.

اللهم احفظ بلادنا وبلاد المسلمين من كيد الكائدين، وشر المتربصين،
وحسد الحاسدين، من الكفار والمنافقين والظالمين.

اللهم من اعتدى على ديننا بتحريف أو استهزاء، أو قصد ترويع
المسلمين أو إيذاءهم فعامله بما يستحق، واكفنا شره، اللهم اكفنا شر
كل ذي شر يا رب العالمين، واجمع قلوبنا على ذكرك وشكرك وحسن
عبادتك، ووحد صفوفنا، وأعذنا من الفرقة والاختلاف، ومن مضلات
الفتن والأهواء، يا سميع يا قريب يا مجيب، آمين آمين يا رب العالمين.
اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم
وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد
كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

٦٤- توديع رمضان

الجمعة ١٤١٧/٩/٢٩ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فهذه آخر جمعة من رمضان، وهكذا تمضي الأعمار، وإنما العبد جملة من أيام كلما ذهب يوم ذهب بعضه. هذا رمضان يمضي، كما كان بالأمس يأتي، فسبحان من قلب الليل والنهار، وأجرى الدهور والأعوام، وفي ذلك مُعْتَبَرٌ للمعتبرين، وموعظة للمتقين.

هذا رمضان تلك السنة يشيع، تطوى صحائفه بأعمال العباد، ولا تنشر إلا يوم القيامة للحساب، ولا ندري أندرك رمضان القابل أم لا؟
فالله المستعان!

فحقّ لرمضان أن يبكي له ويبكي عليه، كيف لا يبكي المؤمن

عليه وفيه تفتح أبواب الجنان؟ وكيف لا يبكي المذنب على ذهابه، وفيه تغلق أبواب النيران؟ كيف لا يُبكي على وقت تسلسل فيه الشياطين. فيالوعة الخاشعين على فقدانه، ويا حرقة المتقين على ذهابه.

كان منهم القائم القانت في محرابه ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] ويخشى عذابه. ومنهم من قد حبس نفسه على طاعة الله وذكره، وتجرد من الدنيا وقطع عن نفسه كل العلائق، وعكف بقلبه وقاله على ربه وما يقرب منه، فما بقي في قلبه غير الله تعالى، وليس له همٌ إلا مرضاته، يتمثل قول داود الطائي رحمه الله حينما كان يناجي ربه في ليله فيقول: «هَمُّكَ عَطَّلَ عَلَيَّ الهموم، وخالف بيني وبين السُّهاد، وشوقي إليك أوبق مني اللذات، وحال بيني وبين الشهوات»^(١).

هذا حال الصائمين القائمين، عرفتهم المساجد والخلوات، يطيلون القيام، ويتلون القرآن، ويُلحُّون في الدعاء، ويعلنون الإنابة، ويناجون الرحمن، بينما غيرهم في مجالس الزور مجتمعون على عرض الشيطان، وبرامج الفساق.

ماذا دها الصالحين؟ وما الذي دعاهم إلى طول التهجد ومكابدة السهر والنصب؟ إنهم يلتمسون ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. فلو نطق المساجد ل قالت: «يا ليلة القدر للعابدين اشهدي، يا أقدام

(١) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف لابن رجب الحنبلي (٣٤٨).

القانتين اركعي لربك واسجدي، يا ألسنة السائلين جدِّي في المسألة واجتهدي»^(٢).

ها هو ذا رمضان يمضي، وقد شهدت لياليه أنين المذنبين، وقصص التائبين، وعبرات الخاشعين، وأخبار المنقطعين. وشهدت أسحاره استغفار المستغفرين، وشهد نهاره صوم الصائمين وتلاوة القارئ، وكرم المنفقين. إنهم يرجون عفو الله، علموا أنه عفو كريم يحب العفو فسألوه أن يعفو عنهم.

لما عرف العارفون جلاله خضعوا، ولما سمع المذنبون بعفوه طمعوا، ما ثمَّ إلا عفو الله أو النار، لولا طمع المذنبين في العفو لاحترقت قلوبهم باليأس من الرحمة؛ ولكن إذا ذكرت عفو الله استروحت إلى برد عفوه. كان أحد الصالحين يدعو قائلاً: «جرمي عظيم، وعفوك كبير، فاجمع بين جرمي وعفوك يا كريم»^(٣).

هذا دعاء الصالحين، وهكذا قضوا رمضان، فلهم الحق أن يبكوا في ختامه؛ لما له من لذة في قلوبهم، ومع ذلك فهم وجلون من ربهم، خائفون من الردّ وعدم القبول، يعلمون أن المعوّل على القبول لا على الاجتهاد، وأن الاعتبار بصلاح القلوب لا بعمل الأبدان.

كم من قائم محروم! ومن نائم مرحوم! هذا نام وقلبه ذاكراً، وهذا قام وقلبه فاجر؛ لكن العبد مأمور بالسعي في اكتساب الخيرات، والاجتهاد

(٢) المصدر السابق (٣٤٩).

(٣) المصدر السابق (٣٧٠).

في الصالحات، مع سؤال الله القبول^(٤)، والاشتغال بما يصلح القلوب، وهذا دأب الصالحين.

قال يحيى بن أبي كثير: «كان من دعائهم: اللهم سلمني إلى رمضان، وسلم لي رمضان، وتسلمه مني متقبلاً»^(٥). وقال ابن دينار: «الخوف على العمل أن لا يتقبل أشد من العمل»^(٦)، وقال عبدالعزيز ابن أبي رواد: «أدركتهم يجتهدون في العمل الصالح، فإذا فعلوه وقع عليهم الهمُّ أيقبلُ منهم أم لا»^(٧).

أيها الإخوة: وأعظم علامة على القبول: استمرارُ العبد على الخير والعمل الصالح بعد رمضان. قال بعضهم: ثوابُ الحسنَةِ الحسنَةُ بعدها، فمن عمل حسنة ثم أتبعها بحسنة بعدها كان ذلك علامةً على قبول الحسنَةِ الأولى كما أن من عمل حسنة ثم أتبعها بسيئة كان ذلك علامة ردَّ الحسنَةِ وعدم قبولها.

إن مقابلة نعمة إدراك رمضان والتوفيق لصيامه وقيامه بارتكاب المعاصي بعده لَمِنْ فِعْلٍ من بدل نعمة الله كفراً. فإن كان قد عزم في صيامه على معاودة المعاصي بعد انقضاء الصيام فيخشى عليه أن يكون صيامه مردوداً، وباب الرحمة في وجهه مسدوداً، إلا أن يعجّل

(٤) من المصدر السابق بتصرف (٣٥١).

(٥) حلية الأولياء (٦٩/٣).

(٦) حلية الأولياء (٣٧٨/٢).

(٧) لطائف المعارف (٣٧٥).

بتوبة نصوح. ما أحسن الحسنة بعد السيئة تمحوها، وأحسن منها الحسنة بعد الحسنة تعقبها، وما أقبح السيئة بعد الحسنة تمحقها وتعفوها! ذنب واحد بعد التوبة أقبح من سبعين ذنباً قبلها، ما أقبح النكسة بعد التوبة! سلوا الله الثبات من تقلب القلوب، ما أوحش ذل المعصية بعد عز الطاعة.

يا معشر التائبين: لا ترجعوا إلى المعصية بعد رمضان، واصبروا عن لذة الهوى بحلاوة الإيمان، اصبروا لله تعالى يعوضكم خيراً ﴿إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٠) [الأنفال] (٨).

يا معشر الطائعين: إن الأعمال التي كان العبد يتقرب بها إلى ربه في رمضان لا تنقطع بانقضائه؛ بل هي باقية بعد انقضائه ما دام العبد حياً، نعم لا يطيقها كلها، فيخففها لكنه لا يقطعها. قيل لبشر الحافي: «إن قوماً يتعبدون ويجتهدون في رمضان فقال: بشس القوم قوم لا يعرفون الله حقاً إلا في شهر رمضان، إن الصالح الذي يتعبد ويجتهد السنة كلها» (٩).

وتلك قاعدة سنّها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» متفق عليه عن عائشة رضي الله

(٨) لطائف المعارف بتصرف (٣٩٩/ ٤٠٠).

(٩) المصدر السابق (٣٩٦).

عنها^(١٠)، قالت عائشة رضي الله عنها: «وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه»^(١١)، فربُّ رمضان هو ربُّ الشهورِ كلها تعالى وتقدس، وعمل المؤمن لا ينقضي حتى يأتيه أجله، قال الحسن رحمه الله تعالى: «إن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت ثم قرأ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٩٩) [الحجر]»^(١٢).

أما يستحيي قوم من ربهم إذا انقضى رمضان عطّلوا المساجد والقرآن، وعادوا إلى الحرام، نعوذ بالله أن نكون منهم. هذا هو الحديث لمن قضوا رمضان في طاعة الله، ولمن كان رمضان مناسبة لتوبتهم، وميلاداً جديداً لهم.

لكن ماذا يقال لمن فاتتهم الفرصة فأضاعوا رمضان في اللهو والباطل؟ لا أحسن من أن يقال لهم: توبوا إلى ربكم فما يزال ربكم ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل. ما يزال باب التوبة مفتوحاً، فإلى ربكم أنبيوا. فإن كانت الرحمة للمحسنين فالمسيء لا ييأس منها، وإن تكن المغفرة مكتوبة للمتقين فالظالم لنفسه غير محجوب عنها ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) [الزمر].

(١٠) أخرجه البخاري في الإيمان باب أحب الدين إلى الله أدومه (٤٣) ومسلم

في صلاة المسافرين باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل (٧٨٢).

(١١) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب أحب الدين إلى الله أدومه (٤٣).

(١٢) لطائف المعارف (٣٩٨).

يا من ضاع منه رمضان لا يضع منك عمرك، اختمه بتوبة عسى أجلك أن يختم بالحسنى.

يا أيها العاصي - وكلنا ذلك - لا تقنط من رحمة الله لسوء عملك فكم يُعتق من النار في ختام الشهر من أمثالك. اصدق مع الله يصدقك، وأحسن الظن بربك وتب إليه فإنه لا يهلك على الله إلا هالك^(١٣).

يا شهر رمضان ترفق، دموع المحبين تدفق، قلوبهم من ألم الفراق تشقق، عسى وقفة للوداع أن تطفئ من نار الشوق ما أحرق، عسى ساعة توبة وإقلاع أن ترفو من الصيام ماتخرق، عسى منقطع عن ركب المقبولين أن يلحق، عسى أسير الأوزار أن يطلق، عسى من استوجب النار أن يعتق، عسى رحمة المولى لها العاصي يوفق^(١٤)، اللهم اجعلنا من المقبولين، اللهم سلمنا إلى رمضان وسلمه لنا، وتسلمه منا متقبلاً وأقول قولِي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه...

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً ينبغي لجلال وجه ربنا وعظيم سلطانه، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذو الطول لا إله إلا هو إليه المصير، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ خير من صام وقام، وأحسن الختام، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن

(١٣) المصدر السابق (٣٨٢).

(١٤) المصدر السابق بتصرف (٣٨٧).

سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين .
 أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - فإن كان شهر التقوى قد آذن بصرم،
 ولم يبق منه إلا صباة كصباة الإناء يتصا بها صاحبها، فإن الله تعالى
 يجب أن يُتقى في كل وقت وحين، فهو دائم لا يزول، وحي لا يموت .
 أيها الإخوة المؤمنون: كتب عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى
 إلى الأمصار يأمرهم بختم شهر رمضان بالاستغفار والصدقة - صدقة
 الفطر - فإن صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، والاستغفار
 يرقع ما تخرق من الصيام باللغو والرفث . ولهذا قال بعض المتقدمين:
 «إن صدقة الفطر للصائم كسجدي السهو للصلاة» . وقال عمر بن
 عبدالعزيز في كتابه: «قولوا كما قال أبوكم آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ
 لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف] وقولوا كما
 قال نوح عليه السلام: ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [٤٧] ﴿
 [هود] وقولوا كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي
 خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء] وقولوا كما قال موسى عليه السلام
 ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦] وقولوا كما قال ذو
 النون عليه السلام: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [٨٧] ﴿
 [الأنبياء: ٨٧] (١٥) .

أيها الإخوة: لما كانت المغفرة والعتق من النار كل منهما مرتباً
 على صيام رمضان وقيامه أمر الله سبحانه وتعالى عند إكمال العدة

بتكبيره وشكره ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَذَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥] فشكر من أنعم على عباده بتوفيقهم للصيام، وإعانتهم عليه، ومغفرته لهم به، وعتقهم من النار أن يذكروه ويشكروه ويتقوه حق تقاته. وقد فسر ابن مسعود رضي الله عنه تقواه حق تقاته: «بأن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر»^(١٦).

والتكبير مشروع من غروب شمس ليلة العيد إلى صلاة العيد، يجهر به الرجال في المساجد والأسواق والبيوت كما كان السلف يفعلون. ومن السنة أن يأكل قبل الخروج إلى الصلاة في عيد الفطر تمرات وترأ، ثلاثاً، أو خمساً، أو أكثر من ذلك. يقطعها على وتر؛ لقول أنس ابن مالك رضي الله عنه: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات ويأكلهن وترأ» أخرجه البخاري^(١٧).

ويخرج النساء لصلاة العيد غير متبرجات بزينة ولا متعطرات، يحضرن الصلاة والذكر، ومما يلزم التنبيه عليه أن بعض الناس يُهمل أهله وبناته في لباسهن فيكون فيه مخالفات شرعية، يخرجن يوم العيد يفتنّ الناس، وسيسأل عن إهماله هذا يوم القيامة، فيجب على من

(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤٤٦/٢) وابن المبارك في الزهد (٨) والطبراني في الكبير (٨٥٠١) وغيرهم، قال ابن كثير بعد أن نقله عن ابن أبي حاتم: وهذا إسناد صحيح موقوف. انظر: تفسير ابن كثير (٥٧٩/١) عند تفسير الآية (١٠٢) من سورة آل عمران.

(١٧) أخرجه البخاري في العيدين باب الأكل يوم الفطر قبل الخروج (٩٥٣) والترمذي في الصلاة باب ماجاء في الأكل يوم الفطر قبل الخروج (٥٤٣).

استرعاه الله نساءً أن يطلّع على لباسهن للعيد، فإن كان مباحاً وإلا منعهن من لبسه، حماية لهن من الوقوع في الإثم، وأداءً للأمانة التي حمّله الله تعالى إياها.

ثم إن كثيراً من الناس بمجرد إعلان العيد يخرجون للأسواق، فتضيع ليلة العيد في التجوال في الأسواق مع ما تعج به من منكرات، فلا يسلم روادها من الوقوع في الإثم والمنكر. وما هكذا يشكر الله تعالى في ليلة العيد التي ينبغي أن تقضى في الاستغفار والذكر حتى يختتم الشهر بخاتمة حسنة، فاتقوا الله ربكم، وجددو توبتكم، واحذروا الكفران عقب النعمة، والنكسة بعد التوبة، وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك ربكم...



٦٥- خطبة عيد الفطر: ماذا تعلمنا من رمضان لمواجهة الأخطار؟

السبت ١/١٠/١٤١٧هـ

الحمد لله؛ هدانا للإسلام، وبلغنا رمضان، ووفقنا لإتمام الصيام والقيام، وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.
الله أكبر، يستر العيوب، ويغفر الذنوب. الله أكبر، سحت له العيون.

الله أكبر ما هلّ هلال ثم أدبر، الله أكبر ما صام صائم وأفطر، الله أكبر ما قام قائم وتذكر، الله أكبر ما تلا تالٍ كتاب ربه فتدبر، الله أكبر ما رزق عبدٌ نعمةً فشكر، الله أكبر ما أصابت عبداً ضراءٌ فصبر.

الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً.
الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،
أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.
أيها الإخوة المؤمنون: لحظة الفراق والتوديع، فيها ألمٌ وحرقة لا سيما إذا كان المودّع حبيباً، وعلى النفس عزيزاً، كهذا الموسم الكريم

الذي تَعْظُم فيه الهبات، وتقال العثرات، وتغفر الخطيئات، ويعتق الله فيه جمّاً غفيراً من عباده قد استوجبوا النار. فإذا كان هذا فضله فكيف لا يجري للمؤمن على فراقه دموع، وهو لا يدري هل بقي في عمره إليه رجوع.

قلوبُ المتقين إلى هذا الشهر تحن، ومن ألم فراقه تئن. وإذا كان هذا جَزَعٌ من ربح فيه، فكيف حالٌ من خسر أيامه ولياليه؟ ماذا ينفع المفرط فيه بكأوه، وقد عظمت فيه مصيئته، وجلَّ عزأؤه؟ كم نصح المسكين فما قبل النصح!! كم دعي إلى المصالحة مع الله فما أجاب الصلح!! كم شاهد الواصلين فيه وهو متباعد، كم مرت به زمر السائرين وهو قاعد!! حتى إذا ضاق به الوقت، وحق به المقت، ندم على التفریط حين لا ينفع الندم^(١).

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. أيها الإخوة: اليوم يومُ الجوائز، اليوم يفرح من صام فصان الصيام، وقام فأحسن القيام، وأخلص لله في أعماله، هنيئاً لمن كان من المقبولين، فكتب في المرحومين، فاسألوا الله القبول؛ فلقد كان السلف الصالح يجتهدون في إتمام العمل وإتقانه، ثم يهتمون بعد ذلك بقبوله، ويخافون من رده وهؤلاء هم الذين ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] قال فضالة بن عبيد: «لأن أعلم أن الله قد تقبل مني مثقال حبة

(١) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف لابن رجب (٣٨٧)

خردل أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها؛ لأن الله تعالى يقول ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٧) ﴿[المائدة] (٢)﴾.

وكان بعض السلف يظهر عليه الحزن يوم عيد الفطر فيقال له: إنه يوم فرح وسرور فيقول: «صدقتم ولكنني عبد أمرني مولاي أن أعمل عملاً فلا أدري أيقبله مني أم لا؟!» (٣).

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. أيها الإخوة المؤمنون: ماذا تعلمنا من مدرسة رمضان، وما الدروس المستفادة من مواسم الخير والبركة؟ أم أن كل موسم يمضي دونما تأمل واعتبار؟!

إن رمضان علمنا أن الإرادة القوية تنتصر على الشهوات، وأن الغايات النبيلة تُترك من أجلها الرغبات.

هذه جموع المسلمين أثبتت بصبرها في رمضان عن الطعام والشراب والشهوة أن بالإمكان كبح جماح الشهوات، والاستعلاء على النزوات، وأن النفس البشرية عندها القوة والقدرة على تحمل المشاق في سبيل الله متى وُجدت الإرادة الصادقة.

من صام عن المعاصي في شهر أثبت أنه قادر على أن يصبر عنها في عمره كله. ومن انتصب ليالي رمضان قائماً لله وساجداً وراكعاً أثبت أيضاً أنه قادر على أن يفعل ذلك دائماً. من حجز أولاده عن

(٢) حلية الأولياء (١٧/٢) ولطائف المعارف (٣٧٥).

(٣) لطائف المعارف (٣٧٦).

المنكرات وراقب أهله في رمضان وعمر بيته بذكر الله أثبت أنه قادر على تربية أولاده ونسائه تربية إسلامية صحيحة. لكن هل نستطيع أن نستمر على ذلك؟ نعم! نستطيع ذلك متى ما استثمرنا قوانا، ولم نستسلم لهوانا، وما أجمل أن نجعل السنة كلها رمضان في تربية نفوسنا، وقهر شهواتنا، وإصلاح بيوتنا، ودعوة الناس إلى الخير والهدى. وإذا قلنا: إننا لا نستطيع ذلك، فرمضان يكذبنا؛ إذ استطعنا ذلك وأكثر منه في رمضان.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. أيها الإخوة المؤمنون: يمر العيد على أمة الإسلام وهي لاتزال تعاني أمراضاً وأدواءً أصابت أفرادها. أمراضاً في فهم العقيدة الصحيحة، وخللاً في أداء العبادات، وتهاوياً بشعائر الإسلام وأركانه، مع فساد في الأخلاق والسلوك، وتخلف في الرقي والتقدم. وكثير من المسلمين يُلقون باللائمة على الظروف، وآخرون يجعلون سبب ذلك الهجمات الشرسة من أمم الأرض على المسلمين؛ لكن الحقيقة التي نغفل أو نتغافل عنها هي أن السبب الرئيس في تدهور أمتنا وتخلفها كان من عند أنفسنا ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

لو أصلحنا أنفسنا لكانت الظروف في صالحنا، ولما استمكن العدو منا مهما أوتي من قوة ومكر ودهاء، لكننا نتنصل من مسؤولياتنا ثم نلقي باللائمة على من لا لوم عليه!

إننا لم ندرك بعد أن هذه الأمة التي تبتعد شيئاً فشيئاً عن عقيدتها وسلوكها تُشكّل كلاً، هذا الكلُّ نحن أفرادهُ!! يا تُرى لو أن كلَّ واحدٍ منا أصلح نفسه وبيته ثم نشر الصلاح في أمته، هل يستطيع العدو أن يُسربَ أفكاره الضالة، ومبادئ الهدامة إلى أمتنا؟ كلا؛ لأن الحصانة الدينية والمعرفية ستحول دون ذلك؛ لكن ما الحيلة إذا لم يكن عند أكثرنا أدنى شعور بالمسؤولية؟!

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. أيها الصائمون القائمون: إن الحماية الفكرية لنشء المسلمين باتت أمراً ضرورياً في ظلّ الانفجار الإعلامي، والبعث الفضائي، الذي يطفح بكل خبيث. خبثٌ لم يتوقف عند حدّ القضاء على الأخلاق والفضائل؛ بل تعداه إلى العبث بالعقائد، والتشكيك في الثواب. ولكم أن تتصوروا كيف سيكون حال جيلٍ قادمٍ يتربى على هذا المسخ والتبديل؟!

إنكم قد تقلّلون من خطر ذلك بحجة أنكم لم تتأثروا بما يعرض، لكن هل يحق لكم أن تساووا عقولكم وما تمتعت به من نضج، وامتلأ فيها من موروّثات ومدرّكات سابقة، هل تساوونها بعقولٍ نشءٍ فارغة المحتوى، لا تزالُ على فطرتها، لديها القابلية لأن تمتلئ بكل مخزون تشاهده وتسمعه، خيراً كان أم شراً؟!

ولا تمكن تلك الحماية الفكرية لأمة يُراد لها أن تمسخ وتبذل إلا بملء مخزون النشء بما ينفع ويفيد من أصول العقيدة الصحيحة، وتعاليم الشريعة الضرورية، والتربية على الأخلاق الصالحة، مع حجزهم عن

كل كلمة أو صورة تُخلُّ بذلك، وهذه الحماية للنشء مسؤولية الجميع من علماء وكتاب وآباء ومربين ومسؤولين.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.

أيها الإخوة: إن الإسلام لا يزال مشوشاً عند كثير من المسلمين فكيف بغير المسلمين؟ وإن أعداء الملة من كفار أصليين ومنافقين، قد حملوا على عواتقهم مهمة تشويه الإسلام، وإلصاق كل تهمة به، وتحميل الإسلام كل تخلف أو تصرف غير مسؤول، مما يقال زوراً وبهتاناً: إنه من إفرازات هذا الدين. لهذا يتحتم جهاد الكلمة الذي أصبح فرضاً في هذا العصر؛ للدود عن حياض الدين، وحتى تزال الغشاوة عن الأعين، ويُعرض الإسلام عرضاً صحيحاً بعيداً عن تزوير المحرفين، أو مبالغات الغالين.

وإن كثيراً من أمم الأرض لم يبلغها الإسلام الصحيح، وإنما بلغها الإسلام المشوَّه: إما عن طريق طائفة ضالة، أو من خلال تصرفات بعض المسلمين وأخلاقهم السيئة! وإذا كان كثير من المسلمين في البلاد الإسلامية يعيشون جهلاً مركباً فكيف يرجى من غير المسلمين أن يفهموا الإسلام فهماً صحيحاً؟ فما أحوج المسلمين إلى أن يفهموا دينهم حتى يستطيعوا عبادة الله تعالى على وجه صحيح، ومن ثم الدعوة إلى الله على بصيرة.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.

أيها الإخوة: إذا كان من الخلل في فهم الإسلام الذي يعانيه بعض

المسلمين بروز ظواهر التنطع والغلو في الدين، والتشديد على الناس بغير دليل ولا ضابط، والوقوع في مستنقعات التكفير والتبديع والتفسيق بغير حق. وهذا كله خطأ وضلال لا يماري في ذلك إلا مغرض أو جاهل؛ لأن الشريعة جاءت باليسر والسماحة. إذا كان الأمر كذلك فإن الظاهرة الأكثر انتشاراً، وقد تكون أعظم خطراً هي: ظاهرة التفلت من الدين، والتهاون بأصوله وأركانه، وبروز ظواهر الإرجاء.

والإسلام دينٌ وسطٌ، بريءٌ من الغلو، كما أنه لا يرضى التفلت أو التميع. وليس هو أجزاء يأخذ منها المرء ما يشتهي، ويذر ما لا يشتهي؛ بل هو كلٌّ لا يتجزأ، لا يسع المسلم إلا أخذه كله وتطبيقه بحذافيره.

وليس من الغلو في الدين الاستمسكُ به، وإظهار شعائره، من: ارتياد المساجد، وإكرام اللحى، وتقصير الثياب، والدعوة إلى الله عز وجل، كما يصورُ ذلك أعداء الإسلام، وأذئابهم من المنافقين، في بثِّ أفكارٍ مسمومة، عبر أطروحات مغلوطة؛ للوقية بين أبناء الأمة الواحدة، وتفتيتها وتفريقها، فالله حسيبهم، وغداً في الحساب تجتمع الخصوم.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. أيتها المرأة المسلمة: إنك المقصودُ الأعظم لحملات أعداء الإسلام من غربيين وعلمانيين، وإنك البوابة التي يريد لصوص المبادئ والقيم، وأدعياء الفكر والثقافة، أن يتسللوا من خلالها لهدم الإسلام واقتلاعه

من القلوب، يصيحون بالحرية والمساواة التي ما أثمرت في بلاد الغرب إلا بؤساً تجده المرأة عندهم، وشقاءً يصبح معها ويمسي، وهذا جزاءٌ من حاول العبث بفطرة الله التي فطر الناس عليها.

أيتها الصائمة القائمة: إن الغرب ومن خلفهم دعاة التحرر لم ينظروا إلى معنى الزوجية بين الرجل والمرأة، وأن كلا منهما يكملُ النقص الموجود في الآخر حتى تتشكل الأسرة الصالحة، وإنما نظرتهم فردية، لا يُنظر للرجل على أنه رجل وإنما على أنه فرد. وكذلك نظرتهم إلى المرأة على حدٍ سواء؛ فجعلوها نداً للرجل، وخصيماً له. تنزل مع الرجال في ميادينهم؛ تنافسهم فيها وهي أضعف تكويناً منهم فماذا سيكون مصيرها؟

إن الله تعالى جعل في الرجل قوة لتحمل المشاق، وقدرة على حمل الأعباء. وهذا يتناسب مع طبيعته التي هي الضربُ في الأرض، والسعيُ لطلب الرزق والاكتساب، ورصيد العواطف عنده أقل. وأما المرأة فلقد فطرها الله على العطف والحنان وهذا يتناسب مع عملها ربةً للمنزل، ترعى أطفالها الذين يحتاجون إلى كم أكبر من العطف والحنان، لشفافيتهم وإحساسهم المرهف.

فالرجل في الإسلام لا يمكن أن يستغني عن المرأة كما أن المرأة تحتاج إلى الرجل، فيتكون بمجموعهما أسرة متوازنة، تصديقاً لقول الخالق سبحانه وتعالى ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩) [الذاريات]، لكن دعاة التحرير يخالفون تلك السنة الفطرية، وينكرون

أن ما فعلوا كان ضحيته الكبرى المرأة المتحررة المسكينة .
 إن دعاة تحرير المرأة لا يريدون أن يضربوا في الأرض لينفقوا على
 المرأة؛ زعماً منهم أنه إنفاق على الغير بلا عائد، وفي ذات الوقت
 يريدون حرية الاستمتاع بها بلا ميثاق ولا عهد. فهم في الحقيقة ما
 أرادوا حريتها، وإنما أرادوا الحرية في الوصول إليها، والاستمتاع بها،
 ثم رميها كما ترمى النفايات . وهذا من أعظم الذل والاستعباد والظلم،
 فهل تستوي المرأة المتحررة الشقية التي تحارب الرجال من أجل البقاء
 مع امرأة تعيش في كنف زوج يكدر من أجلها، يحيط بهما أبناء وبنات
 يشكلون أسرة مستقرة مطمئنة . فإياك - أيتها الصائمة - أن تنطلي عليك
 الشعارات الزائفة، التي يطلقها الجشعون الظالمون، الذين يريدون
 استمتاعاً بالمجان .

أما النساء المتحررات الداعيات إلى التحرر مع تجرعهن غصص
 هذا المبدأ المنحرف، والفهم المغلوط، فلا أبلغ فيهن مما حكي عن
 أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: «ودت الزانية أن
 النساء كلهن زين»^(٤) .

نعم! تريد كما ضاعت أن يضيع النساء، وكما ذلت تريد أن يذل
 غيرها .

فاتقي الله - أيتها المسلمة - والزمي الستر والعفاف، واحذري
 التقليد الأعمى في التبرج والسفور واللباس .

(٤) المغني لابن قدامة (١٨٨/١٤) والاستقامة لابن تيمية (٢/٢٥٧) .

الله الله في الإسلام لا تكوني عوناً على هدمه، أو رمحاً مسدداً إلى صدره. حفظ الله نساء المسلمين بحفظه، وأسبغ عليهن ستره. الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. أيها الإخوة: هل يكون العيد فرصة لوصل الأرحام التي قطعت؟ وتقريب القلوب التي تباعدت؟ هل يكون فرصة لإصلاح المتخاصمين؟ والاجتماع على البر والتقوى؟ والخلاف في الرأي ليس مدعاةً للتناحر والتباغض، يجب أن تتسع الصدور لآراء الآخرين. وعدم قبول الآراء لا يوجب العداء لأصحابها ما لم يكن في الآراء شطط ظاهر، أونيل سافر من معتقدات المسلمين ومسلّماتهم؛ فالخلاف شر، ولا تنتصر أمة دبّ الخلاف فيها على وجه ينتصر كل واحد من أفرادها لرأيه، ولو كان على حساب الحق والدليل.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. أيها المسلمون: افرحوا بعيدكم في حدود المشروع، واحذروا منكرات العيد، وإياكم والرجوع إلى المعاصي بعد التوبة. أعاده الله علينا وعليكم وعلى المسلمين باليمن والإيمان، والسلامة والإسلام، وتقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

٦٦- خطبة عيد الفطر أحوال المسلمين

الخميس ١/١٠/١٤١٨هـ

الحمد لله؛ وفق من شاء من عباده للصيام والقيام، فجازاهم بالمغفرة والرحمة والإحسان، وامتن عليهم بالقبول والعتق من النار.

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمدته وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد، الله أكبر ما هلل المهللون وكبروا، الله أكبر ما صام الصائمون وأفطروا. الله أكبر، خشعت القلوب لعظمته وجبروته. الله أكبر، سالت العيون من خوفه وخشيته. الله أكبر، ذلت الرقاب من سطوته وقدرته. الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً.

أما بعد: فيا أيها المؤمنون: في العيد لدى المختبتين تختلط الأفراح بالأحزان، فرحون بإدراك رمضان، وإتمام الصيام والقيام، يكبرون الله ويشكرونه؛ لكن الحزن يأخذ من قلوبهم مأخذاً كبيراً، وينهمل الدمع من عيونهم أسمى على رمضان.

لقد كانوا أيام وليالي رمضان يعيشون في نعيم الذكر والدعاء والقرآن، ويتقلبون في رياض العبادات والطاعات ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (١٧) وبالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وفي أموالهم حقُّ للسائلِ والمَحْرُومِ (١٩) ﴿[الذاريات] زاحموا الملائكة في المساجد، بينما غيرهم كانوا يزاحمون الشياطين في مجالس الباطل.

اجتمعوا على مائدة القرآن والذكر بينما اجتمع غيرهم على موائد اللهو واللعب. بينما الناس في غفلة كانوا هم في خشية. بينما الناس يضحكون كانوا هم يبكون، يرجون رحمة الله ويخافون عذابه، علموا أن لهم رباً ينزل ثلث الليل الآخر يخاطب عباده، فاستعدوا لذلك النزول، قال ربهم: من يستغفرني فأغفر له؟، فإذا هم المستغفرون والناس غافلون، قال ربهم: من يدعوني فأستجيب له؟، فإذا هم الداعون والناس لاهون. قال ربهم: من يسألني فأعطيته؟، فإذا هم السائلون والناس يلعبون. استغفروه تعالى فغفر لهم، وسألوه فأعطاهم، ودعوه فاستجاب لهم. فهنيئاً لهم وتلك بشراهم. دخلوا جنة الدنيا قبل جنة الآخرة. أولئك الذين عرفوا قدر رمضان، وصرفوا أوقاته في عبادة الله تعالى، وهم مع ذلك يرون أن أعمالهم بجانب حق الله تعالى ونعمه قليلة ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (٦٠) ﴿[المؤمنون].

دخل رجل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم عيد فوجده يأكل خبزاً فيه خشونة فقال: يا أمير المؤمنين، يوم عيد وخبز خشن، فقال رضي الله عنه: «اليوم عيدٌ من قبل بالأمس صيامه وقيامه، عيد

من غفر ذنبه، وشكر سعيه، وقبل عمله. اليوم لنا عيد، وغداً لنا عيد، وكل يوم لا نعصي الله فيه فهو لنا عيد».

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر الله، أكبر والله الحمد. في العيد والناس مجتمعون فرصة لتدارس أحوال الأمة، وتلمس مواطن الخلل والضعف والخور.

إن الأمة لن تحيا إلا بالإسلام، ولن يكتب لها عز إلا به، الإسلام الذي من طبقه حق التطبيق في نفسه وأهله وماله، في مجتمعه ورعيته كان له النصر الكبير، والفتح المبين.

بالدين الصحيح يُحفظ أفراد الأمة رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً، من الغزو الفكري، والمسخ الأخلاقي. وبالدين الصحيح يستعلي الناس على الشهوات، ويردّون الشبهات. وبالدين الصحيح تزول البغضاء والشحناء، وتقوى أواصر الحب في الله، والبغض فيه، ويتماسك المجتمع، يحنو الكبير على الصغير، ويعطف الغني على الفقير.

إن الغزو الذي تواجهه الأمة من أعدائها لإفساد عقيدتها، وإذهاب هويتها، والقضاء على أخلاقها وقيمها، واستبدال ثقافتها لن يوقفه إلا تطبيق كامل للإسلام. وإن الضعف الذي تواجهه الأمة، والذلة المضروبة عليها، عسكرياً وسياسياً، اقتصادياً وتقنياً، لن يزيل هذا الضعف والعجز إلا الإسلام الصحيح، الإسلام الذي يجب أن يكون عقيدة وقولاً وعملاً، وليس مجرد شعار تلوّكه الألسن، ويكتب على الأوراق، وتهتف به الجماهير.

إن الأمة في سنوات مضت وبلاد كثيرة قد جربت مذاهب متعددة ورفعت شعارات متنوعة من القومية والوطنية، والبعثية والاشتراكية، والعلمانية والحرية، فمانالت إلا انتكاساً من بعد انتكاس. تجرعت غصص الهزائم تلو الهزائم، وذقت مرارة الذل والاستعباد، فهل يكون العيد فرصة لمراجعة حساباتها، والتأمل في واقعها؟ وذلك مسؤولية كل فرد من أفراد المسلمين حسب طاقته ووسعه، من إصلاح البيوت، وحفظ النساء، وتربية الأولاد، وتعاهد القربات والجيران، ونشر الخير بين الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإزالة أسباب الفتنة والفساد، وتعطيل وسائل إشاعة الفاحشة. ومن كان يظن من أفراد الأمة أن الأمر لا يعنيه، وأنه غير مسؤول ففهمه سقيم، وعقله عليل، وخيره قليل. وإن من لم يعمل خيراً لأُمته ومجتمعه فهو أدعى لعمل الشر، ومن كان لا يأبه بحال أُمته ومجتمعه ولا يرى أنه مسؤول فليعلم أنه معول من معاول الهدم والتدمير.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. أيها الإخوة: والحديث عن المسلمين وقضاياهم في العيد يجبرنا إلى الحديث عن بلاد من المسلمين كثيرة، ربما لا يجد أهلها طعم العيد إلا مُرّاً، بلاد أحرقتها الفتنة فجعل الله بأس أبنائها بينهم، فاستحر القتل فيهم، ورفع الأمن منهم، فاحمدوا الله على العافية، وسلوه السلامة. بلاد فقيرة لا يشبع أهلها حتى في يوم العيد، بطون جائعة، وأجساد عارية. نساء مرملة، وأطفال ميّمة.

يا ترى كيف سيكون عيد المشردين والمستضعفين من المسلمين؟ هل يفرحون بالعيد في ملاجئهم ومخيماتهم التي ضجت من الفقر والبؤس والمرض؟ هل يفرح بالعيد أهل الأقصى، وهم يرون اليهود يحكمون الأرض، ويتسلطون على العباد، ويلغون في الدماء، ويهدمون الدور، ويعبثون في المقدسات، ويمارسون أبشع صور الذل والقهر والتسلط، وبلاد أخرى من المسلمين منكوبة، يعاني أهلها من تسلط عدوهم، وضعف حيلتهم، وقلة نصيرهم.

تذكر - يا أيها المسلم - في صبيحة العيد وأنت تقبل أولادك، وتأنس بزوجك، ويجتمع شملك على الطعام الطيب، والشراب الطيب، تذكر يتامى لا يجدون في تلك الصبيحة ابتسامة الأب، وأيامى لا يجدن حنان الزوج. اذكر جموعاً من المسلمين شردها الظلم والطغيان، فإذا هي في يوم العيد تشرق بالدمع، وتكتوي بالنار، وتفقد طعم الراحة والأمن والاستقرار، لا ينسبك العيد إخوانك؛ فأنت حين تأسو جراح إخوانك إنما تأسو جراحك^(١).

أيها الإخوة: لست أدعو إلى أن يكون العيد كشهود جنازة، ولا أن ينقلب الفرح بالعيد إلى حزن؛ ولكن لابد أن نظهر في أعيادنا بمظهر الأمة الواعية التي لا يحول احتفاؤها بأعيادها دون الشعور بمصائبها التي يزرع تحتها فئام من أبنائها. لماذا لا نقتصد في لهونا وسرفنا لنوفر

(١) أحكام الصيام وفلسفته للدكتور مصطفى السباعي (٩٤).

من ذلك ما تحتاجه أمتنا في صراعها الدامي المرير؟ لماذا لا نقتصد في لعبنا وضحكنا حتى تبدو على وجوهنا مسحة من الحزن الكريم الوقور ينم عن مبلغ عنايتنا بقضايانا، واهتمامنا بما يجري في أمتنا من أحداث ونكبات؟^(٢).

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا اله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.
أيها الإخوة: في العيد تتقارب القلوبُ على الودِّ، وتجتمع على الألفة، وفي العيد يتناسى ذوو النفوس الطيبة أضغانهم، فيجتمعون بعد افتراق، ويتصافون بعد كدر، ويتصافحون بعد انقباض، فالعيد فرصة لبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجيران، والعطف على الصغار. فرصة للتزاور والتهادي، وإصلاح المتخاصمين، والاجتماع على المحبة والألفة، والتواصي بالحق، والتعاون على البر والتقوى، وذكر الله وشكره وحسن عبادته؛ فأصلحوا ذات بينكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.
أيها المؤمنات: اتقين الله في أنفسكن، وفي دينكن وأمتكن، إن المرأة المسلمة لا زالت تملك وتحرس عمادَ الأمة، وأمل المستقبل.
إن سر تفوق الأمم راجعٌ إلى إدراك نسائها وتعقلهن، وإن سبب انتكاس الأمة وتقهرها يكون بسطحية نسائها، واهتمامهن بالتافه من

(٢) بتصرف من المصدر السابق (٩٣).

الأمر، والرديء من الأخلاق، وإهمال تربية النشء .
القادة والساسة، والعلماء والمفكرون، والأطباء والمعلمون، والمتجولون
من أبناء الأمة هل ولدوا من غير نساء؟ وهل تربوا إلا على أيدي النساء؟!
أيتها الصائمه القائمه: إن المرأة إذا كانت فاشلة في تربية نفسها،
والحفاظ على أخلاقها، والتمسك بدينها وحجابها، فهي أخرى أن تكون
فاشلة في تربية نسلها من بنين وبنات، وإذا لم تحسن تربيتهم فهي المعول
الأول لهدم الأمة وسقوطها .

أيتها المسلمة القائنة: لقد توالى الحملات اليهودية والصليبية على
المرأة المسلمة، ولقد نعق الناعقون من العلمانيين والمنافقين بشعارات
متنوعة لهدم البيت المسلم، وتقويض دعائم الفضيلة باسم الحرية والعمل،
والمساواة في الحقوق، وهذه الشعارات أول من صاح بها اليهود لإفساد
المجتمعات، فهل تنجرف المسلمة الدينة الخيرة خلف هذه الشعارات
الزائفة .

إن الحرية التي يزعمها الزاعمون، ويصيح بها الأفاكون إنما هي حرية
لإفساد الدين، حرية في تمرد البنات على ولاية الآباء، وتمرد الزوجة
على زوجها لإسقاط المجتمع في مهاوي الرذيلة والفاحشة . وإذا اختارت
المسلمة التمسك بدينها وحجابها، فلا حرية حينئذ بل دكتاتورية وتسلط .
أيتها المسلمة: انظري - يا رعاك الله - إلى المسلمات اللاتي تمسكن
بحجابهن كيف كان مصيرهن في دول الغرب المتحضر، ألم تطرد المسلمة
من جامعتها ومدرستها لتمسكها بحجابها فأين هي الحرية؟

إن الحرية المضمونة عندهم هي التي توصل المرأة إلى الفاحشة والبغاء؛ بل إلى الكفر والإلحاد وما عدا ذلك فلا حرية.

والإسلام قد كرم المسلمة، فلم يجعلها سلعة تباع وتشتري، ولا هي عشيقة مزاج وهوى؛ بل زوج وأم ومربية، فهل ترفض المسلمة نعمة دينها وحجابها لتنجر في طريق الرذيلة.

أيتها الأخت المسلمة: إن المرأة المسلمة المستمسكة بدينها وطهرها وحجابها تجاهد الأعداء أعظم من جهاد الرجال الأقوياء، إنها لاتزال بحجابها تقهر الأعداء قهراً يفوق قوة السلاح، وخداع السياسة.

إن المسلمة على مر التاريخ بدينها وإسلامها توجه صفعات موجعة لوجوه الأعداء والمستعمرين.

ها هي المرأة المسلمة في شتى أنحاء العالم تعود لربها، وتتزينا بحجابها مع ماتواجهه من ضغوط ومضايقات؛ لكنها لا تزال قوية أبتة، لا يهملها أن تفصل من مدرستها أو جامعته إذا كان ذلك من أجل حجابها في ذات الله تعالى، وابتغاء مرضاته. فهل نحن يا أيتها المسلمة ننام حيث يفيق الآخرون، وننحدر حينما يصعدون؟! كلا والله لا نريد أن نكون كذلك، وإنك في هذا البلد الطيب مثال لنساء المسلمين في أنحاء العالم، يُنظر إليك نظرة إجلال وتقدير، تقود إلى الامثال والتقليد، فاحذري التقليد الأعمى للكافرات أو الفاسقات في اللباس أو التبرج، أو السفور أو الاختلاط.

أختي المسلمة: الله الله في الإسلام، لا تكوني عوناً على هدمه،

ورمحا مسدداً إلى صدره، حفظ الله نساء المسلمين بحفظه، وأسبغ عليهن ستره.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.
أيها الإخوة في الله: تقوى الله تعالى ليست في رمضان فقط، بل هي في سائر الأيام والشهور.

إن من الناس من يجعل العيد فسقاً وفجوراً وكفراً لنعم الله تعالى. وليس من الشكر في شيء أن تتبرج النساء في العيد، ويتساهلن بالحجاب، ويجبن البلاد طولاً وعرضاً في الأسواق والشوارع والمنتزهات. وكلّ مسؤول عن رعيته.

وثمة منكر آخر يلاحظ في العيد وهو ارتفاع أصوات المعازف والغناء من داخل البيوت وفي الأسواق والشوارع، فهل يشكر الله تعالى على نعمة رمضان والعيد بمعصيته؟ فسبحان الله! كيف ينقلب الحال وينتكس الناس.

في آخر ليلة من رمضان كان صوت القرآن عالياً في المساجد والبيوت وربما في الأسواق، وبعدها بليلة ينقلب الأمر رأساً على عقب فتحلّ المزامير محل الذكر والدعاء، ويحلّ الغناء محل القرآن، ويقضى الليل في السهر المحرم على آلات اللهو واللعب بينما كان يقضى في الصلاة والقيام.

فتعس عبد عاهد ربه في رمضان على لزوم الطاعة وهجران المعصية، وعمر شهره بأنواع العبادات، ثم في العيد ينقض العهد، ويختم عمله

بالمعصية والكفران .

وطوبى لعبد لم تُفقد فرحة العيد شعوره، ولم يذهب بريق المعصية صوابه؛ بل استمر على العهد والتوبة، وشكر الله على الإحسان إحساناً، وأتبع الحسنة حسنةً مثلها، وأعقب الطاعة طاعة، ذلك الذي فاز وربى وهذه علامة القبول والتوفيق، والانتكاسُ والنكوص علامة الرد والخذلان، ألا وإن الأعمال بالخواتيم، ألا وإن الأعمال بالخواتيم، فأحسنوا ختام شهركم في عيدكم باجتنب المعاصي .

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد .
أيها الإخوة المؤمنون، أيها الصائمون القائمون، أيها المختون المتقون:
لئن فقدتم رمضان في صيام نهاره وقيام ليله؛ فإن الصيام والقيام سنة باقية، فقد ندبكم نبيكم صلى الله عليه وسلم إلى صيام الاثنين والخميس .
وأفضل الصيام: صيام داود عليه السلام؛ كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، لمن قدر على ذلك . وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل يناجي فيها العبدُ ربه، ومن وصايا نبيكم صلى الله عليه وسلم: المحافظة على الوتر وصلاة الضحى، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر . ومما يناسب ذكره والعمل به بعد رمضان: صيام ستة أيام من شوال، من صامها مع رمضان كان كمن صام الدهر كله كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد .

أيها المفرطون المذنبون: يا من قضيتم رمضان فيما لا ينفع ولا يفيد من أنواع اللهو والزور والإثم، رمضان قد مضى، طويت صحائفه، وختمت أعماله، حسننها وقبيحها، خيرها وشرها.

مرّ عليكم وأنتم في لهوكم كما مرّ على المصلين في مساجدهم، لم يتخلف عنهم إليكم، ولم يسارع إليهم عنكم، لا فرق إلا في الصحائف؛ فصحائفهم قد ابيضت من الحسنات، وصحائفكم قد اسودت من السيئات. ولّى رمضان وذهب معه جوع الصائمين، وتعب القائمين، ونصب المخبتين؛ لكن بقي الأجر. ذهب رمضان وذهبت معه لذة الفضائيات، والعصيان، ومجالس الزور والبهتان؛ لكن بقي الوزر!! ففي هذا اليوم المبارك هل يجد الندم إلى قلوبكم سبيلاً؟ وهل تجد التوبة إلى نفوسكم طريقاً؟ فتوبوا ما دامت التوبة ممكنة قبل أن يحال بينكم وبينها.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.

أيها الإخوة: ابتهجوا بعيدكم بطاعة الله عز وجل، وصلوا أرحامكم، وبروا والديكم، وأحسنوا إلى جيرانكم، ولا تنسوا إخوانكم المجاهدين من صالح دعائكم، وفضول أموالكم.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.

أعاده الله علينا وعليكم باليمن والإيمان، والسلامة والإسلام، وتقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

٦٧- خطبة عيد الفطر من دعاوى المنافقين والمخذلين

الإثنين ١ / ١٠ / ١٤١٩ هـ

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. الله أكبر ما صام الصائمون وأفطروا، الله أكبر ما قام القائمون ونصبوا، الله أكبر ما دعا الداعون وتضرعوا، الله أكبر ما جد الصالحون في العبادة وشمروا.

الله أكبر، انقضى رمضان فكم فيه من مذنّب تاب، ومن داع أجيب، ومن سائل أعطي، وكم من البشر من حرم، وكم من العباد من قبل. الله أكبر، مضت ليلة القدر، فكم أدركها من قانت وراكم، وداع وساجد. وكم كان عنها من لاه وغافل.

تنزلت فيها الملائكة، وقُسمت فيها الأرزاق، وكُتبت الآثار، وجُدِّدت الآجال. فكم من عبد كُتب في السعداء، وكم من عبد كُتب في الأشقياء، وكم من عبد ضرب فيها أجله فلا يدرك رمضان القابل. وكم من غني كُتب فقره فيها، وكم من فقير كُتب غناه فيها، وكم من

عزيز قُضيَ بذله، وكم من ذليل قضي بعزه. فالله أكبر بيده مقادير كل شيء، ولا يكون إلا ما قَدَّر، ولا يعلم الغيب إلا هو، له الأمر، وله الحكم وإليه ترجعون.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. أيها الصائمون القائمون: أبشروا وأمّلوا فإن ربكم جواد كريم، يعطي العطاء الجزيل، ويغفر الذنب العظيم، ويقبل التائب المنيب، لا يردُّ من أتاه، ولا يُخيِّب من رجاه، ويجيب من دعاه، هو الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء.

أيها المفرطون المذنبون: أقبلوا على ربكم، فأبوابه لا تزال مفتوحة، وخزائنه مملوءة، توبوا إليه فما أشد فرحه بتوبتكم، واستغفروه يغفر لكم، وادعوه يستجب لكم.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. أيها الإخوة المؤمنون: يمر العيد على المسلمين والعالم بشرقه وغربه يموج في المشكلات والمعضلات، والأيام في تسارع، والتقلبات في تتابع، والأحداث في تعاظم، يحيط بالعالم مشكلات سياسية واقتصادية، واجتماعية وبيئية، وثقافية وفكرية، وأخرى غيرها كثير. هذه المشكلات باتت تصنع قلقاً مروعاً لأفراد البشرية.

وقلق آخر يقض المضاجع، ويشكل رعباً لأكثر بني آدم، ألا وهو خوف المستقبل المجهول. نعم! إن أكثر سكان الأرض من وثنيين وكتايين وضعاف إيمان من المسلمين يخافون المستقبل المجهول، وقلقون أشدَّ

القلق مما تخفيه الأيام في طياتها من مصائب قادمة، والناس كالسكارى في دوامة الأيام التي تسرع بهم إلى حيث لا يعلمون. ولا يسلم من القلق والاضطراب إلا من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، وأيقن أن ما يحدث مكتوب، وأن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وأما الكافر والمنافق فهما اللذان يخافان المستقبل وغموضه، ويقتلهما التفكير في المجهول.

إن هذه التقلبات العالمية، والتحويلات البشرية التي تقع في لمح البصر؛ لتدل على قدرة الخالق سبحانه، وتبين حجم الدنيا التي لا تساوي شيئاً. فأكبر دولة على وجه الأرض تفككت حتى صارت أجزاءً متناثرة، يعاني أفرادها البطالة، ويقتلهم الجوع. ودول أخرى أمست تنعم في الرفاهية؛ فأصبحت وعملتها لا تساوي شيئاً. وأخرى يسمي أفرادها في استقرار وطمأنينة ويصبحون في تشريد وخوف. وكم من أخرى أصبحت آمنة، وأضحت مذعورة. وكل ذلك يمر في سرعة من الزمن، ولحظات من العمر.

إن هذه التقلبات والتحويلات أتت على بعض مجتمعات المسلمين؛ فأصبح ضعاف الإيمان منهم في شك من دينهم، وحيرة من أمرهم، وذعر من المستقبل؛ مما دفعهم إلى مزيد من التكالب على الدنيا، وجمع كم أكبر من المال بغض النظر عن مصدره لتأمين ذلك المستقبل غير المأمون، وغفلوا عن الأعمال التي تقرب إلى الله تعالى، وتؤمن الحياة في الدار الآخرة؛ فأصبح عيشهم كأنه للدنيا وحدها، على غرار

حياة الذين كفروا. وزاد من ذلك الضغوط المستمرة على المسلمين،
والنيل السافر من الإسلام وأحكامه وآدابه.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.
إن أعداء الإسلام يتقدمهم عبّاد الصليب يريدون هيمنة نظامهم
وثقافتهم وفلسفتهم على العالم كله زاعمين صلاحيتها للبشرية كلها،
مدّعين أنهم أدري بمصالح البشر، وذلك في ظل العولمة التي هي
في حقيقتها فرضُ الفكر الغربي، النصراني ديانة، العلماني تطبيقاً،
كنتيجة حتمية لتغطرس وكبرياء القوى الغالبة.

ويشير بهذا الشر الويل ويدعو إليه العلمانيون العرب على أنه
الحل السحري الذي سيحل مشكلات البلاد النامية والمتخلفة.

وكان من نتيجة ذلك أن نشط العلمانيون في اختراع إسلام جديد
يتلاءم مع تلك المرحلة من التغريب والتبعية، ويتوافق مع المزاج الغربي
الذي يريد أن يكون العالم تابعاً له في كل شيء، وذلك ما يسمونه
بالإسلام العصري الذي تُمَيِّع فيه شريعة الإسلام.

وفي هذا السبيل قام العلمانيون بتشويه الإسلام الحق الذي جاء به
محمد صلى الله عليه وسلم، واستهزؤوا بشريعته وبحملتها من علماء
ودعاة وصالحين، سواء أكان ذلك في مقالة منشورة، أم كلمة مسموعة،
أم صورة معروضة. ثم دفعوا حثالة المجتمعات من أهل التهريج والتمثيل
إلى إنتاج وإخراج برامج وأفلام ومسلسلات، فيها سخرية بشعائر
الإسلام تحت مصطلحات محاربة الإرهاب والتطرف والأصولية وغيرها

من المصطلحات الرخيصة .

والاستهزاء بالإسلام أو شيء من شعائره كفر يخرج من دين الإسلام ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٦٥) لَا تَعْتَدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿ [التوبة : ٦٦] ومن شاهد هذه البرامج متفكهاً بها ، مسروراً بعرضها فيخشى على دينه ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٦٨) [الأنعام] .

فهل أصبح الإسلام وشعائره مادة للتفككة والتندر على أيدي السفلة والمنحطين والمعتوهين؟ وهل عدت أمة الإسلام عقلاء يوقفون هذا الهزل الرخيص ، والتهريج المقيت؟ وهل هان الدين على الناس حتى تهان شريعتهم وهم يضحكون ويتفكهون؟ نعوذ بالله من قلوب زافت ، وعقول ضلت .

إن نشاط أعداء الإسلام من كفار أصليين ومن منافقين في محاربة الإسلام لن يتوقف ما دام على البسيطة أحد يدين بالإسلام ، فكيف والمد الإسلامي ينمو ويزداد يوماً بعد يوم ، خاصة بعد إفلاس النظريات الإلحادية التي تنودي عليها من قبل من ماركسية وليبرالية وقومية؛ ولكن الملاحظ أن هذا النفاق طفا على السطح وأصبح علانية ، وصار الواحد من المنافقين يعلن رده على الملأ دون حياء ولا موارد ، وبكل أمن وصفاقة . ولقد كان من أخصب المجالات التي أكثر المنافقون الحديث عنها في الأزمنة المتأخرة : تحرير المرأة ، ومساواتها بالرجال في كل شيء

على غرار ما حدث للمرأة الغربية التي تصيح بأعلى صوتها تريد العودة إلى المنزل بعد أن أخرجوها منه، وامتهنوا كرامتها، ونالوا من عفتها. إن دعاة تحرير المرأة من ضوابط الإسلام لمن أكبر المنافقين المرتدين عن الإسلام؛ إذ رفضوا شريعة الإسلام، وكذبوا صريح القرآن فالله تعالى يقول: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ [آل عمران: ٣٦] وهم يعارضون الخالق فيقولون: بل الذكر كالأنثى، فهل بعد هذا الكفر من كفر.

إن الله تعالى لما خلق الزوجين خص المرأة بخصائص تختلف عن خصائص الرجل؛ ففيها من الخصائص ما ليس في الرجل، وفي الرجل ما ليس فيها، وكل واحد منهما يكمل الآخر لبناء الأسرة الصالحة. ودعاة التحرير يريدون المساواة بين جنسين مختلفين في التكوين والخصائص، فهل هم أعلم أم الخالق؟!

إن العلمانيين نقموا على الإسلام أنه أعطى النساء نصف ميراث الرجل، فاسألوا نساء الغرب أما يقبلن أن يأخذن نصف ميراث الرجل وأن يكلف الرجل وحده بالإنفاق عليهن!!

«إن المرأة الغربية التي يريد المتحررون أن يجعلوها الأنموذج الصحيح للمرأة العصرية تبدو حرة وهي مقيدة، وترى معززة وهي مهانة. إنهم يعظمونها في التوافه، ويحقرونها في جسيمات الأمور، يمسكون بيدها عند النزول من السيارة، ويقدمونها قبلهم عند الدخول للزيارة؛ ولكنهم في مقابل ذلك يسيئون إليها إساءات لا تحتمل.

إذا بلغت البنت هناك سن الرشد قبض أبوها يده عنها، وسد باب

داره في وجهها وقال لها: اذهبي فتكسبي وكلي، فلا شيء لك عندي بعد اليوم. فتذهب المسكينة، تخوض غمرة الحياة وحدها. لا يبالون أعاشت بجدها أم بجسدها، ولا يسألون هل أكلت خبزها بيديها أم بثدييها.

لقد ابتذلت المرأة الغربية وذلت؛ حتى صارت تبذل ما نراه نحن أعز شيء عليها وهو العرض، في سبيل ما نراه أهون شيء علينا وهو الخبز. إن الفاسق عندنا هو الذي يتبع المرأة، ويبدل لها الغالي والثمين؛ لأنه لا يجدها إلا بمشقة، ولا يصل إليها إلا بنصب. استترت المرأة الشرقية فعزّت، وتمنّعت فطلّبت، وعُرضت الغربية فهانت؛ لأن كل معروض مهان.

لقد كان الشاعر العربي الأول إذا بدا له من المرأة الكف أو المعصم دار رأسه، وثارَت نفسه، وامتلأ بالحب جنانه، وانطلق بالشعر لسانه؛ ذلك لأنها كانت مستترة مخبأة. أما المرأة الغربية فإن الرجل يرى على الساحل أعلاها وأدناها فلا يثير ذلك في نفسه معنى، ولا يحرك منه عاطفة. ومن هنا كسدت سوق الزواج في الغرب، فالزواج رباط دائم يرتبط به الرجل مختاراً ليصل إلى إرواء هذه الغريزة، فلماذا يرتبط نفسه إذا كان يستطيع أن يرويهها وهو طليق. ومن أمثلة الغربيين في هذا الشأن قولهم: إذا استطعت شراء اللبن فلم تشتري البقرة كلها؟! إن المرأة الغربية التي يريد العلمانيون أن تصبح الأنموذج الكامل للمرأة الشرقية قد فقدت الزوج ففقدت المعيل؛ فاقتحمت كل عمل

لتعيش، فصارت تعمل في المصنع، وتشتغل في الحقل، وتكنس الطريق من الأقدار، وتنظف المراحيض، ولا تسلم من تحرش سفيه، أو أذية فاجر. فإن طاوعت وإلا خطفت وليس لها من يحميها؛ حتى صارت تحمل سلاحها في حقبتها، وتظلل زجاج سيارتها لكيلا يطمع فيها طامع. ومن شك في ذلك فليسأل من أقاموا هناك، وليطالع إحصائيات الاختطاف والاعتصاب في ديار القوم.

هذه هي منزلة المرأة في الغرب على حين أن المرأة الشرقية المسلمة تبقى دائماً في بيتها، يكد الرجل ويشقى ليطعمها ويسقيها ويحميها، وإذا بلغت سن الزواج طلبها الرجل وتوسل إليها بالعطية الكبيرة - المهر - يدفعه هو إليها؛ فيكون حقاً لها وحدها. لا لأبيها، ولا لأخيها، وليس لأحد التصرف في شيء منه إلا بإذنها. وأما المرأة الغربية فتركض هي وراء الرجل فتسقط خمسين سقطة قبل أن تصل إليه، وربما سقطت سقطة كان فيها هلاكها وذهابها.

إن دعاة التحرير يريدون الاختلاط والاستمتاع بالمرأة بلا عهد ولا ميثاق. فهل ترضى مسلمة لنفسها وبناتها وأخواتها هذه الإهانة.

لقد كان العرب أغير الناس على الأعراض؛ حتى إنهم وأدوا البنات خوف العار، فهل يتمالك العربي نفسه أن يكون في حفلة فيأتي رجل يقول له: اسمح لي، يسمح له بماذا؟ لا بأن يريه ساعته، ولا بأن يستعير قلمه؛ بل يسمح له بأن يأخذ منه زوجته ليراقصها، فليس في الدنيا عربي يرضى بهذا؛ فضلاً عن أن يكون مسلماً، ولا يرضى به

رجل صادق الرجولة؛ إنه لا يرضى بمثله من الحيوانات إلا الخنازير.

هذه حال نساء الغرب، ونساء البلاد العلمانية، فهل نساؤهم اليوم

في خير حتى نبتغي مثل الذي عندهن لنسائنا.

لقد ألقى أحد العلماء محاضرة في أمريكا عن حقوق المرأة في

الإسلام وما لها وما عليها، وأن الرجل يُكلف بالإنفاق عليها، وهي

تبقى في المنزل لترعاه وترعى أطفالها، فما أن أنهى محاضرتة حتى

قامت امرأة من القوم أدبية وكاتبة مشهورة فقالت: «إذا كانت المرأة

عندكم كما تقول، فخذوني لأعيش عندكم ستة أشهر ثم اقتلوني».

ومما نقم المتحررون من الإسلام أنه أباح التعدد، واعتبروا ذلك

ظلماً، قاتلهم الله، هل يظلم الله تعالى عباده؟ سبحانك هذا بهتان

عظيم، أليس الزوج الغربي يتخذ أربعاً وأكثر من صديقات وخليلات

وزميلات عمل؟ فهل يريد المتحررون أن تصبح حالنا مثل حالهم، وحال

نسائنا مثل نسائهم؟ أيرضون بالثانية خليفة بعقد إبليس؟ ولا يرضون

بها خليفة بعقد الله وشرعه؟!

يا أيتها الأخت المسلمة: لا تظني أن نساء الغرب أو البلاد المتحررة

أسعد عيشاً، أو أعز وأكرم، لا والله، ليس في الدنيا أعز ولا أكرم من

نسائنا ما تمسكن بدينهن وحجابهن.

إن الزوج عندنا لامرأته لا لخليلة ولا لصديقة، والمرأة لزوجها

لا لعاشق ولا لرفيق، له وحده لا تتكشف لغيره، ولا يطلع عليها

سواه، فهل هذا هو عيبها عند هؤلاء المرضى المقلدين، هل يريد

أحدهم أن تكون امرأته له ولغيره؟ هل يغضب أن ترك له صحنه ليأكل منه وحده، ولا يرضى حتى يأكل من صحن تقع فيه كل الأيدي؟ أيكون الطهر عيباً؟ والعفاف عاراً؟ والخيرُ شراً؟ والنور ظلاماً؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

حسبنا تفكيراً برؤوس غيرنا، حسبنا نظراً بعيون عدونا، كفانا تقليداً كتقليد القروء، ولنعد إلى أنفسنا، وإلى ديننا وطهرنا وعفافنا. ليصنع نساء الغرب ما شئن وما شاء لهن رجالهن، فما لنا ولهم، وليكن نساؤنا كما يريد الله تعالى طهراً وعفافاً وأخلاقاً حفظهن الله بحفظه وأسبغ عليهن ستره^(١).

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. أيها الإخوة: ابتهجوا بعيدكم بما شرع الله عز وجل، وبرؤوا والديكم، وصلوا أرحامكم، واعطفوا على صغاركم، وأزيلوا ضغائنكم، وطهروا قلوبكم، وتآلفوا وتواصلوا وكونوا عباد الله إخواناً، واحذروا المنكرات في يوم الشكر، واشكروا الله تعالى على نعمه التي لا تعد ولا تحصى. ومن تمام الشكر صيام ستة أيام من شوال، من صامها مع رمضان كان كمن صام الدهر كله.

أعاده الله علينا وعليكم باليمن والإيمان وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربكم...

(١) ما بين القوسين منقول بتصرف يسير وزيادة من كتاب: مع الناس للشيخ علي الطنطاوي (١٢٤-١٣٠).

٦٨- خطبة عيد الفطر المبارك المسلمون وتحديات العولمة

الجمعة ١٠ / ١٠ / ١٤٢٠ هـ

الحمد لله؛ هدانا للإسلام، وعلمنا القرآن، وجعلنا من خير أمة أخرجت للناس.

الحمد لله؛ من علينا بإكمال رمضان، وإتمام الصيام والقيام، وإدراك هذا العيد المبارك.

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمدته وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ يغفر ذنوبنا، ويستتر عيوبنا، ويجبر كسرنا، ويفيض علينا نعمه وإحسانه. هو إلهنا ومعبودنا، لا رب لنا سواه، ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ خير من صام وقام، وأقام شعائر الإسلام، وعمر عمره بعبادة الرحمن، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ أنجم في جبين التاريخ زاهرة، الأنصار منهم والمهاجرة، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم - أيها المسلمون - ونفسي بتقوى الله عز وجل؛

فربكم واحد، ودينكم واحد، وعبادة الله تعالى وتقواه فرض في رمضان وفي غير رمضان. إياكم ونقض العهد، والنكوص بعد الوعد، والدنيا رمضان المؤمن يصوم فيها عن المحرمات، وفطره عند الموت حينما تلقاه ملائكة الرحمن تبشره بالنعيم الخالد في دار السلام.

أمة الإسلام: بينما كان المؤمنون في محاريبهم في عشر ليالٍ خلت؛ يصلون ويقرؤون.. يركعون ويسجدون.. يكون ويُلحون.. يسألون الله من فضله، ويعوذون به من عذابه.. راجين خائفين.. قد اغتنموا فضيلة الشهر، وفضيلة العشر، وفضيلة الثلث الأخير من الليل حيث نزولُ الرب تبارك وتعالى، بينما هم كذلك كانت جموعٌ من البشر لا يعلم عددها إلا الله تعالى من نصارى العرب والعجم، ومن تبعهم في إفكهم يحتفلون بذكرى ميلاد المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام، وبرأس السنة الميلادية، يقودهم في احتفالاتهم أحبارُ السوء، ورهبان الضلال؛ ليعلنوا حربهم على الله تعالى بكفرهم الذي اجتمعوا عليه، وشهواتهم الحيوانية التي أشبعوها في ليالٍ معظمة عند الله تعالى.

لقد احتفل النصارى بألفيتهم، وتبعهم في باطلهم جموعٌ من ضلالٍ المسلمين وجهالهم في وقتٍ كان الصالحون من عباد الله تعالى يلتمسون ليلةً هي خير من ألف شهر، فستان ما بين الألفيتين: ألفيتهم الباطلة، وألفية ليلة القدر، وما أبعد ما بين المقامين: مقام العبودية للخالق المعبود الحق رب العالمين جلَّ جلاله، ومقام العبودية للشيطان الرجيم في أنواع من الشهوات والشبهات، والباطل والضلال.

لقد كان قرنهم - الذي يحتفلون بنهايته - شاهداً عليهم بالظلم والطغيان، والعداء للإسلام، ابتدؤوا قرنهم باتفاقية (سايكس بيكو)^(١)

(١) هي اتفاقية تمت على إثر سقوط الدولة العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م) إذ اجتمع عضو البرلمان البريطاني (مارك سايكس) وقنصل فرنسا =

التي بموجبها قسموا الدولة الإسلامية بين قوى الاستعمار الظالمة؛ فانسبات جيوشهم في بلاد المسلمين تقتسم الغنيمة المنهوبة، وكم قتلوا ونهبوا؟! وكم اغتصبوا وظلموا؟! وما خرجوا من ديار أهل الإسلام إلا بعد أن زرعوا عملاءهم فيها.

وفي منتصف قرنهم سلموا بيت المقدس لليهود، وأقاموا لهم فيه وطناً ودولة، وغيرُوا مسمى الشرق الإسلامي إلى الشرق الأوسط؛ ليستوعب إخوان القرة والخنازير.

وفي أخريات قرنهم أسقطوا منافسهم الاشتراكي، وأعلنوا الهيمنة الرأسمالية الليبرالية، والسيادة الغربية عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً، وبشروا في ظل قيادتهم بانتهاء زمن الحروب والهمجية، وحلول عصر الحرية والديمقراطية، في نظام عالمي كوني يصبح فيه الأمر والنهي واحداً، يتسم بالتحضر والعقلانية، وكراهية مناظر الدماء والدمار، ويتميزُ بنظرة ثقابة تمكنه من معرفة ما هو الأصلح لدول العالم وشعوبه، التي تجهل ما ينفعها وما يضرها؛ مما يحتم الوصاية البيضاء عليها، هكذا زعموا وبئسما زعموا.

ويشربُ هذه العولمة الغربية: العلمانيون العرب، الذين تورمت أكتافهم من أكل الحرام، وأنتنت أفواههم من قول الزور والبهتان، أولئك الذين انهزموا مع أنفسهم، وأوغلوا في الهيام بالغرب الكافر، وحضارته المادية؛

= في بيروت (جورج بيكو) وتمخض عن هذا الاجتماع اقتسام بريطانيا وفرنسا للدولة العثمانية المنهارة، وانظر: خطبة الجهاد في سبيل الله تعالى (٢).

حتى ما عاد لهم خلقٌ يضبطهم، ولا مبدأٌ يُعرفون به.. ييشرون بفجر العولة الجديد الذي يسلط سياطه على بلاد المسلمين ودينهم وأخلاقهم وأعراضهم، ويعتبرونه الفجر الذي فيه تقدمُ الأمة ونهضتها، حينما تَطْرَحُ دينها، وتلحق بركاب الذين كفروا.

أيوثق بأقوام كانوا قوميين وناصرين وبعثيين وماركسيين، ثم صاروا ليبراليين؟! أيوثق بأقوام كانوا من على منابر الماركسية يحذرون الأمة من الليبرالية والإمبريالية، وييشرونها بالاشتراكية، ثم لما سقطت الماركسية تحولوا إلى الليبرالية؟! فأَيُّ مبدأ عند هؤلاء؟ وكيف يوثق بأقوام يتلاعبون بالأمة ذات اليمين وذات الشمال بعيداً عن دينها؟!

إنهم عملاء خونة، عزَّ عليهم أن يدين أهلُ الشرق بالإسلام؛ فتعلقوا بكل مذهبٍ ونحلة رجاء القضاء على الإسلام، وإخراج أهله منه.

إن العولة التي يراها العلمانيون العرب خيرَ شفاءٍ لجسدِ الأمة الذي أنهكته الجراح، تُمثلُ قتلاً لها، وإلغاءً لهويتها، ومحوراً لخصوصيتها، ونسفاً لدينها وأخلاقها وأعرافها.

إنها نقلُ الإلحادِ والفساد كما هو في الغرب إلى بلاد المسلمين؛ ليصبح المسلمُ مركباً حيوانياً مادياً يُشبعُ شهوته، ويفسدُ قلبه، ينظر إلى يومه ولا يفكر في غده، لا يعرف الله حدوداً، ولا يرعى لدينٍ حرمة، ولا يقيم لخلق وزناً.

وليس هذا التكيفُ والنقلُ والتحولُ من رحابة الإسلام إلى سجن

الإلحاد محل اختيار ومشورة؛ بل سيتم فرضه في زمن العولمة سياسياً عن طريق قرارات الأمم المتحدة، واقتصادياً عن طريق منظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولي، وثقافياً عن طريق منظمة اليونسكو، ومن رفض ذلك فحلفُ الناتو له بالمرصاد.

إن هذه المنظمات والأحلاف والهيئات ستتولى عولمة الشعوب بالقوة إذا لم تُجدِ المؤتمرات والتوصيات.

إن مصطلح العولمة تحول كليةً إلى سياسات وإجراءات عملية ملموسة في كل المجالات الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والإعلامية، وأضحى عمليةً تطرح في جوهرها هيكلًا للقيم تتفاعل كثيرٌ من الاتجاهات والاستراتيجيات في الغرب على فرضه وتثبيته، وقسر مختلف شعوب المعمورة - وخاصة المسلمين - على تبني تلك القيم وهيكلها ونظرتها الإلحادية للإنسان والكون والحياة^(٢).

إن الغرب الإلحادي رغم قوته العسكرية، ومرواغاته السياسية، وتفوقه الصناعي والمادي عجز أن يصبغ العالم بهويته الإلحادية منذ نهضته وسيادته وإلى اليوم. والسبب في ذلك: أن قيمه الإلحادية لا تشبع قلب الفرد، ولا توجد عنده الطمأنينة والسكينة رغم الثراء والتقدم والصناعة والترف، ولا أدلَّ على ذلك من أن أعلى نسبة انتحار وأمراض نفسية هي في بلادهم الإلحادية، وهذا العجز الظاهر في قيم الغرب أن

(٢) انظر مقالة: العولمة بين منظورين. د. محمد أمحزون، مجلة البيان، عدد

تنتشر؛ جعلهم يسعون إلى عوالة العالم على وفق قيمهم ولو بالقوة. أما الإسلام فإنه أعطى المرء حاجته من الدنيا، وملأ قلبه بالإيمان والسكينة، وجعل له أملاً في الدارين الدنيا والآخرة.

إن الإسلام حقق من الانتشار في الأرض في ثمانين سنة ما عجزت حضارة الرومان النصرانية أن تحققه في ثمانية قرون. دينٌ ينتشر بمجرد عرضه على الناس، ما احتاج المسلمون أن يمارسوا إرهاباً سياسياً أو اقتصادياً أو عسكرياً أو ثقافياً حتى يُعولموا غير المسلمين؛ بل كان الناسُ يدخلون طواعية في دين الإسلام.

ومن العجيب - أيها الإخوة - أن كثيراً من الشعوب النصرانية إبان الفتح الإسلامي خيَّرت بين حكم الإسلام، وبين حكم القياصرة والباباوات؛ فاختارت الإسلام لعدله ورحابته؛ حتى قال الزعيم الديني البيزنطي في القسطنطينية أثناء حصار محمد الفاتح لها: «إنه خيرٌ لنا أن نرى العمامة في مدينتنا القسطنطينية من أن نرى فيها تاج البابوية»^(٣).

هذا كان في القديم، وأما في العصر الحاضر؛ فإن أعداء الإسلام من ملاحدة الغرب، وقساوسة الكنائس يلصقون بالإسلام أبشع التهم. ويسوّق ذلك كثيرٌ من كتاب العرب وزنادقتهم، وقد سخر الغرب كل قوته في هذا السبيل عبرَ الإعلام بصحفه ومجلاته، وإذاعاته وفصائياته، وشبكته العالمية (الانترنت) التي لا تحصى مواقعها المخصصة للنيل من الإسلام، والتشكيك فيه، وإفساد الأخلاق والقيم؛ بل ومحاولة تنصير

(٣) العثمانيون في التاريخ والحضارة لمحمد حرب (٧١).

الشعوب غير النصرانية بما يُنفق على الكنائس والمنصرين من مليارات الدولارات، ومع ذلك فالنصرانية في تراجع، والإسلام في تقدم وتزايد. عادت كثيرٌ من الشعوب الإسلامية التي رزحت تحت نِير العلمانية ردتاً من الزمن إلى دينها، ودخل كثير من غير المسلمين في الإسلام، وما أكثر الغربيين الذين يدخلون الإسلام كل يوم.

لقد تنبأ المنصرون قبل سنوات أن عام ألفين هو عام انتشار النصرانية في البشر، واندحار الإسلام، وعزموا على أن لا تدخل الألفية الثالثة إلا وقد تنصرت أفريقيا بكاملها وجنوب شرق آسيا، وردّ الله كيدهم على نحورهم؛ فالإسلام فيها أقوى وأكثر انتشاراً من النصرانية؛ وما ذاك إلا لأن الإسلام دينٌ عالميٌّ صالحٌ ومصلح للبشر كلهم. فقرآنه ذكر للناس كلهم ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧]، ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم مرسل إلى العالم كله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]. وأمره الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

أيها المؤمنون: إن الضغط من القوى الغربية، وأذئابها العلمانية سيزداد عقب دخول هذه الألفية للقضاء على الهوية الإسلامية، وتغريب الشعوب المسلمة، والمرأة المسلمة، والطفل المسلم، وستواجه الأسرة المسلمة ضغوطاً إعلامية مدعومة بأذرعة سياسية واقتصادية وعسكرية؛ لفرض توصيات مؤتمرات تحرير المرأة والسكان والإيواء البشري؛ بقصد

إباحة الزنا واللواط والسحاق والإجهاض، وزواج الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، وتحديد النسل، وغير ذلك من المقررات الإلحادية التي تواصلوا بها. وبوادر ذلك ظاهرة لمن يطالع الفضائيات وما تعرضه من مناظرات ومقابلات وتقارير، ومواقع كثيرة في شبكة الانترنت مخصصة لذلك.

لذا لابد من تحصين الأسرة المسلمة رجالاً وشباباً ونساءً وأطفالاً؛ وذلك بغرس الإيمان الصحيح في قلوبهم، وردّ الشبهات التي تقذف بها الفضائيات والصحف والمجلات وغيرها، والتي تهدف إلى تشكيك المسلم في دينه، ومخاطبة غرائزه، والمسؤولية واجبة على كل فرد من الأمة بحسبه. واجبة على المسؤولين والعلماء والإعلاميين والمحاضرين والمدرسين والآباء والأمهات. فالحرب على أشدها، وليس للمسلم غاية دون جنة النعيم، فلا بد من الثبات وتحمل المسؤولية، وأداء الأمانة، بارك الله في الجهود والمسااعي، وردّ كيد الأعداء إلى نحورهم، إنه سميع مجيب.

أيها المؤمنون: ابتهجوا بعيدكم فيما يرضي الله تعالى، وبروا والديكم وصلوا أرحامكم، واحذروا منكرات العيد، ولا تنسوا إخوانك المسلمين المجاهدين والمشردين في الشيشان وفي كل مكان، خصوصهم بالدعاء، وابذلوا لهم المال، واشكروا الله تعالى على نعمه التي لا تعد ولا تحصى.

أيها الإخوة: وافق عيد هذه السنة يوم الجمعة فاجتمع العيدان في يوم واحد، فمن صلى العيد فله رخصة ألا يصلي الجمعة؛ لكن العلماء

أفتوا بأن فرض الظهر واجب عليه . وقد حصل ذلك على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فقال لأصحابه : «قد اجتمع في يومكم هذا عيدان فمن شاء أجزأه من الجمعة، وإنا مجمعون» أخرجه أبو داود^(٤)

أعاده الله علينا وعليكم باليمن والإيمان، والسلامة والإسلام، وتقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وأزواجه وأتباعه إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين .

(٤) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أبو داود في الصلاة باب إذا وافق يوم الجمعة يوم عيد (١٠٧٣)، وابن ماجه في إقامة الصلوات باب ما جاء فيما إذا اجتمع العيدان في يوم (١٣١١)، والحاكم (٢٨٨/١)، وابن الجارود (٣٠٢)، وله شواهد عن ابن عباس وزيد بن أرقم وابن عمر رضي الله عنهم .

٦٩- خطبة عيد الفطر المبارك

موقفنا من الأحداث المعاصرة (١)

الأحد ١/ ١٠/ ١٤٢٢هـ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١ - ٣].

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ١، ٢].

الحمد لله حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ بيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، فسبحانه من إله عظيم، خلق خلقه، وقضى فيهم بأمره، وعمل فيهم بحكمته، وهداهم إلى شرعه، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. ضرب لهم آجالهم، وتكفل بأرزاقهم. هدى منهم من هدى، وضلّ منهم من أضل، ويوم القيامة يكون حسابهم، ويجزون بأعمالهم، ففريق منهم في النعيم، وفريق منهم في السعير، لا إله إلا الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ أخرج الله تعالى به هذه الأمة من ظلمات الجهل إلى أنوار العلم، ومن أدران الشرك إلى صفاء التوحيد،

ومن دركات الذلة إلى درجات العزة، ومن مهاوي الردى، وموجبات النار إلى منازل الرفعة، وموجبات النعيم المقيم في جنات عدن.

صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ قوم بذلوا لله نفوسهم، وانخلعوا من أموالهم، وهاجروا عن ديارهم، وفارقوا أهلهم وأولادهم؛ ابتغاء رضوان الله، وطلباً لجنته فرضي الله عملهم، وترضى عنهم، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عز وجل؛ فإن ربكم عليمٌ بأحوالكم، مطلعٌ على أعمالكم، يفرح بطاعاتكم، ولا يضره عصيانكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

أيها الناس: في هذا اليوم المبارك، يؤدي هذه الشعيرة العظيمة ملايين المسلمين في مصلياتهم ومساجدهم في مشارق الأرض ومغاربها، فيالله كم من عبد منهم يحضر صلاة العيد وقد غفر الله ذنبه، وقبل عمله، وشكر سعيه، واستجاب دعاءه، وأعتقه من النار. وسبحان الله وبحمده كم من عبد محروم، يحضر هذه الصلاة وهو غير مرحوم، قد قضى رمضان في لهو وغفلة، ليلٌ أحياء في مجالس الباطل، وأمام الشاشات المحرمة، ونهار أمضاه في النوم، وليس له من العمل إلا القليل مع عصيان كثير، في وقت كان العاملون قد شمروا واجتهدوا وعملوا. واليوم حيث تقسم الجوائز، وتوزع الهبات، أسألوا من داوموا على

القرآن، وحافظوا على التراويح والقيام، وأسهروا ليلهم في طاعة الله تعالى، وتحملوا طول القنوت، وكثرة الركوع والسجود، وقهروا نفوسهم فغلبوها وقصروها على الطاعة.

اسألوهم: هل يتذكرون مشقة ما عملوا من الصالحات؟! لقد نسوها وبقي لهم الأجر موفوراً، كأني بهم يأخذون جوائزهم اليوم وهي أمثالُ الجبال حسناً، نسأل الله بمنه وكرمه أن يجعلنا منهم.

ثم اسألوا من استمتعوا باللغو المحرم في رمضان، وتلذذت أعينهم بالنظر إلى المحرمات، وأسماعهم بسماعه، ولم يقطعوا لذة النوم من أجل الفرائض، ولم تفتهم لذة من حلال أو حرام إلا وقد ذاقوها واستمتعوا بها، اسألوهم اليوم: هل يتذكرون تلك اللذات، وهل يجدون طعمها الآن؟! كلا، لقد نسوها، وذهبت لذتها بانقضائها، وبقي وزرها على ظهورهم، كأني بهم قد خرجوا من رمضان وهم يحملون من الأوزار أمثال الجبال، نسأل الله أن لا يجعلنا منهم.

عباد الله: وهكذا الدنيا، تمر كما يمر رمضان، فينسى الطائع فيها مشقة الطاعة؛ ولكن أجرها محفوظ له، وينسى العاصي لذة المعصية؛ ولكن وزرها مدونٌ في صحيفته. ومن هنا قال من قال من السلف الصالح: «اجعل دهرك كله رمضان بالصيام عن العصيان، والاجتهاد في الطاعة، حتى إذا جاءك الموت حان وقت فطرك، وبشرتك ملائكة الرحمن بما لَدَّ وطاب من النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول»^(١).

(١) انظر حول هذا المعنى: لطائف المعارف للحافظ ابن رجب (٣٧٨).

والله الذي لا إله إلا هو إن كل عبد يقهر نفسه على الطاعات، ويتحمل في سبيل الله مشقتها سوف ينسى مشقتها، وينعمُ بثمرتها، وإن كل عبد يتخوض في المحرمات، ويستمتع بها سوف ينسى لذائذها، ثم يشقى بتنائجها، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤساً قط؟ هل مرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله، ما مرَّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»^(٢).

الله أكبر، نسي صاحب المعاصي لذة عصيانه من صبغة واحدة في النار، ونسي صاحب الطاعات مشقتها، والبؤس الذي لحقه في الدنيا، والأواء التي عاناها من صبغة واحدة في الجنة؛ فاللهم اجعلنا ووالدينا ممن يصبغ في الجنة، ونعوذ بك اللهم من النار.

أيها المسلمون: يمرُّ بنا العيد والبشرية على مفترق الطرق، والأمة المسلمة فيها من اللأواء والضنك ما لا يعلمه إلا الله تعالى، والناس في ترقب، وهاجس الخوف من المستقبل المجهول قد سيطر على كثير منهم؛ مما جعل أحاديثهم في وسائل الإعلام المختلفة عن احتمال المواجهات

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المنافقين باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار..

(٢٨٠٧)، وابن ماجه في الزهد باب صفة النار (٤٣٢١)، من حديث أنس

ابن مالك رضي الله عنه.

الحضارية بين أمة الحق وأمم الباطل تكثر هذه الأيام.

إن الأيام في تسارع، والأحداث في تتابع، والليالي كما يبدو حبلى بالمفاجآت والأحداث العظيمة، وإزاء ذلك فإن التخبط في الآراء والأفعال صارة سمة من سمات هذه الأيام، وكثرة الأخبار والتحليلات، صرفت كثيراً من الناس عما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وشغل الناس بالقليل والقال، وتناقل الأخبار.

ولأجل ذلك فإنه يجب على علماء الأمة ودعاتها ردُّ الناس إلى الجادة، وحثهم على المزيد من العبادة، فالمستقبل المجهول ينبغي ألا يخاف منه إلا الكافر والفاجر، وأما المؤمن التقي فلا يخاف المستقبل مهما كان يحمل في طياته من أحداث مرعبة؛ لأنه كلما ترقى في العبادة صار من أولياء الله تعالى، وأولياء الله لهم الأمن في الدنيا والآخرة ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

إن المؤمن يعلم بمقتضى إيمانه أن أي شيء يحدث في الكون لا يخرج عن تدبير الله تعالى وقضائه وأمره، وأن الله تبارك وتعالى حكيم عليم، لطيف خبير، له الحكمة البالغة فيما يقضي وفيما يشرع؛ كما قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال أبوه يعقوب عليه السلام لما أمر بنيه بالدخول من أبواب متفرقة لئلا يصابوا بالعين: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

ولما استعجل المشركون العذاب خاطب الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وما يقضيه الله تعالى ويقدره على البشر من عذاب أو عقوبة أو كوارث أو حروب فإنه يجري على وفق سنن سننها، وقوانين بينها؛ ليفقه البشر أسباب العذاب والهلاك فيجتنبوها؛ وليعرفوا دروب النجاة فيسلكوها، وهي سنن لا تتغير بتغير الزمان والمكان ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

وثمره هذه النظرة لأحوال الغابرين وما جرى عليهم من أيام الله وسننه هي الاعتبار والادكار، وأخذ الدروس والعظات، ومن ثم التعلق بأسباب النجاة، والبعد عن أسباب الهلاك ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

وأعظم سبب ينجي من الفتنة والهلاك: التعلق بجناب الله تعالى، واللوذ بحماه، وصدق اللجوء إليه، وإخلاص العمل له وحده، والبعد عن أسباب غضبه ونقمته.

إن من أيقن أن الأمور تسير بأمر الله تعالى، وأن الأحداث كلها من تدبيره وتقديره، فإنه لا يطلب النجاة فيها من غير مدبرها ومقدرها، عزَّ في علاه، وتعاضم في مجده.

فالله تعالى هو الذي يثبت القلوب في عظامم الفتن التي تמיד من هولها الجبال، وتحار العقول والألباب، ونحن - عباد الله - محتاجون

إلى الثبوت في فتن الدنيا، وفي فتن القبر، وفي فتن يوم النشر. والثباتُ
نعمة من الله تعالى يهبها من شاء من عباده، وأحظ الناس به هم أهل
الإيمان والتقوى كما قال الله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ
الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾
[إبراهيم: ٢٧].

إن فتن آخر الزمان تفتك بالقلوب فتكاً عظيماً، فترى رجالاً ذوي
عقول وأفهام قد جرّتهم الفتن إلى أتونها، وصلتهم بنارها وشرورها؛
حتى يصبح الرجلُ منهم مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح
كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل؛ كما صح عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم^(٣).

إن الحديث لم يذكر أن الرجل يصبح من هؤلاء المفتونين ساجداً
لله تعالى، ويمسي ساجداً للصنم، أو يمسي طائفاً بالكعبة، ويصبح
طائفاً بالقبر؛ وإنما ذكر أنه يبيع دينه، ويبيع الدين له صور كثيرة، فتغيير
الثوابت العقدية، والتشكيك في المسلمات الشرعية، وتحريف الكلم
عن مواضعه، وتأويل النصوص المحكمة القطعية؛ لتوافق الأهواء، أو
لتساير مجريات الأحداث هو من بيع الدين بعرض من الدنيا قليل.
وإذا كانت المتغيرات الكبرى في تاريخ البشر يرتفع فيها أقوام

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مسلم في الإيمان باب الحث على
المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن (١١٨)، والترمذي في الفتن باب ما جاء
ستكون فتن كقطع الليل المظلم (٢١٩٦).

ويسفل آخرون، ويعتز رجالٌ ويذلُّ آخرون، وتتمكنُ فيها أمم وتندثرُ أخرى؛ فإن طلب العزة والرفعة يجب أن يكون من الله تعالى وليس من البشر مهما كثرت أعدادهم، وبلغت قواتهم، وأزهرت حضارتهم، فالله تعالى هو المتفردُ بكمال الكبرياء والعظمة، وكمال العزة والجبروت. فمن طلب الرفعة من غير الله تعالى وضعه الله، ومن ابتغى العزة في غير دينه أذله الله، ومن احتمى بغيره فإنه لا يأمن مهما كانت قوة من احتمى به وعظمته وجبروته ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، ولما طلب المنافقون في المدينة العزة من مشركي مكة أذلهم الله وبشرهم بالنار ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣٨) الذين يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْتَنُّونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

ومن بدل شريعة الله تعالى أو حرفها ليوافق بها أهواء الناس فهو محادٌ لله تعالى، وقد كتب الله الذلة على المحادين له تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].

إن ما يجري في الأرض من حوادث قد خرجت لنا كتاباً ومحللين وصحفيين وإذاعيين وإخباريين لا يعرفون الكتاب والسنة، ولا يفهمون سنة الله تعالى في البشر، ولربما كان منهم من لم يسجد لله تعالى سجدة واحدة؛ أخذوا يطالبون الأمة بالتخلي عن دينها، وإعادة صياغة عقيدتها وعلاقاتها مع الآخرين، بل طالب بعضهم - قاتلهم الله - بإعادة النظر في نصوصنا المعصومة من كلام ربنا جلَّ جلاله، وكلام رسوله صلى

الله عليه وسلم، وحذف ما لا يتوافق مع أهوائهم وأهواء الذين كفروا. وتلك والله فتنة أعظم من أي فتنة: أن يطالب المسلمون بالتخلي عن دينهم، والتنازل عن شريعتهم، وإطراح نصوصهم المعصومة، وأي ضلالٍ أعظم من هذا الضلال، لو قبل المسلمون بتلك الأطروحات الكفرية؟!

إن من سمات الموفقين من عباد الله تعالى: بعدّهم عن الفتن، وفرارهم منها. فإن ابتلاههم الله تعالى بشيء منها ثبتوا على الحق المبين مهما كان الثمن، ولو كان الثمن أرواحهم.

إن من أوصافهم أنهم يُكثرون العبادة في حال الفتنة، وينشغلون عن القيل والقال، وما لا ينفع من اللغو والكلام بالاستغفار من ذنوبهم، والبكاء على خطاياهم.

وقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «العبادة في الهرج كهجرة إلي» رواه مسلم^(٤)، قال النووي رحمه الله تعالى: «المراد بالهرج هنا: الفتنة واختلاطُ أمور الناس، وسببُ فضل كثرة العبادة فيه: أن الناس يغفلون عنها، ويشغلون عنها، ولا يتفرغ لها إلا أفراد»^(٥). وصدق النووي رحمه الله تعالى؛ إذ لو نظرنا في واقع الناس تجاه

(٤) أخرجه مسلم في الفتن باب فضل العبادة في الهرج (٢٩٤٨)، والترمذي في الفتن باب ما جاء في الهرج (٢٢٠١)، وابن ماجه في الفتن باب الوقوف عند الشبهات (٣٩٨٥)، من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه.

(٥) شرح النووي على مسلم (١٨/١١٧).

ما يحدث هذه الأيام فإنه لا يعدو ما قال من تشاغلهم بما لم يؤمروا به، وإهمالهم لما كلفوا به، إلا من رحم الله تعالى وقليل ما هم. إن المؤمن الحق هو من يطلب المنح في المحن، ويستخرج النعم من النقم، ويوقن بأن في طيات العسر يسراً، مهما كان حجم العسر، وشدة الكرب.

ومن أعظم الابتلاءات التي أصابت بيت النبوة: حادثة الإفك التي اتهمت فيها الطاهرة المطهرة في عرضها، وهي فتنة زلّ فيها بعض خيار الصحابة رضي الله عنهم، وعظم فيها الكرب على النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى زوجه عائشة وأبيها الصديق رضي الله عنهما، وعلى أكثر الصحابة رضي الله عنهم، ومع ذلك فإن القرآن لما عرضها قال: ﴿لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١].

ومن مسلمّات عقيدتنا، ومحتّمات حسن ظننا بربنا أن نوقن بأن الله تعالى لا يقدر شراً محضاً^(٦)، فالشر ليس إليه تبارك وتعالى، وما يبدو منه الشر والفتنة لا بد أن يكون فيه خيرٌ بوجه من الوجوه قد

(٦) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وأما السيئة فهو إنما يخلقه بحكمة، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه؛ فإن الرب لا يفعل سيئة قط، بل فعله كله حسنة وحسنة، وفعله كله خير؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء الاستفتاح: «والخير بيدك والشر ليس إليك» فإنه لا يخلق شراً محضاً، بل كل ما يخلقه ففيه حكمة هو باعتبارها خير، ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس، هو شر جزئي إضافي، فأما شر كلي أو شر مطلق فالرب منزّه عنه، وهذا هو الشر الذي ليس إليه، وأما الشر الجزئي الإضافي

نعلمه وقد لا نعلمه.

أمة الإسلام: مع تفاقم الأحداث، وتعظام الأمور يتحدث الناس عن صراع الحضارات وهو صراعٌ أزلي سجله القرآن، وهو من سنن الله تعالى التي تبقى ما بقي الخير والشر، والإيمان والكفر، وتلك حقيقةٌ بديهية لا تحتاج إلى إثبات أو برهان؛ لدلالة العقل والنقل عليها، ووقائع التاريخ أكثر من تحصر فيها.

ولكننا مع ذلك لا نتمنى لقاء العدو، ونسأل الله العافية؛ كما أمرنا بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٧)، فإن أبى العدو إلا إشعالها حرباً حضارية فإننا لا نرهبه ولا نخافه، ولا نخاف أسلحة الدمار الشامل التي يملكها، ونلخص نتيجة المعركة في جملتين اثنتين: إن الله أقوى وهو معنا، وما يعلم جنود ربك إلا هو، وإن قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار.

نسأل الله العافية والسلامة، كما نسأله أن يثبتنا على الحق، وأن نلقاه غير مبدلين ولا مغيرين. إنه سميع مجيب.

أيتها المرأة المسلمة: أيتها الصائمة القائمة: إن لك دوراً كبيراً في

= فهو خير باعتبار حكمته؛ ولهذا لا يضاف الشر إليه مفرداً قط» اهـ من مجموع الفتاوى (٢٦٦/١٤) وحديث الاستفتاح الذي ذكره هو حديث علي رضي الله عنه أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٠). (٧) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية» أخرجه البخاري في التمني، باب كراهية تمنى لقاء العدو (٧٢٣٧)، ومسلم في الجهاد باب كراهية تمنى لقاء العدو (١٧٤١).

مجريات الأحداث، فتربية النشء على الإيمان والثبات على الحق من أهم المهمات التي لا يحسنها إلا الأمهات والزوجات والأخوات. ازرعي في قلوب أولادنا محبة الله تعالى، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه؛ فإننا إذا أوجدنا نشأاً يملك تلك القلوب المؤمنة الموقنة فلن نرهب أية قوة، ولن نخاف إلا الله تعالى.

أيتها القائمة القانئة: احذري أن يتخلف نصر الله تعالى بسبب ما تقارفينه من عصيان، وإيّاك ودعوات المفسدين والمنافقين: أدعياء تحرير المرأة؛ فإنهم يريدونك ألعبوبة في أيديهم كما كانت المرأة الغربية ألعبوبة في أيدي الرجال، أخرجوها من بيتها لتعمل، فكف زوجها يده عنها، وصارت تعمل لتأكل، ويتحرش بها صاحب العمل، وزميلها في العمل، ولا تمشي إلا وسلاحها في حقيبتها كأنها في جبهة قتال. اقرئي التقارير الموثوقة، والدراسات الأكاديمية، واطلعي على الأرقام والإحصاءات عن واقع المرأة في الغرب؛ لتعرفي نعمة الله تعالى عليك بالإسلام والحجاب والقرار في البيت.

انظري إلى عجوز مسنة في مجتمعنا، يتحلق اليوم أبناؤها وأحفادها عند قدميها، يُقبلون رأسها ويديها، ويلتمسون رضاها، ويقومون على خدمتها ورعايتها حتى يوسدوها في لحدها. قارني ذلك بحال عجوز غربية قد رماها ذووها في ملجأ للعجزة، وإن كانت تملك مالا فففي أحسن الأحوال تجديها منعزلة في منزلها، لا تزور ولا تزار، تقضي بقية عمرها مع كلبها أو قطتها!! تلك هي النهاية الأليمة للمرأة الغربية،

وهي النهاية التي يخفيها المنافقون والأفَّاكون. أخرس الله ألسنتهم، وكسر أقلامهم، وأشغلهم في أنفسهم عن محارم المسلمين.

أيها الصائمون القائمون: تخرجون بعد قليل من المسجد لتفرحوا بالعيد مع أزواجكم وأولادكم، ويلتف عليكم أقاربكم وأصحابكم، وفي المسلمين يتامى لا يجدون حنان الأبوة، وأيامى لا ينتظرون الأزواج. فيهم مشردون قد هدمت عليهم ديارهم، وأخرجوا من بلادهم، جوعى لا يجدون طعاماً، وعراة لا يجدون كساءً، وخائفون لا يجدون أمناً. لربما ونحن مجتمعون لأداء هذه الشعيرة العظيمة ييتم الآن منهم أطفال، وترملُ منهم نساء، وتهدم لهم ديار، فحسبهم الله على من ظلمهم وشردهم، ورمّل نساءهم، ويتم أطفالهم.

احمدوا الله الذي عافاكم، واشكروه على ما أعطاكم، وإن من الشكر أن تبذلوا شيئاً من أموالكم إلى أولئك المشردين في أفغانستان وفي فلسطين وفي الشيشان؛ لعل ما تبذلون يسد شيئاً من جوعهم، ويكونُ عوناً لهم على نوائبهم، وهو شعور تُعبّرون به عن إحساسكم بمعاناة إخوانكم، وجزء من الشكر تبذلونه لمولاكم على نعمه العظيمة، بارك الله لكم في أموالكم وأولادكم وأعماركم.

أيها الإخوة المؤمنون: افرحوا بعيدكم في حدود ما أحل الله لكم، وإيّاكم ومنكرات العيد، ولا تقابلوا نعم الله عليكم بالكفر؛ فإن الله تعالى قد تأذن بالزيادة لمن شكر، ومن كفر نعمة الله تعالى فيوشك الله أن يزيلَ عنه النعمة، وأن تحل به النقمة، نسأل الله العافية والسلامة.

بروا والديكم، وصلوا أرحامكم، وأحسنوا إلى جيرانكم، واتبعوا
 رمضان ستاً من شوال؛ فإن من صامها مع رمضان كان كمن صام الدهر
 كله، كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٨).
 إن الله وملائكته يصلون على النبي، ، ،

(٨) وذلك في حديث أبي أيوب الأنصاري عند مسلم في الصيام باب استحباب
 صوم ستة أيام من شوال (١١٦٤)، وأبي داود في الصوم باب في صوم ستة
 أيام من شوال (٢٤٣٣)، والترمذي في الصوم باب ما جاء في صيام ستة أيام
 من شوال (٧٥٩)، وابن ماجه في الصيام باب صيام ستة أيام من شوال
 (١٧١٦) وغيرهم.

٧٠- خطبة عيد الفطر المبارك

موقفنا من الأحداث المعاصرة (٢)

الخميس ١٠ / ١٠ / ١٤٢٣ هـ

الحمد لله ؛ امتنَّ علينا ببلوغ رمضان، ووفقنا للصيام والقيام، وجعلنا من خير أمة أخرجت للناس .

الحمد لله حمداً يليق بجلال ربنا وعظيم سلطانه، والشكر له شكراً يوازي فضله وإحسانه ؛ خلقنا من العدم، وربانا بالنعم، وهدانا للإسلام، وأعاننا على الصيام والقيام .

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونثني عليه الخير كله، ونشكره ولا نكفره، ونخلع ونترك من يفجره .

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ جاد على عباده الصالحين، وبسط يده للتائبين، وأنعم على جميع العالمين . ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤] .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ كان يقوم حتى تتفطر قدماه من طول القنوت، وصام ثمانين رمضان منذ أن فرض صيام رمضان، وكان آخر خطبة خطبها قبل موته بخمس ليال قال فيها : «إن الله سبحانه خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله» . قال أبو سعيد :

فبكى أبو بكر رضي الله عنه، فقلت في نفسي: ما يبكي هذا الشيخ؟ إن يكن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا^(١).

صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ رضي الله عنهم ورضوا عنه على رغم أنوف أهل الرفض والبدعة الحاقدين الكارهين لهم، ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.
الله أكبر ما هلاً هلال ثم أدبر، الله أكبر ما صام صائم وأفطر، الله أكبر ما قام قائم وتذكر، الله أكبر ما قرأ قارئ كتاب ربه فتدبر.
الله أكبر ذلت لسطوته أعناق الجبابرة، الله أكبر تهاوت بقدرته عروش الأكاسرة والقيصرة. الله أكبر ينصر المؤمنين ويهلك المكذبين.
الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.
أيها الصائمون القائمون: أبشروا وأمّلوا، وظنوا بربكم خيراً؛ فهو الجواد الكريم، الغني عن العالمين، خزائنه ملئى، ويدها مبسوطتان،

(١) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه البخاري في الصلاة باب الخوخة والممر في المسجد (٤٦٦) واللفظ له، وأحمد (١٨/٣) وعبد بن حميد (٩٦٨)، وأبو يعلى (١١٥٥).

ينفق كيف يشاء، يعطي العطاء الجزيل، ويغفر الذنب العظيم، لا يرد من أتاه، ولا يخيب من رجاه، ويجيب من دعاه، وهو الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء.

أيها المفرطون المترفون على أنفسهم: توبوا قبل حلول الأجل، وأقبلوا على ربكم قبل غلق الأبواب، فإن كنتم مفرطين في رمضان، فلا تتبعوا شوال رمضان بالذنوب والعصيان، توبوا إلى الله تعالى؛ فما أشد فرحه بتوبتكم، واستغفروه يغفر لكم.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد
أيها الإخوة المؤمنون: يمر العيد بالمسلمين، وفيهم من اللؤاء والضنك، والذلة والمهانة ما لا نشكوه إلا إلى الله تعالى.

لقد اعتدى الكافرون والمنافقون على دينهم وعلى قرآنهم وعلى نبيهم بالسب والشتم، واعتدوا على إخوانهم بالتقتيل والتشريد والأسر والتعذيب، واعتدوا على أراضيتهم بالتلويث والحرق والسلب والنهب. إنها ابتلاءات ومحن جعلت أقواماً ضعاف إيمان يولون على أدبارهم، ويتخلون عند دينهم، ويتبرؤون من إخوانهم! ابتلاءات بان بها طلاب الدنيا من طلاب الآخرة، وتمايز بها أهل الحق عن أهل الباطل، وكشفت المستور، ومحصت القلوب، وأبانت نفاق المنافقين، كما أظهرت صدق الصادقين، ففيها من الخير ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وربنا تبارك وتعالى لا يقدرُ شراً محضاً، وكل ما يقدره ففيه من الخير ما فيه.

إن كثيراً من الناس قد طاشت عقولهم، ووضعوا أيديهم على قلوبهم

خوفاً من تحطم وسائل التفاهم بين الشرق والغرب، وارتفاع نسبة المواجهة والمفاصلة بين أهل الكتاب وأهل الإسلام، وإصرار الصهاينة النصارى والصهاينة اليهود على تدمير الإسلام ومن يدين به، وأين قوة المسلمين من قوتهم؟! وما هو عتادهم بجانب تقنيات أعدائهم؟! ولكن الأمر لله تعالى من قبل ومن بعد ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

إن معاني الإيمان، ومقام العبودية لله تعالى، وحقيقة التوكل عليه، وصدق اللجوء إليه؛ لا تظهر إلا بالمحن والابتلاءات، وبتسلط الكافرين على المؤمنين.

وإن المبادئ العظيمة التي رسخها الإسلام في قلوب المسلمين من الولاء للمؤمنين، ومعاداة الكافرين، والبراءة منهم ومن كفرهم، ومعرفة حقيقة أعداء الدين من المنافقين لا تقوى في النفوس المؤمنة، إلا حين يُحس الناس بالخطر الداهم عليهم بسبب دينهم وعقيدتهم.

ولما ظن المنافقون في غزوة أحد بالله تعالى ظن السوء، وقالوا ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، كان الجواب: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وها هم منافقو عصرنا يظنون أن الأمر بأيدي قوى الظلم والطغيان من أهل الكتاب، ويصرفون لهم من الخشية والخوف والمحبة ما لا

يصرفونه لله تعالى، يهددوننا بأعدائنا، ويطالبوننا بترك ديننا، وطرح
شريعة ربنا، وما علموا أن في هذه الأمة رجالاً سيقفون في وجوههم
ووجوه أسيادهم من أهل الكتاب ليقولوا لهم: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾،
وليس لكم.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.
أيها المسلمون: إن من قوي إيمانه بالله تعالى، وتوكل عليه وحده،
وأخلص العبودية له سبحانه؛ فلن يرهب أية قوة، ولن يخضع لأي
تهديد أو ابتزاز، وكلما رأى تجمع قوى الكفر والطغيان، وتكالب أهل
النفاق والفساد زاده ذلك يقيناً بالله وحده، وقوة في التوكل عليه مع
التبرؤ من الحول وال طول ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ
فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ
اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿آل
عمران: ١٧٣ - ١٧٤﴾.

إنهم وهم يقولون: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ما فت في عضدهم
تهديد الكافرين، ولا أضعف معنوياتهم وعيد المنافقين، ولا خافوا
الجموع التي تجمعت عليهم؛ ليقينهم بأن الله تعالى حافظ لهم ولدينهم،
ولعلمهم بقدرته تعالى على قصم الظالمين، وإهلاك المكذبين، وإن أصابهم
ما يكرهون فلن يخرج عن تدبير الله تعالى وتقديره.

وتأملوا - رحمكم الله تعالى - يقين موسى عليه السلام لما طارده
فرعون وجنده حتى حصرهم البحر فكان أمامهم، والعدو من ورائهم،

هنا تقطعت السبل البشرية، وأوشك فرعون وجنده أن يظفروا بموسى وقومه، واقتربت النهاية حتى ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، ولكن إيمان موسى بالله تعالى أقوى، ويقينه بوعده ربه كان أمكن، ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] الله أكبر، ما أعظم يقينه بالله تعالى، وثقته به، وتوكله عليه!! فكان حبل الله تعالى أقرب، وجنده ومدده أسرع إلى موسى وقومه من فرعون وجنده، فأمر الله تعالى البحر أن ينقلب ييساً بضربة من عصا موسى، فنجا موسى ومن معه، وأغرق الله تعالى فرعون وجنده.

أفيعجز من أمر البحر فصار ييساً، وجعل النار على إبراهيم برداً وسلاماً، ورفع الطور فوق بني إسرائيل كأنه ظله، وأهلك عاداً وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط، وقوض حضارات اليونان والفرس والروم، وأنجى المرسلين وأتباعهم من المستضعفين، وأهلك المكذبين، أفيعجز من فعل ذلك كله عن تدمير صهاينة اليهود والنصارى، وينجي عباده المؤمنين من شرهم ومكرهم؟! تعالى الله عن ذلك وتقدس، بلى إنه على كل شيء قدير، عزّ جاره، وجلّ ثناؤه، وتقدست أسماؤه، سبحانه وبحمده، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

فالإيمان بالإيمان عباد الله، واليقين اليقين بوعده الله ونصره، وأخلصوا له العبادة، وسارعوا في الخيرات، واحذروا المعاصي والمحرمات؛ فما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.

أيها الإخوة المؤمنون: إذا سيطر على عقول البشر حتمية المواجهة بين الشرق والغرب، والمفاصلة بين الإيمان والكفر، وخاف الناس من استخدام أسلحة الدمار الشامل التي تحرق الأرض، وتلوث الهواء والماء، وتفتك بالناس، وتهلك الحرث والنسل؛ فإن المؤمن الحق لا يخاف ذلك كله، وإن كان لا يتمنى وقوعه، ويحاول درءه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولكنه لا يخاف ذلك؛ لأنه يستند إلى أصليين عظيمين: أولهما: أنه لا يجري شيء في الكون إلا بأمر الله تعالى وتديره ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، كما أن من مات وهو يوحد الله تعالى فهو من أهل الجنة، ومن أيقن برحمة الله تعالى وفضله أحب لقاءه، ومن أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه.

وثانيهما: أن العاقبة للتقوى، ولن يقضى على الإسلام عامة، فلا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى وهم على ذلك. فإذا كان الدين محفوظاً بحفظ الله تعالى لطائفة مؤمنة يقومون به، ومن قضى الله تعالى بهلاكهم في حروب شاملة، أو كوارث مفرغة وهم مؤمنون فمآلهم إلى الجنة برحمة الله تعالى فمم يخاف المؤمنون؟!، وكيف ينتصر عليهم الكافرون الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، وأخبر أنهم يفرون من الموت، والتاريخ يثبت ذلك، والواقع يدل عليه.

وما من مؤمن يقوى إيمانه بذلك فيظفر الكافرون منه بشيء، بل

سيرتدون على أعقابهم خاسرين، وإذا انتشر هذا المفهوم في أوساط الأمة المسلمة فهي حرية بالنصر والتمكين؛ لأنها لن تبدل دينها خوفاً من الذين كفروا، ومن ثبت على دينه فهو الأولى بنصر الله وتأييده. وأما إذا ركن المسلمون إلى الذين ظلموا، وأخلدوا إلى الأرض، وتعلقت قلوبهم بالدنيا، وغيروا دينهم إرضاءً للكافرين والمنافقين، فيخشى عليهم من فوات الدنيا والآخرة، فمن تنازلوا عن دينهم لأجلهم لن يرضوا عنهم مهما تنازلوا، وبتنازلهم يستجلبون سخط الجبار جل وعلا، ويحجبون نصره، ومن التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، كما ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢).

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. إن ما تعانيه الأمة المسلمة من تسلط أعدائها من كفارٍ ومنافقين على دينها ومبادئها وأخلاقها ومناهجها يستوجب رضى الصفوف، واجتماع الكلمة، ووأد الخلافات، والاعتصام بحبل الله جميعاً؛ فكل الأمة مستهدف، من قاعها إلى قمته، والأعداء إذا تمكنوا فلن يرحموا

(٢) وذلك في حديث عائشة رضى الله عنها عند ابن المبارك في الزهد (١٩٩)، والترمذي في الزهد باب عاقبة من التمس رضى الناس بسخط الله، ومن عكسه (٢٤١٤)، والبغوي في شرح السنة (٤٢١٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (٤٩٩ - ٥٠٠) وجاء مرفوعاً وموقوفاً عند الترمذي، وصححه ابن حبان (٢٧٦).

حتى من كان معهم من المأجورين والخونة والمنافقين؛ لأنهم ينظرون إلى غيرهم من علو، ولا يفرقون بين صديق وعدو، فالكل عندهم سواء ما داموا مسلمين، وبالأخص إن كانوا شرق أوسطيين.

والنبي صلى الله عليه وسلم سأل ربه ثلاث مسائل فأجابه في اثنتين ولم يجبه في الثالثة، سأل ربه أن لا يهلك أمته بسنة عامة فأجابه، وسأله أن لا يسلط عليهم عدواً من سواهم يستيحي بيضتهم، ويستأصل شأفتهم فأجابه لذلك، وسأله أن لا يجعل بأسهم بينهم فما أجابه لذلك^(٣)، فلن تؤتى الأمة إلا من قبل أفرادها؛ ولذلك فإن اجتماع الكلمة واجب في كل حين، ويتأكد ذلك في مثل هذه الظروف العصيبة ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ومن أعظم أسباب الهزيمة والانتكاس: التناحر والاختلاف ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ [الأنفال: ٤٦].

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. أيتها المرأة المسلمة، أيتها الصائمة القائمة، أيتها الراكعة الساجدة: لقد كثر الأعداء عن وجوههم القبيحة، وأظهروا نواياهم الخبيثة، وجعلوك ميداناً من ميادين غزوهم، ومادة من مواد إفساد المسلمين،

(٣) كما في حديث ثوبان رضي الله عنه عند أحمد (٢٧٨/٥)، ومسلم في الفتن باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٨٨٩)، وابن ماجه في الفتن باب ما يكون من الفتن (٣٩٥٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٨١/٩)، وابن حبان في صحيحه (٦٧١٤).

وسبباً من أسباب تخليهم عن دينهم، كما فعلوا بأكثر نساء العالمين. لقد حولوا الأسرة الصالحة المترابطة إلى أسرة مفككة متحللة، وحولوا حياة الأسرة السعيدة إلى جحيم لا يطاق، ونقلوا المرأة من أحضان أسرتها إلى ميادين الشهوات؛ لتشبع غرائزهم الحيوانية بعريها وابتذالها.

فالبنات التي كانت تعيش في كنف والديها صارت ملزمة بالنفقة على نفسها، والخروج للعمل في ميادين الرجال، ولا تسلم من تحرش هذا أو تهديد ذاك، والزوجة التي يُلزم الزوج بالنفقة عليها ألزموها بالنفقة على نفسها، وصار خروجها وعملها مع الرجال مفقداً لثقة زوجها بها؛ فاتخذ له من الخدينات سواها، وقابلته هي بالمثل انتقاماً منه.

والأم التي أوجب الله تعالى برّها على أولادها سمحت قوانينهم لأولادها بعقوقها، ورميها في حال شيبتها؛ لتقضي ما بقي من عمرها في كنيسة، أو ملجأ، أو وحيدة في بيتها، قارني تلك الحال بحال النساء المسلمات اللاتي ينعمن في أسرهن بعيشة هنية رضية.

لقد تأمر الأعداء على المرأة المسلمة في مؤتمرات وتوصيات كانت من قبل تطرح اختياراً، أما اليوم ومع موجة التسلط والعنجهية الغربية، وسيادة قانون فرعون ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، فإن رعاة البقر وأتباعهم باتوا يلزمون المسلمين بنود حضارتهم المفككة فيما يتعلق بجوانب المرأة والأسرة، ويفرضون ذلك عليهم بالقوة السياسية

والاقتصادية بل وحتى العسكرية إذا لزم الأمر، وهذا يستوجبُ على نساء المسلمين أن يَكُنَّ على قدر المسؤولية في التزام شرع الله تعالى في كل شؤونهن، وتربية أبنائهن وبناتهن على الاعتزاز بالإسلام وأحكام شريعته، وعدم الخضوع إلا لله وحده دون من سواه، وإن نساء الأمة اللاتي خرجن القادة والعلماء والمجاهدين في القديم والحديث لقادراتُ ياذن الله تعالى على رد عدوان المعتدين عليهن، وعلى عفاهن وعفاف بناتهن.

حفظ الله نساء المسلمين بحفظه، وأسبغ عليهن ستره.
الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.
أيها الصائمون القائمون: لئن كنتم تفرحون في عيدكم هذا بما منَّ الله تعالى به عليكم من إتمام الصيام والقيام، وحقَّ لكم ذلك فتذكروا إخواناً لكم يعيشون اليوم في أحزانهم، ويعالجون مشاكلهم وهمومهم، قد عملت فيهم أيدي الظلم والطغيان عملها؛ فسلبتهم فرحتهم التي كانوا يفرحونها من قبل في مثل هذا اليوم.

تذكروا إخواناً لكم قد شردتهم قوى الظلم والطغيان، فهم يعيشون في ملاجئ ومخيمات، لا يجدون فيها ما يسد جوعتهم، ولا ما يكسو عورتهم، ولا ما يقيهم برودة الجو، وصقيع الأرض، يموت منهم كلَّ يوم مئات من البرد والجوع والمرض.

تذكروا أطفالاً حُرِّموا حنان الأبوة، وأراملَ فقدن أزواجهن، لا تنسوهم فهم إخوانكم، واسألوا الله تعالى أن يفرج همومهم، وأن

ينفس كروبيهم، وأن ينتقم ممن شردهم وأذاهم.
 الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.
 أيها الصائمون القائمون: عبادة الله تعالى تكون في رمضان وفي
 غيره، فلا تنقضوا العهد مع الله بعد رمضان، فربُّ رمضان هو ربُّ
 الشهور كلها.

وأتبعوا رمضان ستاً من شوال، فمن فعل ذلك كان كمن صام
 الدهر كله، كما صحَّ ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤).
 وإياكم إياكم ومنكرات العيد، والاستمتاع باحتفالاته ومهرجاناته
 وأغانيه؛ فإن ذلك من كفر النعمة، وحريٌّ بمن شارك في ذلك أو
 رضيه أن يُرد عليه عمله نسأل الله العافية، وإنه لمن أعجب العجب أن
 تقام المهرجانات الاحتفالية، وتعلو أصوات المعازف والغناء عبر الشاشات
 والبيوت، ويُعصى الله عزَّ وجلَّ جهاراً نهاراً في وقت تشهد فيه الأمة
 تحدياً كبيراً، وتعاني عدواً شرساً متربصاً، وهي في أشد الحاجة إلى
 عون الله تعالى ومدده ونصره، فهل يُستجلبُ نصر الله تعالى وحفظه
 وتأييده بمعصيته؟! نعوذ بالله من سخطه، ونبرأ إليه مما فعل السفهاء
 منا، ونستغفره لذنوبنا وذنوبهم.

(٤) وذلك في حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه عند مسلم في الصيام
 باب استحباب صوم ستة أيام من شوال (١١٦٤)، وأبي داود في الصوم باب
 صوم ستة أيام من شوال (٢٤٣٣)، والترمذي في الصوم باب ما جاء في صيام
 ستة أيام من شوال (٧٥٩)، وابن ماجه في الصيام باب صيام ستة أيام من
 شوال (١٧١٦).

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.
أيها المؤمنون: افرحوا بعيديكم في حدود ما أحل الله تعالى لكم،
وبروا والديكم، وصلوا أرحامكم، وأزِيلوا الشحنة من نفوسكم، وابسطوا
أيديكم بالسَّلام والإحسان، ووجهكم بالبشاشة والبشر في وجوه إخوانكم،
وكونوا عباد الله إخواناً.

أعاده الله علينا وعليكم وعلى المسلمين باليمن والإيمان، والسلامة
والإسلام، وتقبَّل الله منّا ومنكم صالح الأعمال.

٧١- خطبة عيد الفطر المبارك العمل عند اندلاع الفتن

الثلاثاء ١٠ / ١ / ١٤٢٤ هـ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد
الله أكبر، كم من مستغفر غفر له! الله أكبر، كم من سائل أعطاه!
الله أكبر، كم من داع أجاب دعاه!

الله أكبر، غفور يغفر الذنوب، الله أكبر، ستر يستر العيوب.
الله أكبر، خلق الخلق ورزقهم، الله أكبر، أرسل الرسل وكفاهم،
الله أكبر، وفق المؤمنين فهداهم، ومن عليهم بشهر رمضان، شهر المغفرة
والعتق من النار، فيالله كم من عبد صام نهاره، وقام ليله؟! وسبحان

الله وبحمده كم من عبراتٍ لله تعالى سَحَتْ؟ وكم من أكف سائلة رُفِعَتْ؟ وكم من أجزاءٍ من القرآن قرئت؟ وكم من حاجات سُئِلَتْ؟ فسبحان من اطلع على عباده المؤمنين وهم يصلون ويقرأون، ويسألون ويُلحون، والله أكبر وسع سمعه كل شيء؛ فسمع دعاء الداعين، واستغفار المستغفرين، وسؤال السائلين في مشارق الأرض ومغاربها. فيالله كم من عبد قبله الله تعالى، ورضي عمله، وأجاب دعاءه، وغفر ذنبه، وفاز بليلة القدر؟! فالله لا تحرمنا فضلك، ولا تحجبنا عن رحمتك، وعاملنا بعفوك، وتقبل صيامنا وقيامنا وجميع أعمالنا. الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. أيها الإخوة المؤمنون: من أحسن في رمضان فليحمد الله تعالى وليزدد إحساناً إلى إحسانه.

وإن من علامات الإحسان: الدوام على الأعمال، والمحافظة على الفرائض والنوافل، واجتناب المحرمات؛ فرب رمضان هو رب كل العام، جل في علاه.

ومن كان مسيئاً فليتب إلى الله تعالى قبل أن يحال بينه وبين التوبة، والله تعالى يفرح بتوبة عبده، ويبدل سيئاته حسنات ﴿وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٨٢].

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. أيها المسلمون: سلوا الله تعالى العافية؛ فكل زمان يكون شراً من الزمان الذي قبله، تعظم الفتن، ويكثر الشر، ويختلط الأمر، ويلتبس

الباطل بالحق، وما من سنة خلت من السنوات القريبة إلا ورزئت أمة الإسلام فيها برزية، وأصابتها بلية، وما ذاك إلا من نتائج الذنوب والمعاصي ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

لقد تآزر الكفر والنفاق على الإسلام والمسلمين؛ فاستباحوا الديار، وهتكوا الحرمات، وأذلوا المسلمين ذلاً عظيماً، وآذوهم إيذاءً شديداً. أجلبوا بخيلهم ورجلهم على شريعة الله تعالى التي أنزلها على خاتم رسله عليهم الصلاة والسلام، فحقروها وحرّفوها، يرومون إخراج الناس من دينهم، ردّ الله تعالى عليهم كيدهم، وعاملهم بما يستحقون. واعتدوا على القرآن الذي جعله الله تعالى هدى للناس، فزعموا أنه يكرّس العنف والإرهاب، ويدعو إلى القتل والفساد.

واعتدوا على خاتم الرسل، وأفضل الأنبياء، محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام؛ فحكوا أنه أول إرهابي في هذه الأمة.

واعتدوا على جلال الله تعالى وعظمته؛ فزعموا أن لهم رباً غير رب الناس، ووصفوا رب المسلمين بالشرير، تعالى الله عن إفكهم علواً كبيراً^(١).

ولم يكتفوا بذلك فحسب؛ بل سيّروا جيوشهم الجرارة، واستحلوا

(١) كثرت خلال الأشهر القليلة الماضية كتابات عبّاد الصليب من القسّس والملاحدة،

ومقولاتهم الطاعنة في دين الإسلام، وفي النبي صلى الله عليه وسلم، وفي كلام الله تعالى، بل واعتدوا على الله جلّ جلاله؛ فزعموا أن ربهم غير رب المسلمين، ولا يزالون في عتوهم وطغيانهم واستدلالهم للمسلمين، عاملهم الله بما يستحقون، وكفى المسلمين شرهم.

مدينة السلام، التي بناها المنصور العباسي، وحضر أول لبناتها الإمام أبو حنيفة النعمان، وترعرع في كنفها الأئمة الكبار: أحمد بن حنبل، وسفيان الثوري، ووكيع بن الجراح، وغيرهم عشرات بل مئات وألوف من الأئمة المهديين، والأعلام المشهورين.

إنها حسرة ما فارقت كل مسلم يغار على دين الله تعالى وحرماته منذ أن دنّست أقدامهم النجسة أرض العراق، ولن تزول تلك الحسرة إلا بزوالهم منها أذلة صاغرين، عجلّ الله ذلك بمنه وكرمه، وأذاقهم ذل الدنيا قبل عذاب الآخرة.

وفي فلسطين ما ازداد حلفاؤهم من عباد العجل إلا عتواً واستكباراً، كم من طفل قتلوه، وامرأة رملوها، وأسرة شردوها؟! وكم من عزيز أذلوه، وغني أفقروه؟ أذلهم الله وأفقرهم، وطهر بيت المقدس من رجسهم وكفرهم.

إنها مصائب ونكبات تنوء بحملها الجبال، وتختار من هولها عقول أولي الألباب، فيالله ما أشدّ مصاب المسلمين، وما أعظم ما يحيط بهم!! عجلّ الله تعالى بفرج من عنده، وأصلح أحوال خير أمة أخرجت للناس، إنه سميع قريب.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.

أيها الإخوة: هذه المحن العظام، يخرج من رحمها فتن تجعل الحليم حيران، فيسقط فيها من يسقط، ويُنجّي الله تعالى من عُصم بالكتاب والسنة، والتجأ إلى الله تعالى يسأله الهداية والثبات، ولا يخذل الله

عزَّ وجل من التجأ إليه بصدق، وسأله الحق بتجرد.
ولأهمية الدعاء بالهداية إلى الحق كان النبي صلى الله عليه وسلم يفتح صلاته إذا قام من الليل بهذا الدعاء المبارك: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» رواه مسلم^(٢).
ومن سارع إلى الفتنة فيوشك أن يسقط فيها، ومن لزم داره، وأمسك لسانه؛ كان ذلك أرجى لهدايته وثباته.

ومن رحمة الله عزَّ وجلَّ بنا أنه ما كلفنا ما لا نستطيع، ومن الدعاء القرآني المبارك: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقد صح في الحديث القدسي أن الله تعالى قال: «قد فعلت»^(٣).

(٢) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها أحمد (١٥٦/٦) ومسلم في صلاة المسافرين باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧٠) وأبو داود في الصلاة باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء (٧٦٧) والترمذي في الدعوات باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل (٣٤٢٠)، والنسائي في قيام الليل باب بأي شيء تستفتح الصلاة بالليل (٢١٢/٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة باب ما جاء في الدعاء إذا قام الرجل من الليل (١٣٥٧).

(٣) جاء ذلك في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند أحمد (٢٣٣/١)، ومسلم في الإيمان باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق (١٢٦)، والترمذي في التفسير باب ومن سورة البقرة (٢٩٩٢).

وجاء نحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه عند أحمد (٤١٢/٢)، ومسلم في الإيمان باب بيان أن الله سبحانه لم يكلف إلا ما يطاق (١٢٥).

وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم نهى صريح في أن يُعرض الإنسان نفسه للفتنة، أو يتعرض للابتلاء؛ لأنه قد لا يصبر فيفتن، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا ينبغي للمرء أن يُذل نفسه؟ قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: يتعرض من البلاء لما لا يطيق» رواه أحمد والترمذي وحسنه^(٤).

(٤) أخرجه من حديث حذيفة رضي الله عنه أحمد (٤٠٥/٥)، والترمذي في الفتن باب (٦٧) وقال: حديث حسن غريب (٢٢٥٤)، وابن ماجه في الفتن باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] (٤٠١٦)، والقضاعي في مسند الشهاب (٨٦٦ - ٨٦٧)، والخطيب في تاريخ بغداد (٢٠٢/١٢). وأخرجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (١٢٧١).

وأخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أبو عمرو الداني في الفتن (٤٠٧/٢) برقم (١٤٨).

وأخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما البزار كما في كشف الأستار (٣٣٢٣)، والطبراني في الكبير (٤٠٨/١٢) برقم: (١٣٥٠٧).

وأخرجه أبو يعلى في مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في قصة طويلة (١٤١١).

وأخرجه من حديث علي رضي الله عنه الطبراني في الأوسط (٧٨٩٨).

وأخرجه مرسلاً عن قتادة والحسن عبد الرزاق في مصنفه (٢٠٧٢١).

وأخرجه من حديث أبي بكرة نفع بن الحارث رضي الله عنه الحارث بن أبي أسامة كما في زوائد الهيثمي (٧٧٣).

وحديث حذيفة يرويه عنه الحسن وهو معلول بالانقطاع بينهما، وقال الهيثمي عن رواية الحسن عن أبي بكرة: «رجال رجال الصحيح» كما في زوائده على مسند الحارث (٧٣٣).

وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٩٧) وأورده في السلسلة الصحيحة (٦١٣) وذكر إعلال أبي حاتم له بالانقطاع ثم قال: «ثم وجدت للحديث =

= شاهدأ من حديث ابن عمر مرفوعاً - وذكر إسناد حديثه عند الطبراني - ثم قال: وهذا إسناد صحيح إن كان زكريا بن يحيى هو ابن يحيى اللؤلؤي الفقيه الحافظ، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن أبي خيثمة وهو ثقة حافظ له ترجمة في تذكرة الحفاظ» اهـ.

قلت: كان الحسن رحمه الله تعالى يستدل بهذا الحديث في الإنكار بالقلب، وعدم تعريض النفس للهلاك بالإنكار باللسان إذا غلب على ظنه أنه يؤدي إذا أنكر بلسانه، وفي ذلك روايات عدة يظهر أنها تكررت في أكثر من موقف، ومنها:

- ١ - ما رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده كما في زوائده للهيثمي (٧٧٣) أن رجلاً قال للحسن: «يا أبا سعيد، الحجاج قد أخر الصلاة يوم الجمعة حتى كان قريباً من العصر، قال: فتقوم إليه فتأمره بتقوى الله، قال له الحسن: إنهم إذا يقتلونني! فقال له الرجل: أليس قال الله عز وجل: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]؟ قال الحسن: حدثني أبو بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس للمؤمن أن يذل نفسه...» الحديث.
- ٢ - ما رواه ابن سعد في الطبقات (١٧٦/٧) عن عمارة بن مهران قال: «قيل للحسن: ألا تدخل على الأمراء فتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، قال: ليس للمؤمن أن يذل نفسه، إن سيوفهم لتسبق ألسنتنا، إذا تكلمنا قالوا بسيوفهم هكذا، ووصف لنا بيده ضرباً».

- ٣ - ما رواه أبو يعلى في مسنده (١٤١١) من حديث المعلی بن زياد قال: «لما هزم يزيد بن المهلب أهل البصرة قال المعلی: فخشيت أن أجلس في حلقة الحسن ابن أبي الحسن فأوجد فأعرف، فأتيت الحسن في منزله فدخلت عليه فقلت: يا أبا سعيد، كيف بهذه الآية من كتاب الله؟ قال: آية من كتاب الله؟ قلت: قوله في هذه الآية: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢]. قال: يا عبدالله إن القوم عرضوا السيف، فحال السيف دون الكلام، قلت: يا أبا سعيد: فهل تعرف لمتكلم فضلاً؟ =

= قال: لا، قال المعلى: ثم حدثت بحديثين، قال: حدثنا أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا لا يمتنع أحدكم رهبة الناس أن يقول الحق إذا رآه أن يذكر تعظيم الله، فإنه لا يُقَرَّب من أجل، ولا يبعد من رزق» قال: ثم حدثت الحسن بحديث آخر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس للمؤمن أن يذل نفسه، قيل: وما إذلاله نفسه؟ قال: يتعرض من البلاء لما لا يطيق» قيل: يا أبا سعيد، فيزيد الضبي وكلامه في الصلاة؟ قال: أما إنه لم يخرج من المسجد حتى ندم. قال المعلى: فقامت من مجلس الحسن، فأتيت يزيد فقلت: يا أبا مودود، بينما أنا والحسن نتذاكر إذ نصبتُ أمرَك نصباً، فقال: مه يا أبا الحسن، قال: قلت: قد فعلتُ، قال: قال: فما قال الحسن؟ قلت: قال: أما إنه لم يخرج من المسجد حتى ندم على مقالته، قال يزيد: ما ندمت على مقالتي، وأيم الله لقد قمت مقاماً أخطر فيه بنفسي. قال يزيد: فأتيت الحسن، فقلت: يا أبا سعيد، غلبنا على كل شيء تُغلب على صلاتنا؟ فقال: يا عبد الله، إنك لم تصنع شيئاً، إنك تعرّض نفسك لهم، ثم أتيت، فقال لي مثل مقالته.

قال: فقامت يوم الجمعة في المسجد - والحكم بن أيوب يخطب - فقلت: رحمك الله، الصلاة، قال: فلما قلت ذلك احتوشتني الرجال يتعاوروني، فأخذوا بلحيتي وتلبيتي، وجعلوا يجثون بطني بنعال سيوفهم، قال: ومضوا بي نحو المقصورة، فما وصلت إليه حتى ظننت أنهم سيقتلونني دونه، قال: ففتح لي باب المقصورة، قال: فدخلت فقامت بين يدي الحكم وهو ساكت، فقال: أمجنون أنت؟ قال: وما كنا في صلاة؟! فقلت: أصلح الله الأمير، هل من كلام أفضل من كتاب الله؟ قال: لا، قلت: أصلح الله الأمير، أرايت لو أن رجلاً نشر مصحفاً يقرؤه غدوة إلى الليل أكان ذلك قاضياً عنه صلاته؟ قال: والله إنني لأحسبك مجنوناً - قال: وأنس بن مالك جالس تحت منبره ساكت - فقلت: يا أنس، يا أبا حمزة، أنشدك الله فقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبته، أبعروف قلت أم بمنكر؟ أبحق قلت أم بباطل؟ قال: فلا =

وقد فهم ذلك السلف الصالح فلم يسارعوا في الفتن، ولا تعرضوا للابتلاء، بل كان كثير منهم يعتزل الناس إذا ماجت فيهم الفتن، وكثر البلاء، واستحر القتل؛ كما حصل أيام صفين والجمل وما بعدهما.

= والله ما أجابني بكلمة، قال له الحكم بن أيوب: يا أنس، قال: يقول: لبيك أصلحك الله - قال: وكان وقت الصلاة قد ذهب - قال: كان بقي من الشمس بقية، فقال: احبسوه.

قال يزيد: فأقسم لك يا أبا الحسن - يعني للمعلی - لما لقيت من أصحابي كان أشدَّ علي من مقامي، قال بعضهم: مرء، وقال بعضهم: مجنون!! قال: وكتب الحكم إلى الحجاج: إن رجلاً من بني ضبة قام يوم الجمعة قال: الصلاة، وأنا أخطب، وقد شهد الشهود العدول عندي أنه مجنون، فكتب إليه الحجاج: إن كانت قامت الشهود العدول أنه مجنون فخلَّ سبيله، وإلا فاقطع يديه ورجليه واسمر عينيه واصلبه، قال: فشهدوا عند الحكم أنني مجنون، فخلَّى عني. قال المعلی عن يزيد الضبي: مات أخ لنا، فتبعنا جنازته فصلينا عليه، فلما دفن تنحيت في عصابة، فذكرنا الله وذكرنا معادنا، فإنا كذلك إذ رأينا نواصي الخيل والحراب، فلما رآه أصحابي قاموا وتركوني وحدي. فجاء الحكم حتى وقف عليَّ فقال: ما كنتم تصنعون؟ قلت: أصلح الله الأمير، مات صاحب لنا فصلينا عليه ودُفن، فقعدنا نذكر ربنا، ونذكر معادنا، ونذكر ما صار إليه. قال: ما منعك أن تفرَّ كما فرَّوا؟ قلت: أصلح الله الأمير، أنا أبرأ من ذلك ساحة، وآمنُ للأمير من أن أفرَّ، قال: فسكت الحكم، فقال عبد الملك بن المهلب - وكان على شرطته - تدري من هذا؟ قال: من هذا؟ قال: هذا المتكلم يوم الجمعة، قال: فغضب الحكم وقال: أما إنك لجريء، خذاه، قال: فأخذت فضررتني أربع مائة سوط، فما دريت حين تركني من شدة ما ضربني، قال: وبعثني إلى واسط فكننت في ديماس الحجاج حتى مات الحجاج» قال الهيثمي في مجمع الزوائد بعد إيراده له: «رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح» (٢٧٤/٧).

وإنكار المنكر لا يوجب الخروج على السلاطين، ولا نكث البيعة، وإلا اختلط الأمر، وعظمت الفتنة، بل إن الإجماع منعقد على أن المنكر لا يغير بمنكر أعظم منه، وأن الإنكار بالقلب يكفي في حق من يناله الأذى إذا أنكر بلسانه، قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: «قلت لابن عباس: أمر أميري بالمعروف وأنهاه عن المنكر؟ قال: إن خشيت أن يقتلك فلا»^(٥).

وجاء رجل إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال: «هلك من لم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فقال عبد الله: بل هلك من لم يعرف المعروف بقلبه، وينكر المنكر بقلبه»^(٦).

وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير رحمه الله تعالى: «لئن لم يكن لي دين حتى أقوم إلى رجل معه مئة ألف سيف أرمي إليه كلمة فيقتلني إن ديني إذاً لضيق»^(٧)، والآثار عن السلف في ذلك كثيرة.

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٧٥٩١-٧٥٩٢)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٨٢/٢٣).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥٠٤/٧) برقم: (٣٧٥٨١)، وأبو نعيم في الحلية (١٣٥/١)، والطبراني في الكبير (١٠٧/٩) برقم (٨٥٦٤)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٨٣/٢٣).

(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢٠٩/٢)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٨٣/٢٣). ومن الآثار والنقول في ذلك غير ما ذكرته في صلب الخطبة:

١ - قول علي رضي الله عنه: «إن أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بالسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فأبى قلب لم يعرف المعروف ولا ينكر المنكر نكس فجعل أعلاه أسفله» أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥٠٤/٧)، =

-
- = برقم: (٣٧٥٧٨)، وابن عبد البر في التمهيد (٣١٣/٢١).
- ٢ - ما رواه أبو قلابة عن حذيفة رضي الله عنه قال: «إني لأشتري ديني بعضه ببعض مخافة أن يذهب كله، قال خالد: فحدثت به محمد بن سيرين، فقال: نعم، قال حذيفة: إني لأصنع أشياء أكرهها مخافة أكثر منها» أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٣١٥/٢٤).
- ٣ - قول ابن مسعود رضي الله عنه: «حسب المؤمن إذا رأى منكراً لا يستطيع تغييره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره» أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥٠٤/٧) برقم: (٣٧٥٨٢)، والبيهقي في الشعب (٧٥٨٩).
- ٤ - ما رواه طارق بن شهاب عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إنكم في زمن الناطق فيه خير من الصامت، والقائم فيه خير من القاعد، وسيأتي عليكم زمان الصامت فيه خير من الناطق، والقاعد فيه خير من القائم، فقال له رجل يروونه طارقاً: كيف يكون أمر من عمل به اليوم كان هدى، ومن عمل به بعد اليوم كان ضلالة؟ فقال: اعتبر ذلك برجلين من القوم يعملون بالمعاصي، فصمت أحدهما فسلم، وقال الآخر: إنكم تفعلون وتفعلون فأخذوه فذهبوا به إلى سلطانهم، فلم يزالوا به حتى عمل مثل عملهم» أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٣١٤/٢٤).
- ٥ - وعن الأحنف رحمه الله تعالى أنه كان جالساً عند معاوية رضي الله عنه فقال: «يا أبا بحر، ألا تتكلم؟ قال: إني أخاف الله إن كذبت وأخافكم إن صدقت» أخرجه ابن سعد في الطبقات (٩٥/٧)، وابن عبد البر في التمهيد (٣١٥/٢٤).
- قال ابن عبد البر رحمه الله تعالى في التمهيد (٢٨١/٢٣ - ٢٨٢): «فقد أجمع المسلمون على أن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه، وأنه إذا لم يلحقه في تغييره إلا اللوم الذي لا يتعدى إلى الأذى، فإن ذلك لا يجب أن يمنعه من تغييره بيده، فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم يقدر فبقلبه، ليس عليه أكثر من ذلك، وإذا أنكره بقلبه فقد أدى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك، والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في تأكيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله والحمد.
أيها الناس: من أعظم ما يعصم الإنسان من الفتنة: كثرة العبادة،
وبالأخص الصلاة؛ لأن من اشتغل بالعبادة ثبته الله تعالى حال الفتنة،
وهده لأحسن السبل، وكان شغله في عبادة ربه صارفاً له عن القيل
والقال، وعن الخوض فيما يضر ولا ينفع مما يفسد القلب، ويجعله
يتشرب الفتنة، ويستشرف لها. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:
«العبادة في الهرج كالهجرة إليّ» رواه مسلم^(٨).

واستيقظ عليه الصلاة والسلام ليلة فرعاً يقول: «سبحان الله، ماذا
أنزل الله من الخزائن، وماذا أنزل من الفتنة؟ من يوقظ صواحب الحجرات
- يريد أزواجه - لكي يصلين؟ رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»
رواه البخاري^(٩).

كثيرة جداً لكنها كلها مقيدة بالاستطاعة» ١ هـ.

٦ - عن الحسن البصري رحمه الله تعالى قال: «إنما يُكَلِّمُ مؤمن يرجي، أو جاهل
يعلم، فأما من وضع سيفه أو سوطه وقال لك: اتقني، فمالك وله»
أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٢٨٣/٢٣).

(٨) أخرجه من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه أحمد (٢٧/٥)، والطيالسي
(٩٣٢)، ومسلم في الفتنة باب فضل العبادة في الهرج (٢٩٤٨)، والترمذي
في الفتنة باب ما جاء في الهرج والعبادة فيه (٢٢٠١)، وابن ماجه في الفتنة
باب الوقوف عند الشبهات (٣٩٨٥).

(٩) أخرجه من حديث أم سلمة رضي الله عنها مالك في الموطأ (٩١٣/٢)، وأحمد
(٢٩٧/٦)، والبخاري في الفتنة باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه (٧٠٦٩)،
والترمذي في الفتنة باب ما جاء ستكون فتنة كقطع الليل المظلم (٢١٩٦).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «وفي الحديث النذب إلى الدعاء والتضرع عند نزول الفتنة ولا سيما في الليل لرجاء وقت الإجابة؛ لتكشف أو يسلم الداعي ومن دعا له»^(١٠).

ومن أعظم الدعاء وأنفعه في أحوال الفتن خاصة: سؤال الله تعالى العافية، وقد سأل العباس رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات يقول له: «ما أسأل الله تعالى؟ فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم في كل مرة: سل الله العفو والعافية، وفي المرة الثالثة قال له: فإذا أعطيت العفو والعافية في الدنيا والآخرة فقد أفلحت» صححه الحاكم وابن حبان^(١١).

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصبح وإذا أمسى: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي» رواه أحمد وأبو داود^(١٢).

(١٠) فتح الباري (٢٦/١٣).

(١١) أخرجه أحمد (٢٠٩/١)، والطيالسي (٢٥٧/١)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٦)، والترمذي في الدعوات وصححه (٣٥١٤)، وصححه ابن حبان (٩٥١)، والحاكم وقال: على شرط البخاري ووافقه الذهبي (٥٢٩/١)، والزيادة الأخيرة: «فإذا أعطيت العفو والعافية في الدنيا والآخرة فقد أفلحت» لأحمد (١٢٧/٣)، وللترمذي ولابن ماجه في الدعاء باب الدعاء بالعفو والعافية (٣٨٤٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(١٢) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أحمد (٢٥/٢)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٠٠)، وأبو داود في الأدب باب ما يقول إذا أصبح وإذا أمسى (٣٨٧١) وصححه ابن حبان (٩٦١)، والحاكم ووافقه الذهبي (٥١٧/١).

وقام عليه الصلاة والسلام على المنبر يوماً فبكى وقال: «سلوا الله العفو والعافية والمعافة» رواه أحمد والترمذي^(١٣).

قال شُرَّاح الحديث: «إنما بكى لأنه علم وقوع أمته في الفتن، وعَلَبَتِ الشهوة، والحرص على جمع المال وتحصيل الجاه، فأمرهم بطلب العفو والعافية ليعصمهم من الفتن»^(١٤).

فاللهم إنا نسألك العفو والعافية والمعافة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة، اللهم عافنا في ديننا وفي أهلينا وأموالنا.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. أيها الناس: من أعظم الفتن نزع اليد من الطاعة، ونكث البيعة، والخروج المسلح على السلاطين، وما يستتبع ذلك من سفك الدماء، وتدمير للعمران، وقصدٍ للآمنين من المسلمين أو المعاهدين بالقتل أو التخريب والإفساد، ولا يتضرر بذلك إلا المسلمون، ولا يُسر به إلا أعداء الملة والدين من الكفار والمنافقين، الذين يريدون اختلال الأمن في بلاد المسلمين، واضطراب الأحوال، وسفك الدماء؛ كي يحققوا أهدافهم الدنيئة، ويصلوا إلى مآربهم الخبيثة، وقد قال النبي صلى الله

(١٣) أخرجه من حديث أبي بكر رضي الله عنه أحمد (١/٣ - ٨)، والحميدي (٢ - ٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٤) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٨١)، والترمذي في الدعوات باب (١٠٦) (٣٥٥٨)، وقال: هذا حديث غريب، والبغوي في شرح السنة (١٣٧٧)، وابن ماجه في الدعاء باب الدعاء بالعفو والعافية (٣٨٤٩)، وصححه ابن حبان (٩٥٢).

(١٤) تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي (٣/١٠).

عليه وسلم: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية» رواه البخاري^(١٥).

وقوله في الحديث: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه» يعم الشؤون السياسية والاقتصادية بل وحتى الدينية.

وقد نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى إجماع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب؛ لما في ذلك من حقن الدماء، وتسكين الدهماء^(١٦).

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. إن المخاطر الدولية تحاصر المسلمين، وإن الأعداء من يهود ونصارى ومنافقين يتربصون بالإسلام وأهله الدوائر، وذلك يستدعي رصاً الصفوف، واجتماع الكلمة، وتناسي الخلافات، وتجاوز الاجتهادات الفردية، والاقلاع عن الذنوب والمعاصي؛ فإن المعاصي رافعة النعم، جالبة النقم. وكل واحد من المسلمين مسؤول عما نحن فيه من ضعف وهوان بحسب

(١٥) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أحمد (١/٢٧٥)، والبخاري في الفتن باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «سترون بعدي أموراً تنكرونها» (٧٠٥٤) ومسلم في الإمارة باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة (١٨٤٩). وهكذا عمل السلف الصالح رضي الله عنهم بهذا الحديث كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما لما بويج ليزيد بن معاوية بالخلافة وذكر ذلك لابن عمر رضي الله عنهما فقال: «إن كان خيراً رضيينا، وإن كان شراً صبرنا» أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/١٨٢) وأبو عمرو الداني في الفتن (١٤٦).

(١٦) فتح الباري (٩/١٣).

موقعه، ويجب عليه الإصلاح حسب قدرته.

يجب أن تجتمع القلوب على الكتاب والسنة، بفهم سلف هذه الأمة، ويجب أن تحفظ شريعة الله تعالى من طعن الطاعنين، واستهزاء المستهزئين من الصحفيين والمثليين، ومن لا خلاق لهم من السوق والمنافقين، ويجب الأخذ على أيديهم؛ حتى لا تقع العقوبات بسبب إفكهم وبهتانهم، والبلاء إذا وقع عمّ الجميع ولا يخصصهم وحدهم ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.

أيتها المرأة المسلمة: أيتها الصائمة القائمة: لقد كشف الأعداء من الكفار والمنافقين ومن تبعهم ممن في قلوبهم مرض، كشفوا عن حقيقة ما يريدون من المرأة المسلمة، إنهم يريدونها أن تنبذ دين الله تعالى وراءها ظهرياً، ويرادونها على طهرها وعفافها وحجابها.

يدعونها إلى الاختلاط والتعري، باسم العمل والفن والحرية، والمشاركة في الشأن السياسي، ويزينون لها ذلك بالقصة والمجلة، والبرامج المتنوعة عبر الشاشة، ولكنهم في واقع الأمر يخفون عنها حقيقة ما تعانيه النساء المتخلعات من اضطرابات نفسية، وشقاء دائم، ولك عبء - أيتها المسلمة - في نساء مسلمات برزن في مجالات الفنون، واعتلين خشبات المسارح، حتى بلغن في ذلك شأواً عظيماً، ثم ارتأين أن تلك الطريق لا تحقق السعادة، ولا تليق بالمسلمة، فعدنَّ إلى دينهن وحجابهن وعفافهن، وهجرن الأوساط الموبوءة بالفساد والرذيلة، رغم

مغريات المال والجاه والشهرة، وهنَّ بالعشرات، وعشرات العشرات، لماذا فعلن ذلك؟! لأن السعادة التي ينشدنها لم يجدنها إلا في دين الله تعالى، والتزام أمره، واجتناب نهيه، ومن طلب السعادة في غير مرضاة الله تعالى عاد أمره عليه وبالاً وشقاءً.

فإياك إياك أن يخدعك المخادعون، واحذري أن يغويك المنافقون، الذين يريدون إخراجك من طهرك وعفافك إلى الخنا والمواخير، واتقي الله تعالى في أبناء المسلمين وبناتهم، اغرسي فيهم محبة الله تعالى، ومحبة ما يحبه الله، وبغض ما يبغضه الله.

حفظ الله تعالى نساء المسلمين من كيد الكافرين والمنافقين، وحماهن من شر الفاسقين والمفسدين، إنه سميع مجيب.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. أيها المسلمون: افرحوا بعيدكم في حدود ما أحلَّ الله تعالى لكم، واحذروا المنكرات من الغناء والمعازف والاختلاط، والحفلات الغنائية، فلا تستجلبوا عقوبة الله تعالى في يوم شكره؛ ففي الأمة ما يكفيها من الابتلاءات والمصائب، وليس من الشكر أن يُعصى الله تعالى في يوم من أيامه العظيمة التي يجب أن تعظم فيها شعائره، وتلتزم حدوده، ولا تُنتهك محارمه ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. بروا والديكم، وصلوا أرحامكم، وأحسنوا إلى جيرانكم، وانشروا

الألفة في أوساطكم، وتناسوا ضغائنكم، وطهروا قلوبكم، وكونوا عباد الله إخواناً، وأتبعوا رمضان ستاً من شوال فمن صامها كان كمن صام الدهر كله كما صح عن المعصوم صلى الله عليه وسلم^(١٧).

ولا تنسوا في هذا اليوم الأغر من أيام الله تعالى إخواناً لكم شردتهم القوى الظالمة، وغلبتهم على بلادهم، وانتهكت حرمتهم، في فلسطين والعراق وفي أفغانستان والشيشان وكشمير وغيرها من بلاد المسلمين المنكوبة، أكثروا لهم من الدعاء، وأعينوهم حسب المستطاع، وسلوا الله تعالى أن يفرج كربتهم، وأن يكشف غمهم، وأن يفك أسرى المأسورين من المسلمين في كل مكان، واحمدوا الله الذي عافاكم، واشكروه على نعمه.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. أعاده الله علينا وعليكم وعلى المسلمين باليمن والإيمان، والسلامة والإسلام، وتقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

(١٧) وذلك في حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه عند مسلم في الصوم باب استحباب صوم ستة أيام من شوال (١١٦٤) وأبي داود في الصيام باب في صوم ستة أيام من شوال (٢٤٣٣)، والترمذي في الصوم باب ما جاء في صيام ستة أيام من شوال (٧٥٩)، وابن ماجه في الصوم باب صيام ستة أيام من شوال (١٧١٦).

٧٢- ماذا بعد رمضان؟ (١)

الجمعة ٧ / ١٠ / ١٤١٧ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فيا أيها الإخوة المؤمنون: يمتاز الإسلام عن غيره من الديانات من حيث التطبيق والعمل أنه دينٌ دائم الاتصال بالعبد، لا ينفك عنه بمجرد ذهاب شعيرة أداها، أو يتحلل منه فور انتهاء زمن عبادة معظمة فيه؛ بل يظل الإسلام ملازماً للعبد في كل الأوقات والأمكنة، في البيت والسوق والعمل وفي كل مكان، وفي شعبان ورمضان وشوال وفي كل زمان.

يستمر هذا الدين يصل العبد بربه، ويعلوه به إلى الملكوت الأعلى،

ويسمو به عن دنيا الدنيا. وهذا الحسن لا يظهر إلا في مؤمن التزم الإسلام ظاهراً وباطناً كل وقت وحين.

بينما لو أبصرت الديانات الأخرى لوجدت أن شعائهم مجرد طقوس يؤدونها في أوقاتها، وعادات يألفونها، لا تعدو أن تكون مجرد إشباع قلبي زائف، لا يصل العبد بخالقه، ولا يوجد السعادة والطمأنينة في داخله.

من هنا كانت العبودية في الإسلام لله تعالى على الدوام، تستمر مع العبد منذ التكليف حتى اللحد، لا ينفك عن الاتصال بالله تعالى إلا إذا تنكب العبد الطريق، وضلَّ عن الصراط المستقيم.

انظروا مثلاً إلى الصلاة المفروضة التي تتكرر مع العبد كل يوم وليلة، وإلى الصيام الذي يعود كل عام، ومثل ذلك يقال في الزكاة والاستغفار، وقراءة القرآن، وسائر الذكر، وبر الوالدين، وصلة الأرحام وغيره مما يكثُر عده.

ولم يقف الاستمرار في العمل الصالح عند حد الفرائض؛ بل تعدى ذلك إلى النوافل؛ فاستحبَّ للعبد أن يستمر فيها ولا يقطعها. روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قلَّ» أخرجه الشيخان^(١)، وذكرت

(١) جاء هذا الحديث بروايات عدة وقد أخرجه البخاري في الرقاق باب القصد والمداومة على العمل (٦٨٦٤) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره واللفظ له (٧٨٢).

رضي الله عنها أن من صفاته صلى الله عليه وسلم المداومة على العمل الصالح فقالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عمل عملاً أثبته، وكان إذا نام من الليل أو مرض صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة» أخرجه مسلم^(٢). فتأملوا مبلغ أهمية الدوام على العمل الصالح؛ إذ كان النبي عليه الصلاة والسلام يقضيه عند فواته في وقته مع أنه نافلة لا يجب قضاؤه. بل وحث الأمة على ذلك فقال عليه الصلاة والسلام: «من نام عن حزبه، أو عن شيء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كتب له كأنما قرأه من الليل» أخرجه مسلم^(٣).

ومن كان مداوماً على العمل الصالح فإنه دائم الاتصال بالله تعالى، محافظ على فرائضه، متقرب إليه بالنوافل؛ حتى يكون من أحباب الله تعالى، وأي شرف أعظم من هذا!! يقول الله تعالى في الحديث القدسي «من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبيته...»^(٤).

إن العبد إذا نزلت به شدة يهرع إلى الله عز وجل؛ لكن هل يليق

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦).

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (٧٤٧) وأحمد (٣٢/١).

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق باب التواضع (٦٥٠٢).

به أن ينسى الله في الرخاء ولا يعرفه إلا في الشدائد؟
 واستمرار العبد على العمل الصالح كفيل بتخفيف كل شدة وإزالتها؛
 ولذا جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى
 الله عليه وسلم قال: «تَعَرَّفَ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ يَعْرِفُكَ فِي الشَّدَةِ»
 أخرجه أحمد^(٥)، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ
 وَالْكَرْبِ فَلْيَكْثِرِ الدَّعَاءَ فِي الرِّخَاءِ» أخرجه الترمذي^(٦).

والاستمرار على العمل الصالح سبب لتهديب النفس، وسموها
 على الشهوات، واستعلائها على الهوى، وحجزها عما لا يليق من
 المنكرات ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]
 والصلاة دائمة مستمرة، فمن حافظ عليها وما يجب لها نهته عن كل
 منكر. ولما جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن فلاناً
 يصلي بالليل فإذا أصبح سرق، قال عليه الصلاة والسلام: «إنه سينهاه»

(٥) أخرجه أحمد (٢٩٣/١) والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع باب
 (٥٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح (٢٥١٦) وأبو يعلى (٢٥٥٦) والحاكم
 (٥٤١/٣) وقد روي عن ابن عباس بطرق كثيرة كما ذكر الحافظ ابن رجب
 رحمه الله تعالى، وذكر أن طريق حنش الصنعاني التي خرجها الترمذي حسنة
 جيدة، انظر: جامع العلوم والحكم (٤٨٣/١) الحديث التاسع عشر.
 (٦) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة وقال:
 هذا حديث حسن غريب (٣٣٨٢) والحاكم من طريق آخر وقال: صحيح
 الإسناد ووافقه الذهبي (٥٤٤١) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي
 (٢٦٩٣) والسلسلة الصحيحة (٥٩٣).

ما تقول» أخرجه أحمد والبيهقي بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه^(٧).

وإذا استمر العبد على العمل الصالح فحال بينه وبينه عذر؛ كتب الله له الأجر كأنه قد عمله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً»^(٨)، وفي لفظ آخر قال عليه الصلاة والسلام: «ما من امرئ تكون له صلاة بليل يغلبه عليها نوم إلا كتبت له أجر صلاته وكان نومه عليه صدقة» أخرجه أبو داود والنسائي^(٩). قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى:

(٧) أخرجه أحمد (٤٤٧/٢) والبخاري كما في كشف الأستار (٧٢٠) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٠٥٦) وغيرهم، وصححه ابن حبان (٢٥٦٠)، قال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح (٢/٢٥٨) وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٩٧٧٧).

(٨) أخرجه البخاري في الجهاد باب: يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة (٢٩٩٦) وأبو داود في الجنائز باب إذا كان الرجل يعمل عملاً صالحاً فشغله عنه مرض أو سفر (٣٠٩١) وأحمد (٤١٠/٤).

(٩) أخرجه مالك في صلاة الليل (١١٧/١) وأبو داود في التطوع باب من نوى القيام فنام واللفظ له (١٣١٤) والنسائي في قيام الليل باب من كان له صلاة بالليل فغلبه عليها النوم (٣/٢٥٧) ومثله حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى أصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة عليه من ربه عز وجل» أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة باب ما جاء فيمن نام عن حربه من الليل (١٣٢٤) والحاكم وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي (٣١١/١) والبيهقي في الكبرى (١٥/٣).

«هذا في حق من كان يعمل طاعة فمنع منها وكانت نيته لولا المانع أن يدوم عليها»^(١٠).

أيها الإخوة: إن مما يعين على الاستمرار في العمل الصالح: تجديد التوبة دائماً وأبداً، ولزوم الاستغفار فإن في ذلك القوة والنشاط. وضمان بقاء العبد على العمل الصالح يحتاج إلى قوة قلبية وقوة جسدية.. قوة في إيمانه، وقوة في أعضائه، وفي التوبة والاستغفار تحصيل ذلك، قال الله تعالى حكاية عن هود عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

واختيار المناسب من الأعمال الصالحة أدعى للاستمرار عليها؛ فإن الأعمال الصالحة تتنوع وهي كثيرة جداً؛ ولذا كان من السلف الصالح من اشتهر بطول القيام، وآخر بكثرة التسبيح والذكر، وثالث بالسعي في حوائج الناس ومساعدتهم، وغيرهم بتعليم الناس وتفقيهم.. وهكذا. وليس معنى ذلك أن يلزم العبد عملاً ويترك الأعمال الأخرى؛ لكنه يكثر مما يرى أنه أنشط فيه، وأكثر استمراراً.

ولا يُثقل على نفسه؛ لأن النفس بطبيعتها شهوانية ملولة، فلو أثقل عليها ربما أدى ذلك إلى قطع العمل بالكلية، والنبي صلى الله عليه

وسلم يقول: «خذوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا» متفق عليه^(١١).

ويسأل العبد ربه الإعانة على الاستمرار في العمل الصالح، وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» وأوصى معاذاً أن يدعو بذلك دبر كل صلاة^(١٢).

وقد جاء النهي عن ترك الاستمرار في العمل الصالح في حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عبدالله، لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل» متفق عليه^(١٣).

ويُنشِطُ العبد على العمل الصالح، ويقوده إلى الاستمرار فيه مطالعة أخبار الصالحين من سلف هذه الأمة ومن بعدهم ممن كانوا يتحملون أعمالاً صالحة كثيرة ويدومون عليها، ولا يدعونها حتى في أحلك الظروف، وأصعب الساعات؛ قدوتهم في ذلك رسول الله

(١١) أخرجه البخاري في الصوم باب صوم شعبان (١٩٧٠) ومسلم في الصيام باب صوم النبي صلى الله عليه وسلم في غير رمضان (٧٨٣) وأحمد (١٨٩/٦).

(١٢) أخرجه أبو داود في الصلاة باب في الاستغفار (١٥٢٢) والنسائي في السهو باب نوع آخر من الدعاء (٥٣/٣) وصححه النووي في رياض الصالحين (٣٨٤) و (١٤٢٢) والألباني في صحيح سنن أبي داود (١٣٤٧).

(١٣) أخرجه البخاري في التهجد باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه (١١٥٢) ومسلم في الصيام باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقاً (١١٥٩).

صلى الله عليه وسلم، قالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منذ أن نزل عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (١) يصلي صلاة إلا قال فيها: سبحانك ربي وبحمدك، اللهم اغفر لي» (١٤). وكانت عائشة رضي الله عنها تصلي الضحى ثمانى ركعات ثم تقول: «لو نُشر لي أبواي ما تركتها» أخرجه مالك (١٥).

وقال النبي عليه الصلاة والسلام لبلال عند صلاة الفجر: «يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة» قال: «ما عملت عملاً أرجى عندي أني لم أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي» متفق عليه (١٦). وفي حديث بريدة رضي الله عنه قال: أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بلالاً فقال: «يا بلال بم سبقتني إلى الجنة؟ ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي...» قال: «يا رسول الله، ما أذنت قط إلا صليت ركعتين وما أصابني حدث قط إلا توضأت عندها ورأيت أن الله عليّ ركعتين»

(١٤) أخرجه البخاري في التفسير: سورة إذا جاء نصر الله (٤٩٦٧) ومسلم في الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤).

(١٥) أخرجه مالك في الموطأ (١٥٣/١) وانظر: الاستذكار (١٥١/٦) وصححه الألباني في المشكاة (١٣١٩).

(١٦) أخرجه البخاري في التهجد باب فضل الطهور بالليل والنهار وفضل الصلاة بعد الوضوء بالليل (١١٤٩) ومسلم في فضائل الصحابة باب: من فضائل بلال رضي الله عنه (٢٤٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بهما» أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب^(١٧).

وهذا علي رضي الله عنه لم يترك عملاً صالحاً أرشده إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة يستقبل صباحها حرباً وقتالاً؛ وذلك أن علياً وفاطمة سألا النبي صلى الله عليه وسلم خادماً فقال: «ألا أعلمكما خيراً مما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما، أن تكبرا الله أربعاً وثلاثين، وتسبحاه ثلاث وثلاثين، وتحمداه ثلاثاً وثلاثين فهو خير لكما من خادم» قال علي: «ما تركته منذ سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم، قيل له: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين» أخرجه الشيخان^(١٨).

ومن عجائب الأخبار في هذا الجانب ما خرّجه مسلم في صحيحه قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا أبو خالد - يعني - سليمان بن حيان عن داود بن أبي هند، عن النعمان بن سالم عن عمرو ابن أوس قال: حدثني عنبسة بن أبي سفيان في مرضه الذي مات فيه بحديث يُستار إليه، قال: سمعت أم حبيبة تقول: سمعت رسول الله

(١٧) أخرجه الترمذي في المناقب باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال الترمذي: حسن صحيح (٣٦٩٠) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٩١٢).
(١٨) أخرجه البخاري في الدعوات باب التكبير والتسبيح عند المنام (٦٣١٨) ومسلم في الذكر والدعاء باب التسبيح أول النهار وعند النوم (٢٧٢٧) والزيادة الأخيرة من قول علي رضي الله عنه لمسلم دون البخاري.

صلى الله عليه وسلم يقول: «من صلى اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة بُني له بهنّ بيت في الجنة» قالت أم حبيبة: فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال عنبسة: فما تركتهن منذ سمعتهن من أم حبيبة، وقال عمرو بن أوس: ما تركتهن منذ سمعتهن من عنبسة، وقال النعمان بن سالم: ما تركتهن منذ سمعتهن من عمرو بن أوس^(١٩).

فانظروا كيف أن كل واحد من هؤلاء السلف رحمهم الله تعالى بادر بالامتثال، وحافظ على السنن الرواتب، واستمر على ذلك، ولم يتركها منذ أن بلغه فضلها، وأخبارهم في ذلك كثيرة.

أيها الإخوة: كانت تلك جمل في أهمية الاستمرار على العمل الصالح ودواعيه وأسبابه وآثاره، عسى أن يكون فيها إيقاظ للعقول النائمة، وتنبية للقلوب الغافلة؛ يقودها إلى الله والدار الآخرة.

أسأل الله تعالى أن يستعملنا في طاعته إلى الممات. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٢) [محمد] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

(١٩) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل السنن الراتبة قبل الفرائض وبعدهن وبين عددهن (٧٢٨).

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،
أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك
عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم
الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - دائماً وأبداً؛ فلا فوز ولا فلاح
في الدارين إلا بتقوى الله عز وجل.

أيها الإخوة المؤمنون: كان الناس في رمضان يتدارسون حديث
رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا دخل رمضان فتحت أبواب
السماء، وغُلِّقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين»^(٢٠)، يا ترى هل
يتبعُ بنو آدم الشياطين بعد رمضان، إذا أطلقت من عقْلها، وفكت
سلاسلها؟

هل يليق أن ينطلق معها الصائمون القائمون؟ ينطلقون من معاني
الصيام! ومؤثرات القيام! ويقطعون العهود والمواثيق! هل يليق بعد
الصيام أن يتبع بنو آدم الشيطان في كل طريق؟! هل يليق أن يسلكوا
في الحرام كل واد وفج؟! ويعودوا إلى كل معصية وذنب؟!

(٢٠) أخرجه البخاري في الصوم باب: هل يقال رمضان أو شهر رمضان ومن رأى
كله واسعاً (١٨٩٩) ومسلم في الصوم باب فضل شهر رمضان (١٠٧٩).

هل ينتهي رمضان فتنتهي معه الخشية والإنابة لرب رمضان؟! ليس هذا الظن بأهل الصيام والقيام.

يا من قام رمضان إيماناً واحتساباً! يا من أدرك ليلة القدر فقُبِلَ منه! هل يحسن بك بعد أن حطت عنك الأوزار، ومحيت الذنوب أن تعود للمعصية مرة أخرى؟! أتذكر أنك كنت تبكي على خطيئتك قبل أيام! أثراك نسيت بكاء الأمس! نعوذ بالله أن نكون من قوم لا يعرفون الله إلا في رمضان.

أين حال هؤلاء من قوم كان دهرهم كله رمضان؟! ليلهم قيام، ونهارهم صيام. «باع قوم من السلف جارية، فلما قرب شهر رمضان رأتهم يتأهبون له ويستعدون بالأطعمة وغيرها فسألتهم، فقالوا: نتهياً لصيام رمضان، فقالت: وأنتم لا تصومون إلا رمضان؟ لقد كنت عند قوم كل زمانهم رمضان! ردوني عليهم»^(٢١).

وقال بعض السلف: «صم الدنيا واجعل فطرك الموت. الدنيا كلها شهرُ صيام المتقين، يصومون فيه عن الشهوات المحرمات؛ فإذا جاءهم الموت فقد انقضى شهر صيامهم، واستهلوا عيد فطرهم»^(٢٢). من صام اليوم عن شهواته أفطر عليها بعد مماته، ومن تعجل ما حرّم عليه قبل وفاته، عوقب بحرمانه في الآخرة وفواته، وشاهد ذلك

(٢١) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف لابن رجب (٣٧٨).

(٢٢) المصدر السابق.

من كتاب الله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (٢٠) [الأحقاف].

إن مما يُرثى له، ويُبكى على حال أهل الإسلام من أجله؛ تقصيرهم في فهم هذا الدين، واستعدادهم للتخلي عنه إلا في المناسبات. فإذا ما انتهت المناسبة تُركت الفرائض، وعُطلت المساجد، وارتكبت المناهي، وهجر القرآن، فلا يعودون إلى ذلك إلا في مناسبة أخرى. وهذا مع ما فيه من الإثم والحرام؛ فيه أيضاً تشبه بأهل الكتاب المغضوب عليهم والضالين الذين لا يعرفون الله إلا في مناسباتهم الدينية.

فاتقوا الله ربكم، واحذروا الشيطان وغوائله، واستمروا على العهد والعمل الصالح، واعبدوا الله مخلصين له الدين ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٩٩) [الحجر] ألا وصلوا وسلموا على نبيكم محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك ربكم... .

* * *

٧٣- ماذا بعد رمضان؟ (٢)

الجمعة ٢ / ١٠ / ١٤٢٣ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: من حكمة الله سبحانه وتعالى، وابتلائه لعباده أن جعل الدنيا دار عملٍ للمكلفين، ونوع لهم فيها سبل طاعته، وطرق الوصول إليه، والإقبال عليه.

كما يوجد في الدنيا شهوات وشبهات تصد عن سبيل الله تعالى، وتلهي العبد عن طاعة ربه، وتجره إلى المعاصي والذنوب.

ومن سمة دروب النجاة، وسبل الفوز والفلاح أن فيها من المشقة على النفوس ما فيها، مما يحيج العبد إلى مجاهدة النفس، واصطبارها على طاعة الله تعالى، كما أن من خصائص دروب الهلاك والردى سهولة نيلها، ومحبة النفوس لها، وميل الغرائز البشرية إليها؛ كما قال النبي ﷺ: «حَفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحَفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»^(١).

والواحد من الناس يعيش في الدنيا ما كتب الله تعالى له من عمر، والساعات والأيام تمضي على الناس سواء بسواء، فلا تتقدم لبعضهم ولا تتأخر عن آخرين، والعبرة بالأعمال التي قضيت فيها الساعات والأيام؛ فهي مكتوبة على العباد، وسيجازون بها يوم القيامة، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الأنفطار: ١٠ - ١٢]، ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٩].

إنها أيام تمضي، وسنوات تذهب، وأعمال تدون، وكما أن شهر رمضان كان يُنتظر هاهو قد ولى، وكم من رمضانات انتظرها العباد وصاموها ثم ذهبت سريعاً، ومن عاش منهم فسيستظر رمضانات أخرى

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه البخاري في الرقاق باب حجب النار بالشهوات (٦٤٨٧) بلفظ: «حجبت» بدل: «حفت»، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب صفة الجنة (٢٨٢٣)، واللفظ له، وأهل السنن إلا ابن ماجه. وجاء من حديث أنس رضي الله عنه عند مسلم (٢٨٢٢)، والترمذي في صفة الجنة باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره (٢٥٥٩)، وأحمد (١٥٣/٣)، والدارمي (٣٣٩/٢).

وسوف تمضي كما مضى غيرها، وهكذا عمر الإنسان.
والموفق من عباد الله من جعل حياته كلها رمضان، يصوم فيها عن
المحرمات، ويجهد في الطاعات، وينافس في الخيرات؛ حتى ينتهي
أجله؛ كما قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «من نافسك في دينك
فنافسه، ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره»^(٢).

ومن نظم وقته في رمضان، وقسمه بين أنواع العبادات فإنه يستطيع
أن يفعل ذلك في غير رمضان.

لقد رأينا كثيراً من الناس يحافظون على صلاة القيام، ويخصصون
وقتاً للقرآن، ويذكرون إلى المساجد، ولا يتركون النوافل والسنن الرواتب،
ويلتزمون بأذكار الصلوات، وأذكار الصباح والمساء وغيرها، ولربما كان
لهم عبادات كثيرة قد خصوها بوقت من الأوقات، فما الذي يمنعهم
من الاستمرار على ذلك بعد رمضان؟! وتنظيم الوقت، ومعرفة قيمة
العمر من أعظم ما يعين العبد على ذلك، وكما كان الواحد منهم شحيحاً
بوقته في رمضان، محاسباً لنفسه أن تضيع دقائق في غير عبادة، فلماذا
لا يكون هذا دأبهم بعد رمضان؟! قال الحسن رحمه الله تعالى: «أدركت
أقواماً كان أحدهم أشحّ على عمره منه على دراهمه ودنانيره»^(٣).

إن كثيراً من الناس لما دخل رمضان عرفوا قيمته وفضله، وأحسوا

(٢) إحياء علوم الدين (٣/٢٠٧).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد برقم: (٨)، وابن أبي الدنيا في العمر والشيب
برقم: (٩١).

أن أوقاتاً منهم كانت تضيع في فضول المجالس، والكلام، والأعمال مما لا نفع فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة. فعزموا على استثمار تلك الأوقات الضائعة، ومنعوا أنفسهم من فضول المخالطة والمجالسة والكلام والأعمال، وصرفوا أوقاتهما في طاعة الله تعالى؛ فحصلوا خيراً كثيراً، ولو نظرنا في أعمالنا اليومية لوجدنا أن كثيراً منها لا يعدو أن يكون فضولاً لا نفع فيه بوجه من الوجوه، فلماذا لا تستثمر مثل هذه الأوقات الضائعة فيما يعود على العبد بالخير في الدنيا والآخرة؟!

قال عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى: «يا ابن أخي، إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضوله ما عدا كتاب الله عز وجل أن تقرأه، وتأمر بمعروف أو تنهى عن منكر، أو تنطلق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها، أتذكرون أن عليكم حافظين كراماً كاتبين»^(٤).

وقال الأوزاعي رحمه الله تعالى: «كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى برسالة لم يحفظها غيري عنه: أما بعد، فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن عدَّ كلامه من عمله قلَّ كلامه إلا فيما ينفعه»^(٥).

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٥٠٨٠)، وأبو نعيم في الحلية (٣/٣١٥)، وهناد بن السري في الزهد (١١٠٧)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٧٨).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٣٥)، وانظره في: إحياء علوم الدين (٣/

لقد كانوا يعدون من فضول الكلام سؤال المرء عن أمور الدنيا من المراكب والملابس والمطاعم وما شابهها.

قال إبراهيم بن سليمان: «كنت جالساً مع سفيان فجاء رجل ينظر إلى ثوب كان على سفيان، ثم قال: يا أبا عبد الله، أي شيء كان هذا الثوب؟ فقال سفيان: كانوا يكرهون فضول الكلام»^(٦).

قارنوا هذا بحال كثير من الناس ممن لا يتركون شاردة ولا واردة من أمور الدنيا إلا ويسألون عنها، وتطول مجالسهم في الحديث عن المطاعم، والمشارب، والمراكب، والملابس، وأنواعها، وموديلاتها، وميزاتها، وخصائص كل نوع منها، وما إلى ذلك من كثير كلام لا يفيد. ويدلك على تمكن هذه الكماليات من قلوب الناس: شدة التنافس عليها، والاختلاف من أجلها، والمباهاة بها. فما يلبس في العام الماضي من الثياب والعمائم لا يلبس في هذا العام، وما يناسب هذا العيد لا يكون مناسباً في العيد القادم؛ لأن تجار الكماليات يحدثون تغييرات مستمرة في كل عام بقصد جني الأرباح، والاستحواذ على أموال الناس، وضعف الناس أمام هذه الموجة العاتية من الاستهلاك جعلهم يستسلمون لها. ومن العجيب أن نرى أناساً يتنافسون على رقم هاتفٍ مميز أو لوحة سيارة أو غيرها، ويبدلون في سبيل ذلك باهظ الأثمان، وهذا كله من الفضول، بل ومن فضول الفضول الذي لا يسلم صاحبه من الوقوع في السرف المحرم.

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦٥/٧).

والسلامة من هذه الأمراض التي تأسر العبد، وتفتك بإرادته تكون بقهر النفس على التنافس في الأمور النافعة، والبعد عما لا ينفع ولو وقع فيه الناس، وتفاخروا به.

والشفاء من هذا الداء يكون بتعويد النفس على الجد في الأمور، وتحصيل المنافع، ومجالسة أصحاب الهمم العالية، والاهتمامات الكبيرة. حكى الفقيه الأندلسي أبو محمد بن حزم رحمه الله تعالى عن نفسه فقال: «كانت في عيوب، فلم أزل بالرياضة واطلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم، والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق وآداب النفس، أعاني مداومته حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنه»^(٧).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ، ،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

(٧) الأخلاق والسير لابن حزم (٢٣).

أما بعد: فاتقوا الله ربكم، واعمروا زمانكم بطاعة مولاكم.
أيها الناس: من عوّد نفسه على قراءة ورد يومي من القرآن في رمضان فهو قادر على أن يحافظ على بعض ورده بعد رمضان، ولا يهجر القرآن بالكلية إلى أن يأتي رمضان القابل، ومن حافظ على ورد يومي من القرآن نال خيراً عظيماً.

قيل لنافع: ما كان ابن عمر يصنع في منزله؟ قال «الوضوء لكل صلاة، والمصحف فيما بينهما»^(٨).

وقيل لأخت الإمام مالك رحمه الله تعالى: «ما كان شغل مالك في بيته؟ قالت: المصحف والتلاوة»^(٩).

وكان وكيع رحمه الله تعالى لا ينام حتى يقرأ جزءه من كل ليلة ثلث القرآن، ثم يقوم في آخر الليل فيقرأ المفصل، ثم يجلس فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر^(١٠).

ومن عوّد نفسه على ذكر الله تعالى في رمضان، وحافظ على الأذكار الموقوتة فإنه يستطيع الاستمرار على ذلك بعد رمضان، وذكر الله تعالى فيه لذة القلوب، وقوة النفوس والأجساد على الطاعات الأخرى،

(٨) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ١٧٠)، وهو في سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١٥).

(٩) سير أعلام النبلاء (٨/ ١١١).

(١٠) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٣/ ٥٥١)، وهو في سير أعلام النبلاء (٩/ ١٤٨)، وصفة الصفوة (٣/ ١٧١).

قال مالك بن دينار: «ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله عزَّ وجلَّ»^(١١).
 وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «الذكرُ للقلب
 مثل الماء للسّمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء»^(١٢).
 وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية
 مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار،
 ثم التفت إليّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي»^(١٣).
 ومن حافظ على صلاة التراويح والقيام في رمضان يستطيع أن
 يحافظ على قدرٍ من صلاة الليل في أوله أو آخره حسب ما يتيسر له
 ولا يقطع ذلك بالكلية، ويحافظ على الوتر فلا يتركه أبداً. وقد كان
 النبي صلى الله عليه وسلم يقومُ فيطيل القيام حتى تتفطر قدماه الشريفتان.
 وقال نافع: «كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا فاتته صلاة في
 جماعة صلى إلى الصلاة الأخرى، فإذا فاتته العصر يسبح إلى المغرب،
 ولقد فاتته صلاة العشاء الآخرة في جماعة فصلى حتى طلع الفجر»^(١٤).
 وقال ابن وهب رحمه الله تعالى: «رأيت الثوري في المسجد الحرام
 بعد المغرب صلى ثم سجد سجدة فلم يرفع رأسه حتى نودي بصلاة
 العشاء»^(١٥).

(١١) أخرجه البيهقي في الشعب (٧٠٤).

(١٢) نقله عنه ابن القيم في الوابل الصيب (٦٣).

(١٣) الوابل الصيب (٦٣)، والرد الوافر لابن ناصر الدين (٦٩).

(١٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٢٩٢٣)، ونحوه في الحلية (٣٠٣/١).

(١٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥٧/٧)، وهو في السير (٢٦٦/٧).

وكان سفيان رحمه الله تعالى إذا أصبح مدّ رجله إلى الحائط، ورأسه إلى الأرض؛ كي يرجع الدم إلى مكانه من قيام الليل^(١٦).
 إن من روض نفسه على الطاعة ارتاضت عليها، ومن ركن إلى الكسل صارت الفرائض ثقيلة عليه، وكما أن من الناس من لهم قوة عجيبة في أعمال الدنيا جمعاً وتحصيلاً وإدارة فكذلك أعمال الآخرة إذا روضت النفوس عليها اعتادتها.

قيل لعامر بن عبد الله رحمه الله تعالى: «كيف صبرك على سهر الليل، وظمأ الهواجر؟ فقال: هل هو إلا أنني صرفت طعام النهار إلى الليل، ونوم الليل إلى النهار؟ وليس في ذلك خطير أمر» وكان إذا جاء الليل قال: «أذهب حرُّ النار النوم، فما ينام حتى يصبح»^(١٧).
 وجماع ذلك كله: محبة الله تعالى، ورجاء رحمته، والخوف من عذابه، عن فاطمة بنت عبد الملك زوج أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى قالت: «ما رأيت أحداً أكثر صلاة ولا صياماً منه، ولا أحداً أشدَّ فَرْقاً من ربه منه، كان يصلي العشاء، ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه، ثم ينتبه، فلا يزال يبكي حتى تغلبه عيناه، ولقد كان يكون معي في الفراش فيذكر الشيء من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور من الماء، ويجلس يبكي فأطرح عليه اللحف»^(١٨).

(١٦) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٩٥/١).

(١٧) إحياء علوم الدين (٤١١/٤).

(١٨) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٩٠/١)، وهو في البداية والنهاية (٢٠٤/٩).

فمن أحب الله تعالى أحب ما يحبه الله تعالى من أنواع العبادات،
ومن رجا رحمة ربه وجنته اجتهد فيما يوصله إليها، ومن خاف عذاب
الله وغضبه اجتنب أسبابه من إضاعة الفرائض، وإتيان المعاصي، وكلما
قوي إيمان العبد بالله تعالى والدار الآخرة قويت نفسه على العبادة،
وضعفت عن المعاصي.

أسأل الله تعالى أن يصلح قلوبنا وأعمالنا، وأن يخلف علينا رمضان
بخير، وأن يتقبل منا الصيام والقيام، اللهم سلّمنا إلى رمضان، وسلمه
لنا، وتسلمه منا متقبلاً، إنك سميع مجيب.
ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله، ، ،

٧٤- فضل عشر ذي الحجة

الجمعة ٢٦/١١/١٤١٧هـ

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فيحتاج المسلم حال غفلته ولهوه إلى تذكير بالله والآخرة؛ فالأولاد والأموال ألهتنا كثيراً عن ذكر الله وطاعته ، وسعينا ولهائنا لتحصيل قدر أكبر من الرفاهية والشهوات حطم قدراتنا في تحمل الكثير من العبادات ، والصبر عن المحرمات ؛ حتى أضحت أجسادنا لا تتحمل طول القيام والقنوت ، وكثرة الركوع والسجود ، وقضاء الليل في القرآن والذكر .

ومنا من قد يجد صعوبة في الصبر عن مال تطوله يدها لكنه شبهة أو حرام .

ومنا من لا يطيق مفارقة سماع الحرام، أو إدامة نظره، أو سرعة الخطى إليه، بعيداً عن مراقبة الله تعالى، والحذر من مكروه وخوف عذابه، وخشيته وتقواه.

وكل ذلك إنما حصل لما تعلق القلب بغير الله تعالى؛ فالقلوب إذا صلحت صلحت معها الأجساد، وإذا فسدت أفسدت حتى تتأكل عن الخيرات، وتسارع في المنكرات؛ ولكن يبقى الأمل في عفو الله ورحمته وتوفيقه كبيراً؛ إذ تذكرنا مواسم الخيرات ربنا إذا نسينا، وتنبهنا إذا غفلنا، وتدعونا إلى تجديد التوبة مع خالقنا ورازقنا. وهذا أحدها يقترب منا، فماذا أعددنا له من توبة ومن عمل صالح؟!

انظروا رحمكم الله إلى الدارسين كيف يستقبلون مواسم الفوز والنجاح، وماذا يعدون لها من جدّ واجتهاد؟! راقبوا كيف يستقبل التجار مواسم البضائع في الصيف والشتاء، والإجازات والأعياد؟! يحرصون على عدم فوات أي شيء، وتوفير ما يجلب الناس إليهم.

تأملوا كيف يستقبل رجال الأعمال فرص المناقصات وإرساء العقود، كيف يَصِلُونَ الليل بالنهار في دراسات دقيقة، واستشارات عديدة!! هذه نماذج من مواسم سوق الدنيا، فما رأيكم في التجارة مع الله تعالى، ويا ترى ما الاستعداد لمواسم الرحمن، وفرص المغفرة والرحمة والعتق من النار؟ وكيف سيكون التعامل مع أيام الله المباركات؟! هذه عشر ذي الحجة المحرم توشك أن تنزل بساحتنا، فهل

سنضيعها كما أضعنا عشرات المواسم التي تمر بنا؟! أي حرمانٍ ينتظر من يجدُّ في مواسم الدنيا وفرصها، ويذرُّ مواسم الرحمن والاتجار للآخرة. هذه العشر التي جاء القسم بها في كتاب الله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣)﴾ [الفجر] هي عشر ذي الحجة كما هو الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين من السلف وغيرهم^(١)، ودل على ذلك حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الْعَشْرَ عَشْرُ الْأَضْحَى، وَالْوَتْرَ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَالشَّفْعَ يَوْمَ النُّحْرِ» أخرجه الإمام أحمد وحسنه الحافظ ابن رجب^(٢).

وأخرج البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ، يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ» قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»^(٣).

- (١) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف للحافظ ابن رجب (٤٧٠).
 (٢) أخرجه أحمد (٣٢٧/٣) والنسائي في الكبرى كتاب التفسير، تفسير سورة الفجر (١١٦٧٢) وحسنه ابن رجب في اللطائف (٤٧٠) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير عياش بن عقبة وهو ثقة (١٣٧/٧) وقال ابن كثير: إسناده رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة، انظر: تفسيره (٧٧٩/٤) عند تفسير أول سورة الفجر، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٥٠٨) وأخرجه الحاكم موقوفاً على ابن عباس وصححه ووافقه الذهبي (٥٢٢/٢).
 (٣) أخرجه البخاري في العيدين باب فضل العمل أيام التشريق (٩٦٩) وأبو داود =

ومن العمل الصالح المشروع فيها: صيامها لما ورد عن حفيذة ابن خالد عن امرأته عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم تسع ذي الحجة، ويوم عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر، أول اثنين من الشهر وخميسين»^(٤). وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يصومها، وأكثر العلماء على القول بصيامها.

وكان سعيد بن جبير إذا دخل عشر ذي الحجة اجتهد اجتهداً حتى ما يكاد يقدر عليه ويقول: «لا تطفئوا سرجكم ليالي العشر» تعجبه العبادة.

= في الصيام باب في صوم العشر واللفظ له (٢٤٣٨) والترمذي في الصوم باب ما جاء في العمل في أيام العشر (٧٥٧) وابن ماجه في الصيام باب صيام العشر (١٧٢٧).

(٤) أخرجه أحمد (٢٧١/٥ ، ٢٨٨/٦-٤٢٣) وأبو داود في الصوم باب في صوم العشر (٢٤٣٧) والنسائي في الصوم باب كيف يصوم ثلاثة أيام من كل شهر (٢٢٠/٤) والبيهقي في الكبرى (٢٨٥/٤) وقال الساعاتي في الفتح الرباني: وسنده جيد (١٥٨/١٠) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢١٢٩). وقد عورض هذا الحديث بحديث عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صائماً في العشر قط» أخرجه مسلم في الاعتكاف باب صوم عشر ذي الحجة (١١٧٦) وأحمد كما في الفتح الرباني (٢٣٣/١٠).

قال البيهقي بعد أن ساق الحديثين: «والمثبت أولى من النافي مع ما مضى من حديث ابن عباس» اهـ. السنن الكبرى (٢٨٥/٤) قلت: يعني الحديث الدال على عموم فضل العمل الصالح في العشر، ومنه الصيام.

= وتعبه ابن التركماني فقال: «إنما يقدم على النافي إذا تساوى في الصحة، وحديث هنيذة اختلف عليه في إسناده فروي عنه كما تقدم، وروي عنه عن حفصة كذا أخرجه النسائي، وروي عنه عن أم سلمة كذا أخرجه أبو داود والنسائي» الجوهر النقي بهامش السنن الكبرى (٢٨٥/٤).

قلت: والمحققون من أهل العلم على القول باستحباب صيامها؛ لدخول الصيام في عموم العمل الصالح الذي له أفضلية فيها على غيرها من الأيام كما في حديث ابن عباس وغيره، ولنص حديث هنيذة بن خالد.

وأما حديث عائشة فأجابوا عنه بعدة أجوبة، منها: ما قاله الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى: «وقد اختلف جواب الإمام أحمد عن هذا الحديث؛ فأجاب مرة بأنه قد روي خلافه. وذكر حديث حفصة، وأشار إلى أنه اختلف في إسناده حديث عائشة؛ فأسنده الأعمش، ورواه منصور عن إبراهيم مرسلًا. وكذلك أجاب غيره من العلماء بأنه إذا اختلفت عائشة وحفصة في النفي والإثبات أخذ بقول المثبت؛ لأن معه علماً خفي على النافي. وأجاب أحمد مرة أخرى بأن عائشة أرادت أنه لم يصم العشر كاملاً، يعني وحفصة أرادت أنه كان يصوم غالبه...» لطائف المعارف (٤٦١).

وقال القرطبي: «ولا يفهم منه أن صيامه مكروه؛ بل أعمال الطاعات فيه أفضل منها في غيره بدليل...» وذكر حديث ابن عباس في فضل العمل في العشر - وترك النبي صلى الله عليه وسلم صومه إنما كان والله أعلم لما قالته عائشة رضي الله عنها في صلاة الضحى أنه صلى الله عليه وسلم كان يدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم [كما في مسند أحمد ١٦٨/٦] ويحتمل أن يكون صلى الله عليه وسلم لم يوافق عشرًا خاليًا عن مانع يمنعه من الصيام فيه والله أعلم» المفهم (٢٥٣/٣) وبنحوه أجاب النووي في شرحه على مسلم (١٠٢/٨) والشوكاني في نيل الأوطار (٢٤٧/٥) والساعاتي في الفتح الرباني (٢٣٣/١٠) وانظر: عون المعبود (١٠٤/٧) والشرح الممتع على زاد المستقنع (٤٧١-٤٧٢) ونقل فيه الشيخ ابن عثيمين رحمه =

والذكر فيها أفضل من الذكر في غيرها ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ [الحج: ٢٨] فإن الأيام المعلومات هي أيام العشر عند جمهور العلماء، وروى ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد» أخرجه أحمد^(٥)، وذكر البخاري في صحيحه أن ابن عمر وأبا هريرة رضي الله عنهم كانا يخرجان إلى السوق في أيام العشر يكبران ويكبر الناس بتكبيرهما^(٦).

فمن شعائر الله تعالى في هذه العشر: كثرة الذكر، والجهر بالتكبير المطلق ابتداء من دخول هذه العشر إلى فجر يوم عرفة في الصباح والمساء، عند الصلاة وقبل الصلاة وبعدها وفي كل وقت ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٣٤] فإذا صلى فجر يوم عرفة شرع التكبير المقيد مع المطلق إلى آخر يوم

= الله تعالى أن الإمام أحمد رحمه الله تعالى رجح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصوم عشر ذي الحجة.

(٥) أخرجه أحمد (٧٥/٢) وأبو عوانة في مسنده (٣٠٢٤) وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٥٤٤٦).

(٦) أخرجه البخاري في العيدين في مقدمة باب فضل العمل في أيام التشريق قبل الحديث (٩٦٩) وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «لم أره موصولاً عنهما وقد ذكره البيهقي أيضاً معلقاً عنهما وكذا البغوي» انظر: فتح الباري (٥٣١/٢).

من أيام التشريق^(٧)؛ لعظيم فضل تلك الأيام؛ ولمزية التكبير فيها على غيرها ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣] قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هي أيام التشريق»^(٨) وجاء في حديث نبيشة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله» أخرجه مسلم^(٩).

وأعظم عملٍ صالحٍ في هذه العشر: حج بيت الله الحرام، وهو فرض على من لم يحج يجب عليه أن يبادر إلى أدائه، فإن تأخر مع القدرة عليه فهو آثم. ومن سبق أن أداه ولديه القدرة على أن يتطوع لله به فهو من أفضل الأعمال التي تقرب إلى الله تعالى، ولو لم يكن فيه إلا قول النبي صلى الله عليه وسلم «والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»^(١٠) وقوله عليه الصلاة والسلام: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»^(١١) لو لم يكن فيه إلا ذلك لكان كافياً في التطوع لله به.

(٧) انظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع (٥/ ٢١٠).

(٨) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٧) ومحاسن التأويل للقاسمي (٣/ ٥٠٤) عند تفسير الآية (٢٠٣) من سورة البقرة.

(٩) أخرجه مسلم في الصيام باب تحريم صوم أيام التشريق (١١٤١).

(١٠) أخرجه البخاري في الحج باب وجوب العمرة وفضلها (١٧٧٣) ومسلم في الحج باب فضل الحج والعمرة (١٣٤٩).

(١١) أخرجه البخاري في الحج باب فضل الحج المبرور (١٥٢١) ومسلم في الحج باب فضل الحج والعمرة (١٣٤٩).

أخرج عبدالرزاق في مصنفه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «إذا وضعت السروج - يعني من سفر الجهاد - فشدوا الرحال إلى الحج والعمرة فإنه أحد الجهادين»^(١٢)، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنما هو سرج ورحل؛ فالسرج في سبيل الله، والرحل في الحج»^(١٣). وقال أبو الشعثاء جابر بن زيد: «نظرت في أعمال البر فإذا الصلاة تجهد البدن ولا تجهد المال، والصيام مثل ذلك، والحج يجهد المال والبدن، فرأيت أن الحج أفضل من ذلك كله»^(١٤).

وسئل الإمام طاووس بن كيسان: هل الحج بعد الفريضة أفضل أم الصدقة؟ قال: «فأين الحلُّ والرحيل، والسهرُ والنصب، والطوافُ بالبيت، والصلاة عنده، والوقوفُ بعرفة، وجمع ورمي الجمار؟» كأنه يقول: الحج أفضل.

ومن العلماء من قال: إن كان ثمَّ رحمٌ محتاجة أو زمنٌ مجاعة فالصدقة أفضل وإلا فالحج، نص عليه الإمام أحمد رحمه الله تعالى^(١٥). ومن توفيق الله تعالى للموسرين أن يعينوا بالمال إخوانهم ممن لا يستطيعون الحج، ويجهزوهم له، لا سيما إذا كان حجهم فريضة،

(١٢) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (٨٨٠/٨).

(١٣) لطائف المعارف (٤٠٧) وعزاه ابن رجب للإمام أحمد في مناسكه.

(١٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨٧/٣).

(١٥) لطائف المعارف (٤٠٨) ورجح شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى أفضلية

الحج على التصدق بنفقته (١١/٢٦).

وأن يتصدقوا على الحجاج في المشاعر بإطعام الطعام، وسقي الماء، وقضاء الحاجات.

كان عبدالله بن المبارك رحمه الله يطعم أصحابه في الأسفار أطيب الطعام وهو صائم. وكان إذا أراد الحج من بلده مرو جمع أصحابه وقال: من يريد منكم الحج؟ فيأخذ منهم نفقاتهم فيضعها عنده في صندوق ويقفل عليه، ثم يحملهم وينفق عليهم أوسع النفقة، ويطعمهم أطيب الطعام، ثم يشتري لهم من مكة ما يريدون من الهدايا والتحف، ثم يرجع بهم إلى بلده؛ فإذا وصلوا صنع لهم طعاماً ثم جمعهم عليه ودعا بالصندوق الذي فيه نفقاتهم فردّ إلى كل واحد نفقته^(١٦).

ما أعظم تلك النفوس! وما أسخاها! رحم الله أصحابها ورضي عنهم، وجمعنا بهم في دار كرامته، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي الأمين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم واهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

(١٦) انظر: تاريخ بغداد (١٥٨/١٠) وسير أعلام النبلاء (٣٨٥-٣٨٦).

أما بعد: فإن مما يجب الحذر منه: الرياء في الأعمال، فلا يحج العبد إلا لله، ولا يعين حاجاً إلا لله، ولا يعمل صالحاً في هذه العشر وغيرها إلا ابتغاء رضوان الله تعالى، فلا يكرر الحج ليقال: ما أكثر ما يحج!! أو ينفق ليقال: جواد كريم!!

وللرياء في هذه الأعمال مدخل قد يخفى على العبد؛ لذا دعا النبي صلى الله عليه وسلم ربه أن يجنبه الرياء فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم حج على رجلٍ رثٍ وقطيفة ما تساوي أربعة دراهم وقال: «اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة» أخرجه ابن ماجه^(١٧). وقال رجل لابن عمر: ما أكثر الحاج! فقال ابن عمر رضي الله عنهما: «ما أقلهم!» ثم رأى رجلاً على بعير على رجلٍ رثٍ خطامه جبل فقال: «لعل هذا»^(١٨). وقال شريح: «الحاج قليل، والركبان كثير، ما أكثر من يعمل الخير! ولكن ما أقل الذين يريدون وجهه»^(١٩).

(١٧) أخرجه ابن ماجه في المناسك باب الحج على الرجل (٢٨٩٠) والترمذي في شمائل النبوة (١٩١) وابن أبي شيبة في المصنف (١٠٦/٤) وأبو نعيم في الحلية (٣٠٨/٦) وضعفه الحافظ في الفتح (٤٤٦/٣) والبوصيري في مصباح الزجاجة (٦/٣) وصححه الألباني وذكر له طريقاً أخرى من حديث ابن عباس وبشر بن قدامة، انظر: السلسلة الصحيحة (٦٢١٧) وصحيح سنن ابن ماجه (٢٣٣٧).

(١٨) لطائف المعارف (٤١٩).

(١٩) المصدر السابق (٤١٩-٤٢٠).

ونقل ابن رجب عن أحد المتقدمين أنه كان يحج ماشياً على قدميه كل عام فكان ليلة نائماً في فراشه، فطلبت منه أمه شربة ماء، فصعب على نفسه القيام من فراشه ليسقي أمه الماء، فتذكر حجه ماشياً كل عام وأنه لا يشق عليه، فحاسب نفسه، فرأى أنه لا يهُوّنُه عليه إلا رؤية الناس له، ومدحهم إياه، فعلم أنه كان مدخولاً^(٢٠).

والترفة في الحج ينافي مقاصده؛ ولذا قال عمر رضي الله عنه يوماً وهو بطريق مكة: «تسعثون وتغبرون وتتفلون - أي تتركون الطيب - وتُضْحُون لا تريدون بذلك شيئاً من عرض الدنيا، ما نعلم سفيراً خيراً من هذا»^(٢١)، يعني الحج، وقال ابن عمر رضي الله عنهما لرجل رآه قد استظل في إحرامه: «أضح لمن أحرمت له»^(٢٢).

وإن بعض الناس يجعلون من الحج رحلة استمتاع ونزهة بما يتكلفون فيها من وسائل الراحة والرفاهية، بل ربما قطعوا أوقاتهم في معصية الله تعالى واللغو وأحاديث الباطل! فأَيُّ حج أراد هؤلاء؟! وأيُّ تعظيم لشعائر الله تعالى عندهم؟! أين حرمة المكان والزمان من قلوب هؤلاء؟! ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(٣٢) [الحج]. والأضحية من القرب إلى الله تعالى، وهي فعل أبنينا إبراهيم، وفداء أبنينا إسماعيل، وسنة نبينا محمد عليهم الصلاة والسلام. ومن أراد أن

(٢٠) المصدر السابق (٤٢٠).

(٢١) المصدر السابق (٤٢٠).

(٢٢) المصدر السابق (٤٢٠).

يضحي فليمسك عن شعره وأظافره منذ إهلال ذي الحجة حتى يذبح أضحيته؛ كما أمر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أم سلمة رضي الله عنها (٢٣).

أيها الإخوة: هذه بعض الأعمال الصالحة في هذه العشر المباركة، وللأسف أن كثيراً من الناس لا يقدرونها قدرها، ولا يعظمون حرمتها، على رغم أنها أفضل من العشر الأخيرة من رمضان المعظم. قال الحافظ ابن رجب بعد أن ساق الخلاف في المفاضلة بين عشر رمضان الأخيرة وعشر ذي الحجة: «والتحقيق ما قاله بعض المتأخرين من العلماء أن يقال: مجموع هذه العشر أفضل من مجموع عشر رمضان وإن كان في عشر رمضان ليلة لا يفضل عليها غيرها» اهـ.

فأعدوا لها العدة، واستقبلوها بالتوبة، وعظموها كما عظمها الله تعالى، واقضوها في أنواع الطاعات، واستباق الخيرات، وأحسنوا بها ختام هذا العام؛ فلعل ذلك يمحو ما سبق فيه من الذنوب والآثام، ثم صلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك ربكم...

(٢٣) أخرجه مسلم في الأضاحي باب نهي من دخل عليه عشر ذي الحجة وهو يريد أن يضحي أن يأخذ من شعره أو أظفاره شيئاً (١٩٧٧) وأبو داود في الضحايا باب الرجل يأخذ من شعره في العشر وهو يريد أن يضحي (٢٧٩١) والترمذي في الأضاحي باب ترك أخذ الشعر لمن أراد أن يضحي (١٥٢٣) وابن ماجه في الأضاحي باب من أراد أن يضحي فلا يأخذ في العشر من شعره وأظفاره (٣١٤٩).

٧٥- خطبة عيد الأضحى تنبيه على بعض الظواهر السيئة

الخميس ١٠/١٢/١٤١٧هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر والله الحمد
الله أكبر ما لبي ملباً ثم كبر، الله أكبر ما وقف حاج بعرفة ثم نفر،
الله أكبر عدد ما أحرم الحجاج من الميقات، وعدد ما رفعوا بالتلبية
الأصوات، الله أكبر عدد ما دخل الحجاج مكة ونزلوا بتلك الرحبات،
الله أكبر عدد ما طافوا بالبيت وعظموا الحرمات، الله أكبر عدد ما خرجوا
إلى منى ووقفوا بعرفات، الله أكبر عدد ما باتوا في مزدلفة ثم عادوا
إلى منى ورموا الجمرات، الله أكبر عدد ما يراق من الدماء في هذا اليوم
تعظيماً لفاطر الأرض والسموات.

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر والله الحمد،
الله أكبر، يقولها الحاج كلما علا مرتفعاً، الله أكبر، يقولها حينما يستلم
الحجر أو يشير إليه، الله أكبر، يقولها مع كل حصاة يرمي بها الجمرات،
الله أكبر، يقولها إذا وضع شفرته لإراقة الدماء تعظيماً لله، الله أكبر،

يحرم بها المصلي في صلاته، نعم!! الله أكبر من كل كبير، ومن كل هذه الدنيا؛ فالعبادة إنما يستحقها من كان أكبر، والله أكبر من كل شيء فاستحق أن يفرد بالعبادة وحده، الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر والله الحمد.

أيها الإخوة المؤمنون : كان أمس يوم المباهاة، يدنو رب العالمين من عباده في عرفة ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول : ما أراد هؤلاء؟ يقول للملائكة : «اشهدوا يا ملائكتي أنني قد غفرت لهم، فما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة». ^(١)

اجتمع العباد فيها من كل حذب وصوب، وسألوا الله بكل لغة وصوت، لباس واحد، وشعار واحد، بألوان مختلفة، ولغات متعددة، كل يسأل الله حاجته؛ لكنها قلوب مجتمعة، اجتمعت على محبة الله تعالى وتعظيم شعائره.

أكف إلى الله رافعة، ووجوه لله ضارعة، وعيون دامعة، وقلوب خاشعة، ونفوس على باب الرحمن منطرحه، وألسن بالدعاء لاهجة، تكرر الدعاء ربنا!! ربنا!!؛ فسبحان من أحصى عددها، وسبحان من علم لغاتها، وسبحان من ميّز ألفاظها، وسبحان من قضى حوائجها،

(١) ورد هذا في حديث عائشة رضي الله عنها عند مسلم في الحج باب فضل الحج والعمرة (١٣٤٨) والنسائي في الحج باب ما ذكر في يوم عرفة (٥/٢٥١-٢٥٢) وقوله «اشهدوا يا ملائكتي أنني قد غفرت لهم» هي زيادة رزين كما في جامع الأصول (٩/٢٦٣).

لا يخفى عليه صوت، ولا تعجزه حاجة.

فلما غربت الشمس، سارت تلك الجموع في الشعاب وبين الوهاد خاشعين ملبين، قلوبهم كلها رجاء أن حجهم مقبول، وسعيهم مشكور، وذنبهم مغفور، ودعاءهم مستجاب، فلا إله إلا الله كم ينفر إلى مزدلفة من عبد رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه!!

دخلوا عرفات مثقلين يخرجون منها من الذنوب والخطايا مغسولين، عاملهم الله بعفوه ومغفرته ورحمته، لم ينظر إلى ماضيهم؛ بل طهر صحائفهم من السيئات فخرجوا مرحومين، معتقين من النار، وهذا ماجعل الشيطان يحثو التراب على رأسه يدعو بالويل والثبور، فيجتمع إليه شياطينه فيقولون مالك؟ فيقول: قومٌ فتنهم منذ ستين سنة وسبعين سنة غُفِرَ لهم في طرفة عين، كما وردت بذلك الآثار. (٢)

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر والله الحمد

أيها الإخوة: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كان لهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «إن الله قد أبدلكم يومين خيراً منهما يوم الفطر والأضحى» أخرجه أحمد (٣).

أبدل الله هذه الأمة المباركة بيومي اللعب واللهو يومي المغفرة والذكر، والعفو والشكر.

(٢) انظر: التمهيد لابن عبد البر (١/١٢١).

(٣) أخرجه أحمد (٣/١٧٨) والنسائي في العيدين (٣/١٧٩) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/٢٩٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

اليومُ يومُ عيد النحر، أكبر العيدين وأفضلهما، يشترك فيه المسلمون كلهم سواء أكانوا في المشاعر أم في سائر الأمصار في التقرب إلى الله تعالى بالنسك، وهو إراقة دماء القرابين.

فأهل الموسم يرمون الجمرة، ويتحللون من إحرامهم، ويقضون تفثهم، ويوفون نذورهم، ويقربون قرابينهم من الهدايا، ثم يطوفون بالبيت العتيق.

وأهل الأمصار يجتمعون على ذكر الله تعالى وتكبيره والصلاة له، ثم ينسكون ويتقربون إلى الله بالضحايا؛ فيكون ذلك شكراً منهم لهذه النعمة. فالصلاة والنحر في هذا اليوم أفضل من الصلاة والصدقة التي في عيد الفطر؛ ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل شكره لربه على إعطائه الكوثر أن يصلي لربه وينحر ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحِرْ (٢) ﴿[الكوثر] وقيل له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٦٣) ﴿[الأنعام] (٤)

هذا النسك العظيم للمسلمين في كل مكان هو أفضل عبادات هذا اليوم، وسنيته متأكدة؛ بل قال بوجوبه بعض العلماء واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: «وأما الأضحية فالأظهر وجوبها.. فإنها من أعظم شعائر الإسلام، وهي النسك العام في جميع الأمصار، والنسك مقرون بالصلاة في قوله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(٤) انظر: لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف لابن رجب (٤٨٢).

(١٦٢) ﴿[الأنعام] وقد قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ (٢)﴾ [الكوثر]
 فأمر بالنحر كما أمر بالصلاة... وهي من ملة إبراهيم الذي أمرنا باتباع
 ملته، وبها يذكر قصة الذبيح، فكيف يجوز أن المسلمين كلهم يتركون
 هذا، لا يفعله أحد منهم، وترك المسلمين كلهم هذا أعظم من ترك
 الحج في بعض السنين^(٥). وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم
 أنه قال: «من كان له سعة ولم يضح فلا يقربن مصلانا» أخرجه أحمد
 وابن ماجه والحاكم وصححه ووافقه الذهبي^(٦).

وهذه الأضاحي فعلها أبونا إبراهيم حين فدى أبانا إسماعيل عليهما
 الصلاة والسلام بذبح عظيم، وهي سنة نبينا محمد صلى الله عليه
 وسلم قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «ضحى رسول الله صلى الله

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٦٢/٢٣) وانظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع
 (٤٥٤/٧) وأيضاً (٥١٩-٥١٨) ورسالة الأضحية (٤٦-٤٨).

(٦) أخرجه أحمد (٣٢١/٢) وابن ماجه في الأضاحي باب الأضاحي واجبة هي
 أم لا؟ (٣١٢٣) والحاكم مرفوعاً وموقوفاً وقال في المرفوع: صحيح الإسناد
 ولم يخرجاه ووافقه الذهبي (٢٣٢/٤) برقم (٧٥٦٥) و (٧٥٦٦) والبيهقي
 في الكبرى وقال: بلغني عن أبي عيسى الترمذي أنه قال: الصحيح عن أبي
 هريرة موقوف، انظر: السنن الكبرى (٩/٢٦٠) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح
 (٣/١٠) «رجاله ثقات لكن اختلف في رفعه ووقفه، والموقوف أشبه بالصواب،
 قاله الطحاوي وغيره» وقال في البلوغ: رواه أحمد وابن ماجه وصححه الحاكم
 ورجح الأئمة غيره وقفه (١٤٧٣). وحسن الألباني المرفوع في صحيح ابن
 ماجه (٢٥٣٢) وصححه في صحيح الجامع (٦٤٩٠) وضعفه الشيخ عبدالعزيز
 ابن باز وأنكر المتن كما في تهميشي على زاد المعاد لابن القيم.

عليه وسلم بكبشين أملحين أقرنين، فرأيته ذبحهما بيده واضعاً قدمه على صفاحهما وسمى وكبر»، متفق عليه^(٧)، وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم النحر: «إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا نصلي ثم نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبلُ فإنما هو لحمٌ قدّمه لأهله ليس من النسك في شيء...» متفق عليه^(٨).

وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم العيوب التي تمنع أجزاء الأضحية؛ كما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: ماذا يتقى من الضحايا؟ «فأشار بيده وقال: أربعاً... العرجاء البيّن ضلعها، والعوراء البيّن عورها، والمريضة البيّن مرضها، والعجفاء التي لا تنقي» أخرجه مالك وأحمد والترمذي وقال: حسن صحيح^(٩).

(٧) أخرجه أحمد (١١٥/٣) والبخاري في الأضاحي باب من ذبح الأضاحي بيده (٥٥٥٨) ومسلم في الأضاحي باب استحباب الضحية وذبحها مباشرة بلا توكيل (١٩٦٦) والنسائي في الضحايا باب وضع الرجل على صفحة الضحية (٢٣٠/٧) وابن ماجه في الأضاحي باب أضاحي رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣١٢٠).

(٨) أخرجه أحمد (٣٠٣/٤) والبخاري في العيدين باب سنة العيدين لأهل الإسلام (٩٥١) ومسلم في الأضاحي باب وقتها (١٩٦١) وأبو داود في الضحايا باب ما يجوز في الضحايا من السن (٢٨٠١) وغيرهم.

(٩) أخرجه مالك (٤٨٢) وأحمد (٢٨٤/٢) والترمذي في الأضاحي وقال: حسن صحيح والعمل على هذا عند أهل العلم (١٤٩٧) وأبو داود في الأضاحي باب ما يكره من الضحايا (٢٨٠٢) وابن ماجه في الأضاحي (٣١٤٤).

قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله تعالى: «أما العيوب الأربعة المذكورة في هذا الحديث فمجتمع عليها، لا أعلم خلافاً بين العلماء فيها، ومعلوم أن ما كان في معناها داخل فيها إذا كانت العلة في ذلك قائمة، ألا ترى أن العوراء إذا لم تَجُزْ في الضحايا فالعمياء أخرى ألا تجوز، وإذا لم تَجُزْ العرجاء فالمقطوعة الرجل أخرى ألا تجوز، وكذلك ما كان مثل ذلك كله»^(١٠).

وقال علي رضي الله عنه: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستشرف العين والأذن، ولا نصحي بعوراء ولا مقابلة ولا مدابرة ولا خرقاء ولا شرقاء» أخرجه أحمد وأبو داود واللفظ له^(١١).

قال ابن عبد البر: «المقابلة عند أهل الفقه وأهل اللغة: ما قطع طرف أذنها، والمدابرة: ما قطع من جانبي الأذن، والشرقاء: المشقوقة الأذن، والخرقاء: المثقوبة الأذن؛ ولا خلاف علمته بين العلماء أن قطع الأذن كلها أو أكثرها عيب يتقى في الضحايا» اهـ^(١٢).
وبكل حال - أيها الإخوة - فإن هذه الضحايا قرايين لله تعالى فعلى

(١٠) الاستذكار (١٥/١٢٤).

(١١) أخرجه أحمد (١٠٨/١) وأبو داود في الأضاحي باب ما يكره من الضحايا (٢٨٠٤) والترمذي في الأضاحي باب ما يكره من الأضاحي وقال: حسن صحيح (١٤٩٨) والنسائي في الضحايا (٢١٦/٧) وابن ماجه في الأضاحي (٣١٤٤) والدارمي (٧٧/٢) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤٦٨/١) وصححه ابن حبان (٥٩٢٠).

(١٢) الاستذكار (١٥/١٢٧-١٢٨).

المضحى أن يختار الأطيب منها؛ لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وكان الصحابة رضي الله عنهم يسمنون الأضاحي في المدينة. قال أمانة بن سهل: «كنا نسمن الأضحية بالمدينة وكان المسلمون يسمنون»^(١٣). والأفضل أن يتولى صاحبها ذبحها ويأكل منها ويهدي ويتصدق، ولا يجوز أن يبيع شيئاً منها.

والشاة تجزئ عن واحد يشتريها ويشرك فيها من شاء من قرابته الأحياء والأموات. والواحدة من الإبل أو البقر يجوز أن يشترك في ثمنها سبعة أشخاص كل واحد منهم يشرك فيها من شاء من قرابته^(١٤)، ويجزئ من الإبل ما بلغ خمس سنوات، ومن البقر ما بلغ سنتين، ومن المعز ما بلغ سنة، ومن الضأن ما بلغ نصف سنة^(١٥).

(١٣) رواه البخاري معلقاً مجزوماً به في الأضاحي باب أضحية النبي صلى الله عليه وسلم بكبشين أقرنين، وذكر الحافظ في الفتح (١٢/١٠) أن أبا نعيم وصله في المستخرج. وقال ابن قدامة: «ويسن استسمان الأضحية واستحسانها لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾» [الحج] قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تعظيمها: استسمانها واستعظامها واستحسانها» جامع البيان (١٥٦/١٧) ولأن ذلك أعظم لأجرها وأكثر لنفعها» اهـ المغني (٣٦٧/١٣).

(١٤) وحجة ذلك حديث جابر رضي الله عنه قال: «نحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة» أخرجه مسلم في الحج باب جواز الاشتراك في الهدى (١٣١٨) وقال الطبري: «أجمعت الأمة على أن البدنة والبقرة لا تجزي عن أكثر من سبعة»، وذكر نحوه الطحاوي، انظر: شرح معاني الآثار (١٧٦/٤) والاستذكار (١٩٠/١٥).

(١٥) انظر: سبل السلام (٤٠٨/٧-٤١٠) والشرح الممتع على زاد المستقنع (٤٦٠/٧).

فاحرصوا رحمكم الله على هذه السنة العظيمة، فالיום يوم إراقة الدماء تعظيماً لله تعالى، والمحروم من حرم فضل الله.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.

أيها الإخوة المؤمنون: إن من الظواهر السيئة التي أصابت كثيراً من المسلمين: الاستهانة بشعائر الله تعالى، وتجاوز حدوده، وتضييع فرائضه، وضعف الإيمان واليقين؛ وذلك إنما كان نتيجة للضعف والتخلف الذي يعيشه المسلمون، وهو إفراز من إفرازات الغزو الفكري الذي يسخر كل قوة سواء كانت ترسانة عسكرية أم ضجة إعلامية؛ لإفناع المسلمين بالتخلي عن دينهم.

وبدأت نتائج هذا الغزو تظهر وتطفو على السطح، تزكم الأنوف، وتُعنقُ الأجواء، وتحاول تكدير صفو هذا الدين حتى غدا كثير من المرتدين يعلنون ردتهم بكل أمن وصفاقة؛ بل عطل كثير من المسلمين الأركان الكبرى من الإسلام وتخلوا عن المبادئ العظمى: من إخلاص العبادة لله وحده، وتحكيم شرعه، والتزام أمره، واجتناب نهيه، والمحافظة على ركن الولاء والبراء... الولاء للمؤمنين والبراءة من الكافرين، وإن من الملاحظ في أكثر بلاد المسلمين: إضاعة الصلاة، وتعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقابل هذا التخلي عن الدين، وتلك الإضاعة لأركانه: عضٌ بالنواجذ على مبادئ الذين كفروا، وإعجابٌ بأرائهم وعاداتهم في أكلهم وشربهم، ونومهم واستيقاظهم، ولباسهم وهيئاتهم وأعيادهم؛ بل ساروا وراءهم

حذو القذة بالقذة حتى في أنفه الأمور، وأخس العادات: قص الشعور وحلقها؛ ناهيكم عن اتباعهم في الأمور الكبرى من تأليه المادة، وتعطيل فرائض الله من أجلها، وجعلها غاية تسوغ كل وسيلة، والحرص على تحصيل كم أكبر من اللذائد والشهوات، ولو على حساب الدين والأخلاق والقيم، والعيش للدنيا في تناسٍ تام عن الدار الآخرة وما ينبغي أن يعمل لها، وتغافل مطبق عن استشعار الموت والقبر والحساب والجزاء. إن المسلمين يؤمنون بالدار الآخرة، ويعتقدون بأن العبد يحاسب بما عمل؛ لكن هذا الإيمان والاعتقاد يتلاشى أو يضعف حين العمل. فالموظف يستيقظ لعمل الدنيا لكنه ينام عن عمل الآخرة، والغني يسارع في تنمية ماله لكنه لا يُخرج حق الله فيه، ولا يراقب الله في طرائق كسبه - إلا من رحم الله وقليل ما هم -.

والمرأة تسعى في طلب ما يكملها حسب زعمها، وتحاول لفت الأنظار إليها من لبس العباءة المزركشة، ووضعها على الكتف، والتساهل بالحجاب، وإبداء الزينة لغير الزوج والمحارم، والخروج للأسواق لغير حاجة ملحة، ولبس البنطال عند غير الزوج، والتزين بالوشم والنمص، وغير ذلك مما قلدت المسلمة فيه نساء الكافرين، ظنت بأن اللحاق بهم في هدم الدين، وفساد الأخلاق، وكسر الحياء لحاق بالحضارة وتحقيق للمدنية؛ لكنها حينما عملت تلك الأعمال لم تنظر ولم تسأل عن مدى شرعيتها؟ وهل هي تغضب الرحمان أم لا؟

كل هذه النماذج وغيرها تؤمن بيوم الحساب قولاً واعتقاداً؛ لكنها

تضعف عن العمل والتطبيق فشكلت بضعفها الفردي ضعفاً جماعياً شلّ حركة الأمة عن التقدم، وقعد بها وأوثقها؛ مما جعلها مرمى لسهام العدو، وهدفاً لتربصه ومؤامراته، والمسلمون الذين شلّوها وأوثقوها ييكون حولها، ويتلاومون فيما بينهم، ويندبون الحظ العاثر. ومنهم من ألقى باللائمة على القدر. وما علموا أن كل فرد منهم شاء أم أبى، علم أم جهل قد أسهم بشكل كبير في هذا الضعف والاستكانة، والتخلف والتقهقر؛ بما مارس من عصيان، وارتكب من آثام حجبت نصر الله عز وجل، وجعلت العدو قادراً على أن يتسلط على المسلمين. فعودوا إلى الله أيها المؤمنون، أصلحوا أنفسكم تصلح أمتكم، وانتصروا على شهواتكم وملذاتكم تنتصر أمتكم على أعدائها، ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥٠) [الذاريات].

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد. أيها الإخوة: هل نستطيع أن نقهر أنفسنا عن المعصية ولو في أيام الشكر؟ هذا يوم العيد يوم شكر الله تعالى، هل نفقد فيه سماع المعازف ونستبدلها بذكر الله تعالى وتكبيره؛ حتى نكون من الشاكرين. وهل نحافظ نساؤنا على لباس الحشمة والحجاب الشرعي والبعد عن مواطن الريبة والمعصية.

هل نتناسى ضغائننا، ونصلح ذات بيننا، فنبشّر والدينا، ونصلّ أرحامنا، ونتراور في الله تعالى، ونحافظ على الفرائض، ونجتنب ما حرّم الله علينا؛ فهذا الانتصار على النفس هو أول عتبات الانتصار على العدو.

أما بغير ذلك فسنعيش دهوراً من الذل والهوان، وسنظل نتلقى مزيداً من التسلط والقهر والحرمان ﴿وَأِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.
﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦) [الأحزاب]...

* * *

٧٦- فضل أيام التشريق

الجمعة ١١/١٢/١٤١٧هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن ذكر الله تعالى من أعظم العبادات وأجلّها؛ بل عدّه معاذ بن جبل رضي الله عنه أفضل عبادة على الإطلاق؛ إذ قال: «ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله تعالى، قالوا: يا أبا عبد الرحمن، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا، إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع؛ لأن الله تعالى يقول في كتابه ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]»^(١).

(١) أخرجه أحمد في الزهد (١٨٢) وأبو نعيم في الحلية (٢٣٥/١) والخبر في سير أعلام النبلاء (٤٥٥/١).

فذكره تعالى فيه حياة القلوب وطمأنينتها وسكينتها ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] مَنْ ذكر الله في كل أحيانه هانت عليه الدنيا وما فيها، فلا يشقى بها؛ لأنه يذكر خالقها، ويعلم أن ما عنده خير وأبقى. ذاكر الله تعالى لا يهرب من مخلوق، ولا يخاف شيئاً؛ فذكر الله تعالى جعل في قلبه شجاعة وإقداماً لا يعرف معه الجبن والتردد. وهذا هو السرّ في قوة المجاهدين في سبيل الله حينما يغلبون عدواً يفوقهم عدداً وعتاداً، وهو السرّ في أن العلماء والمصلحين يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر ويصدعون بالحق لا يخافون في الله لومة لائم؛ فالظن أنهم أكثر الناس ذكراً لله تعالى.

أيها الإخوة: وهذه الأيام أيام ذكر الله تعالى وشكره، وإن كان الحق أن يذكر الله تعالى ويشكر في كل وقت وحين؛ لكن يتأكد ذلك في هذه الأيام المباركة. روى نُبَيْشَةُ الهذلي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله» أخرجه مسلم وفي رواية للإمام أحمد «من كان صائماً فليفطر فإنها أيام أكل وشرب»^(٢). وهي الأيام المعدودات التي قال الله عز وجل فيها ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]^(٣) وجاء في حديث عبدالله بن قُرْط

(٢) أخرجه مسلم في الصيام باب تحريم صوم أيام التشريق (١١٤١) ورواية أحمد في المسند (٢٢٤/٥) عن حبيبة بنت شريق.

(٣) وهو قول ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم، وأكثر العلماء، انظر: تفسير ابن كثير (٣٦٧/١) عند تفسير الآية (٢٠٣) من سورة البقرة، ولطائف المعارف (٥٠٠) ومحاسن التأويل للقاسمي (٥٠٤/٣).

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القر» أخرجه الإمام أحمد (٤).

ولما كانت هذه الأيام هي آخر أيام موسم فاضل؛ فالحجاج فيها يكملون حجهم، وغير الحجاج يختمونها بالتقرب لله تعالى بالضحايا بعد عمل صالح في أيام العشر؛ شرع أن يختم هذا الموسم بذكر الله تعالى للحجاج وغيرهم، وتلك سنة سنها الله تعالى عقب انتهاء بعض العبادات. ففي شأن الذكر عقب الصلاة جاء القرآن العظيم بالأمر به ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] وفي صلاة الجمعة ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] وعقب الحج كذلك ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ومن الذكر المشروع في هذه الأيام المباركة: التكبير المقيد بأدبار الصلوات المكتوبات، والتكبير المطلق في كل وقت إلى غروب شمس اليوم الثالث عشر للحجاج وغيرهم.

وقد كان عمر رضي الله عنه يكبر في قبه بمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبرون، ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى تكبيراً.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٣٥٠) وأبو داود في المناسك باب الهدي إذا عطب قبل أن يبلغ (١٧٦٥) وصححه ابن خزيمة (٢٨٦٦-٢٩٦٦) والحاكم ووافقه الذهبي (٤/ ٢٢١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٦٤).

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يكبر بمنى تلك الأيام وخلف الصلوات، وعلى فراشه، وفي فسطاطه ومجلسه وممشاه تلك الأيام جميعاً. وكانت ميمونة تكبر يوم النحر، وكان النساء يكبرن خلف أبان ابن عثمان وعمر بن عبدالعزيز ليالي التشريق مع الرجال في المسجد^(٥).

بل بلغ من أهمية التكبير المقيد بأدبار الصلوات أن العلماء قالوا: يقضيه إذا نسيه، فإذا نسي أن يكبر عقب الصلاة فإنه يكبر إذا ذكر ولو أحدث أو خرج من المسجد مالم يطل الفصل بين الصلاة والتكبير^(٦).

وهكذا التكبير المطلق مشروع أيضاً في السوق وفي البيت، وفي المسجد وفي الطريق؛ تعظيماً لله تعالى، وإجلالاً له، وإظهاراً لشعائره.

فأيام التشريق يجتمع فيها للمؤمنين نعيمٌ أبدانهم بالأكل والشرب، ونعيمٌ قلوبهم بالذكر والشكر، وبذلك تتم النعمة. وكلما أحدثوا شكراً على النعمة كان شكرهم نعمة أخرى، فيحتاج إلى شكر آخر ولا ينتهي

(٥) ذكر هذه الآثار كلها عن الصحابة ومن بعدهم البخاري تعليقاً مجزوماً به في العيدين باب التكبير أيام منى، وإذا غدا إلى عرفة، وأثر عمر وصله سعيد بن منصور وأبو عبيد ورواه عنه البيهقي في سننه (٣/٣١٢) وأثر ابن عمر وصله ابن المنذر والفاكهي في أخبار مكة، وذكره البيهقي بصيغة التمريض في سننه (٣/٣١٢) وتكبير النساء خلف أبان وصله ابن أبي الدنيا في العيدين، وانظر: فتح الباري للحافظ ابن حجر (٢/٥٣٤-٥٣٥) والمهذب للشيرازي مع المجموع (٥/٣٦) وما بعدها.

(٦) انظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع (٥/٢٢٢).

الشكر أبدأ^(٧).

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى: «وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنها أيام أكل وشرب وذكر لله عز وجل» إشارة إلى أن الأكل في أيام الأعياد والشرب إنما يستعان به على ذكر الله تعالى وطاعته، وذلك من تمام شكر النعمة أن يستعان بها على الطاعات، وقد أمر الله تعالى في كتابه بالأكل من الطيبات والشكر له. فمن استعان بنعم الله على معاصيه فقد كفر نعمة الله وبدلها كفرًا وهو جدير أن يسلبها... وخصوصاً نعمة الأكل من لحوم بهيمة الأنعام، كما في أيام التشريق؛ فإن هذه البهائم مطيعة لله لا تعصيه، وهي مسبحة له قانتة؛ كما قال تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وإنها تسجد له كما أخبر بذلك في كتابه العظيم ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ ذَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٩) [النحل] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]، وربما كانت أكثر ذكراً لله من بعض بني آدم، وفي المسند مرفوعاً «رَبَّ بَهِيمَةٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِهَا وَأَكْثَرُ لِلَّهِ مِنْهُ ذِكْرًا»^(٨).

وقد أخبر الله تعالى في كتابه أن كثيراً من الجن والأنس كالأنعام بل هم أضل، فأباح الله عز وجل ذبح هذه البهائم - المطيعة الذاكرة

(٧) لطائف المعارف (٥٠٤).

(٨) أخرجه أحمد عن سهل بن معاذ عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي سننه ابن لهيعة وهو ضعيف، انظر: المسند (٤٣٩/٣).

له - لعباده المؤمنين حتى تتقوى بها أبدانهم، وتكمل لذاتهم في أكلهم اللحوم... أباح ذلك للمؤمنين ليكمل بذلك قوة عبادته وعقولهم، فيكون ذلك عوناً لهم على علوم نافعة، وأعمال صالحة يمتاز بها بنو آدم على البهائم، ويتقون بها على ذكر الله عز وجل... فلا يليق بالمؤمن مع هذا إلا مقابلة هذه النعم بالشكر عليها، والاستعانة بها على طاعة الله عز وجل وذكره؛ حيث فضل الله ابن آدم على كثير من المخلوقات، وسخر له هذه الحيوانات قال الله تعالى ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣٦) [الحج] فأما من قتل هذه البهائم المطيعة الذاكرة لله عز وجل ثم استعان بأكل لحومها على معاصي الله عز وجل، ونسي ذكر الله عز وجل فقد قلب الأمر وكفر النعمة فلا كان من كانت البهائم خيراً منه وأطوع. انتهى ملخصاً من كلام الحافظ ابن رجب رحمه الله (٩).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ إِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣٦) لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٧) [الحج].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً يليق بجلال ربنا وعظمته، أحمده وأشكره وقد تأذن بالزيادة لمن شكر، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يغفر الذنب، ويقبل التوب، ويعطي العطاء الجزيل، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وما عنده خير وأبقى، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، خير من صلى وصام، وحج البيت الحرام، وعظم الشعائر والحرمان، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى في كل أحيانكم فإن ﴿مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)﴾ [الطلاق].

أيها الإخوة المؤمنون: في النهي عن صيام أيام التشريق بعد العمل الصالح في عشر ذي الحجة لمن لم يحج، وبعد أعمال الحج لمن حج. في هذا النهي عن الصيام والتمتع بما أحل الله من الطيبات إشارة إلى حال المؤمن في الدنيا. فإن الدنيا كلها أيام سفر كأيام الحج، وهي زمان إحرام المؤمن عما حرم الله عليه من الشهوات. فمن صبر في مدة سفره على إحرامه، وكف عن الهوى، فإذا انتهى سفر عمره، ووصل إلى منى المني فقد قضى تفته ووفى نذره، فصارت أيامه كلها كأيام منى، أيام أكل وشرب وذكر لله عز وجل، وصار في ضيافة الله عز وجل في جواره أبد الأبد؛ ولهذا يقال لأهل الجنة ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا

بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ [المرسلات: ٤٣] ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ ﴿٢٤﴾ [الحاقة].

من صام اليوم عن شهواته أفطر عليها غداً بعد وفاته، ومن تعجل ما حرم عليه من لذاته عوقب بحرمان نصيبه من الجنة وفواته. شاهد ذلك من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومن لبس الحرير لم يلبسه في الآخرة^(١٠).

فاتقوا الله ربكم، واعمروا أوقاتكم بذكر الله تعالى وشكره وطاعته. فكما انقضت هذه الأيام الفاضلة على المفطر والمحسن معاً مع الفارق الكبير بين عملهما فكذلك الدنيا تنقضي على الجميع. وابدوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. ثم صلوا وسلموا على محمد ابن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

(١٠) انظر: لطائف المعارف (٥٠٧).

المحرمات

٧٧- منكرات الأفراح

٧٨- الرياض رواثم (١)

٧٩- الرياض رواثم (٢)

٨٠- الخمر في الشريعة (١)

٨١- الخمر في الشريعة (٢)

٨٢- الزنى وخطره

٨٣- العجب

٨٤- عاقبة الظالم

٨٥- عاقبة الأمن من مكر الله

٧٧- منكرات الأفراح

الجمعة ٢٦/٣/١٤٢٣هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: كلُّ أمةٍ من الأمم، وجماعةٍ من الجماعات، وقبيلةٍ من القبائل تعبر عن أفراحها وأحزانها بما يتوافق مع دينها ومبادئها وأعرافها.

وأمةُ الإسلام لها منهجٌ مكتمل، ونظام واضح، وحدود معلومة، مستمدة من الكتاب والسنة؛ فالصدور يكون عنهما، والتحاكم عند الاختلاف إليهما.

والمؤمن الحق هو الذي يلتزم الكتاب والسنة قولاً وعملاً، فلا يستخفه فرحٌ فيخرجه عن حدود المشروع من الأقوال والأفعال، ولا يبثسه حزن فيوقعه في المحذور من اليأس والتسخط والاعتراض على قضاء الله تعالى وقدره.

وحفلات الأعراس هي من جملة ما يحفلُ بها الأفراد، وتحفل بها الأمم، وفي الإسلام شرع إظهار العرس؛ ابتهاجاً به، وإعلاناً له، كما شرعت وليمةً له تسمى وليمة العرس، ووُسع باللهو المباح فيه؛ لأنه مناسبة فرح وابتهاج.

ومن دعي إلى وليمة عرس وجب عليه تليتها؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا دُعي أحدكم إلى الوليمة فليأتها» متفق عليه^(١). قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله تعالى: «لا خلاف في وجوب الإجابة إلى الوليمة لمن دعي إليها، إذا لم يكن فيها لهو»^(٢).

- (١) أخرجه مالك في الموطأ (٥٤٦/٢) ومن طريق مالك أخرجه البخاري في النكاح باب حق إجابة الوليمة والدعوة (٥١٧٣) ومسلم في النكاح باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة (١٤٢٩) (٩٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
- (٢) هكذا نقله ابن قدامة في المغني (١٩٣/١٠) عن ابن عبد البر، ولم أجده في التمهيد ولا الاستذكار، وفي الاستذكار قال: «وما أعلم خلافاً بين السلف من الصحابة والتابعين في القول بالوليمة، وإجابة من دعي إليها» (٣٥٣/١٦) ويؤيد القول بالوجوب مع الأمر في حديث ابن عمر ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «شر الطعام طعام الوليمة، يدعى لها الأغنياء، ويترك الفقراء، ومن ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم» أخرجه البخاري في النكاح باب من ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله (٥١٧٧) ومسلم في النكاح باب الأمر بإجابة الداعي=

وهذا الحكم فيما إذا كانت الوليمة خالية من المنكرات، أما إذا كان حفل العرس يشتمل على منكر فلا تجب الإجابة.

قال ابن قدامة رحمه الله تعالى: «إذا دُعي إلى وليمة فيها معصية كالخمر والزمر والعود ونحوه، وأمكنه الإنكار، وإزالة المنكر؛ لزمه الحضور والإنكار؛ لأنه يؤدي فرضين: إجابة أخيه المسلم، وإزالة المنكر، وإن لم يقدر على الإنكار لم يحضر، وإن لم يعلم بالمنكر حتى حضر أزاله، فإن لم يقدر انصرف»^(٣) ١. هـ

وقد جاء في الحديث: «أن رجلاً أضاف علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فصنع له علي طعاماً، فقالت فاطمة: لو دعونا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل معنا، فدعوه، فجاء فوضع يده على عضادتي الباب، فرأى القرام قد ضُرب به في ناحية البيت فرجع - والقرام ستارة فيها نقوش^(٤) - فقالت فاطمة لعلي: الحقه فانظر ما رجعه، فتبعته فقلت: يا رسول الله، ما ردك؟ فقال: إنه ليس لي أو لنبي أن يدخل بيتاً مزوقاً» رواه أبو داود وابن ماجه^(٥).

= إلى دعوة (١٤٣٢). وانظر تفصيل ذلك وأقوال الأئمة في: المغني (١٩٣/١٠)

والتمهيد (٢٧٢/٢) والاستذكار (٣٤٨١٦).

(٣) المغني (١٩٨/١٠).

(٤) انظر: مادة (قرم) في اللسان (٤٧٤/١٢).

(٥) أخرجه أبو داود في الأطعمة باب الرجل يدعى فيرى مكروهاً (٣٧٥٥) وابن

ماجه في الأشربة باب إذا رأى الضيف منكراً رجع (٣٣٦٠) وأحمد (٢٢١/٥)

والطبراني في الكبير (٨٤/٧) برقم (٦٤٤٦) والبيهقي في الكبرى (٢٦٧/٧)

وابن عبد البر في التمهيد (١٨١/١٠) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (١٨٦/٢).

قال الخطابي: «فيه دليل على أن من دُعي إلى مدعاة يحضرها الملاهي والمنكر فإن الواجب عليه أن لا يجيب»^(٦).

وقال الحافظ ابن حجر: «يفهم من الحديث أن وجود المنكر في البيت مانع من دخوله»^(٧).

وسئل الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن الرجل إذا علم أن في الوليمة منكرًا لكنه لا يراه ولا يسمعه؛ لكونه بمعزل عن مجلسه، أو يخفونه وقت حضوره فقال رحمه الله: «أرجو ألا يَأْثُمَ إن لم يجب، وإن أجاب فأرجو أن لا يكون آثمًا».

قال ابن قدامة: «فأسقط الوجوب لإسقاط الداعي حرمة نفسه باتخاذ المنكر، ولم يمنع الإجابة لكون المجيب لا يرى منكراً ولا يسمعه»^(٨). إذا علم ذلك - أيها الأخوة - فإن كثيراً من أعراس الناس في هذا الزمن تعجُّ بالمنكرات، وتطفحُ بالموبقات، ومظاهِرُ كفرِ النعمة فيها بادية للعيان.

لقد أصبحت كثير من الزيجات مجالاً للمباهاة والمفاخرة على الناس، والفساد في الأرض، وكفر النعمة، والأشر والبطر؛ فصالاتها، وفنادقها وقصورها تستأجر بأثمان خيالية، وما ينفق من أموال على العرس الواحد عند كثير من الأثرياء يكفي لحفلات أعراس قبيلة كاملة.

(٦) معالم السنن بهامش سنن أبي داود (١٣٣/٤).

(٧) لم أعر عليه في مظانه من الفتح، وهو في عون المعبود (١٦٣/١٠) وشرح السيوطي على سنن ابن ماجه (٢٤١/١).

(٨) المغني (٢٠٦-٢٠٧).

فمن السرف في الأطعمة التي يكون مستقرها النفائات، إلى الإسراف في اللباس والحلي والزينة حتى كأنما خلق الناس للدنيا، يعبون من متعها بلا حساب ولا ميزان، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد خرج من بيت علي رضي الله عنه مُنكراً ما رأى من ستارة على جدار، وعدها من السرف، فكيف لو رأى حال الناس اليوم؟! .

وروى سالم بن عبدالله بن عمر رضي الله عنهم فقال: «أعرست في عهد أبي، فأذن أبي الناس، فكان أبو أيوب ممن آذنا وقد ستروا بيتي بنجاد أخضر، فقال: يا عبدالله، أتسترون الجُدُر؟! فقال أبي واستحيا: غلبتنا النساء يا أبا أيوب. فقال: من خشيت أن يغلبه النساء فلم أخش أن يغلبنك، ثم قال: لا أطعم لكم طعاماً، ولا أدخل لكم بيتاً، ثم خرج» رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح^(٩).

لقد صارت أعراس كثير من الناس يُستجلب لها مطربون ومطربات وراقصات، يحيون الليل كله بالمنكرات، ويعطون مبالغ طائلة، وهدايا ثمينة، على محرم لاشك في حرمة، ومن قصرت نفقاتهم عن ذلك، وعجزت أموالهم عن استقدام مطربين ومطربات وراقصات؛ فإن أصوات المعازف والغناء الماجن تصل من آلات التسجيل إلى قاعات الرجال، وتؤدي بإزعاجها جيران أهل العرس؛ مجاهرةً بالمنكرات والقبائح. ويصاحب أصوات الغناء والمعارف رقص خليع من نساء مهتكات

(٩) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٨/٤) برقم (٣٨٥٣) والبيهقي بنحوه في الكبرى (٢٧٢/٧) قال الهيثمي في الزوائد: ورجاله رجاله الصحيح (٥٤-٥٥).

متخلعاتٍ في لباسهن وأفعالهن، يُمرضن قلوب النساء قبل قلوب الرجال بمجونهن وفسقهن، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد حدثنا عن «نساءٍ كاسيات عاريات مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها»^(١٠).

وقد حدثنا - في هذا العصر - عن نساءٍ يحضرن حفلات الأعراس بلباس عارٍ لا يُلبس إلا في غرف النوم، وعن فتياتٍ قد نزعن من لباسهن بقدر ما نزع من قلوبهن من الحياء، كاسيات عاريات، يبدن من أجسادهن ما يستحي أن يبديه الفتيان من أجسادهم، فأين حياءُ النساء؟! وأين غيرة الرجال؟!

إن هذا التهتك في اللباس الذي صار ظاهرة في أوساط النساء - وبوجه أخص في حفلات الأعراس - ما كان إلا بسبب تساهل الأزواج مع زوجاتهم، والآباء مع بناتهم، والإخوان مع أخواتهم، وإلا لو علمت الزوجة أو البنت أو الأخت أن وليها سيغضب إن لم تحافظ على سترها وحشمتها لما فعلت فعلتها، ولو أنها أدركت أنها مراقبة في لبسها، وستعاقب عليه، وتمنع من الذهاب به، لما لبست ما تشاء. واعجباً من رجالٍ يغضب واحد منهم إن قيل السوء في إحدى محارمه، ولكنهم لا يمنعونهم مما يجلب لهم السوء والشر والعار والنار.

وحياء المرأة يزول شيئاً فشيئاً، فإذا لم يجد من محارمها الرجال

(١٠) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مسلم في الآداب باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات (٢١٢٨) وأحمد (٣٥٥/٢).

من يصوئته ويحفظه زال بالكلية حتى تصير بلا حياء في قولها وفعلها، ولباسها وحركاتها. وتجزع عاراً على أسرتها ما كان ليحدث لو أن أسرتها حفظتها وحرسها من ذئاب الأعراض، وثعالب النساء.

إننا ما رأينا ولا سمعنا عن امرأة تكون محتشمة في لباسها، ملتزمة بحجابها، ثم تنبذه فجأة، وتتعرى بين عشية وضحاها؛ لأن المرأة مفطورة على الحياء، وتعاليم الإسلام مع عادات العرب التي أقرتها الشريعة تنمي هذا الحياء فيها مع نموها، وتكرسه في نفسها؛ حتى يصبح سجية لها. وقد ابتليت البشرية في هذا العصر بمعاول تهدم حصن الحياء عند المرأة، كما تحطم سلاح الغيرة عند الرجل؛ حتى صارت النساء بلا حياء، والرجال بلا غيرة إلا عند المسلمين المتمسكين بدينهم، ويراد لنساء هؤلاء المسلمين أن يقضين على حيائهن، كما يراذل رجالهم أن يكونوا بلا غيرة على محارمهم؛ لتصبح مجتمعات المسلمين كما هي مجتمعات الغربيين لا مكان فيها للحياء والغيرة.

وليعلم كل أب وزوج وأخ أنه مسؤول أمام الله تعالى عن محارمه، فعليه أن يأمرهن بالمعروف، وينهاهن عن المنكر، فإذا رأى منهن تهتكاً في اللباس ولو عند محارمهن منعهن من ذلك، ووعظهن بكتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن قبلن الوعظ وإلا أخذ على أيديهن، وقصرهن على الحق قصراً؛ ففي ذلك حماية له ولهن في الدنيا من العار والفضيحة، وفي الآخرة من نار جهنم.

أسأل الله تعالى أن يستر على نساينا بستره، وأن يمن عليهن بصلاح

الباطن والظاهر، وأن يكفيهن شر الأشرار، ومكر الفجار، وكيد الكفار، إنه سميع مجيب.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى بفعل ما أمر، واجتنب الفواحش ما بطن منها وما ظهر، واعلموا أن الله مع المتقين.

أيها المسلمون: كثيرٌ مما يقع من السرف والمنكرات في حفلات الأعراس ما هو إلا بتدبير النساء؛ ولكنه بمال الرجال، والرجل مسؤولٌ عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وهو راعٍ ومسؤول عن رعيته وعليه إثم ما يقارفه أهله وبناته من منكرات وموبقات؛ لأنهم رعيته. فهو مسؤول عن السرف والتبذير، وعن لباس نسائه، وتعريهن وما يفعلنه من نمص ووشم وتغيير لخلق الله تعالى في وجوههن وأجسادهن، ومسؤول عما يحدث من منكرات في حفلة العرس من غناء، ورقص، ومعازف، وتصوير، وسهر على محرمات، وغير ذلك، ولو لم يكن مسؤولاً عن محارمه لما كان قوَّاماً عليهن. والشارعُ الحكيم قد جعل

الرجال قوامين على النساء ومع ذلك فإن كثيراً من الرجال قد ضيعوا نساءهم وبيوتهم، وأطلقوا لهن العنان يفعلن ما يشأن، ويذهبن إلى حيث يردن، ويلبسن ما يحلو لهن بلا حسيب ولا رقيب.

إن طاعة النساء في بعض الأمور - و لاسيما في حفلات الأعراس - لما يكون سبباً في فساد الدين والأخلاق، وضياع الأموال؛ لأن المرأة فيها غيرة شديدة، وحبٌ للمباهاة والمفاخرة، فهي تختزل الدنيا كلها في عرسها أو عرس ابنها أو ابنتها، وتريدُ أن يتحدث الناس به ولو كان على حساب الأوامر الشرعية، والأخلاق المرعية. فإذا أطاعها محارمها الرجال، وأعطوها ما تريد حصل فساد عريض.

والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] ومن عداوة الزوجات لأزواجهن أن يُحسنَ لهن المنكرات، أو يبذلن أموالهم فيها، وحفلات الأعراس لا تخرج عن ذلك؛ فإن الرجل يتكفل بكل النفقات بما فيها النفقات على المحرمات، والنساء يدبرن شؤون ذلك كما هو واقع الحال، فيعود الوزرُ على الرجل لأنه البازلُ المنفق؛ ولأن له القوامة على نسائه، وهذه من عداوة الأهل والأولاد للرجل.

وكلما كانت نفقاتُ العرس أقل كان أكثر بركة للزوجين، وأدعى لبقاء الألفة والمودة بينهما، وقد ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: «من يُمنِ المرأة تسهيل أمرها، وقلة صداقها». قال عروة: وأنا أقول من عندي: «ومن شؤمها تعسير

أمرها، وكثرة صداقها»^(١١).

وكم من أسر دفعت أموالاً طائلة على زيجات أبنائها وبناتها، ولم تراقب شرع الله تعالى في ذلك؛ فكانت عواقب ذلك وخيمة على الزوجين في زوال الألفة والمودة بينهما، وقلوب العباد بيد الرحمن يقبلها سبحانه كيف يشاء، ويملؤها مودة ورحمة إذا أراد، وأحظى الأزواج بذلك من امثلوا شرع الله تعالى في زيجاتهم، وجانبوا المنكرات في أعراسهم. إن كثيراً من الناس ينفق أموالاً عظيمة على عرس ابنه أو ابنته في وقت يموت فيه عشرات الآلاف من البشر جوعاً وحرماناً. ألا يخافون أن تسلب النعم من أيديهم؟! أن

فكم من بلاد ضربت في اقتصادها، فصار ما تملكه من مال لا يساوي شيئاً، وكما قيل: الأمن دائم، والخوف ساعة.

وفي وقت يرمي فيه كثير من الناس أطعمة الأعراس والحفلات في النفايات فإن المرأة الأفغانية تخلط عشباً بتراب وتعجنه وتخبزه؛ ليكون طعاماً لأيتامها. ولا يجد كثير من المسلمين المنكوبين في فلسطين والشيشان وكشمير وأفغانستان وأفريقيا قوت يوم واحد، وتُنقل إلينا صور ذلك وتقاريره وأخباره في وسائل الإعلام المختلفة، فهل قُدت قلوب الناس من حجر حتى لا تتأثر بمشاهدة بيوت تهدم، وأسرٍ تشرّد، ويتامى

(١١) أخرجه أحمد (٦/٧٧-٩١) والطبراني في الصغير (١/١٦٩) وأبو نعيم في الحلية (٣/١٦٣) و(٨/١٨٠) والبيهقي (٧/٢٣٥) وصححه ابن حبان (٤٠٩٥) والحاكم ووافقه الذهبي (٢/١٨١).

يكون، وأطفالٍ جوعى محرومين. فلو أن أصحاب الأعراس اقتصدوا في أعراسهم، وأعانوا ببعض نفقاتهم إخوانهم المسلمين المحرومين؛ لحصل خير كثير من ذلك، ولكان حرياً أن تكون أعراسهم مباركة؛ فإن الصدقة تطفئ غضب الرب، والله تعالى يبارك في الصدقة، ويبارك مال منفقها.

ألا فاتقوا الله ربكم، وراقبوه في أقوالكم وأعمالكم، والتزموا شرعه في أفراحكم وأحزانكم. وصلوا وسلموا على نبيكم محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك ربكم.

٧٨- الربا ضرر وإثم (١) تحريم الربا

٥/٦/١٤١٩هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الإخوة المؤمنون: بناء النفس والأسرة، وإصلاح المجتمع والأمة لا يكون إلا باكتساب، ولا اكتساب بلا عمل، والعمل لا يكون إلا بتعامل مع الآخرين، سواء كان هذا العمل وذاك الاكتساب أخلاقياً أم غير أخلاقياً، مشروعاً أم غير مشروع، وأحكام الإسلام لم تكن

كنظريات الاشتراكية التي ألغت الملكية الفردية، وقتلت إبداع أبنائها، وأدت بهم إلى العطالة والبطالة، وهي كذلك ليست رأسمالية تعطي الحرية المطلقة في الأموال؛ ليسحق الأقوياء الضعفاء، ويكونوا بمثابة العبيد والخدم لهم، والعمال لديهم! كلا، ليست أحكام الإسلام في التعاملات كذلك؛ بل وازنت بين حق الفرد في الملكية الخاصة، وبين حاجة المجتمع بإغلاق منافذ الاستبداد المالي، وفتح أبواب القرض، والإحسان، والصدقة، والمضاربة المشروعة، والاتجار الحلال.

ولقد كان من أعظم أمور الجاهلية، وتعاملاتهم المالية: الكسب بالربا، الذي أعلن النبي صلى الله عليه وسلم إلغائه على مسمع من الناس في حجة الوداع حينما قال: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ثم قال: وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع من ربانا ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله» أخرجه مسلم^(١).

واليهود يتعاملون بالربا، حتى كان أكلهم له سبباً من أسباب عقوبتهم ﴿فَبُظِّلُمْ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدَّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (١٦٠) وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ نَهَوْا عَنْهُ وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ... ﴿[النساء: ١٦٠ - ١٦١].

وجاء الزجر عن الربا في كتاب الله تعالى عنيماً شديداً، فهو من الذنوب العظام القلائل التي وصف اقترافها بمحاربة الله ورسوله!

(١) وهو حديث جابر الطويل المشهور في صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه مسلم في الحج باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم (١٤٧).

وإذا كان قطاع الطريق يحاربون الله ورسوله باغتصاب الأموال، وترويع الأمنين، وإزهاق الأرواح، فإن أكلة الربا يحاربون الله ورسوله بدمار المجتمعات، وتوسيع الفجوة بين الطبقات، نعم! إن أكلة الربا لا يرفعون السلاح كما يرفعه قطاع الطريق، ولا يأخذون المال عنوة أو بالقوة كما يفعل المحاربون؛ ولكنهم يمتصون دماء الفقراء وهم يتسمون لهم، وينتهبون أموال الناس وهم يربتون على أكتافهم!!

إنها محاربة ماثلت في بشاعتها محاربة قطاع الطريق ولكنها أوسع نطاقاً منها، ومخادعة فاقت في قبحها رفع السلاح، وانتزاع الأموال بالقوة، وكل من قطاع الطريق والمتعاملين بالربا أخبر القرآن عنهم بأنهم محاربون لله تعالى، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿[البقرة: ٢٧٨-٢٧٩].

وويل لمن حارب الله تعالى وهو يمشي على أرضه، ويأكل من رزقه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب» أخرجه ابن جرير^(٢)، وفيه عنه رضي الله عنه قال في معنى الآية: «فاستيقنوا بحرب من الله ورسوله»^(٣).

ثم نقل ابن جرير رحمه الله تعالى عن قتادة قوله: «أوعدهم الله

(٢) جامع البيان للطبري (١٠٨/٣).

(٣) جامع البيان (١٠٨/٣).

تعالى بالقتل كما تسمعون فجعلهم بهرجاً أينما ثقفوا»^(٤). ويرى بعض المفسرين أن هذه الآية قد أومأت إلى سوء خاتمة أكلة الربا^(٥). والمتعامل بالربا لم يكتف بما رُزق من مال، ولم يشكر نعمة الله تعالى عليه، فأراد الزيادة ولو كانت إثماً؛ فكان كافراً لنعمة ربه فماله إلى المحق ونزع البركة ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «أي: لا يحب كفور القلب، أثيم القول والفعل، ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله تعالى له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من الكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل» اهـ^(٦).

والتعامل بالربا مخلاً بالإيمان ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرَّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، قال المفسرون: فبين سبحانه أن الربا والإيمان لا يجتمعان^(٧)؛ ولذا كان صاحبه حقيقاً باللعن والطرود من رحمة الله تعالى، قال جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل

(٤) جامع البيان (٣/١٠٨).

(٥) انظر: محاسن التأويل للقاسمي (١/٦٣١).

(٦) تفسير ابن كثير (١/٤٩٣)، عند تفسير الآية (٢٧٦) من سورة البقرة.

(٧) انظر: محاسن التأويل (١/٦٣١).

الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء» أخرجه مسلم^(٨).
وقد عده النبي صلى الله عليه وسلم من التسع الموبقات^(٩)، ثم
عده في السبع الموبقات^(١٠)، وأخبر عليه الصلاة والسلام أنه «ما ظهر
في قوم الربا والزنا إلا أحلّوا بأنفسهم عقاب الله» أخرجه أحمد والحاكم
وصححه^(١١).

وكشف عليه الصلاة والسلام حقيقة الربا، وأبان بشاعته وقبحه،

- (٨) أخرجه مسلم في المساقاة باب لعن أكل الربا وموكله (١٥٩٨).
- (٩) كما في حديث عبيد بن عمير الليثي عن أبيه الذي أخرجه أبو داود في الوصايا باب ما جاء في التشديد في أكل مال اليتيم (٢٨٧٥)، والنسائي في تحريم الدم باب ذكر الكبائر ولفظه: «هن سبع» (٨٩/٧)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٩٥/١)، و(٢٥٩/٤)، والبيهقي في الكبرى (١٨٦/١٠)، والطبراني في الكبير (٤٧/١٧)، برقم: (١٠١)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٨٩٨)، وقال الهيثمي: رجاله موثقون. انظر: مجمع الزوائد (٤٨/١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٠٥).
- (١٠) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري في الوصايا باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠] (٢٧٦٦).
- ومسلم في الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩) والنسائي في الوصايا باب اجتناب أكل مال اليتيم ظلماً (٢٥٧/٦)، وأبو داود في الوصايا باب ما جاء في التشديد في أكل مال اليتيم (٢٨٧٤).
- (١١) أخرجه أحمد (٤٠٢/١)، وأبو يعلى كما في المقصد العلي للهيثمي (١٨٥٩)، وعزاه المنذري والهيثمي لأبي يعلى وجوّداً إسناداً كما في الترغيب (٣/١٩٤)، ومجمع الزوائد (١١٨/٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه الحاكم عن ابن عباس مرفوعاً وصححه ووافقه الذهبي (٣٧/٢).

بما يردع كل مؤمن بالله واليوم الآخر عن مقاربتة فضلاً عن مقارفتة؛ فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عبدالله بن مسعود مرفوعاً: «الربا ثلاثة وسبعون باباً أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه» أخرجه الحاكم وصححه^(١٢)، وروى الإمام أحمد من حديث عبدالله بن حنظلة رضي الله عنه مرفوعاً: «درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ست وثلاثين زنية»^(١٣). فهل شيء أقبح من هذا، وهل بعد هذا الزجر من زجر لأولي الإيمان والبصائر؟!

(١٢) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣٧/٢)، وأخرج الشطر الأول منه «الربا ثلاثة وسبعون باباً» ابن ماجه في التجارات باب التغليظ في الربا (٢٢٧٥)، وأخرجه عبدالرزاق في مصنفه (١٥٣٤٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٢٠١٢)، والطبراني في الكبير (٣٢١/٩)، برقم: (٩٦٠٨) موقوفاً على ابن مسعود بلفظ: «الربا بضع وسبعون باباً» وصححه الألباني في الصحيحة (١٨٧١). (١٣) أخرجه أحمد (٢٢٥/٥)، والدارقطني (٢٨١٩) مرفوعاً، وأخرجه عبدالرزاق في مصنفه (١٥٣٤٨)، وابن أبي شيبة (٢١٩٩٧)، والدارقطني موقوفاً من حديث عبدالله بن حنظلة عن كعب الأحبار به، وقال الدارقطني: «هذا أصح من المرفوع» (١٦/٣)، وقال الحافظ في القول المسدد في الذب عن المسند: «ولا مانع من أن يكون الحديث عن عبدالله بن حنظلة مرفوعاً وموقوفاً» (٤٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٣٣)، وهذا الحديث والذي قبله قد تكلم أئمة الحديث في أسانيدهما، ولهما شواهد كثيرة ضعيفة منها:

- ١- حديث عبدالله بن سلام رضي الله عنه عند عبدالرزاق في مصنفه (١٩٧٠٦).
- ٢- حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عند الطبراني في الأوسط (٧١٥١).
- ٣- حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند ابن ماجه في التجارات باب التغليظ في الربا (٢٢٧٤)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٥٤)، وابن الجارود في المنتقى (٦٤٧).

٤- حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند أبي نعيم في الحلية (٢٤٨/٥)، والطبراني في الكبير (١١٤/١١) برقم: (١١٢١٦) والأوسط (٢٩٦٨) والصغير (٨٢/١)، والشجري في الأمالي (٢٢٩/٢)، والخطيب في تاريخ بغداد (٧٦/٦).

٥- حديث أنس رضي الله عنه عند ابن عدي في الضعفاء (١٠٥٥).

٦- حديث الأسود بن وهب رضي الله عنه عند ابن قانع في معجمه كما ذكر الحافظ في الإصابة (٧٨/١).

٧- حديث عائشة رضي الله عنها عند أبي نعيم في الحلية (٧٤/٥)، والعقيلي في الضعفاء (١٣٠٢).

٨- حديث علي رضي الله عنه موقوفاً عند ابن أبي شيبة (٢٢٠٠٤).

٩- حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند ابن عدي في الضعفاء (١٨٧٦). قال الألباني في السلسلة الصحيحة بعد أن أورد بعض طرقه وشواهده: «وجملة القول أن الحديث بمجموع طرقه صحيح ثابت» (١٨٧١).

وقال ابن الجوزي في الموضوعات (٢٤٨/٢) بعد أن ذكر طرق أحاديث أبي هريرة وأنس وابن حنظلة وعائشة رضي الله عنهم: «واعلم أن مما يرد صحة هذه الأحاديث أن المعاصي إنما يعلم مقاديرها بتأثيراتها، والزنا يفسد الأنساب، ويصرف الميراث إلى غير مستحقه، ويؤثر من القبائح ما لا يؤثر أكل لقمة لا تتعدى ارتكاب نهي، فلا وجه لصحة هذا» اهـ.

واستحسن الشيخ أبو إسحاق الحويني كلام ابن الجوزي هذا في كتابه غوث المكذوب (٢٢٥/٢)، وأعل الحديث أيضاً بالاضطراب في المتن وقال: «وفي متنه اضطراب كثير، فمرة يقول: «الربا سبعون باباً» ومرة: «نيف وسبعون»، ومرة: «ثنتان وسبعون» ومرة: «ثلاثة وسبعون» وأيضاً في متنه: «أشد من ثلاث وثلاثين زنية» ومرة: «خمس وثلاثين» ومرة: «ست وثلاثين»، ومرة: «سبع وثلاثين» ومرة: «تسع وثلاثين» اهـ. والظاهر لي من عمومات النصوص. ومن الواقع المشاهد أن الربا أعظم من الزنا، وقد جاء في ثنايا الخطبة ما يدل على ذلك، والله أعلم.

إن الربا فاق في قبحه وحرمة أنواع الزنا كلها، مع ما في الزنا من فساد الدين والدنيا، فقد سماه الله تعالى فاحشة وساء سبيلاً، ومع ما فيه من خيانة كبرى لزوج المزني بها ووالديها، وأسرتها وما ينتج عنه من فساد الأخلاق، وارتفاع الحياء، واختلاط الأنساب، ووقوع الشكوك، وتبرؤ الزوج من نسب ابن زوجته الزانية، والملاعنة في ذلك، وحدُّ الزاني: الرجم أو الجلد مع التغريب، وعقوبة الزناة في تنور مسجور تشوى فيه أجسادهم!!

رغم ذلك كله فإن الربا أشد تحريماً، وأعظم جريمة، مهما كان الربا قليلاً، كما جاء في الحديث: «درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد عند الله من ستة وثلاثين زنية»^(١٤)، فإذا كان هذا في درهم واحد فكيف بمن يأكلون الألوف بل الملايين؟! وكم هي خسارة من أسس تجارته على الربا، ومن كان كسبه من فوائد الربا، ومن كانت وظيفته كتابة الربا، أو الدعاية له؟! وما هو مصير جسد ما نبت إلا من ربا، وأولادٍ ما أطعموا إلا من ربا، وما عُذوا إلا عليه؟! فما هو ذنبهم أن تبني أجسادهم بالسحت والحرام؟!

أيها الإخوة: إن المتأمل للأحاديث النبوية السابقة يجد أن ثمة علاقة وثيقة بين جريمتي الربا والزنا، وأن الربا أشد جرماً من الزنا حتى إن الدرهم منه أشد من ست وثلاثين زنية، وأن أهونه كأن ينكح الرجل أمه، فما هو السر في ذلك يا ترى؟!

(١٤) انظر: تخريجه في هامش (١٣).

الذي يظهر - والعلم عند الله تعالى - أن من أهم أسباب انتشار الزنا في الأمم تعامل أفرادها بالربا، ودرهم الربا ضرره على الأمة كلها، أما الزنى فضرره مقصور على الزاني والزانية وأسرتها وولدها ولا يتعدى ذلك في الغالب.

إن الطبقة التي يصنعها الربا بين أبناء الأمة الواحدة، والفجوة بين الفقراء والأغنياء التي تزداد اتساعاً وانتشاراً كلما اقترض الفقير ربوا حتى يزداد فقراً إلى فقره، وجوعاً إلى جوعه؛ فيضعف الجوع والفقر غيرته على عرضه.

وما زنت الزانية أول ما زنت إلا لما جاع بطنها، وصاح رضيعها، وربما أمرها وليها بالزنا حتى تطعم أسرتها!! وإذا انكسر حياؤها فلن يجبر مرة أخرى. والواقع يشهد بذلك في كل البلاد التي عمّ فيها الربا، وزال من أفرادها الإحسان؛ حتى أصبح المال في أيدي عدد قليل من عصابات المرايين، وبقية الناس يغرقون في ديونهم، ويموتون جوعاً وفقراً.

فالربا ليس سبباً لوقوع الزنا فحسب، بل هو سببٌ لانتشاره في الأمم، وهو المسؤول عن تحويل كثير من البيوت الشريفة إلى أوكار للدعارة والبغاء، وتحويل نساء عفيفات إلى بغايا متبذلات؛ بسبب الحاجة التي أوجدها انتشار الربا، مع انعدام الإحسان؛ فما وجدت كثير من الأسر الفقيرة مصدراً لتخفيف وطأة الفقر، وشدة الجوع إلا ببيع أعراض بناتهن ونسائهن، نسأل الله العافية.

وقليل من الأسر من يغلب دينُها جوعُها فتموت قبل أن تتأكل بعرضها، ولا سيما في هذه الأزمان المتأخرة، التي قلَّ فيها العلم، وانتشر الجهل، وكثر الفسوق، وسيطرت المادة على عقول كثير من الناس. علاوة على ما في الربا من انتشار البطالة والفقر والجوع، والأحقاد بين أبناء الأمة الواحدة.

ألا فاتقوا الله ربكم، واحذروا الكسب الخبيث، فأيا جسد نبت من سحت فالنار أولى به.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠)﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿[آل عمران: ١٣٠-١٣٢].

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨)﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنَّا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠)﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿[البقرة: ٢٧٨-٢٨١].

أيها الإخوة المؤمنون: الربا من المعاملات التي أجمعت الشرائع السماوية كلها على تحريمه^(١٥)، الآخذ والمعطي فيه سواء؛ كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم^(١٦).

والمتعامل به أخذاً أو عطاءً أو كتابة أو شهادة يبعث يوم يبعث وهو يتخبط في جنونه ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، قال سعيد بن جبیر رحمه الله تعالى: «أكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخنق»^(١٧).

وأما عذابه في البرزخ فكما جاء في حديث المنام الطويل عن سمرة بن جندب رضي الله عنه وفيه قال النبي عليه الصلاة والسلام: «فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة فيأتي ذلك السابح إلى ذلك الذي جمع الحجارة عنده فيفغر له فاه فيلقمه حجراً حتى يذهب به سباحة إلى الجانب الآخر» وذكر في تفسيره في آخر الحديث أن ذلك السابح الناقل للحجارة هو أكل الربا^(١٨).

وأما في القيامة فكيف يقابل أكل الربا ربه، وقد حاربه في الدنيا

(١٥) محاسن التأويل (١/٦٢٩).

(١٦) كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند مسلم في المساقاة باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقداً (١٥٨٤).

(١٧) وجاء مثله عن قتادة والربيع والضحاك والسدي وابن زيد ونحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما. انظر جميع الآثار في جامع البيان (٣/١٠٣).

(١٨) أخرجه البخاري في التعبير باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح (٧٠٣)، ومستلم في الرؤيا باب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم (٢٢٧٥).

حتى يقال له: خذ سلاحك للحرب، ومن يحارب؟! إنه يحارب الله تعالى، وإنها لموعظة لمن كان في قلبه بقية صلاح ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

إن المتعامل بالربا يعزّ عليه الخلاص منه بعد الغرق فيه، لا سيما إذا كانت تجارته كلها مؤسسة عليه، ولا ينجو من ذلك بعد الانغماس فيه، ويبادر بالتوبة والخلاص إلا من وفقه الله تعالى. قد يغتر المبتدئ في حياته، أو الجديد في تجارته، بالقروض الربوية الميسرة، أو بالفوائد المركبة أو البسيطة، التي تتولى كبر الإعلان عنها والدعاية لها المؤسسات الربوية بقصد أكل أموال الناس بالباطل، ولكن حين يغرق ذلك المسكين في الربا ربحاً أو خسارة فلن ينجو بسهولة. نعم! إنه قد يربح الفوائد من الإيداع لكنه سيخسر بركة المال، ولقمة الحلال، ودينه وآخرته، وإن كان مقترضاً فسيجني أغلال الديون مع الإثم والفقر.

والشاب الذي يغريه راتب الوظيفة الربوية، وسيارتها وبعثاتها وميزاتها عليه أن يتذكر أن عاقبة ذلك خسران في الدنيا والآخرة، والرضى بالقليل الحلال خير وأعظم بركة من الكثير الحرام، ولن يندم عبد أكل حلالاً لكنه سيندم إن أدخل في جوفه حراماً ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿[البقرة:

[٢٧٦-٢٧٥].

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم،،،

٧٩- الربا ضرر وإثم (٢) من أضرار الربا

الجمعة ٢٧/٧/١٤٢٠ هـ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المؤمنون: إذا تلوثت الأجواء أصاب كل من يتنفس الهواء نصيب من هذا التلوث، وإذا تكدرت المياه دخل شيء من هذه الكدرة جوف كل شارب منها، وهكذا يقال في كل شيء. حتى الأموال إذا داخلها الكسب الخبيث أصاب المتعاملين بها بيعاً وشراءً وأخذاً وعطاءً شيء من خبثها وسحتها، فكيف إذا كان مبنى الاقتصاد العالمي على

الكسب الخبيث وفق النظرية الرأسمالية التي بنيت على الحرية المطلقة في الأموال، وقررت أن الغاية تبرر الوسيلة، فلا شك والحال هكذا في تلوث الأموال عالمياً بالكسب الخبيث، حتى من حاول الاحتراز والتوقي يصيبه رذاذه وغباره مصداقاً للحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليأتين على الناس زمان لا يبقى فيه أحد إلا أكل الربا، فإن لم يأكله أصابته من غباره» أخرجه أهل السنن إلا الترمذي وصححه الذهبي^(١).

إن المعاملات المالية العالمية في عصر التقدم والحضارة منغمسة في أنواع الربا والكسب الخبيث، الذي غطى غباره جميع أنواع الكسب والاتجار، ومن جرائه نزعت البركات، وحلت العقوبات ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ﴾

(١) أخرجه أبو داود في البيوع والإجازات باب في اجتناب الشبهات (٣٣٣١) والنسائي في البيوع باب اجتناب الشبهات في الكسب (٢٤٣/٧) وابن ماجه في التجارات باب التغليظ في الربا (٢٢٧٨) والحاكم (١١/٢) كلهم من رواية الحسن عن أبي هريرة، وسماع الحسن من أبي هريرة مختلف فيه، ولذا قال الحاكم بعد روايته: «قد اختلف أئمتنا في سماع الحسن عن أبي هريرة فإن صح سماعه منه فهذا حديث صحيح» اهـ والذهبي يرى سماع الحسن هذا الحديث من أبي هريرة حيث قال: «سماع الحسن من أبي هريرة بهذا صحيح» اهـ. انظر: التلخيص برقم (٢١٦٢) وتبع الذهبي في تصحيحه للحديث السيوطي في الجامع الصغير فرمز له بالصحة، انظر: الجامع الصغير (٤٤٤/٢) برقم (٧٥٣١) وذكر ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة رضي الله عنه (٤١/٣) والظاهر أن الألباني لا يرى سماع الحسن من أبي هريرة هذا الحديث؛ ولذا ذكره في ضعيف الجامع وضعفه (٤٨٦٤) وبكل حال فإن وقوع ذلك في هذا الزمن مما يشهد للحديث ويقويه، وهو علم من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم.

الرَّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴿ [البقرة: ٢٧٦]، وفي الحديث الصحيح قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ فَإِنْ عَاقَبْتَهُ تَصِيرُ إِلَى قُلٍّ» أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي^(٢)، والواقعُ يشهد لهذه الحقيقة التي قررتها نصوصُ الشريعة.

أما نزعُ البركات: فالأكثر يشتكي منه في عالم اليوم سواء على مستوى الأفراد أم على مستوى الأمم.

فرغم اختراع الآلة، واستغلال ثروات الأرض، وتنوع الزراعات والصناعات، التي أصبح الإنسان بها ينتج في اليوم مالم يستطع إنتاجه في سنوات من قبل؛ حتى صارت أرقامُ الإنتاج الزراعي والصناعي أرقاماً عالية، إلا أن أكثر سكان الأرض يعيشون فقراً، ولا يجدون كفافاً. وفي كل يوم يموت منهم جموع من الجوع والمرض، فأين هي المنتجات الزراعية والصناعية؟! ولمَ لم تسدَّ جوع الملايين من البشر وهي تبلغ الملايين من الأطنان؟ فما كانت قلةُ إنتاجٍ إذاً؛ ولكنها قلةُ بركة فيما ينتجون ويزرعون ويصنعون.

وأما حلولُ العقوبات: فإن العقوبات المحسوسة المشاهدة التي يعاني منها البشر في عصر الربا من التنوع والكثرة بما لا يُعد، وهناك عقوباتٌ معنوية لا يحس بها أكثر الناس، ومنها: استعبادُ المادة للإنسان بحيث تحولت من كونها وسيلة لراحته وهنائه إلى غاية ينصب في تحصيلها،

(٢) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣٧/٢) وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٢٢/٢) برقم (٥٤٠٥) ثم الألباني في صحيح الجامع (٣٥٤٢).

ثم يشقى بحفظها، ويخشى فواتها، وتلك عقوبةٌ أيُّ عقوبة!! إن الإنسان في العصر الرأسمالي الذي أساسه الربا يريد الاستغناء بالأشياء، فإذا ما استغنى بها سيطر عليه هاجسُ زوالها، بينما كان في السابق يستغني عما لا يستطيع تحصيله، ويقنعُ بما كتب له؛ فيرتاح باله، وتطمئن نفسه. إن سيطرة المادة على الناس، وخوف الفقر والحاجة، وانعدام القناعة التي سادت في عصر الربا والرأسمالية، ليست أخلاقاً ذميمة فحسب؛ بل هي عقوبات وعذابٌ يتألم الناس من جرائها في عصر انتشار الربا، حتى أصبح الفقير يريد الغنى، والغنيُّ يريد أن يكون أكثر ثراءً، والأكثر ثراءً يريد السيطرة على أسواق المال في سلسلة لا تنتهي من الجشع وحبِّ الذات، وكرهية المنافسين. وصار في الناس مستورون لا يقنعون، وأغنياء لا يحسنون ولا يتصدقون إلا من رحم الله تعالى.

وإذا ما استمر العالم على هذا النحو من تفشي الربا، وارتباط المعاملات المالية به فإن النهاية المحتومة: ازدياد الفقر والجوع حتى يهلك أكثر البشر، واجتماع المال في خزائن فئة محدودة من كبار المرابين؛ مما حدا بأحد الاقتصاديين الأوربيين أن يسمي الربا بتجارة الموت حيث يقول: «الربا تجارة الموت، ومن شأنه أن يشعل الرأسماليون الحرب وإن أكلت أكبادهم في سبيل مضاعفة رأس المال ببيع السلاح»^(٣).

وما حطم قيمة الأوراق النقدية، وقضى على أسعار العملات إلا الربا الذي يقوم عبره عصابة من كبار المرابين بضخ المال في عملة من

(٣) انظر: مجلة الاقتصاد الإسلامي عدد (٩١) جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ ص (٧).

العملات ثم سحبه لتقع قيمتها من القمة إلى الحضيض فيصيب الفقرُ شعوباً وأماً لا تملك غير عملتها التي أصبحت لا تساوي شيئاً.

إن المتخصصين في الاقتصاد يقررون أن النقود هي دماء الاقتصاد، والنقودُ السليمة هي التي تجعلُ الاقتصاد سليماً؛ ولكن نقودَ العالم الحالية مريضة بالتضخم الناتج عن الربا، ولا يمكن علاجها إلا بمعالجة التضخم، ولن يعالج إلا بإلغاء فوائد الربا^(٤)، ويكشف هذه الحقيقة عالم من علماء الاقتصاد في البلاد الغربية فيقول: «كلما ارتفعت الفائدة تدهور النقد، فكما يؤدي الماء إلى رداءة عصير البرتقال أو الحليب تؤدي الفائدة إلى رداءة النقود، قد يبدو الأمر أننا نسوقُ تعبيراتٍ أدبية أو أننا نبسطُ المسألة ونسطحها؛ ولكن الحقيقة أن هذه العبارة السهلة البسيطة هي في الواقع معادلةٌ سليمةٌ وصحيحة تدل عليها التجربة ويمكن إثباتها، فالفائدة العالية تُدمرُ قيمة النقود، وتنسف أيَّ نظامٍ نقدي مادامت تزيدُ كل يوم، وتتوقفُ سرعةُ التدمير وحجمه على مقدارِ الفائدة ومدتها» اهـ^(٥).

ولست أظنُّ أن كلامه يحتاج إلى إثبات؛ لأن التداعيات الاقتصادية التي دمرت عملات دولِ الشرق أكبرُ دليل على ذلك. وهكذا صارت عاقبة الربا وإن كثر إلى قلٍ، وما هذه إلا صورةٌ من صورِ المحق التي يسببها الربا لأموال المتعاملين به .

(٤) انظر: مجلة الاقتصاد الإسلامي عدد (١٩٤) محرم ١٤١٨ هـ ص (٥٧) .

(٥) قائل ذلك هو الاقتصادي الألماني جوهان فيليب بتمان مدير البنك الألماني فرانكفورت في دراسة له بعنوان: كارثة الفائدة، ترجمها الدكتور أحمد النجار ونشرت في مجلة الاقتصاد الإسلامي عدد (١٩٤) ص (٥٤) .

وبسبب انتشاره في التعاملات المالية أصبحت البورصات العالمية وكأنها صالة قمار واسعة، ليس الأمر فيها يتصل بالمقامرات غير المحسوبة فحسب، وإنما هناك من يبيع دائماً ما لا يملك، ومن يشتري من دون أن يدفع ثمناً، ومن يتظاهر بأن هناك أسهماً لشركات وما هي في الواقع بشركات، ومن يقيد بالدفاتر مليارات كبيرة دون أن يراها، ودون أن يقابلها رصيد من أي نوع. إنها الفائدة المسؤولة عن المصائب الكبرى في النظام النقدي العالمي، وهي المسؤولة عن التضخم، وهي المسؤولة عن ضياع الأموال وعن عجز دفع المدينين ديونهم^(٦)، فمتى يدركُ الرأسماليون أن نار الربا التي يكتوي بها المقترضون عائدة عليهم بعد انتهائهم منهم في يوم من الأيام ليصطلوا بها؟!

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٥، ٢٧٦].
بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

(٦) تشبيه النظام النقدي في ظل المعاملات الربوية بصالة القمار، وذكر أضرار الفائدة مأخوذ من الاقتصادي الغربي: موريس أليه الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد انظر مقال: الفائدة والركود الاقتصادي في بلاد المسلمين للدكتور جعفر عبدالسلام في مجلة الاقتصاد الاسلامي عدد (١٨٤) ربيع الأول ١٤١٧ هـ ص (٦٨).

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿ [البقرة: ٢٧٨ ، ٢٧٩] .

أيها المؤمنون: تسودُ الأنانية، وحبُّ الذات، وانعدامُ الرحمة كل المجتمعات التي ينتشر فيها الربا؛ فالموسرون المرابون يُقرضون الفقراء المحتاجين بفوائد تزداد مع طول المدة، وشدة الحاجة، مما يجعلهم عاجزين عن السداد، والنتيجة النهائية إما أن يسرقوا لسداد القروض الربوية، وإما أن تصادر أملاكهم وتباع للمقرضين ليعيشوا وأسرهم بقية أعمارهم على قارعة الطريق يتكففون الناس، أو في الملاجئ والدور الاجتماعية؛ مما يكون سبباً في قتل كرامتهم، وحرمان المجتمع من عملهم وإنتاجهم.

إن الربا هو السبب الرئيس لانتحار كثير من المقترضين، وانتشار الجريمة والانتقام بين أصحاب رؤوس الأموال وكبار المرابين، فضلاً عن كون الربا سحتاً يأكله صاحبه ويبنى به جسده وأجساد أهله وأولاده، وهو من السبع الموبقات، وصاحبه مستحقٌ للعنة الله تعالى، ويحشر يوم القيامة مجنوناً يتخبط، ولو لم يكن فيه إلا أن المتعامل به محاربٌ

لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم لكفى في الزجر عنه، والتحذير منه، فاتقوا الله ربكم، واحذروا خبيث الكسب، وخبيث الصدقة؛ فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وأما جسد نبت من سحت فالنار أولى به.

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم.

٨٠- الخمر في الشريعة (١) قصة تحريم الخمر

الجمعة ١٤١٩/٨/١ هـ

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عز وجل؛ فتلك وصية الله لنا ولمن كانوا قبلنا، فوالله لنعم الموصي، ولنعمت الوصية ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

أيها المؤمنون: شريعة الله تعالى بينت الحلال، وبينت الحرام. والمشتبه بينهما أمر العبد باجتنابه؛ استبراء لدينه وعرضه. وما من خبيث محرم ممنوع إلا ويقابله طيبٌ مباح مشروع؛ ليُبلى العبد أيختار الحلال الطيب، أم يرتكس في الحرام الخبيث.

لقد حرم الله السفاح وأباح النكاح، وحرم الربا وأباح الاتجار، وحرم الخمرة وأباح الطيبات من المأكولات والمشروبات، وهكذا يقال في سائر المباحات والمحرمات. ولو التزم الناس شريعة الله تعالى لما

حصل الاختلال والخوف؛ ولما شكوا الناس النقص والجوع؛ ولكن هل يتخلى أهل الحرام عن حرامهم؟ ويتخففون من أوزارهم؟ ويستبدلون الخبيث بالطيب؟!

ما أعسر ذلك على القلوب الضعيفة، والنفوس المريضة، وإلا فصاحب القلب الحي مهما ران عليه من صداً، وعلق به من قدر؛ له يوم تحرره عبرة، وتزجره موعظة، فينتفض انتفاضة عنيفة؛ خوفاً من الله تعالى، وفرقاً من عقابه، ورغبة في ثوابه، فتزيل تلك النفضة كلَّ صداً وقدر علق في قلبه، فلا يعود إلى المحرم مهما كان محبوباً إلى قلبه، ومهما اشتاقت إليه نفسه؛ لأنه غلب محبة الله تعالى على كل محبوب، وفاق شوقه إلى رضوان الله تعالى كل شيء.

والمثل المضروب على ذلك يعود تاريخه إلى عصر الرسالة وتنزل الوحي، حيث صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعظم قدوة، وأفضل أسوة في الامتثال للوحي، وطاعة نبيهم صلى الله عليه وسلم. وأما موضوعه: فكان في منع مرغوب، وتحريم محبوب، وقطع مألوف، لطالما تغنت به العرب، ونظمت فيه شعرها، وسبكت فيه نثرها، وأنفقت في تحصيله درهمها ودينارها! ذلكم هو تحريم الخمر الذي ملكهم حبها كما أسكرهم شربها، قال أنس رضي الله عنه: «حُرِّمَت الخمر ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها، وما حُرِّم عليهم شيء أشدَّ منها»^(١).

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/ ٨٠١).

لذا كانت حكمة الشارع ظاهرة في تحريمها؛ إذ أخذهم بالتدرج في النهي عنها، لقد كانوا يحبونها ويشربونها، ويجمعون عليها، ويتجرون بها، فأشار الله تعالى إلى ذمها إشارة فيها خفاء، حيث ذكرها وذكر معها غيرها، فسكت عنها وأثنى على غيرها، ولا شك في أن ذكر أمرين مقترنين يُثنى على أحدهما ويُسكت عن الآخر فيه مذمة للآخر ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]^(٢)، فذكر السكر وسكت عنه، ووصف الرزق - الذي هو الطعام - بأنه حسن، فكان ذلك إشارة إلى ذم السكر.

ومع ذلك لم تكن الخمر محرمةً فكان الصحابة يشربونها، فيعدوا بعضهم على بعض، ويضرب بعضهم بعضاً، ثم يتفاخرون حتى يقتلوا، وكان عمر رضي الله عنه يرى ذلك ويقول: «اللهم بين لنا في الخمر بياناً شفاءً، فنزلت الآية التي في البقرة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩] الآية، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شفاءً، فنزلت الآية التي في النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣] فكان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقيمت الصلاة ينادي: ألا لا يقربن الصلاة سكران، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شفاءً، فنزلت هذه الآية ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] قال عمر:

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي (٦/٣٥).

انتهينا». أخرجه أبو داود والترمذي وصححه^(٣).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا؛ حتى إذا ثملوا عبث بعضهم ببعض، فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه وبرأسه وبلحيته فيقول: فعل بي هذا أخي فلان، والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما فعل هذا بي، وقال: وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن؛ ف وقعت في قلوبهم الضغائن، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١)﴾ [المائدة] أخرجه الطبراني والحاكم^(٤).

قال الرازي: «والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أن

(٣) أخرجه أحمد (٥٣/١) والترمذي في التفسير باب ومن سورة المائدة وصححه (٣٠٥٣) وأبو داود في الأشربة باب تحريم الخمر (٣٦٧٠) واللفظ له، والنسائي في الأشربة باب تحريم الخمر (٢٨٦/٨) والبيهقي في الكبرى (٨/٢٨٥) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢٧٨/٢) وصححه علي بن المديني كما في تفسير ابن كثير (١٤٨/٢) عند تفسير الآية (٩٠) من سورة المائدة، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، انظر: شرحه على المسند (٣٧٨).
(٤) أخرجه النسائي في الكبرى، كتاب التفسير باب قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ (١١١٥١) والطبري في تفسيره (٣٤/٧) عند تفسير الآية (٩١) من سورة المائدة والطبراني في الكبير (٤٤/١٢) برقم (١٢٤٥٩) والحاكم وسكت عنه، وقال الذهبي في التلخيص: على شرط مسلم (٤/١٤١-١٤٢) وصححه الحافظ في الفتح (١٢/١٤٩) وقال الهيثمي عن رواية الطبراني: ورجاله رجال الصحيح (١٨/٧).

الله تعالى علم أن القوم كانوا ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم بذلك كثيراً، فعلم أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق ذلك عليهم، فلا جرم استعمل في هذا التحريم هذا التدرج وهذا الرفق»^(٥).

وأخذ المنادي ينادي: إن الخمر حرمت، وكان جمع من الصحابة قد اجتمعوا عليها يشربون، فلما سمعوا النداء بتحريمها لم يتوانوا ولم يترددوا؛ بل بادروا بامتنال أمر ربهم وقالوا: «انتھينا، انتھينا»، وقصصهم في الاستجابة لهذا الأمر عديداً ومشهورة.

قال أنس رضي الله عنه: «...إني لقائم أسقيها أبا طلحة وأبا أيوب ورجالاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتنا إذ جاء رجل فقال: هل بلغكم الخبر؟ قلنا: لا؟ قال: فإن الخمر قد حرمت، فقال: يا أنس أرق هذه القلال، فما راجعوها ولا سألوا عنها بعد خبر الرجل» أخرجه البخاري ومسلم واللفظ له^(٦).

وفي رواية لأحمد: «فوالله ما قالوا حتى ننظر ونسأل»^(٧).

وفي رواية لمالك قال أبو طلحة لأنس: «قم إلى هذه الجرار فاكسرها، قال أنس: فقمتم إلى مھراسٍ لنا فضربتھا بأسفلھ حتى انكسرت»^(٨).

(٥) انظر: تفسير الرازي (٣٥/٦).

(٦) أخرجه البخاري في الأشربة باب: نزل تحريم الخمر وهي من البسر والتمر (٥٥٨٢) ومسلم في الأشربة باب تحريم الخمر... (١٩٨٠) (٤).

(٧) ذكره الحافظ في الفتح (٤٢/١٠).

(٨) الموطأ (٨٤٦) وانظر: الاستذكار لابن عبد البر (٣١٩/٥٤) ومن طريق مالك رواه مسلم في الأشربة (١٩٨٠) (٩).

قال الحافظ ابن حجر: «أراقها وكسر أوانيها، أو أراق بعضاً وكسر بعضاً».

وفي رواية للبخاري: «فخرجت فهرقتها فجرت في سكك المدينة»^(٩)، قال المهلب: «إنما صبت الخمر في الطريق؛ للإعلان برفضها، وليُشهر تركها»^(١٠)، وقال الحافظ: «وفيه إشارة إلى توارد من كانت عنده من المسلمين على إراققتها حتى جرت في الأزقة من كثرتها»^(١١).

إن سرعة استجابة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر رب العالمين في تحريم شراب ألفوه واعتادوه، وأحبوه وعشقوه؛ لما يدعوا للدهشة والإعجاب والإكبار، هرقوها وتخلصوا منها، وكسروا جرارها؛ حتى سالت سكك المدينة خمراً فور نزول تحريمها. بل جاء في حديث أبي بريدة: «أن آية الخمر قرئت وهم على خمر يشربون، وبعض القوم شربته في يده قد شرب بعضاً وبقي بعض في الإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا ما في باطيتهم فقالوا: انتهينا ربنا» أخرج ابن جرير^(١٢). وكان تحريمها بعد غزوة الأحزاب بأيام^(١٣). لم يحتاجوا مواعظ خطباء، ولا بيانات علماء، ولا أجهزة إعلام

(٩) رواية البخاري في المظالم باب صب الخمر في الطريق (٢٤٧٤).

(١٠) فتح الباري لابن حجر (١٣٤/٥).

(١١) المصدر السابق (٤٢/١٠).

(١٢) جامع البيان (٣٤/٧) عند تفسير الآية (٩١) من سورة المائدة.

(١٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيتمي (٨٠١/٢).

تنهاهم عن الخمر وتبين لهم أضرارها، ولم يجعلهم يبادرون إلى التخلص منها خوفاً منهم من رجال الحسبة، أو أفراد الشرطة، أو حكم المحكمة!! لم يحتاجوا إلى ذلك كله؛ لأن الرقيب كان داخل قلوبهم؛ ولأن خوفهم كان من الله تعالى لا من المخلوقين، فكفتهم آية واحدة ينادي بها المنادي، فتسيل على إثرها سكك المدينة خمرًا.

كم نسمع من المواعظ، ونتلوا من الآيات؛ فكأننا لا نسمع ولا نقرأ، فنعوذ بالله من فساد النفوس، وموت القلوب!! حُرمت الخمر على المسلمين فكان تحريمها أبداً إلى يوم الدين، ولو سميت بغير اسمها، أو زعموا أن الدواء فيها، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام» أخرجه مسلم^(١٤)، وفي رواية أخرى «كل مسكر خمر وكل خمر حرام»^(١٥).

ومهما كانت نسبة الإسكار فيها قليلة، ولا يسكر منها إلا الكثير؛ فالقليل حرام، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»^(١٦)، وفي حديث آخر: «ما أسكر الفرق منه فملء الكف منه

(١٤) أخرجه مسلم في الأشربة باب بيان أن كل مسكر خمر، وأن كل خمر حرام من حديث ابن عمر رضي الله عنهما (٢٠٠٣) (٧٣-٧٤).

(١٥) المصدر السابق (٢٠٠٣) (٧٥).

(١٦) أخرجه أبو داود في الأشربة باب النهي عن المسكر (٣٦٨١) والترمذي في الأشربة باب ما أسكر كثيره فقليله حرام وقال: هذا حديث حسن غريب (١٨٦٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وأخرجه النسائي في الأشربة، باب تحريم كل شراب أسكر كثيره (٣٠٠ / ٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

حرام»^(١٧)، وأجمع العلماء على أن شرب ما يسكر حرام وفسق وكبيرة من كبائر الذنوب^(١٨)، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اجتنبوا كل ما يسكر»^(١٩)، وفي حديث آخر: «أنهاكم عن قليل ما أسكر كثيره»^(٢٠).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢) ﴿[المائدة].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك

(١٧) أخرجه أحمد (١٣١/٦) وأبو داود في الأشربة باب النهي عن المسكر (٣٦٨٧) والترمذي في الأشربة باب ما أسكر كثيره فقليله حرام وقال: هذا حديث حسن (١٨٦٦).

(١٨) انظر: الاستذكار (٣٢٥/٢٤).

(١٩) أخرجه أحمد (٨٧/٤).

(٢٠) أخرجه أبو يعلى (٥٥/٢) والدارمي (١١٣/٢) وابن الجارود في المنتقى (٨٥٦) وصححه ابن حبان (٥٣٤٦).

عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين .
 أما بعد: فإن مما يُناسبُ ذكره مع تحريم الخمر بلاء ابتلى به كثير
 من المسلمين؛ حتى لا يتورع بعضهم عن إظهاره والمجاهرة به، بل
 وأذية إخوانه به، فيُشعل دخيته في مجمعات الناس حتى ينفث عليهم
 سمومها، وينشر فيهم رائحتها.

وكم أنفق فيها من ماله، وأتلف صحته، وأضر بزوجه وأولاده،
 والمال مال الله ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣] فنسب
 المال إليه؛ لأنه هو المالك سبحانه، فلا يجوز لمسلم أن ينفقه في
 عطب نفسه، وأذية الناس.

والصحة نعمة، أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن من ملكها
 مغبون، فلا يحل للمدخن أن يخل بها من أجل شهوة فاسدة، وقد
 قال الله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] وقال النبي صلى الله
 عليه وسلم: «من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة» أخرجه مسلم^(٢١).
 وأذية المؤمن لا تجوز وفيها وعيد شديد ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ
 وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب]
 فلا يجوز للمدخن أن يدخن في مجامع الناس، ولا أن يضر أهله
 وأولاده بسمومه، ولا أن يعاشر زوجه وهو يدخن، وكم ذكر الأطباء
 من أضرار أتت على الأولاد، وأمراض أصابتهم؛ لأن أباهم كان مدخناً

(٢١) أخرجه مسلم في الإيمان باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه... من
 حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه (١١٠).

حشرهم بسمومه .

أضف إلى ذلك أن الدخان خبيث الرائحة ، خبيثُ العمل في جسد الإنسان ، خبيثُ العاقبة ، وكان من أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم التي أثنى الله بها عليه أنه : ﴿ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

إن إخواننا المدخنين قد ينازعون في خبثه ، ويجادلون في ضرره ؛ ولكن تلك أقوالٌ خالية من أفعال ، فحقيقة الأمر أن أخانا المدخن يُقرُّ بأفعاله أن الدخان خبيثٌ غير محترم ، أوليس المدخن إذا أنهى دخيته ، يرمي بها في الأرض ، ثم يتبعها وطئاً بقدمه !! أترأه يفعل ذلك إذا انتهى من طعامه ؟! كلا ؛ بل يصونه ويرفعه ويحترمه ، فأقرّ بأفعاله أن الدخان خبيث ، ولو أنكر ذلك بلسانه .

أيها الإخوة: وليس المقامُ مقامَ تقريرِ حرمةٍ أو إباحة ؛ لأنه لا شك في حرمة شرعاً وعقلاً واقتصاداً وطباً ؛ ولكنه تذكيرٌ والمؤمن تنفعه الذكرى .

وإذا عُلِمَ ذلك فإنه يجبُ الإنكار على من ابتلي بهذا البلاء ، ويُوْعَظُ بشرع الله تعالى لعله يَذْكُرُ فتنبه الذكرى ، كما يُوعَظُ من اتجر فيه بيع وشراء ؛ لأنه إذا حُرِّمَ استعماله حُرِّمَ بيعه وشراؤه ، والإعانةُ عليه بأي وسيلة .

ومن عجيب ما يذكر أن بعض الدول الغربية أصدرت قراراً بأن أي مريضٍ نتج مرضه عن التدخين ؛ فإن شركاتِ تصنيعِ الدخان تتكفل

بِعلاج ذلك المريض حتى يموت أو يشفى!!

أيها الأخ المدخن: خطابُ الشرع والعقلِ والفطرة يدعوك إلى تركه والتوبة منه؛ فإن أبيت إلا الإضرار بنفسك فحذار أن تؤذي به زوجك وأولادك وإخوانك، واحذر أن تؤذي به مسلماً فيدعو عليك، وأنت لا تسمع دعاءه. ثم فكر في أذيتك للملائكة الكرام الكاتبين، وأذيتك لإخوانك المصلين. وكيف تتلو كتاب الله تعالى ورائحة الدخان تنبعث من فمك، وكيف يلامس لسانك سيجارتك، وأنت به تذكر الله تعالى وتسبحه وتحمده وتدعوه. أسأل الله تعالى أن يعافيك من بلائك، وأن يعصمنا ويحفظنا ما بقينا، ألا وصلوا وسلموا على نبيكم محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك ربكم.

* * *

٨١- الخمير في الشريعة (٢) أضرار الخمير الدينية

الجمعة ٨ / ٤ / ١٤٢٢ هـ

الحمد لله؛ كرم الإنسان بالعقل، وشرفه بالعبادة، وكلفه بحمل الأمانة، وفضله على سائر الحيوان ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ دلت دلائل الشرع والعقل والفطرة على ربوبيته وإلهيته، وأسمائه الحسنى، وصفاته العلى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ أعلم الناس بربه، وأتقاهم له. أنزل الله عليه القرآن، وعلمه الحكمة، وخاطبه بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عز وجل، والعمل للأخرة، والحذر من الدنيا، والتخفف من الذنوب، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا

تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٨﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

أيها المسلمون: العقل السوى يلائم الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والعقل والفطرة يوافقان الشرع الحكيم؛ لأن الذي خلق العقول، وفطر الفطر، هو الذي شرع الشرائع، وتعبد الناس بالديانة. ومن أجل ذلك كان الحفاظ على العقل والفطرة من مقاصد الشرع، ومن الضرورات التي تقدم على غيرها. ولما كانت الخمر مغيبة للعقول، مفسدة للفطر؛ جاءت الشريعة بتحريمها، وقد صحّ في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتي ليلة أسري به بإيلياء بقدرحين من خمر ولبن، فنظر إليهما، ثم أخذ اللبن؛ فقال جبريل: الحمد لله الذي هداك للفطرة، ولو أخذت الخمر غوت أمتك» رواه البخاري^(١)، قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله تعالى: «يحتمل أن يكون صلى الله عليه وسلم نفر من الخمر لأنه تفرّس أنها ستحرم؛ لأنها كانت حينئذ مباحة»^(٢)، وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «ويحتمل أن يكون نفر منها لكونه لم يعتد شربها، فوافق بطبعه ما سيقع من تحريمها بعد؛ حفظاً من الله تعالى له ورعاية»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في الأشربة باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ﴾ [المائدة: ٩٠] (٥٥٧٦).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٣٧/١٠).

(٣) المصدر السابق (٣٧/١٠).

وثبت الشرع على وفق ما اختار النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به؛ إذ حرمت الخمر، وأبيح اللبن، وكان هذا حكماً ثابتاً محكماً إلى قيام الساعة.

ولا يحرم الله تعالى إلا ما فيه ضرر على العباد، والخمر فيها أضرار دينية ودنيوية؛ ولذا قال الله تعالى فيها وفي المسر ﴿وَأْتُمَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] وسماها: رجساً من عمل الشيطان، وأمر باجتنابها؛ وما ذاك إلا لما فيها من أضرار.

قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «ما أبالي شربت الخمر أو عبدت هذه السارية من دون الله عز وجل» رواه النسائي بسند صحيح^(٤). وهذا القول من أبي موسى يعني أنه يعدل شرب الخمر بالشرك بالله عز وجل، ويؤيده حديثان مرفوعان عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم: «من لقي الله مدمن خمر لقيه كعابد وثن»^(٥).

(٤) أخرجه النسائي في الأشربة باب ذكر الروايات المغلطات في شرب الخمر (٨/٣١٤).

(٥) أما حديث ابن عباس رضي الله عنهما فأخرجه أحمد (١/٢٧٢)، وعبدالرزاق في مصنفه (١٧٠٧٠)، والبخاري (٢٩٣٤)، والطبراني في الكبير (١٢٤٢٨)، وأبو نعيم في الحلية (٩/٢٥٣) من طرق عدة عن ابن عباس؛ لكن كل طريق منها ضعيفة، وصححه ابن حبان (٥٣٤٧)، وقال الهيثمي في الزوائد: «رواه أحمد والبخاري والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح إلا أن ابن المنكر قال: حدثت عن ابن عباس» (٥/٧٤) فالراوي عن ابن عباس في رواية أحمد لا يعرف فهو منقطع.

وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه فأخرجه ابن ماجه في الأشربة باب مدمن=

لكن حمله العلماء على من شربها مستحلاً لها، أو أن مراد أبي موسى رضي الله عنه أن الغالب أن الخمر تجر إلى الشرك في عاقبة الأمر فصارت في درجته في نظر المؤمن^(٦).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزل تحريم الخمر مشى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهم إلى بعض فقالوا: حرمت الخمر، وجعلت عدلاً للشرك» قيل: يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾^(٧)، فإن الأنصاب والأزلام من عمل المشركين بتزيين الشيطان فنسب العمل إليه.

قال السمرقندي: «المعنى أنه لما نزل فيها أنها رجس من عمل الشيطان، وأمر باجتنابها، عادلته قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]^(٨).

= الخمر (٣٣٧٥)، والبخاري في التاريخ الكبير (١/١٢٩)، وقال عقب ذكره: «ولا يصح حديث أبي هريرة في هذا». اهـ. قلت: وفي سنده محمد بن سليمان الأصبهاني وهو ضعيف لا يحتج بحديثه. وبكل حال فإن الألباني رحمه الله تعالى قال بعد أن أورد طرقه عن ابن عباس وأبي هريرة: فالحديث بمجموع طرقه حسن أو صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٦٧٧).

(٦) انظر: حاشية العلامة السندي على سنن النسائي (٨/٣١٤).

(٧) أخرجه الحاكم وصححه وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (٤/١٤٤).

(٨) فتح الباري لابن حجر (١٠/٣٤) ولم أعثر عليه في بحر العلوم للسمرقندي.

واستحق متعاطيها بيعاً وشراءً واستعمالاً لعنة الله تعالى؛ كما روى أبو داود من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لعن الله الخمر وشاربها وساقيتها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه» زاد ابن ماجه: «وأكل ثمنها»^(٩).

ولأن شاربها ملعون فإن كمال الإيمان منفي عنه؛ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» رواه الشيخان^(١٠). وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصوم فتحينت فطره بنبيذ صنعته في دباء، ثم أتيته

(٩) أخرجه أبو داود في الأشربة باب العصير للخمير (٣٦٧٤)، وابن ماجه في الأشربة باب لعنت الخمر على عشرة أوجه (٣٣٨٠)، وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه، أخرجه الترمذي في البيوع باب النهي أن يتخذ الخمر خلاً (١٢٩٥)، وابن ماجه (٣٣٨١). قال الحافظ في التلخيص الحبير: رجاله ثقات (٧٣/٤)، وله شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه أحمد (٣١٦/١)، والطبراني في الكبير (١٢٩٧٦)، وصححه ابن حبان (٥٣٥٦)، والحاكم ووافقه الذهبي (١٤٥/٤)، وذكر الترمذي أنه مروي عن ابن مسعود أيضاً.

(١٠) أخرجه البخاري في الأشربة باب ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ﴾ (٥٥٧٨)، ومسلم في الإيمان باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي (٥٧)، وأحمد وأهل السنن وغيرهم.

به، فإذا هو يَنْشُ فقال: «اضرب بهذا الحائط فإن هذا شراب من لا يؤمن بالله واليوم الآخر» رواه أبو داود وابن ماجه^(١١).

ومن شربها فصلاته عليه مردودة أربعين صباحاً؛ لما روى عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من شرب الخمر فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن مات دخل النار، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد وشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن مات دخل النار فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً فإن مات دخل النار، فإن تاب تاب الله عليه فإن عاد الرابعة كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال يوم القيامة» قالوا: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: «عصارة أهل النار» رواه أحمد والنسائي وصححه ابن حبان والحاكم والذهبي^(١٢).

وفي لفظ لابن خزيمة: «لا يشرب الخمر رجلٌ من أمتي فتقبل له

(١١) أخرجه أبو داود في الأشربة باب في النبيذ إذا غلى (٣٧١٦)، والنسائي في الأشربة باب تحريم كل شراب أسكر كثيره (٣٠١/٨)، وابن ماجه في الأشربة باب نبيذ الخمر (٣٤٠٩). ومعنى: ينش أي يغلي، ويقال: نشت الخمر نشيشاً إذا غلت. وهو حديث صحيح.

(١٢) أخرجه أحمد (١٧٦/٢)، والنسائي في الأشربة باب توبة شارب الخمر (٣١٧/٨)، وابن ماجه في الأشربة باب من شرب الخمر لم تقبل له صلاة (٣٣٧٧)، والدارمي (١١١/٢)، والبزار (٢٩٣٦)، وصححه ابن حبان (٥٣٥٧)، والحاكم ووافقه الذهبي (١٤٦/٤).

صلاة أربعين صباحاً^(١٣).

وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في حكمة ذلك: «أن الخمر تبقى في عروقه وأعصابه أربعين يوماً»^(١٤).

ومن أصرّ على شربها في الدنيا حتى مات؛ فإنه يحرم منها في الآخرة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة» رواه الشيخان^(١٥).

قال ابن عبد البر رحمه الله تعالى: «هذا وعيد شديد يدل على حرمان دخول الجنة؛ لأن الله تعالى أخبر أن في الجنة أنهار خمر لذة للشارين، وأنهم لا يصدعون عنها ولا ينزفون» إلى أن قال: «فعلى هذا فمعنى الحديث: جزاؤه في الآخرة أن يحرمها لحرمانه دخول الجنة إلا إن عفا الله عنه.. وجائز أن يدخل الجنة بالعفو، ثم لا يشرب فيها خمرًا، ولا تشتهيها نفسه وإن علم بوجودها»^(١٦)، ويؤيده حديث أبي

(١٣) صحيح ابن خزيمة (٩٣٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٠٩).

(١٤) حاشية السندي على سنن النسائي (٨/٣١٤)، وفي سنن النسائي (٨/٤١٦)

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن من شربها لم تقبل له صلاة ما دام في جوفه أو عروقه منها شيء.

(١٥) أخرجه البخاري في الأشربة باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ

وَالْمَيْسَرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]

(٥٥٧٥)، ومسلم في الأشربة باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر

حرام (٢٠٠٣).

(١٦) قوله عليه السلام: «من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في

الآخرة» يحتمل معنيين:

= الأول: أنه لا يدخل الجنة، وهو قول الخطابي والبغوي؛ لأن الخمر شراب أهل الجنة فإذا حرم شربها دل على أنه لا يدخل الجنة، وقد ذكر الله تعالى خمر الجنة، ويبين أن أهل الجنة لا يصدعون عنها ولا ينزفون، فلو دخلها وحرمها عقوبة له لزم وقوع الهم والحزن عليه، وأهل الجنة لا يهتمون ولا يحزنون. انظر: شرح السنة للبغوي (١١/٣٥٥)، وفتح الباري لابن حجر (١٠/٣٥)، والقول بعدم دخوله الجنة ألبتة مع إيمانه هو قول الخوارج الذين يكفرون المؤمنين بالكبائر، وليس هذا ما يعنيه الخطابي والبغوي وابن عبد البر وغيرهم الذين اختاروا هذا المعنى؛ إذ يحمل كلامهم على المستحل لها، أو أن مقصودهم أنه يستحق دخول النار ابتداءً فلا يدخل الجنة ولا يشرب خمرها إلا إن عفا الله عنه، كما هو مذهب أهل السنة في أهل الكبائر.

الثاني: أنه يحرم من شرب الخمر ولو دخل الجنة، قال القرطبي في المفهم (٥/٢٧٠): قوله: «حرمها في الآخرة» ظاهره تأييد التحريم وإن دخل الجنة فشراب جميع أشربة الجنة من ماء وعسل ولبن، ولا يشرب الخمر» اهـ. ويؤيد هذا القول حديثاً أبي سعيد وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما المخرجان في الهامشين (١٧ - ١٨)، وحديث ابن عمرو نص في المسألة.

قال ابن العربي رحمه الله تعالى: «ظاهر الحديثين أنه لا يشرب الخمر في الجنة، ولا يلبس الحرير فيها؛ وذلك لأنه استعجل ما أمر بتأخيره ووعد به فحرمه عند ميقاته كالوارث فإنه إذا قتل مورثه فإنه يحرم ميراثه لاستعجاله، وبهذا قال نفر من الصحابة ومن العلماء». اهـ من الفتح (١٠/٣٥).

وأما استشكال أنه سيلحقه الحزن والهم لحرماته الخمر، والجنة ليس فيها هم ولا غم فأجيب عنه بأنه ينساها أو لا يشتهيها، ولا يكون ترك شهوته إياها عقوبة في حق؛ بل هو نقص نعيم بالنسبة إلى من هو أتم نعيماً منه كما تختلف درجاتهم في الجنة، ولا يلحق الأدنى منهم حزن وهم وحسد لمن هو أعلى منه اقتناعاً بما أعطي. انظر: المفهم (٥/٢٧٠)، وشرح النووي على مسلم (١٣/٢٥١)، وفتح الباري (١٠/٣٥).

سعيد مرفوعاً: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو» أخرجه أحمد وصححه ابن حبان^(١٧).

(١٧) أخرجه أحمد (٢٣/٣)، والطيالسي (٢٢١٧)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢٤٦/٤)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٩٧٥)، والبغوي في شرح السنة (٣١٠١)، وصححه ابن حبان (٥٤٣٧)، والحاكم ووافقه الذهبي (١٩١/٤). ويؤيد هذا الحديث حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من لبس الحرير في الدنيا لن يلبسه في الآخرة» أخرجه البخاري في اللباس باب لبس الحرير للرجال وقدر ما يجوز منه (٥٨٣٣)، والنسائي في كتاب الزينة من السنن الكبرى باب لبس الحرير (٩٥٨٣ - ٩٥٨٤) وفي آخره زيادة: «ومن لم يلبسه في الآخرة لم يدخل الجنة، قال الله «ولباسهم فيها حرير» هكذا في رواية جعفر بن ميمون عن خليفة بن كعب قال: خطبنا ابن الزبير فذكره، قال النسائي: خالفه شعبه؛ رواه عن ابن ذبيان عن ابن الزبير عن عمه، وفي الرواية الأخرى: شعبة قال: ثنا خليفة قال سمعت ابن الزبير فذكره، وفي آخره قال: قال ابن الزبير «إنه من لبسه في الدنيا لم يدخل الجنة»، وهذا يبين أن هذه الزيادة مدرجة، وأنها من كلام ابن الزبير. وقد نبه على هذا الإدراج الحافظ في الفتح (٣٠١/١٠)، ثم ذكر أن الزيادة الواردة في حديث أبي سعيد «وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو» يحتمل أن تكون مدرجة أيضاً ثم قال: «على تقدير أن يكون الرفع محفوظاً فهو من العام المخصوص بالمكلفين من الرجال؛ للأدلة الأخرى بجوازه للنساء» اهـ.

وإذا سُلّم بأنها مدرجة فلا دليل حيثئذ في حديث أبي سعيد على أن شارب الخمر في الدنيا المصر عليها إلى أن مات يحرم منها في الجنة. ويبقى حديث عبد الله بن عمرو واضحاً في هذه المسألة؛ إذ لا إدراج فيه وهو مرفوع.

وقريب منه حديث عبدالله بن عمرو يرفعه: «من مات من أمتي وهو يشرب الخمر حرم الله عليه شربها في الجنة» أخرجه الإمام أحمد بسند حسن^(١٨).

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يدخل الجنة مدمن خمر» أخرجه ابن ماجه^(١٩).

أيها الإخوة: هذه بعض من أضرار الخمر وهي كثيرة، وشره كبيرة من كبائر الذنوب، وسمها النبي صلى الله عليه وسلم أم الخبائث فقال: «الخمر أم الخبائث» رواه الدارقطني^(٢٠).

(١٨) أخرجه أحمد (١٦٦/٢ - ٢٠٩)، وعزاه البوصيري في مختصر إتحاف السادة المهرة إلى مسدد وابن أبي شيبة (٤٧٥٦)، وعزاه الهيثمي للبخاري والطبراني وقال: ورجاله ثقات كما في مجمع الزوائد (٧٤/٥)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: ورواة أحمد ثقات (١٨٧/٣)، وحسنه الحافظ في الفتح (١٠/٣٥)، وصححه الشيخ أحمد شاکر في شرحه على المسند (٦٩٤٧)، وأطال البحث في سنده والكلام على رجاله في (٦٥٥٦).

(١٩) أخرجه ابن ماجه في الأشربة باب مدمن الخمر (٣٣٧٦)، وحسنه البوصيري في الزوائد من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وله شاهد من حديث أبي موسى رضي الله عنه عند أبي يعلى (٧٢٤)، وصححه ابن حبان (٥٣٤٦)، والحاكم ووافقه الذهبي (١٤٦/٤)، وشاهد ثان من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عند الدارمي (١١٢/٢)، وأحمد (٢٠٣/٢).

(٢٠) أخرجه الدارقطني (٢٤٦/٤) برقم (٤٥٦٣)، والطبراني في الأوسط (٣٨١٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وله شاهد من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه مرفوعاً صححه ابن حبان (٥٣٤٨). وأخرجه موقوفاً على عثمان عبد الرزاق في مصنفه (١٧٠٦٠)،

ومن تأمل أحوال شاربي الخمر أيقن بأنها تقود إلى كل خبيث؛ فهي تُفقد المرء عقله، وإذا فقد عقله كان حرياً بفعل كل فاحشة، وارتكاب كل منكر من قتل وزنى وغير ذلك، وربما وصل الإنسان إلى الكفر بسبب معاقرتها إما استحلالاً لها، وإما استهزاءً بالله تعالى ورسوله وكتابه وشعائره دينه، كما هو واقع كثير ممن أدمنوا عليها؛ ولذلك سماها الله تعالى رجساً من عمل الشيطان، والرجس ضرره متحقق، والشيطان لا يعمل إلا على شقاء بني آدم، وقد أقسم بعزة الله تعالى على أن يغوي البشر.

فاحذر الحذر من الخمر ومجالسها وأهلها؛ فإنها شقاء في الدنيا، وعذاب في الآخرة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠) إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿[المائدة: ٩٠ - ٩٢] بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

= والنسائي في الأشربة باب ذكر الآثار المتولدة من شرب الخمر (٨/ ٣١٥ - ٣١٦)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٨٧ - ٢٨٨).

وله شاهد ثان من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند الدارقطني (٤/ ٢٤٦)، والطبراني في الكبير (١١/ ١٦٤)، والأوسط (٣٢٨٥)، وبمجموع طرقه حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٥٣ - ١٨٥٤).

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،
أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك
عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وأطيعوه، واحذروا غضبه فلا
تعصوه، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

أيها الناس: انتشار الخمر سبب لانتشار الفواحش والمنكرات؛
وذلك يسبب العقوبات من أمراض وخوف وفتنة وغيرها. وما فشت
الخمر في أمة إلا رُفِعَ منها الأمن بسبب ما تفعله في عقول السكارى،
فتكثر جرائم القتل والاعتداء، وحوادث السير وما شاكلها.

ولذلك نادى كثير من مفكري البلاد الغربية بمنع تعاطيها؛ لما رأوا
من أضرارها على أفرادهم وأمتهم.

ولا يمكن أن تكافح الخمر والمخدرات إلا بتقوية الديانة في
قلوب الناس؛ لأن متعاطيها إن لم يقتنع بتركها من داخله فلا النصائح
والتوعية تقنعه، ولا القوة تردعه، والواقع يشهد لهذه الحقيقة في كل
أمة انتشرت فيها هذه السموم.

والقناعة باجتنابها لا توجد بتمامها في التوعية الصحية، أو بيان
مخاطرها، أو ذكر مصير متعاطيها، إذا كان من نريد توعيته ضعيف
الإيمان، قليل الديانة.

ومن هنا فإن الحل الأمثل للقضاء على هذه السموم هو تقوية الإيمان في القلوب؛ وذلك بفتح المجالات الدعوية على مصاريعها، وإعطائها النصيب الأكبر في وسائل الإعلام المختلفة، وعدم الخوف من تدين الناس، والتزامهم بشريعة ربهم؛ ففي ذلك الخير كله.

إن كثيراً من البلاد الإسلامية فشلت في مكافحة هذه السموم؛ لأنها تقوم بتوعية صحية واجتماعية؛ لكنها تجفف منابع الدعوة، وتكافح المناشط التي تدعو الناس إلى التزام الإسلام، وما دامت على هذه الحال فلن تستطيع مكافحتها، وكيف يمكنهم مكافحتها إذا كانت المؤسسات الصحية والاجتماعية تحذرهم منها، ثم ما يلبث الواحد منهم إلا ويرى دعاية لشربها في قناة مرئية أو صحيفة سيارة؟

إن إزالة العقول، والإغراق في الشهوات والملذات هدف استراتيجي لكل أمة تعادي أخرى، تريد القضاء عليها من داخلها، وحرُب الأفيون مشهورة ومعروفة لدى أكثر الناس. ولن يتم إبطال هذا السعي الشيطاني إلا بالإصلاح الداخلي، فكما أن المفسد يُفسد من الداخل، فكذلك الإصلاح لا يجدي إلا إذا كان من الداخل؛ وذلك لا يكون إلا بدعم الدعوة إلى الله تعالى، وجعلها على رأس اهتمامات من يريدون الإصلاح لأمتهم، وحماية أفرادها من مخاطر المسكرات والمخدرات. والتجارب العديدة دلت على ذلك، فحيثما وجد الالتزام بالإسلام في مجتمع ما انعدمت هذه السموم منه.

وفي إحدى الدول النصرانية اعترض بعض المسؤولين على بناء

مسجد في حي من الأحياء، فخرج أهل الحي يطالبون ببناء المسجد، تدعمهم في ذلك الشرطة النصرانية^(٢١)؛ لأنهم اكتشفوا أنه في المكان الذي يبنى فيه المسجد تنخفض معدلات استعمال المخدرات، وارتكاب الجرائم.

وليس عند المسلم شك في دينه أبداً؛ لكن ذكر ذلك هو من باب الاستئناس به، وتقوية إيمان من ضعف إيمانه، ممن لا ينظر إلا إلى النواحي المادية الدنيوية.

ومن زعم مكافحة المخدرات، وهو مع مكافحتها يكافح الدعوة إلى الله تعالى، ويجفف منابعها؛ فهو إما كاذب في زعمه، أو جاهل مركب.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يحفظ شباب المسلمين من هذه السموم، وأن يهديهم صراطه المستقيم، وأن يملأ قلوبهم بالإيمان والحكمة، إنه سميع مجيب.

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم محمد كما أمركم بذلك ربكم.

(٢١) كان ذلك في مدينة (فانكوفر) في كندا؛ إذ عزم المسلمون على بناء مسجد فاعترض اليهود وبعض النصارى في ذلك الحي بحجة الإزعاج لا سيما يوم الجمعة، وأجريت محاكمة في هذا الشأن، وحكم القاضي للمسلمين ببناء المسجد بعد أن شهد عمدة حي آخر مع أحد أفراد الشرطة بأن منطقتهم لما بنى فيها مسجد انخفضت نسبة الجرائم فيها، كما أن الإزعاج الذي زعمه المعارضون يوجد ما هو أشد منه في سكك الحديد الموجودة في نفس الحي، وقد سجلت هذه المحاكمة في شريط فيديو، ووصلت إليّ، واطلعت عليها.

٨٢- الزنى وخطره على الأفراد والأمة

الجمعة ٢٠/٦/١٤١٧هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن دار الدنيا دار بلاءٍ واختبار للعباد. فطريق الجنة فيها قد حُفَّتْ بالمكاره، وطريق النار محفوفة بالشهوات. ونوازعُ الخير والشر تقتتلُ على قلب العبد، بغية الاستيلاء عليه. وأنوار الإيمان وظلام المعاصي والشهوات في صراع مستمر، كلُّ منها يحاول جذب العبد إليه.

والشيطان يدفع العبد إلى طريق النار تحقيقاً لقسمه الذي أقسمه في إغواء بني آدم ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ثُمَّ لَا تَجِدُ فِيهِمْ مَن بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَنْ خَلْفَهُمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف] ﴿وَقَالَ لَا تُخْذِلْنِي مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾

(١١٨) وَلَا أَضْلَنَّهُمْ وَلَا مُنِيَّهُمْ وَلَا مُرْتَهُمْ فَلْيُبْتَكَنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مُرْتَهُمْ فَلْيُغَيِّرُنْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعْدُهُمْ وَيُمْنِيَّهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) ﴿ [النساء]. والعبد في صراع مع نفسه وهواه، يحب الشهوات لكن الإيمان يحول بينه وبينها، فيتركها لله فيكون مأجوراً، وتارة يغلبه الشيطان، وتدفعه نفسه الأمارة بالسوء، فيفعل المعصية فتذهب حلاوتها ويبقى موزوراً.

ومن أعظم أبواب الفساد والهلاك على الأفراد والأمم: جريمة الزنى التي قرنت لشناعتها وقبحها بالشرك والقتل في كتاب الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) ﴾ [الفرقان].

ولعظيم أمر الزنى عند الله تعالى لم يكتف القرآن بالنهي عن مباشرته وملاسته؛ بل جاء النهي عن القرب منه ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) ﴾ [الإسراء]. قال الشاشي: «إذا قيل للإنسان لا تقرب هذا فهذا أكد من أن يقول له لا تفعله». (١)

أخرج الترمذي وحسنه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «كان رجل يقال له: مرثد بن أبي مرثد، وكان رجلاً يحمل الأسرى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، قال: وكانت امرأةٌ بغيةٌ بمكة

يقال لها: عناق وكانت صديقةً له، وأنه كان وعد رجلاً من أسارى مكة يحتمله، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عناق فأبصرت ظلي بجانب الحائط، فلما انتهت إليَّ عرفته فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد. قالت: مرحباً وأهلاً، هلم فبت عندنا الليلة، قلت: يا عناق، حرم الله الزنى، قالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحتل أسراءكم قال: فتبعني ثمانية، وسلكت الخدمة، فانتهيت إلى غار أو كهف، فدخلت فجاءوا حتى قاموا على رأسي، فبالوا فظل بولهم على رأسي، وعمَّاهم الله عني. قال: ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته وكان رجلاً ثقيلاً حتى انتهيت إلى الإذخر ففككت عنه أكبله، فجعلت أحمله ويُعيني، حتى قدمت المدينة، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، أنكح عناقاً؟ مرتين، فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليَّ شيئاً، حتى نزلت ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا مرثد، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك، فلا تنكحها»^(٢).

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة النور، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه (٣١٧٧) والنسائي في النكاح باب تزويج الزانية (٦٦/٦) والسياق للترمذي وأخرجه مختصراً أبو داود في النكاح باب في قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ (٢٠٥١) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٥٣٨).

أيها الإخوة: إن الإيمان يرتفع عن الزاني حال زناه، قال عليه الصلاة والسلام: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» متفق عليه^(٣)، وقال: «إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان فكان على رأسه كالظلة، فإذا انقلع رجع إليه الإيمان» أخرجه أبو داود والحاكم^(٤).

ومن أعظم الزنى: الزنى بحليلة الجار لما فيه من الغدر والخيانة والفساد الكبير، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: إن ذلك لعظيم، ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قلت: ثم أي؟ قال: أن تزني بحليلة جارك» أخرجه الشيخان^(٥).

(٣) أخرجه البخاري في الحدود باب إثم الزناة (٩/٦٨٠) ومسلم في الإيمان باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله (٥٧) وأبو داود في السنن باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨٩) والترمذي في الإيمان باب ما جاء لا يزني الزاني وهو مؤمن (٢٦٢٥) والنسائي في قطع السارق باب تعظيم السرقة (٨/٦٤).

(٤) أخرجه أبو داود في السنة باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٩٠) والترمذي في الإيمان باب ما جاء لا يزني الزاني وهو مؤمن (٢٦٢٥) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/٢٢).

(٥) أخرجه البخاري في التفسير باب قوله تعالى ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ (٤٤٧٧) ومسلم في الإيمان باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده (٨٦).

قال الرازي: «الزنى اشتمل على أنواع من المفسد:
أولها: اختلاط الأنساب واشتباهاها، فلا يعرف الإنسان أن الولد
الذي أتت به الزانية أهو منه أو من غيره، فلا يقوم بتربيته، ولا يستمر
في تعهده؛ وذلك يوجب ضياع الأولاد؛ وذلك يوجب انقطاع النسل،
وخراب العالم.

وثانيها: أنه إذا لم يوجد سبب شرعي لأجله يكون هذا الرجل
أولى بهذه المرأة من غيره لم يبق في حصول ذلك الاختصاص إلا التوابع
والتقاتل؛ وذلك يفضي إلى فتح باب الهرج والمرج والمقاتلة. وكم
سمعنا من وقوع القتل الذريع بسبب إقدام المرأة الواحدة على الزنى!
وثالثها: أن المرأة إذا باشرت الزنى، وتمرت عليه يستقذرها كل
طبع سليم، وكل خاطر مستقيم؛ وحينئذ لا تحصل الألفة والمحبة،
ولا يتم السكن والازدواج؛ ولذلك فإن المرأة إذا اشتهرت بالزنى تنفر
عن مقارنتها طباع أكثر الخلق.

ورابعها: أنه إذا انفتح باب الزنى فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص
بامرأة، وكل رجل يمكنه التوابع على كل امرأة شاءت وأرادت، وحينئذ
لا يبقى بين نوع الإنسان وبين سائر البهائم فرق في هذا الباب^(٦).
ولأن النهي والتنفير من هذه الكبيرة قد لا يكفي في حجز العباد
عنها؛ لأن الشهوة قد تغلب عليهم فيقعون في الزنى؛ كان لا بد من
الردع والترهيب، فصارت عقوبة الزاني المحصن الرجم حتى الموت،

(٦) التفسير الكبير للرازي (٢٠/١٥٨).

وغير المحصن: يجلد مائة جلدة بلا رافة ويُغَرَّبُ عاماً، ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) [النور].

هذا حد الزانية والزاني، وما يجري عليهما في الدنيا من سوء الحال، ودوام الخوف، واضطراب النفس، وخشية الفضيحة. كل ذلك عذاب مقابل شهوة حرام، وعذاب الآخرة أشد وأنكى. فعقوبة الزناة والزواني ما جاء في حديث سمرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث الرؤيا: «... فانطلقنا على مثل التنور فإذا فيه لغط وأصوات، قال: فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا...» فسأل عنهم فقيل: «الزناة والزواني» أخرجه الشيخان^(٧).

فهل تطيق أجسادهم أن توضع في تنور فتشوى، وذلك مقابل ماذا؟ مقابل لحظات زينها الشيطان، واستسلم فيها العبد لهواه، فتورده ذلك التنور. وقد جعل الله له في الحلال عن الحرام سبيلاً، وجعل لشهوته مصرفاً مشروعاً، طريقه الزواج. فهل يأبى إلا أن يكون من أهل ذلك التنور حمانا الله وإياكم وإخواننا المسلمين مما يغضب الله، وأسأله تعالى أن يحفظ مجتمعنا من أن تشيع الفاحشة فيه، إنه سميع مجيب.

(٧) أخرجه البخاري في التعبير باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح (٧٠٤٧) ومسلم مختصراً في الرؤيا باب في تأويل الرؤيا (٢٢٧٥).

وأقول قولِي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد: فاتقوا الله تعالى كما أمر، واجتنبوا الفواحش ما بطن منها وما ظهر.

أيها الإخوة المؤمنون: إنه ما انتشر الزنى في مجتمع إلا كان حرياً بالعذاب، ولا ينتشر الزنى إلا بذهاب الغيرة من الناس، قال عليه الصلاة والسلام: «ما ظهر في قوم الربا والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عز وجل» أخرجه أحمد^(٨).

(٨) أخرجه أحمد (٤٠٢/١) وأبو يعلى في مسنده (٤٩٨١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٣٨٠٩) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أبو يعلى وإسناده جيد (٤/١١٨). وأخرجه الحاكم من حديث سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس به وصححه ووافقه الذهبي (٣٧/٢) وسماك في روايته عن عكرمة مضطرب الحديث. ورمز له السيوطي بالصحة في الجامع الصغير (٧٤٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٩) وحسنه في غاية المرام (٣٤٤).

إن الزنى دمار المجتمعات، وجالب للعقوبات، وناشر للأمراض المهلكة كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «يا معشر المهاجرين خصال خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن... وذكر منها: لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا...» أخرجه ابن ماجه^(٩). وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذه أمراض الزنى تنتشر في بلاد التحلل والحرية، وهذا مرض العصر (الإيدز) يفتكُ بالزناة والزواني وأهل الفواحش والمخدرات.

إن الإحصائيات تثبت أن هذا المرض يتزايد وينتشر بشكل رهيب. والغريب أن حاملَ هذا المرض قد لا يتألم في أول حمله له؛ لكنه يعلم أنه هالك، فيتعذب نفسياً قبل أن يتعذبَ بدنياً. يقول أحد المشاهير وقد أصيب بالإيدز وهو على فراش الموت: «أنا بانتظار القدر، إنه يدق بابي، أستمع إلى صوته من أعماقي، لم أكن أود أن أتعذب هكذا، ومن خلال هذا المرض الإيدز سرطان العصر، ورغم ابتسامات الكثيرين وتهنئتي بالتمائل للشفاء إلا أنني على موعد مع القدر، إنه يدق بابي

(٩) أخرجه ابن ماجه في الفتن باب العقوبات (٤٠١٩) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٣٣-٣٣٤) والبيهقي في شعب الإيمان (٣٣١٤) وابن أبي الدنيا في العقوبات (١١) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/ ٥٤٠). قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢٤٦/٣): هذا حديث صالح للعمل به وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٦).

اللحظات الأخيرة» (١٠).

أيها الإخوة: إن للوقوع في الزنى أسباباً حرمها الإسلام؛ حفاظاً على العباد من الوقوع في تلك الجريمة البشعة، فإطلاق النظر من أسباب الوقوع فيه والله تعالى يقول: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠) [النور]. والنظرة تعمل عملها في القلب حتى تؤدي بصاحبها إلى الفاحشة سواء كانت تلك النظرة مباشرة أم خلف الشاشة لا سيما الفضائيات التي تنشر الفاحشة ومقدماتها.

ومما يؤسف له أن تلك الفضائيات - مع حرمتها على الجميع - أكثر من يشاهدها المراهقون من بنين وبنات. والراعي في المنزل يزعم أنه إنما جلب لهم تلك الفضائيات من أجل إدخال السرور عليهم، وإشغال فراغهم، وهو في واقع الأمر عاجز عن رعايتهم، غير متفرغ لتربيتهم والجلوس معهم، فهو يتنصل من مسؤولياته في التربية، ويتولى أهل الشر والفساد تربيتهم عبر الشاشة، ثم يشتكي بعد ذلك من سوء أخلاقهم، وقلة حيائهم. فهل كان يرجو من تلك الفضائيات أن تجعل من أولاده خياراً صالحين؟!!

ومما كثر التساهل فيه - وهو من أعظم أسباب الزنى - خلوة الرجل بالمرأة، ويكثر التساهل في خلوة نساء المنزل بالسائق، أو خلوة الرجال

(١٠) كيف نواجه الشهوة؟ للشيخ محمد الدويش (١٣).

بالخادمة، ولقد كثرت المشاكل الأخلاقية بسبب ذلك التساهل في الخلوة.

فاتقوا الله ربكم، واحفظوا رعاياكم، من نساء وأولاد. احفظوهم من وسائل الزنى والفاحشة. فالزنى عار وفضيحة في الدنيا، وعذاب أليم في الآخرة، ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

٨٣- العُجْب: مجالاته ومظاهره وعلاجه

الجمعة ١١/٢/١٤١٩هـ

الحمد لله؛ تفرد بصفات الكمال والجلال، وتترزه عن الأشباه والأمثال. أحمدته وأشكره وأتوب إليه وأستغفره. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ الجبارُ الذي لا يرام، والعزیزُ الذي لا يضام، والقيومُ الذي لا ينام، ذو الجلال والإكرام. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ أكمل الأمة خلقاً، وأزكاهاهم خلقاً، أدبه ربه فاتصف بجميل السجايا والطباع، وكريم الخلال والصفات. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه خير آل وصحب ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩] والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الناس اتقوا الله وأطيعوه، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

أيها الإخوة المؤمنون: يحملُ الإنسانُ بين جنبيه من الأخلاقِ والسجايا، والصفاتِ والطباعِ المتشابكة والمعقدة ما يعزُّ على الفهم، ويستعصي على الكشف. ولا يزالُ علماءُ النفس البشرية يقفون عاجزين عن تفسير بعض الظواهر الأخلاقية في الإنسان، صحيحها وخطئها، خيرها وشرها، حسنها وقبيحها.

وإذا كان البشرُ بمصحاتهم ومختبراتهم، وأطبائهم ودارسيهم لا

يزالون عاجزين عن اكتشاف أو علاج كثير من الأمراض العضوية، ومعرفة أسبابها وأبعادها رغم كثرة الأبحاث والتجارب؛ فكيف بأسرار النفس الباطنة من اختلاف الأمزجة، وكيفية التفكير، ومقدار العقول، وصلاح القلوب، وتنوع الطباع، وتباين الأخلاق؛ حتى إنك ترى الصفة وضدها في الكائن البشري الواحد، فمتى تكون هذه ومتى تكون تلك؟! لا يعلم ذلك إلا خالقها وباريها سبحانه وتعالى، وما توصل إليه البشر من علومها فأكثره ظني لا يقطع به، وفيه من الوهم والحدس والتخمين والتخبط شيء كثير.

أيها الإخوة: كانت تلك مقدمة للحديث عن خلقٍ رديءٍ دقيق، يسري في النفس البشرية من حيث لا تعلم، حتى إذا استمكن من قلب صاحبه ذهب به إلى الهلكة والردى، خافه النبي صلى الله عليه وسلم على أمته أكثر من الذنوب. وخلقٌ هذا شأنه فالحذر من الاتصاف به متعين؛ حتى يسلم القلب من مرضه، وينجو العبد من غائلته. والمحاسبة الدائمة تقي العبد من شره بإذن الله تعالى، ومن شر كل خلقٍ رديء، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لو لم تكونوا تذنبون، لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك، العُجْبُ العُجْبُ» أخرجه البزار بإسناد جيد^(١).

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٤٤٧) والعقيلي (١٥٩/٢) وابن عدي (٣١٧/٤) في ترجمة سلام بن أبي الصهباء والبزار كما في كشف الاستار (٣٦٣٣) ومختصر زوائد مسند البزار للحافظ ابن حجر (٢٣٠٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٩/١٠): «وإسناده جيد» وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٥٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

وفي حديث حسن آخر قال عليه الصلاة والسلام «... ثلاث مهلكات: هوى متبع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه»^(٢)، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب» وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب، والجِد والتشمير. والقانط لا يسعى ولا يطلب، والمُعْجَبُ يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى^(٣).

والعُجْبُ: هو الاحساس بالتميز، والافتخار بالنفس، والفرح بأحوالها، وبما يصدر عنها من أقوال وأفعال محمودة أو مذمومة^(٤)، قال ابن وهب: سألت ابن المبارك: ما الكبر؟ فقال: «أن تزدرى الناس». فسألته عن العجب فقال: «أن ترى عندك شيئاً ليس عند غيرك» ثم قال: «لا أعلم في المصلين شيئاً شراً من العجب»^(٥). قال القرطبي رحمه الله تعالى: «إعجاب المرء بنفسه هو ملاحظته لها بعين الكمال مع نسيان نعمة الله، فإن احتقر غيره مع ذلك فهو الكبر المذموم»^(٦).

(٢) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٨٠) ومختصر زوائد البزار (٤٠-٤١) والقضاعي (٣٢٥-٣٢٦-٣٢٧) وأبو نعيم في الحلية (٦/٢٦٨) والطبراني في الأوسط (٥٤٥٢) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٤٥) والسلسلة الصحيحة (١٨٠٢).

(٣) موعظة المتقين من إحياء علوم الدين للقياسي (٣٧٨).

(٤) آفات على الطريق للدكتور السيد محمد نوح (١/١١٧).

(٥) شعب الإيمان (٨٢٦٠) وسير أعلام النبلاء (٨/٤٠٧).

(٦) فتح الباري لابن حجر (١٠/٢٧٢).

وانتشارُ العجب في الناس دليلٌ على فساد الزمان، وعلامةٌ على اقتراب الساعة، وأمانةٌ على وقت العزلة، واجتنابِ الناس وأحاديثهم. وقد ذكر العلماءُ الأحاديث الواردة في ذلك في كتب الفتن والملاحم، قال أبو أمية الشعباني: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت: يا أبا ثعلبة: كيف تقول في هذه الآية ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك، ودع أمر العوام....» أخرجه أبو داود والترمذي^(٧).

وللعجب مجالات متعددة يسري من خلالها إلى قلب العبد من حيث يشعر أو لا يشعر، فحسنُ الصورة، وجمالُ الهيئة، وكمالُ القوة، وتمامُ الصحة، مدعاةٌ لضعيف القلب أن يعجب بصورته أو قوته أو صحته؛ فيكون الهلاك وقد قال قوم عاد ﴿مَنْ أَشَدُّ مَتَابَةً﴾ [فصلت: ١٥] فأهلكهم الله بريح دمرتهم وقوتهم. ولو انتبه المعجب أن زوال ذلك قد يكون في أي لحظة لزال عنه العجب، ويكفيه أن يتفكر في مصيره

(٧) أخرجه أبو داود في الملاحم باب الأمر والنهي (٤٣٤١) والترمذي في تفسير سورة المائدة وقال: حديث حسن (٣٠٥٨) وابن ماجه في الفتن باب قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] (٤٠١٤) والبيهقي في الكبرى (٩٢/١٠) وأبو عمرو الداني في السنن الواردة (٢٩٣-٢٩٤-٢٩٥) والبخاري في شرح السنة (٤١٥٦) والطبراني في الكبير (٢٢٠/٢٢) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣٢٢/٤) وصححه ابن حبان (٣٨٥).

إلى القبر، وقد تشوهت صورته، وتفرقت أوصاله، وذابت قوته، وصار طعاماً لديدان الأرض، وحسبك زاجراً عن ذلك قولُ النبي صلى الله عليه وسلم: «بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه، مرجّلٌ جُمْتَه؛ إذ خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» متفق عليه^(٨).

ومن قبيح الجهل العُجْب بالحسب والنسب حتى يظن صاحبه أنه ينجو بشرف آبائه وأجداده، ومجد أنسابه وأصهاره، متناسياً أن التفاضل عند الله بالتقوى، وأن الناس كلهم لآدم، وآدم من تراب. ثم إن كان شرف آبائه وأجداده بالدين والتقوى، ومكارم الأخلاق؛ فليس من الشرف أن ينزل عن مرتبتهم، ثم يداخله العجب بمآثر غيره، وذلك نوع من التشيع بما لم يعط، وصاحبه كلابس ثوب زور.

وكثرة العدد والعتاد، والمال والمتاع تدعو بعض الضعاف إلى العجب والاستكبار، كما ظلم صاحب الجنة نفسه فقال لصاحبه ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (٣٤) [الكهف] فكانت العقوبة أسرع حيث أحيط بشمره وذهب ما أنفقه فيها. وطبيعة الكفار الإعجاب بالكثرة حيث أخبر الله عنهم أنهم كذبوا المرسلين ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (٣٥) [سبأ]. ولما أعجب المؤمنون بكثرتهم واعتمدوا عليها وقالوا: «لن نغلب اليوم من قلة»^(٩) كانت الهزيمة

(٨) أخرجه البخاري في اللباس باب من جر ثوبه من الخيلاء (٥٧٨٩) ومسلم في

اللباس باب تحريم التبخر في المشي مع إعجابه بشيابه (٢٠٨٨).

(٩) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٠ / ١٠٠).

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (٢٥) [التوبة]، وشاهد العصر يشهد على أن الكثرة ليست بعبرة، فالمسلمون مئات الملايين؛ لكنهم غناء كغناء السيل!! زالت مهابتهم من قلوب أعدائهم، واحتلت أراضيهم، وسرق قدسهم، ونهبت ثرواتهم، وامتهنت كرامتهم، وما زادتهم الكثرة إلا تفرقاً واختلافاً، وتباغضاً وتناحراً.

ومن قبيح العُجب: العُجبُ بالعبادة كثرة أو تنوعاً، وفيه من المنّ على الله تعالى ما فيه، وقد نُهي عنه العبد ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ (٦) [المدثر] قال الحسن رحمه الله تعالى: «لا تمنن بعملك على ربك تستكثره»^(١٠).

وكيف يُعجبُ العاملُ بعمله، وعمله لا يوازي نعمة واحدة من نعم الله تعالى عليه، وهل خلّقه ورزقه وهداه ووفقه إلا الله تعالى؟ وهل هو يطلب إلا رضوان الله، فكيف يمنُّ عليه؟! يقول الشافعي رحمه الله تعالى: «إذا خفت على عملك العجب، فاذكر رضى من تطلب، وفي أي نعيم ترغب، ومن أي عقاب ترهب؛ فمن فكر في ذلك صَغُرَ عنده عمله»^(١١) والندم عقب المعصية خيراً من العجب بعد الطاعة كما قال مطرف بن عبدالله رحمه الله تعالى: «لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحبُّ إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً»^(١٢).

(١٠) تفسير ابن كثير (سورة المدثر) (٤/٦٩١).

(١١) سير أعلام النبلاء (١٠/٤٢).

(١٢) الحلية (٢/٢٠٠) والزهد لابن المبارك (٤٤٨) وعيون الأخبار لابن قتيبة (١/٣٨٤).

وإذا دخل العُجب قلبَ العالم أو طالب العلم أفسد خلقه ودينه، فلا يقبل الحق من غيره لَوْهَمِهِ كمال نفسه، وذلك غالباً فيمن كان عنده سوء نيةٍ أثناء الطلب. قال الذهبي رحمه الله تعالى: «فمن طلب العلم للعمل كسره العلم وبكى على نفسه، ومن طلب العلم للمدارس والإفتاء والفخر والرياء تحامق واختال، وازدرى بالناس، وأهلكه العجب»^(١٣).

وأكثر ما يكونُ ذلك من ضعيف القلب، حينما يجتمع الناس عليه، ويلتفون حوله، ويستلذون بقراءته أو حديثه، ويعجبون من علمه؛ فيأتيه الشيطان بالعُجب حتى يهلكه. وقد دل بعض العلماء على حاجزٍ يحفظ القلب من العُجب، يتمثل في مخالفة هوى النفس؛ لأن العُجب والهوى قرينان، قال عبيدُ الله بنُ أبي جعفر رحمه الله تعالى: «إذا كان المرءُ يحدث في مجلسٍ فأعجبه الحديث فليمسك، وإذا كان ساكناً فأعجبه السكوت فليتحدث»^(١٤).

وليس معنى ذلك أن يترك العبدُ العملَ مخافة العجب؛ فذلك مكر آخر من الشيطان. والسييل الأمثل الموازنة والمجاهدة، والعناية بازدراء النفس، وإصلاح القلب، والتواضع لله تعالى.

وليس من العُجب فرحُ المؤمن بالطاعة؛ بل ذلك من الإيمان، ولكن يخفيها ولا يتحدثُ بها، ويوجلُّ قلبه من عدم القبول، ويُرجع الفضل فيها إلى توفيق الله ورحمته. وقد جاء عن النبي صلى الله عليه

(١٣) سير أعلام النبلاء (١٠/٤٢).

(١٤) المصدر السابق (٦/١٠).

وسلم أنه قال: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» أخرجه أحمد بسند صحيح^(١٥)، والمعجب بعمله لا تسوؤه سيئته، والمؤمن يقوده الفرح بالطاعة إلى مزيد من الطاعات، واكتساب الحسنات، والمسابقة في ميادين الباقيات الصالحات ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

نفعني الله وإياكم بهدي القرآن العظيم، وسنة سيد المرسلين، وأقول قولِي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً يليق بجلال ربنا وعظمة سلطانه، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها الإخوة المؤمنون: العُجْبُ بالعقل والرأي هو البلاء الذي يعم في آخر الزمان عند فشو الفتن وانتشارها، فترى إعجاب كل ذي رأي برأيه. ولو كان رأيه مجانباً للصواب إلا أنه يراه أصوب الصواب.

(١٥) أخرجه الطيالسي (٧) وأحمد (٢٦/١) والترمذي في الفتن باب ماجاء في لزوم الجماعة وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه (٢١٦٥) والحاكم في مواضع وقال: هذه الأحاديث كلها صحيحة متصلة على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٥٨/١-٥٩) و(١٣/٢) والطبراني في الكبير (١٣٨/٨) وصححه ابن حبان (٤٥٧٦) والألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٤).

إصرارٌ على الخطأ، واستبدادٌ بالرأي؛ ينتج عنه استجهاالٌ للغير، وتركٌ للمشورة. يصر على رأيه ولو كان أجهل من حمار أهله، ويستمسكُ بقوله ولو قرر المتخصصون فيما تكلم فيه خلاف قوله، ويجادل بالباطل ولو انعقد الإجماع على خطئه. فكم هو مزعج هذا إذا كان فرداً واحداً في الأمة!! فما ظنكم إذا كثر المختلفون، وتشعبت الآراء، وأصبح كلُّ ذي رأي معجباً برأيه. حينئذ تتشتت الكلمة، وتفترق الأمة، ويعظم الخلاف، وتتحزب الأحزاب ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٣) [المؤمنون].

إن المؤدي إلى ذلك اعتقادُ الكمال، واستحواذُ الشيطان، الذي زين عمل السوء لصاحبه فرآه صاحبه حسناً ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨] (١٦).

وليس ثمة علاجٌ يقطعُ الاختلاف والتباغض إلا أن يربى كلُّ فرد على احترام الآراء الأخرى ما دامت في حدود المشروع، ولا يكن همه الانتصار لرأيه؛ بل يقصد الحق دائماً وأبداً. وأن يتهم كلُّ ذي رأي رأيه، قبل اتهام الآراء الأخرى، ورحم الله الإمام الشافعي إذ يقول: «ما ناظرت أحداً إلا قلت: اللهم أجر الحق على قلبه ولسانه؛ فإن كان الحق معي تبعني، وإن كان الحق معه اتبعته» (١٧).

(١٦) انظر: موعظة المتقين (٣٨١-٣٨٢).

(١٧) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام (١٦٠/٢).

وتبرزُ هذه الظاهرة بشكل مؤذٍ وقبيح حينما يتكلم في أحكام شريعة الله العظمى، ومقاصدها الكبرى من لا يحسن قراءة الفاتحة، ولا يعرف كيف يتوضأ!! إما كاتب صُحُفيٌ يفلسف قضية الولاء والبراء ليقرر أن المسلم والكافر أخوان في الإنسانية، وأن الجنة لا يعقل أن تكون للمسلمين وحدهم!! أو مغنٍ ساقط يشرح كيفية الجهاد بالأغنية، وأنها تبلغ في العدو مقتلاً!! أو ممثل هابط يحكي إسهاماته في إصلاح المجتمع طوال مشواره الفني، وهو بوابة الشر والفساد التي ولج منها الصهاينة والصليبيون لإفساد البيت المسلم.

على هؤلاء وأمثالهم تُطرح بعض القضايا المهمة كالزواج والتعدد والطلاق، والمرأة وحقوقها وواجباتها عبر صحيفة مقروءة، أو اذاعة مسموعة، أو شاشة معروضة؛ ليتحدث فيها من يهرف بما لا يعرف، ويلغ فيها كلُّ ساقط وساقطة، بما يتعارض مع أحكام الشريعة بكل أمن وصفاقة.

وإذا كان أهلُ كلِّ علم من العلوم يحمون فنهم من كلام غير المتخصصين، فأولى أن تصان شريعةُ الله تعالى من ألسن السوق والرعاع، وأقلام العابثين والمنحرفين؛ حتى تقل خطورة إعجاب كل ذي رأي برأيه. وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم، ألا وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك ربكم...

٨٤- عاقبة الظلم

الجمعة ١٦/٦/١٤١٨ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فيا أيها الإخوة المؤمنون: عندما يطغى على المرء حبُّ نفسه ورفعُ ذاته؛ فإن الأنانية والظلم يلزامانه ملازمة الظل؛ إذ لا يحدد معنى العدل والظلم، والخير والشر، والحسن والقبيح، في هذه النفس المريضة إلا الرغبات والأهواء، ومتطلبات تلك النفس الظالمة؛ فلا ترى الحق لأحد إلا في إطار حظوظها ومكاسبها.

إذا أخطأ صاحب تلك النفس فإنه لا يعترف بخطئه، وإذا ظلم فإنه لا يقر بظلمه؛ بل يحدد ميزان الخطأ والصواب، والعدل والظلم نفسه الجامحة، وهواه المتبع. يضع الأمور في غير مواضعها ويظن

أنه قد أحسن، وهو قد أخطأ وظلم. وإذا ساد هذا الفهم المغلوط في أمة من الأمم فإن الهلاك يكون وشيكاً؛ لأن من أعظم أسباب تدمير الأمم وفنائها انتشار الظلم بين أفرادها.

والظلم نوعان: ظلم النفس، وظلم الغير؛ وأعظم الظلم: الشرك كما قال تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) [لقمان]، فإن المشرك جعل المخلوقين في منزلة الخالق فعبدهم وتألَّهُهم، فوضع الأشياء في غير موضعها. وأكثر ما ذكر في القرآن من وعيد الظالمين إنما أريد به المشركون ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٥٤) [البقرة] ثم يليه المعاصي على اختلاف أجناسها من كبائر وصغائر، ويكون العبد ظالماً لنفسه بارتكاب الشرك أو المعاصي؛ لأنه عمل ما يوجب عقوبته فكان ظالماً لنفسه. (١)

ولشناعة الظلم فإن الله تعالى نزه نفسه عنه فقال: ﴿وَمَا أَنَا بِظَالَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (٢٩) [ق] ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٨) [آل عمران] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٤) [يونس] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا...» أخرجه مسلم (٢)، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر

(١) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (٣٦/٢).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه (٢٥٧٧).

رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه...»^(٣)، وجاء الأمر منه صلى الله عليه وسلم بنصر المظلوم فقال عليه الصلاة والسلام: «...ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينه فيه فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره»^(٤).

إن مرارة الظلم شديدة، وإن وطأته على المظلوم عزيمة، وقد يحتمل المرء تلف ماله، أو هلاك ولده، أو ذهاب نفسه؛ لكنه قد لا يحتمل الظلم من الغير؛ لذا كان جزاء الظالم عند الله عظيماً في الدنيا والآخرة.

ففي الآخرة: يفقد الظالم النور يوم القيامة؛ فيتخبط في الظلم جزاءً له على تخبطه في المظلومين في الدنيا، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» أخرجه مسلم^(٥). وإذا كان للظالم أعمال صالحة من صلاة وصيام وقرآن وصدقة وإحسان؛ فإنه يوقف يوم القيامة ليقترض منه المظلومون؛ فيأخذون ثواب أعمال البر التي عملها في الدنيا، قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لادرهم له

(٣) أخرجه البخاري في المظالم باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (٢٤٢٢) ومسلم في البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم (٢٥٨٠).

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم (٢٥٨٤).

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم (٢٥٧٨).

ولامتناع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته؛ فإن فئت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح في النار»^(٦). سيحصل هذا للظالمين يوم القيامة، ولسوف يقتص العباد بعضهم من بعض.

ومن عدل الله سبحانه وتعالى أن كل مظلوم سيقصص من الظالم حتى البهائم يقتص بعضها من بعض، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لتؤدَّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» أخرجه مسلم^(٧).

لذا كان المسلم مأموراً أن يتخلص من الظلم، ويتوب إلى الله في الدنيا، ويرد الحقوق إلى أهلها، ويتحلل من مظلوميه، وإلا فإن الوفاء يوم القيامة من الحسنات والسيئات. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه» أخرجه البخاري^(٨).

(٦) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم (٢٥٨١).

(٧) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم (٢٥٨٢).

(٨) أخرجه البخاري في المظالم باب من كانت له مظلمة عند رجل فحلها له هل يبين مظلمته (٢٤٤٩).

وقد يستهين بعض الناس بالظلم اليسير، وهو عند الله عظيم يوجب النار وحرمان الجنة، وقد نبّه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك؛ لئلا يتهاون العباد بالظلم، يسيراً كان أم كثيراً فقال: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة، فقال له رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يارسول الله؟ قال: وإن كان قضيباً من أراك»^(٩).

فأين الذين يأكلون حقوق العباد ويظلمونهم، ويقتطعون الأموال العظيمة بالإيمان المغلظة الكاذبة، وشهادات الزور، والشفاعات السيئة، والرشوة والتزوير. كل هذه ذنوب عظيمة، فإذا انضم إليها ظلم الغير فكيف ستكون؟! فيالخشارة هؤلاء!! اشترُوا الحياة الدنيا بالآخرة، واستبدلوا المغفرة بالعذاب. إن غفر الله لهم ما بينه وبينهم، فكيف بحقوق العباد التي لا يغفرها الله إلا إذا تنازل أصحاب الحقوق عنها. وكل إنسان يوم القيامة أحوج ما يكون إلى أن يزداد له حسنة وتوضع عنه سيئة، فيا ترى كيف سيتنازل المظلوم عن حسنات كثيرة تؤخذ من الظالم فتضاف إلى رصيده؟ ما أشد غبن هؤلاء لو كانوا يفقهون النصوص الشرعية!!

ومع هذا الوعيد في الآخرة فإن الظالم متوعد بالانتقام منه في الدنيا، وقد يقع العبد في الظلم فلا يعاقبُ سريعاً بل يمهلّه الله تعالى،

(٩) أخرجه مسلم في الإيمان باب وعيد من اقتطع حق المسلم بيمين فاجرة بالنار (١٣٧).

فيتمادى في ظلمه وغيه، ويأمن مكر الله وعقوبته، وما كان الله تعالى لينساه أو يتركه؛ بل يؤخره حتى إذا أخذه لم يفلته، قال النبي عليه الصلاة والسلام «إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢) ﴿[هود] متفق عليه^(١٠)﴾.

أيها الإخوة: اتقوا الظلم، وحاسبوا أنفسكم؛ فإن العبد قد يقع في الظلم وهو لا يشعر أو لا يعلم بأن فعله داخل في الظلم. كأن يكون مديراً أو مسؤولاً فيفضل بعض موظفيه على بعض، إما لقرباتهم منه، أو لمكانتهم في المجتمع، أو لصداقتهم ومجاملاتهم؛ فيعطيهم مالا يعطي غيرهم من المراتب والوظائف والمهام، مع أن غيرهم أكثر كفاءة وإخلاصاً منهم، فهذا من الظلم العظيم.

وقد يستهين أصحاب الشركات والمؤسسات والبيوت بظلم أجرائهم وعمالهم وخدمهم، وتأخير حقوقهم، أو تكليفهم ما لا يطيقون، وذلك من الظلم.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن من الظلم تفضيل بعض الأولاد على بعض، وبعض الزوجات على الأخريات، واشتد تحذيره من ذلك لمظنة كثرة وقوعه.

(١٠) أخرجه البخاري في التفسير تفسير سورة هود باب قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢) ﴿[مرد] (٤٦٨٦) ومسلم في البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم (٢٥٨٣).﴾

ومن الظلم حبسُ الآباء بناتهم عن الزواج أو تزويجهم من غير الأكفاء في الدين والأخلاق. وأكلُ مالِ اليتيم والأرملة ظلم، وعدم توريث النساء أو بخص حقوقهن من الميراث ظلم لا يرضاه الله ورسوله. فاتقوا الله ربكم واحذروا الظلم، وحاسبوا أنفسكم، فعسى أن لا يكون العبد واقعاً في الظلم وهو لا يدري.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنَعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ [إبراهيم] بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد إن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين. أما بعد: فاعلموا أن دعوة المظلوم مستجابة، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه من تلك الدعوة؛ فقال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه «... واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» متفق عليه (١١).

(١١) أخرجه البخاري في المظالم باب الالتقاء والحذر من دعوة المظلوم (٢٤٤٨) ومسلم في الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١٩).

وقد يَعْجَبُ بعضنا إذا علموا أن دعوة المظلوم الفاجر تقبل على الظالم الصالح، فقد يحصل من بعض من فيهم صلاحٌ وزيادةُ عبادة ظلم للغير في أمور مالية أو غيرها، وقد يكون من هؤلاء المظلومين فاجرٌ مقصرٌ في الطاعات مرتكب للمحرمات، فيدعو على ذلك الصالح فيستجيبُ الله دعوته؛ وما ذاك إلا لعظيم حق المظلوم عنده سبحانه وتعالى. وليس فجور العبد مسوغاً لأن يظلم، بل حتى الكافر لا يجوز لأصلح الصالحين أن يظلمه؛ وإذا ظلمه بآء بالإثم، وهذا من عدل الإسلام. أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه»^(١٢).

والواقع يشهد لذلك؛ فما من أحد من الناس في الغالب إلا ويعرف حادثة أو أكثر دعا فيها مظلوم على ظالم فاستجيب له، والحوادث والأخبار في ذلك أكثر من أن تحصر، روى الشيخان عن سعيد بن زيد أن أروى بنت أويس خاصمته في بعض داره فقال: «دعوها وإياها فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من أخذ شبراً من الأرض بغير حق طوقه في سبع أرضين يوم القيامة» اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها، واجعل قبرها في دارها، قال الراوي: فرأيتها عمياء تلتمس الجدر تقول: أصابتنى دعوة سعيد بن زيد، فبينما هي تمشي في الدار

(١٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٤٩/٦) برقم (٢٩٣٦٥) وأحمد في المسند

(٣٦٧/٢) وحسنه الحافظ في الفتح (٣/٣٦٠).

مرت على بئر في الدار فوقعت فيها فكانت قبرها» (١٣).

وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه والياً على الكوفة لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه، فاشتكاها أهل الكوفة ظلماً وعدواناً حتى ادعوا أنه لا يحسن الصلاة، فأرسل رجالاً يسألون عنه، فأتوا عليه معروفاً حتى قام رجل يكنى أبا سعدة فقال: «إن سعداً كان لا يسير في السرية، ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية. فقال سعد رضي الله عنه: أما والله لأدعو بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً قام رياء وسمعة فأطل عمره، وأطل فقره، وعرضه للفتن، وكان بعد إذا سئل يقول: شيخ كبير مفتون أصابتنني دعوة سعد. قال عبد الملك: فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر وإنه ليتعرض للجواري في الطرق يغمزهن» أخرجه الشيخان (١٤).

وأفسدت امرأة على أبي مسلم الخولاني امرأته فدعا عليها فعميت، فأتته فاعترفت وتابت فقال: «اللهم إن كانت صادقة فاردد بصرها فأبصرت» (١٥).

(١٣) أخرجه البخاري في المظالم باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض (٢٤٥٢) ومسلم في المساقاة باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها واللفظ والقصة له (١٦١٠).

(١٤) أخرجه البخاري في الأذان باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت واللفظ والقصة له (٧٥٥) ومسلم في الصلاة باب القراءة في الظهر والعصر (٤٥٣).

(١٥) تاريخ الإسلام للذهبي (١٠٥/٣) وسير أعلام النبلاء (٧/٤).

وأخرج أبو نعيم أن رجلاً كذب على مطرف بن عبد الله وظلمه فقال مطرف: «اللهم إن كان كاذباً فأَمِتْهُ فخر ميتاً مكانه، فرفع ذلك إلى زياد فقال: قتلت الرجل قال: لا ولكنها دعوة وافقت أجلاً»^(١٦). والأخبار في ذلك تطول، والعاقل يكفيه القليل منها، والمحروم لو سيق له الأخبار كلها لم يعتبر بها؛ لاستحكام غفلته، وانطماس قلبه.

والمغبون من يخسر آخرته بعرض من الدنيا قليل، وربما خسر الدنيا مع الآخرة، فقد يطمع في شيء يسير، فيقع في الظلم، فيُدعى عليه في ماله وذريته فيفتقر من بعد الغنى، ويتوحد من بعد الكثرة بسبب دعوة المظلوم التي أوقعه في شراكها الطمع والجشع. ونعوذ بالله من نفوس لا تشبع، وقلوب لا تخشع، وعيون لا تدمع، ودعاء لا يسمع، ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

(١٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/٢٠٦) وانظر: سير أعلام النبلاء (٤/١٨٩).

٨٥- عاقبة الأمن من مكر الله تعالى

الجمعة ٢٨ / ١٠ / ١٤١٧ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الإخوة المؤمنون: التوسعة على العباد في الرزق، وبسط الأمن بينهم، مع صحة وعافية في أبدانهم يعتبره العباد من أعظم النعم، وهو كذلك. بل يجعله البعض دليلاً على رضى الله تعالى عنهم ومحبته لهم؛ فيقودهم ذلك إلى الغرور، ومن ثم ارتكاب المحرمات، والكسل عن الطاعات.

وليس بـلازم أن يكون تتابع النعم على العباد دليلاً على رضى الله تعالى عنهم، ومحبته لهم، بل قد يكون العكس فيستدرجهم بهذه النعم حتى يعجل عذابهم، وقد حقت الخسارة على قوم آمنوا مكر الله تعالى، ومن كانوا كذلك كان عذابهم وشيكاً وهم غافلون ﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (٩٧) ﴿أَوْ أَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ (٩٨) ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٩٩) [الأعراف].

هذه نهاية الجماعة إذا أعطيت ثم عصت ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) [الأنعام].

آمنوا مكره، فأخذهم على حين غرة، ثم أخبر أن أخذهم كان بغتة، قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له، ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأي له ثم قرأ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٤٤) [الأنعام] قال: مكر بالقوم ورب الكعبة، أعطوا حاجتهم ثم أخذوا» وعن قتادة قال: «بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون» أخرجهما ابن أبي

حاتم^(١).

هذا على مستوى الجماعة. أما على مستوى الأفراد، فإن العبد إذا أمن مكر الله فهو حري أن تعجل له العقوبة أو يختم له بالسوء، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج»^(٢).

ماذا ينفع العبد إذا ختم له بالسوء؟ هل ينفعه ولدٌ أو أهل رضي لهم المعصية؟ أو رباهم عليها؟ أم هل ينفعه مالٌ اكتسبه وأنفقه في حرام؟ أم قوةٌ كان يظلم بها الناس؟ أم ترى أن قرناء الذين كانوا يدفعونه إلى المعصية يستطيعون أن يمنعوا الشيطان أن يلقي على لسانه حال احتضاره كلمة تكون بها شقوته أبداً، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال] قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يحول بين الكافر وبين الإيمان، ويحول بين المؤمن وبين المعاصي»^(٣). وقال السدي:

(١) أما أثر الحسن البصري فأخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ كما في الدر المنثور للسيوطي (٢٢/٣) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/٢١٢) وأما أثر قتادة فأخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢/٢١٢).

(٢) أخرجه أحمد (٤/١٤٥) وابن جرير في تفسيره (٧/١١٥) وابن أبي الدنيا في الشكر (٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٤٥٤٠) (٩٢٧٢) وحسن إسناده العراقي في تخريج الإحياء (٤/١١٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦١).

(٣) أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٢/٣٢٨) وعزه السيوطي لابن أبي شيبة وحشيش بن أصرم في الاستقامة وابن جرير =

«يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه»^(٤)، وقال قتادة: هو كقوله ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [١٦] ﴿[ق]﴾^(٤). وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قال: فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها» أخرجه أحمد^(٥).

ولقد أثنى الله تعالى على الراسخين في العلم لإيمانهم وبقينهم ومع ذلك كان من دعائهم ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] فالصالحون مع عملهم الصالح، وتوقيهم للمعاصي يخافون مكر الله، ويخافون ميتة السوء. أما العصاة فإنهم كلما أعطوا نعمة زادوا معصية، يظنون أن عطاء الله

= وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ، وانظر: الدر المنثور (٢/ ٣٢٠) وعزاه ابن كثير لابن مردويه من وجه آخر مرفوعاً وقال: ولا يصح لضعف إسناده، والموقوف أصح (٢/ ٤٦٩).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٦٩).

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ١١٢) واللفظ له، والترمذي في القدر باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن وقال: حديث حسن صحيح (٢١٤٠) وفي الباب عن عبد الله بن عمرو وأم سلمة وعائشة وبلال والنواس بن سمعان وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم وكل هذه الأحاديث في مسند الإمام أحمد رحمه الله تعالى بالفاظ متقاربة.

تعالى لا يكون إلا عن محبة ورضى، وما علموا أن الله تعالى يعطي الكافر وهو لا يرضي منه الكفر ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] قال الحسن: «المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن»^(٦)

فخوف الصالحين في الدنيا مع صلاحهم كان سبباً في أمنهم يوم الخوف، وأمن الفجار في الدنيا مع فجورهم كان سبباً في خوفهم عند الحساب. روى أبوهريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تعالى «وعزتي وجلالي، لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن هو أمني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمتته يوم أجمع عبادي» أخرجه البزار مرسلًا ومسنداً^(٧).
أيها الإخوة: يجب على المؤمن أن لا يغتر بعمله حتى ولو ظهر له أنه من خيار الناس؛ لأنه لا يدري بم يختم له، ولا يعلم على أي حال يقلب الله قلبه، وقد قال العلماء: «إذا كانت الهداية مصروفة، والاستقامة على مشيئته موقوفة، والعاقبة مغيبة، والإرادة غير معلومة،

(٦) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٤).

(٧) أخرجه ابن المبارك في الزهد مرسلًا (١٥٧) ووصله يحيى بن صاعد في روائد الزهد (١٥٨) وأبونعيم من طريق أخرى (٩٨/٦) وذكر الهيثمي أنه مروي عن الحسن مرسلًا وعن أبي هريرة بنحوه، وقال: رواهما البزار عن شيخه محمد بن يحيى بن ميمون ولم أعرفه. وبقية رجال المرسل رجال الصحيح وكذلك رجال المسند غير محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث، انظر: المجموع (٣٠٨/١٠) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٣٢).

فلا تُعْجَبْ بإيمانك وصلاتك وجميع قُرْبِكَ؛ فإنها من محض فضل ربك وجوده، فربما سلبها عنك فوقعت في هوة الندم حيث لا ينفع الندم»^(٨).
وقد قص القرآن علينا خبر ذلك الرجل الذي أنعم الله تعالى عليه بالإيمان، وكان مجاب الدعوة فيما ذكره المفسرون^(٩) ثم سلبه الله الإيمان، فسار في سبيل الشيطان ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)﴾ [الأعراف]، لاحظوا أيها الإخوة قوله تعالى ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إذن هذه القصة ومثيلاتها ما قصت إلا للاعتبار؛ فأين المعتبرون بخبر رجل أعطاه الله الإيمان والدعاء المستجاب، ثم سلبه إياه فكفر بالله تعالى؟! ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ (١٧٧)﴾ [الأعراف].

وكان من المناسب في ختام هذا المثل المضروب أن يُذَكَّرَ عباده بأن الهداية والإضلال بيده سبحانه وتعالى فهو يقلب القلوب كيف يشاء، لا راداً لأمره، ولا معقب لحكمه ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)﴾ [الأعراف].

(٨) الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيتمي (٨٧).

(٩) انظر: تفسير ابن كثير فقد ساق الروايات في ذلك (٤١٨/٢) عند تفسير الآيات (١٧٤-١٧٨) من سورة الأعراف.

فاسألوا الله الثبات حتى الممات، واعتبروا ولا تغتروا، «وإذا ذكرتم بالله فانتهوا»^(١٠)، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخَذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦)﴾ [فاطر] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم واهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن عظمة الله سبحانه وتعالى تدعو العبد إلى خوفه، وإن تقلب القلوب وأخبار الناكسين عن الحق بعدما عرفوه تجعل المؤمن يفرق خشية زيغ القلب بعد الهدى.

وإذا كان المعصومون يخافون ربهم، ولا يأمنون مكره؛ فكيف بسواهم من الخطائين. هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر عن خوف جبريل عليه السلام وهو أفضل الملائكة، ورسول الله إلى الرسل

(١٠) حديث أخرجه البزار عن أبي سعيد المقبري، وذكره الهيثمي في المجمع عن أبي هريرة وضعفه (٢٢٦/١٠) لكن له شاهد عند ابن عدي بإسناد حسن رجاله كلهم ثقات كما قال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣١٩) وحسنه في صحيح الجامع (٥٤٦).

عليهم الصلاة والسلام فيقول: «مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى، وجبريل كالحلس البالي من خشية الله تعالى» أخرجه الطبراني^(١١)، والجلس: هو الكساء القديم الرقيق الذي يوضع على ظهر البعير. أيها الإخوة: ومع حسن عمل سلفنا الصالح، واجتهادهم في العبادة، وتحريمهم للحق، واتباعهم للسنة، وجهادهم في سبيل الله تعالى؛ فإنهم كانوا يخافون من تقلب القلوب، ولا يأمنون مكر ربهم. أخرج الإمام أحمد عن بعض الصحابة أنه بكى، فقالوا له: ما يبكيك؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله عز وجل قبض بيمينه قبضة وأخرى باليد الأخرى وقال: هذه لهذه، وهذه لهذه ولا أبالي» ولا أدري في أي القبضتين أنا^(١٢). وقال عطاء الخفاف: «ما لقيت سفیان الثوري إلا باكياً فقلت: ما شأنك؟ قال: أتخوف أن أكون في أم الكتاب شقياً»^(١٣). وقال سفیان لبعض الصالحين: «هل

(١١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٦٧٩) قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح، انظر: مجمع الزوائد (٧٨/١) وعزاه السيوطي في الخصائص لابن مردويه والطبراني في الأوسط وقال: بسند صحيح عن جابر (١٥٨/١) وحسنه الألباني في تخريجه للسنة لابن أبي عاصم (٦٢١) وفي صحيح الجامع (٥٨٦٤).

(١٢) أخرجه أحمد (١٧٦/٤) وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه عند أبي يعلى (٣٤٥٣) وفي الكامل (٤٨٧/٢) في ترجمة الحكم بن سنان القرشي وذكر الألباني في السلسلة الصحيحة شاهدين له من حديث أبي موسى وأبي سعيد (٥٠).

(١٣) السير (٢٦٦/٧).

أبكاء قط علم الله فيك؟ فقال له ذلك الرجل: تركتني لا أفرح أبداً^(١٤)، وكان رحمه الله يقول: «أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت»^(١٤). وكان مالك بن دينار يقوم ليله قابضاً على لحيته ويقول: «يا رب قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار ففي أي الدارين منزلُ مالك»^(١٤)، وكان نقش خاتم الجنيد: «إن كنت تأمله فلا تأمنه»^(١٥).

إن الأمن من مكر الله تعالى سبيلٌ إلى عذاب الله تعالى، إذا أمنت الجماعة مكره تعالى فانتشرت فيهم المعصية حتى لا تنكر فذلك مؤذنٌ بخراب الديار، ونزول العذاب، كما أهلك الله أقواماً قبلنا كان يعطيهم ويعصونه، فجاء خبرهم في القرآن مثلاً مضروباً للمعتبرين. حكى الله تعالى قصصهم مع أنبيائهم وكيف أنهم كذبوا واستكبروا ﴿وَكَايْنِ مِنْ قُرْيَةٍ عْتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلَهُ فَحَاسِنَاَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَدَبْنَاهَا عَذَابًا نَكْرًا﴾ (٨) فذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ [الطلاق] ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٠) [العنكبوت].

ما ذكر الله تعالى هذه الأخبار، ولا قص هذه القصص للتسلية والعبث، حاشاه تعالى من ذلك كله؛ إنما قصها ليعتبر المؤمنون حينما

(١٤) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/١٥٩).

(١٥) سير أعلام النبلاء (١٤/٦٨).

يقرؤون كتاب الله تعالى فيمرون بها، فيحذرون ما وقع فيه الظالمون المفسدون لئلا يصيبهم ما أصابهم.

أيها الإخوة: يجب أن تُرفض المعصية، وينكر المنكر؛ حتى يكون مرتكبُ الذنب نشازاً بين الناس، قد أتى شذوذاً من القول والفعل. لا أن تطفئ المعصية حتى تصبح واقعاً مألوفاً بين الناس، يُنظر إلى من أنكرها بغرابة وإنكار، وكأنه أتى من القول أو الفعل بهتاناً وزوراً، وهو على الحق المبين. ولن تكون نجاة الجماعة من الهلاك والعذاب إلا بذلك، كما أن نجاة الفرد من خاتمة السوء، وخلاصه من الموت على المعصية لن يكون إلا بهجران المعصية والإقبال على الطاعة.

فاتقوا الله ربكم، واحذروا سخطة الجبار جل وعلا؛ فإنه يمهّل ولا يهمل، ويرجئ ولا ينسى، ثم صلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

التربية والآداب

- | | |
|---------------------------|---------------------------------|
| ٨٦- حسن الخلق | ٩٦- التحلي بالمواساة (٢) |
| ٨٧- التبسم والضحك | ٩٧- الإيثار (١) |
| ٨٨- الأمانة والخيانة | ٩٨- الإيثار (٢) |
| ٨٩- آداب الأكل | ٩٩- الحاء |
| ٩٠- آداب الشرب | ١٠٠- الغيرة بين الشرع والواقع |
| ٩١- أدب الاستئذان | ١٠١- حكم سوء الظن بالمسلم |
| ٩٢- القناعة | ١٠٢- العمل الجاد |
| ٩٣- الشفاعة الحسنة | ١٠٣- أوقات الشباب |
| ٩٤- التزاور في الله تعالى | ١٠٤- الإسراف في الأموال والمتاع |
| ٩٥- التحلي بالمواساة (١) | |

٨٦- حسن الخلق

الجمعة ١١/٥/١٤١٨هـ

الحمد لله ، كما يحمده المتقون ، حمداً يليق بجلال وجهه وعظمة سلطانه ، وأشكره شكراً يزيد نعمه التي لا يحصيها العادون . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ لاذ بحمائه الخائفون ، وتعلق بأذيال رجائه الراجون ، وألح في سؤاله السائلون . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ أدبه ربه فأحسن تأديبه ، ثم أثنى على خلقه فكان خلقه القرآن ، يتلوه في النهار ، ويتجافى جنبه عن مضجعه والناس نيام ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، كانوا في النهار فرساناً وفي الليل قياماً ، يفتنون لربهم ويسجدون ، ويتعبدون ويخشعون ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله تعالى ، واستباق الخيرات ، والمسارة في الباقيات الصالحات ، ومجانبة الموبقات والمحرمات ، والصبر على المكروهات ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠] .

أيها الإخوة المؤمنون: الأخلاق الكريمة ، والصفات الحسنة ، لها اعتبار كبير في دين الله تعالى . وإذا كانت العلاقة بين الخالق والمخلوق تبنى على الإيمان والإخلاص والمتابعة ؛ فإن علاقات المخلوقين فيما بينهم يبنى أغلبها على أساس الأخلاق والسلوك ؛ لذا أخبر النبي صلى الله

عليه وسلم أن البر حسن الخلق^(١). بل جعله من أبواب الخيرية قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً»، وكان يقول: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً» متفق عليه^(٢). وأخبر عليه الصلاة والسلام أن حسن الخلق أفضل ما أعطي المسلم، فعن أسامة بن شريك قال: قالوا: يا رسول الله! ما أفضل ما أعطي المرء المسلم؟ قال: «حسن الخلق» أخرجه أحمد^(٣).

ما كان هذا الاهتمام منه صلى الله عليه وسلم بحسن الخلق إلا لعظيم منزلته عند الله تعالى، كيف! وهو سببٌ للقرب من الله تعالى ونيل محبته، فعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أحبكم إلى الله وأقربكم مني أحاسنكم أخلاقاً...» أخرجه أحمد وصححه ابن حبان^(٤). وقال عليه الصلاة والسلام: «أحبُّ

(١) كما في حديث النواس بن سمعان الذي أخرجه مسلم في البر والصلة باب تفسير البر والإثم (٢٥٥٣).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٩/٢) والبخاري في المناقب باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم (٣٥٥٩) ومسلم في الفضائل باب كثرة حياته صلى الله عليه وسلم (٢٣٢١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٥١٤/٨) وأحمد (٢٧٨/٤) والطيالسي (١٢٣٣) وصححه ابن حبان (٤٧٨) وأخرجه الطبراني في الكبير (٤٦٣) قال الهيثمي في المجمع (٢٤/٨): ورجاله رجال الصحيح.

(٤) أخرجه أحمد (١٩٤/٤) وأبونعيم (٩٧/٣) والبقوي في شرح السنة (٣٣٩٥) وعزاه الهيثمي للطبراني وقال: ورجاله رجال الصحيح (٢١/٨) وصححه ابن حبان (٤٨٢).

الناس إلى الله أحسنهم خلقاً» أخرجه أحمد^(٥).

وحسن الخلق كذلك طريقٌ يوصل إلى كمال الإيمان؛ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» أخرجه أبو داود والترمذي^(٦).

ويعظم شأن الأخلاق الحسنة حتى يكون صاحبها في عبادة دائمة يعادل درجة الصائم القائم مع أنه قد لا يكون مجتهداً في نوافل العبادات لكنه أدرك ذلك بخلقه، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن المؤمن ليدرك بخلقه درجة الصائم القائم» أخرجه أبو داود^(٧).

والأخلاق الحسنة تثقل ميزان العبد في وقت يكون أحوج ما يكون إلى ما يثقل موازينه؛ بل جاء الخبر بأن حسن الخلق هو أثقل الأعمال الصالحة في الميزان، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ما شيء أثقل في

(٥) أخرجه أحمد (٢٧٨/٤) وابن ماجه في الطب باب ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء (٣٤٣٦) والطيالسي (١٢٣٢) والطبراني في الكبير (٤٦٣) وفي الصغير (٢٠٢/١) والحاكم، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد فقد رواه عشرة من أئمة المسلمين وثقاتهم عن زيد بن علاقة ووافقه الذهبي (٣٢٩/٤) وصححه ابن حبان (٤٨٦) والبوصيري في الزوائد (١١٤/٣).

(٦) أخرجه أحمد (٢٥٠/٢) وأبو داود في السنة باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨٢) والترمذي في الرضاع باب ماجاء في حق المرأة على زوجها (١١٦٢) وصححه ابن حبان (٤٧٩) والحاكم ووافقه الذهبي (٣/١).

(٧) أخرجه أحمد (٩٤/٦) وأبو داود في الأدب باب في حسن الخلق (٤٧٩٨) والبخاري في شرح السنة (٣٥٠١) وصححه ابن حبان (٤٨٠).

ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن» أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح^(٨).

وحسن الخلق كذلك من أقوى الأسباب التي تدخل الجنة فقد سئل النبي عليه الصلاة والسلام: ما أكثر ما يُدخلُ الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله وحسنُ الخلق» قيل: فما أكثر ما يدخل الناس النار؟ قال: «الجوفان: الفم والفرج» صححه الترمذي والحاكم وابن حبان^(٩).

ويعطى صاحب الخلق الحسن بيتاً في أعلى الجنة جزاءً لترقيته في معالي الأخلاق ومكارمها فقد روى أبو أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محققاً، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه^(١٠)، فهنيئاً لمن جمع هذه البيوت كلها.

(٨) أخرجه أحمد (٤٤٦/٦) وابن أبي شيبة (٥١٦/٨) وأبو داود في الأدب باب في حسن الخلق (٤٧٩٩) والترمذي في البر والصلة باب ما جاء في حسن الخلق وقال: حسن صحيح (٢٠٠٣).

(٩) أخرجه أحمد (٢٩١/٢) والترمذي في البر والصلة باب ما جاء في حسن الخلق وصححه (٢٠٠٤) وابن ماجه في الزهد باب ذكر الذنوب (٤٢٤٦) وصححه ابن حبان (٤٧٦) والحاكم ووافقه الذهبي (٣٢٤/٤).

(١٠) أخرجه أبو داود في الأدب باب في حسن الخلق (٤٨٠٠) والترمذي في البر والصلة باب ماجاء في المراء من حديث أنس رضي الله عنه نحوه وحسنه (١٩٩٣).

وقد ورد أن المرأة إذا تزوجت عدة مرات في الدنيا، فدخلت الجنة ودخل أزواجها الجنة فإنها تخير، فتختار أحسنهم خلقاً.^(١١)

أيها الإخوة: واستعراضُ النصوص الدالة على فضل حسن الخلق ومكانته في الإسلام، وتعداد مزاياه لا يكفيه وقت قليل. لكن كانت تلك أمثلة وأدلة تنير الطريق للسائرين، على أنه لم يتوقف فضله على ما يكون في الآخرة من حساب وجزاء؛ بل شمل الدنيا أيضاً؛ فمُلْكُ قلوب الناس، ونيلُ محبتهم إنما يكون بالأخلاق الحسنة، قال الأشعث ابن قيس يوماً لقومه - وكان سيدهم - : «إنما أنا رجل منكم، ليس فيَّ فضلٌ عليكم؛ ولكنني أبسط لكم وجهي، وأبذلُّ لكم مالي، وأقضي حقوقكم، وأحوطُ حريمكم، فمن فعل مثل فعلي فهو مثلي، ومن زاد عليَّ فهو خير مني، ومن زدت عليه فأنا خير منه»، قيل له: يا أبا محمد، ما يدعوك إلى هذا الكلام؟ قال: «أحضهم على مكارم الأخلاق».^(١٢) وقد جاء في حديث فيه ضعف أن الخلق الحسن ذهب بخيري الدنيا والآخرة^(١٣).

(١١) جاء ذلك في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عند الطبراني والبخاري كما في كشف الأستار (١٩٨٠) ومختصر زوائد البزار لابن حجر (١٦٨٧) وذكر ذلك ابن القيم في إعلام الموقعين وذكر السفاريني حديثاً عن أم سلمة في ذلك مع حديث أنس وضعفهما، انظر: غداء الألباب (١/٣٦٥).

(١٢) غداء الألباب (١/٣٦٧).

(١٣) كما في حديث أنس رضي الله عنه المخرج في هامش (١١) وضعفه السفاريني (١/٣٦٥).

إذا تقرر هذا الفضل في الخلق الحسن فما هو؟ وما كيفية إدراكه؟ حتى يحصل المسلم على ثوابه؟!

سئل الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن حسن الخلق فقال: «أن لا تغضب ولا تحتد»، وقال أيضاً: «أن تحتمل ما يكون من الناس»^(١٤). وإنما جعل حسن الخلق في عدم الغضب والحدة؛ لأن الغضب والحدة يولدان الاعتداء باليد، والجرح باللسان سباً وشتماً، وقد يولدان الغيبة والنميمة والكذب وكل ذلك يتنافى مع حسن الخلق. وقال الحسن وابن المبارك رحمهما الله تعالى: «هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى»^(١٥).

وقال الواسطي رحمه الله تعالى: «هو أن لا يخاصم ولا يخاصم من شدة معرفته بالله»^(١٦).

ونقل الحافظ ابن رجب عن بعض أهل العلم قوله: حسن الخلق: «كظم الغيظ لله، وإظهار الطلاقة والبشر إلا للمبتدع والفاجر، والعفو عن الزالين إلا تأديباً أو إقامة حد، وكف الأذى عن كل مسلم أو معاهد إلا تغيير منكر أو أخذاً بمظلمة لمظلوم من غير تعد»^(١٧). قال السفاريني: «وهذا في غاية التحقيق... ثم ذكر أن من حسن الخلق: أن يحب»

(١٤) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٤٥٦/١).

(١٥) جامع العلوم والحكم (٤٥٦/١).

(١٦) موعظة المتقين للقاسمي (٢٦٧).

(١٧) انظر: جامع العلوم والحكم (٤٥٤/١) وغذاء الألباب (٣٦٩/١).

للمسلمين ما يحب لنفسه، وأن يتواضع لهم، ولا يفخر عليهم، ولا يختال... ولا يتكبر ولا يعجب، وإن تكبر عليه غيره فليحمل منه ذلك، ويعامله باللين، ويغض الطرف عن أهل الرقاعة من المتكبرين، وأن يوقر الشيخ الكبير، ويرحم الطفل الصغير، ويعرف لكل ذي حقه حقه، مع طلاقة الوجه، وحسن التلقي، ودوام البشر، ولين الجانب، وحسن المصاحبة، وسهولة الكلمة، مع إصلاح ذات بين إخوانه، وتفقد أقرانه وأخذانه، وأن لا يسمع كلام الناس بعضهم في بعض، وأن يبذل معروفه لهم لوجه الله لا لأجل غرض، مع ستر عوراتهم، وإقالة عثراتهم، وإجابة دعواتهم، وأن لا يقف موقف التهم، وأن يحلم عن جهل عليه، ويعفو عن ظلم...» اهـ^(١٨)

أيها الإخوة: هذا وزن حسن الخلق في دين الله تعالى، وهذه حدود الأخلاق الحسنة وصفاتها. فليزن كل منا أخلاقه بميزانها، فمن كان سيئ الخلق فليحسن خلقه، ومن كان ذا خلق حسن فليحمد الله تعالى ويسأله الثبات.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴿ [فصلت] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا عباد الله اتقوا الله وحسنوا أخلاقكم؛ فإن أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق، والبذاءة والفحش وسوء الخلق تدل على قلة التقوى.

أيها المؤمنون: لقد كان من أهداف بعثة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، قال عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» أخرجه أحمد والحاكم وصححه^(١٩). وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلزوم الأخلاق الحسنة، ومجاهدة النفس على التحلي بها، وليس عذراً لصاحب الخلق السيئ أن يقول: طبعٌ جبلت عليه؛ إذ إن من الأخلاق ما هو مكتسب يؤخذ بالدربة والرياضة. ودليل ذلك أن معاذاً رضي الله عنه لما أراد سفراً قال: يا رسول الله، أوصني، قال: «اعبد الله ولا تشرك به شيئاً، قال: يا رسول الله، زدني، قال: «إذا أسأت فأحسن» قال: يا رسول الله،

(١٩) أخرجه أحمد (٣١٨/٢) والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣) وابن سعد (١)

(١٩٢) والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٦١٣/٢).

زدني قال: «استقم ولتَحَسِّنْ خَلْقَكَ» أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي^(٢٠)، وفي حديث آخر قال له: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(٢١). فهذا يدل على أن منه ما هو مكتسب يربي الإنسان نفسه وأهله وأولاده عليه.

واسمعوا إلى هذا الكلام الجميل تعليقاً على هذا الحديث من الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى، قال: «وقوله صلى الله عليه وسلم: «وخالق الناس بخلق حسن» هذا من خصال التقوى، ولا تتم التقوى إلا به، وإنما أفرد بالذكر للحاجة إلى بيانه؛ فإن كثيراً من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحق الله دون حقوق عباده، فنصَّ له على الأمر بإحسان العشرة للناس، فإنه كان قد بعثه إلى اليمن معلماً لهم ومفقهاً وقاضياً، ومن كان كذلك فإنه يحتاج إلى مخالقة الناس بخلق حسن ما لا يحتاج إليه غيره ممن لا حاجة للناس به ولا يخالطهم. وكثيراً ما يغلب على من يعتني بالقيام بحقوق الله، والانعكاف على محبته وخشيته وطاعته إهمالُ حقوق العباد بالكلية، أو التقصيرُ فيها، والجمعُ بين القيام بحقوق الله وحقوق عباده عزيز جداً لا يقوى عليه إلا الكَمَلُ من الأنبياء والصديقين»^(٢٢).

(٢٠) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٥٤/١).

(٢١) أخرجه أحمد (١٥٣/٥) والترمذي في البر والصلة باب ماجاء في معاشره

الناس وقال: حسن صحيح (١٩٨٧) والطبراني في الكبير (٢٠/٢٩٥) وفي

الصغير (٥٣٠) والقضاعي في مسند الشهاب (٦٥٢) والحاكم (٥٤/١).

(٢٢) جامع العلوم والحكم (٤٥٤/١).

أيها الإخوة: كم يحتاج الناسُ منا إلى حسن الخلق!! إننا لن نسع الناس بأموالنا ولا بجاهنا ولكن يسعهم منا حسنُ أخلاقنا. لا يريد من يتعامل معنا منا إلا الكلمة الطيبة، والابتسامة الجميلة، والتعامي عن الهفوة، وتلمس العذر.

يحتاج إلى حسن أخلاقنا والدانا حتى نحقق برهما ونحوز رضاهما. ومن أحق الناس بحسن أخلاقنا أهلونا وأولادنا حتى نعينهم على القيام بحقنا وبرنا، كما يحتاجه إخواننا وقربائنا حتى تدوم المودة، وتحقق الصلة. وحسنُ الأخلاق مع الجيران هو من إكرام الجيران والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره» (٢٣).

ومن أشد الناس حاجة إلى الأخلاق الحسنة من يكثر تعاملهم مع الناس، وتشتد حاجة الناس إليهم، من العلماء وطلاب العلم لحاجة الناس إليهم في الفتيا والسؤال عن أمور الدين، والقضاة لفصلهم في النزاعات والخصومات، والمسؤولين والمدراء لكثرة تعامل من هم تحت إداراتهم معهم.

ويجب أن يتحلى بالخلق الحسن من كان في مواجهة جماهير الناس،

(٢٣) قطعة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أحمد (٢٦٧/٢) والبخاري في الأدب باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٦٠١٨) ومسلم في الإيمان باب الحث على إكرام الجار والضيف... (٤٧) وأبي داود في الأدب باب في حق الجوار (٥١٥٤).

وتشتد الحاجة إليهم كالأطباء والموظفين في الدوائر التي يكثُر مراجعوها .
فعلِيهم بالصبر والمصابرة وأن يُحسِّنوا أخلاقهم للناس ، ولا تكن كثرةُ
المراجعين سبباً لسوء أخلاقهم ؛ فذلك امتحانٌ لهم .

وكم من موظف ومسؤول نال محبة الناس بحسن أخلاقه !! وكم
من آخر كرهه الناس لسوء خلقه ، وجانبوه لفحشه !! وكم من موظف
دَخَلَ عليه في حاجة لك فلم يقضها لك ؛ لكنه أزال ما في قلبك ،
وشفى صدرك بكلمة طيبة ، وابتسامة جميلة ، واستقبال حسن .

وكم من موظف كانت لك عنده حاجة فقضاها ؛ لكنه كان عبوس
الوجه ، مقطب الجبين ، إذا نظر نظر شزراً ، وإذا تكلم تمطط في كلامه
يلقي إليك أوراقك بطرف أصابعه ، وربما لم يرد عليك السلام حين
ألقيته عليه كأنما ينفق عليك أو يرزقك . فما موقفك من هذا وقد قضى
حاجتك ، وما موقفك من الأول وهولم يقض حاجتك .

إنك أحد هذين الرجلين وأنت تقبع خلف مكتبك فاختر لنفسك
ما شئت ، وعامل الناس كما تحب أن يعاملوك به ، واعلم بأنه لا يبقى
للعبد في الدنيا إلا الذكر الجميل ، فكن حسن الأخلاق مع الناس حتى
تنال محبة الله تعالى ومحبتهم ، وحتى تذكر بخير حياً وميتاً ، اللهم كما
حسنْتَ خلقنا فحسنْ أخلاقنا ، اللهم صلِّ على محمد وآله وأصحابه
أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

٨٧- التبسم، والضحك، وإضحاك الناس

الجمعة ٢٢/١١/١٤١٨ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) ﴿آل عمران﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١) ﴿النساء﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الإخوة المؤمنون: اليسر والسماحة، والبشر والسعادة، والتبسم والبشاشة؛ صفات ملازمة لمن آمن بالإسلام وصدق إيمانه بالقول والعمل. ذلك أن الإسلام بعيدٌ عن العسر والتشديد فمن التزمه كان سمحاً يسيراً. وكيف لا تكون السعادة للمؤمن وقد آمن في الدنيا والآخرة! وسلم من التخبط في دياجير الظلم، وسار على هدى من

ربه، وهدي إلى صراط مستقيم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٨٢) ﴿[الأنعام].

وأما التبسم والبشاشة فكيف تفارق وجه المؤمن، وهو ينال بها عند الله أجراً عظيماً، وتكتب صدقة يرجو ثوابها في يوم كان عسيراً؟ قال النبي عليه الصلاة والسلام: «تبسمك في وجه أخيك صدقة..» أخرجه الترمذي وحسنه (١).

عمل قليل، لا يحتاج بذل مال، ولا قوة جسد؛ وإنما طلاقة وجه، وانبساط نفس، وتبسم شفة، ويكتب ذلك عند الله صدقة.

وهذا التبسم والانبساط معروف يجب أن لا يحتقره المسلم، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تكلم أخاك ووجهك إليه منبسط» أخرجه أحمد (٢).

قال ابن حبان رحمه الله تعالى: «البشاشة إدام العلماء، وسجية الحكماء؛ لأن البشر يطفى نار المعاندة، ويحرق هيجان المباغضة. وفيه

(١) أخرجه أحمد (١٦٨/٥) والترمذي في البر باب ما جاء في صنائع المعروف وقال: حسن غريب (١٩٥٦) والبخاري في الأدب المفرد (٨٩١) وصححه ابن حبان (٤٧٥-٥٢٩).

(٢) أخرجه أحمد واللفظ له (١٧٣/٥) والترمذي في الأطعمة باب ما جاء في إكثار ماء المرقعة (١٨٣٣) وصححه ابن حبان (٤٦٨-٥٢٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وفي معناه حديث أبي جري جابر بن سليم رضي الله عنه عند الطيالسي (١٢٠٨) وأحمد (٦٤/٥) وأبي داود في اللباس باب ما جاء في إسبال الإزار (٤٠٨٤) والبعث في شرح السنة (٣٥٠٤) وغيرهم.

تحصين من الباغي، ومنجاة من الساعي. ومن بشّ للناس وجهاً لم يكن عندهم بدون الباذل لهم ما يملك». اهـ^(٣)

ولأن البشر والتبسم من الأخلاق العالية، ومن صفات الكرام، كان أحقّ الناس به رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جُبل على مكارم الأخلاق، وأدباً على محاسن الصفات؛ لذا كان دائم البشر، كثير التبسم؛ حتى قال عبدالله بن الحارث رضي الله عنه: «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم» أخرجه الترمذي وحسنه^(٤).

وكان عليه الصلاة والسلام يضحك أحياناً حتى تبدو نواجذه؛ ولكن الغالب من أحواله التبسم. قال جرير بن عبدالله رضي الله عنه: «ما حجّني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت ولا رأيي إلا ضحك» وفي رواية «إلا تبسم» أخرجه الشيخان^(٥). وجاء في عدد من الأحاديث يحكى الصحابة في مناسبات عديدة حاله أنه ضحك حتى بدت نواجذه^(٦).

(٣) روضة العقلاء (٦١).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٠) والترمذي في المناقب من جامعه وحسنه (٣٦٤٥) وفي الشمائل كما في مختصرها للألباني وصححه (١٩٤).

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٣٥٨) وابن أبي شيبة (١٢/ ١٥٢) والبخاري في الأدب باب التبسم والضحك (٦٠٨٩) ومسلم في فضائل الصحابة باب فضل جرير بن عبدالله (٢٤٧٥) والترمذي في المناقب باب مناقب جرير بن عبدالله (٣٨٢١) وابن حبان (٧٢٠٠).

(٦) كما في حديث أبي ذر عند مسلم في الإيمان (١٩٠) والترمذي في صفة جهنم (٢٥٩٩) وحديث ابن مسعود عند البخاري في التوحيد ومسلم في الإيمان (١٨٦) =

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وكان جُلُّ ضحكك التبسم؛ بل كله التبسم؛ فكان نهاية ضحكك أن تبدو نواجذه، وكان يضحك مما يُضحك منه...» اهـ^(٧)

وقد فرق العلماء بين التبسم والضحك والقهقهة، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «والضحك انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور، فإن كان بصوتٍ وكان بحيث يُسمع من بعد فهو القهقهة وإلا فهو الضحك، وإن كان بلا صوت فهو التبسم»^(٨).

والذي يظهر من مجموع الأحاديث أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يزيد في معظم أحواله عن التبسم، وربما زاد على ذلك فضحك، والمكروه في ذلك إنما هو الإكثار منه أو الإفراط، لأنه يُذهب الوقار.^(٩)

ومن وصايا النبي صلى الله عليه وسلم: عدم كثرة الضحك لئلا يموت القلب فقد قال عليه الصلاة والسلام: «وَأَقْلُ الضَّحْكِ فَإِنْ كَثُرَ

= والترمذي في صفة جهنم (٢٥٩٨) وابن ماجه في الزهد (٤٣٣٩) وحديث سعد بن أبي وقاص عند أحمد (١٨٦/١) والترمذي في الشمائل كما في مختصره للألباني (١٩٩) وقد ساقها وغيرها الترمذي في الشمائل تحت باب: ما جاء في ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، انظر: مختصر الشمائل (١٢٠) وانظر: فتح الباري باب الأدب (٥١٨/١٠).

(٧) زاد المعاد في هدي خير العباد (١٨٢).

(٨) فتح الباري (٥٢٠/١٠).

(٩) فتح الباري (٥٢١/١٠).

الضحك تमित القلب» أخرجه ابن ماجه وحسنه البوصيري^(١٠).
 ففي كثرة الضحك مخالفةٌ للسنة، وإماتةٌ للقلب، ونقصانٌ في
 الهيبة، ويدل على غفلة صاحبه. قال عمر رضي الله عنه: «من كثر
 ضحكك قلت هيبتك». ^(١١) وقال المارودي: «وأما الضحك فإن اعتياده
 شاغلٌ عن النظر في الأمور المهمة، مذهلٌ عن الفكر في النوائب الملمة،
 وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار، ولا لمن وسم به خطر ولا مقدار». ^(١٢)
 إذا تقرر ذلك - أيها الإخوة - فإن عادة إضحاك الناس بالنكت أو
 الطرائف، أو الأخبار أو الحكايات، أو الأفعال أو الحركات؛ عادة ذميمة
 عدّها أكثر العلماء من خوارم المروءة، ومن أسباب ردّ الشهادة. ويشد
 قبح ذلك، ويلزم تحرّيمه إذا كان فيه سخرية بأحد، أو كان الطريق إلى
 إضحاحهم الكذب، وقد جاء فيه الوعيد الشديد، قال النبي عليه الصلاة
 والسلام: «ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويل
 له، ويل له» أخرجه أبو داود والترمذي^(١٣).

(١٠) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب الورع والتقوى (٤٢١٧) وحسنه البوصيري

في مصباح الزجاجة (٣/ ٣٠٠) والألباني في صحيح الجامع (٧٨٣٣).

(١١) أدب الدنيا والدين للمارودي (٤٤١).

(١٢) المصدر السابق (٤٤٠).

(١٣) أخرجه أبوداود في الأدب باب في التشديد في الكذب (٤٩٩٠) والترمذي

في الزهد باب فيمن تكلم بكلمة ليضحك بها الناس (٢٣١٦) وحسنه الألباني

في صحيح الجامع (٧١٣٦).

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن يتحدث بين الناس بكلام وحكايات مفتعلة كلها كذب؟ فقال: «أما المتحدث بأحاديث مفتعلة ليضحك الناس أو لغرض آخر؛ فإنه عاصي لله ورسوله... ثم ذكر الحديث في ذلك وقال: وبكل حال ففاعل ذلك مستحق للعقوبة الشرعية التي تردعه عن ذلك». ^(١٤) ونقل عنه رحمه الله قوله: «وتحرم محاكاة الناس للضحك ويُعزَّرُ هو ومن يأمره؛ لأنه أذى». ^(١٥)

أيها الإخوة: إن دائرة إضحاك الناس قد اتسعت عن حدود الأقوال والحركات، وصار همُّ الصنعة الإعلامية جذب الناس إليها ولو كان بالكذب أو السخرية أو الهزل، أو الإسفاف والاستخفاف بعقول المتابعين لها سواء كانت الوسيلة الإعلامية مقروءة أم مسموعة أم مشاهدة. فالمقروء منها لا يُستغرب أن يُنشر فيه مقالة هزلية، أو خبرٌ سخيفٌ مكذوب، أو رسمٌ ساخرةٌ مصنوعة، والمقصود جذبُ القراء وإضحاكهم دون النظر للاعتبارات الشرعية أو الأخلاقية.

وفي المسموع والمشاهد ما لا يعد ولا يحصى من مشاهد الهزل والكذب والسخرية، إما مقلدٌ لأصوات آخرين، أو حاكٍ لأفعالهم، أو سارد للنكت الوضيعة المستقذرة.

ويجمع ذلك كله ما يسمونه بالتمثيل الكوميدي والمسرحي الذي

(١٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٥٥/٣٢).

(١٥) حاشية الروض المربع (٤٢٤/٣) عن المروءة وخورمها لأبي عبيدة مشهور ابن حسن آل سلمان (١١٤).

يحتوي أقوالاً وأفعالاً يأنف منها صاحبُ العقلِ السوي، والخلق المستقيم. والعجيبُ أن هؤلاء الهزلين والمهرجين يُرفعُ مقامهم ويعلى ذكْرُهم؛ حتى صدّق الواحدُ منهم أنه صنع للأمة مجداً، وتقدم بها نحو الحضارة. ويتربى أولادُ المسلمين على ثقافةٍ تصنعها هذه النماذجُ الوضيعة من الممثلين والمهرجين!!

قال الغماري: «لا يشكُّ عاقل، ولا يمتري فاضل في أن التمثيل منافٍ للمروءة والعقل، منابذٌ للأخلاق والفضيلة، لا يرضاه ذو نفس شريفة، ولا همّةً أيّة، فضلاً عن ذي دين ومروءة؛ بل لا يرضاه لنفسه إلا دَسُّ الأصل، وضيع النفس، ساقط المروءة، فاقْدُ الشعور والكرامة، سخيْفُ العقل، قليلُ الدين أو ذاهبٌ بالكلية، كما هو المشاهد من الممثلين، فإننا لا نرى في دور التمثيل ذا أهل وكرامة ودين ومروءة... وإنما نرى في دور التمثيل أولئك السقطاء الذين تسمحُ لهم نفوسهم الوضيعة بوقوفٍ تلك المواقفِ الشائنة المخزية، وتساعدُهم عقليتهم السخيفة أن ينصبوا أنفسهم ضحكةً للضحاكين، وهُزْأَةً للساخرين، بائعين بذلك العرض والشرف، والكرامة والأخلاق، والدين والمروءة والفضيلة، ضارين بالجميع عرض الحائط» اهـ^(١٦)

أيها الإخوة: المروءة من مقاصدِ الشرع، وخوارمها من مسقطات الشهادة قضاءً، والشرعُ يأمرُ بمعالِي الأخلاق، وينهى عن سفاسفها.

(١٦) انظر: إقامة الدليل على حرمة التمثيل للغماري (٥) والمروءة وخوارمها (٢٢٠).

فكم رأى الراؤون الممثل يفعل بنفسه الأفاعيل في أي عضو من أعضائه وفي حركاته وصوته، واختلاج أعضائه؛ بل يمثل دورَ مجنونٍ أو معتوهٍ أو أبله وهكذا، وقد نص الفقهاء في باب الشهادة على سقوط شهادة المضحك والساخر والمستهزئ وكثير الدعابة، وهذا منتشر في كلام الفقهاء من المذاهب الأربعة وغيرهم. ^(١٧)

ومما يؤسف له أن الهزل غلب على الجد عند كثير من الناس؛ فصار همهم أن يلهوا ويضحكوا. تجمعات ليلية، تُقضى في الغيبة والكذب والتمسخر بهذا، والتندر بذاك، ومشاهدة التمثيل والتهرج.

ضيعوا بيوتهم وأولادهم، وتنصلوا من مسؤولياتهم، وتركوا مصالحهم من أجل الهزء والسخرية، واللهو والضحك. فأى عقول يحملها هؤلاء، وأي رسالة سيبلغونها، وأي مجد وحضارة ستكون على أيديهم.

لماذا يُراد أن يتساوى المسلم مع الكافر في اللهو والعبثية؟! والواجب أن لا يستويان أبداً. فالمسلم صاحب هدف نبيل، ورسالة عظمى، لا تؤدي إلا بالحزم والجد. وأما الكافر فدينه يحتم عليه أن يلهو في الدنيا، ويضحك قدر المستطاع؛ لأنه لن يضحك في الآخرة.

أيها الإخوة: ولا يفهم من هذا الكلام الدعوة إلى أن يعيش المسلم كئيباً، أو يتسم بالعبوس؛ ولكن نريد شيئاً من الجدية، فلقد غلب الهزل على حياة الناس، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على الفراغ. وليس ضرورياً أن يكون فراغ الوقت؛ ولكنه فراغ العقل من العلم والثقافة

(١٧) التمثيل للعلامة الشيخ بكر أبو زيد (٣٥) وانظر: المروءة وخوارمها (٢٢٠).

حتى اشتغل بما لا ينفع من الهُزءِ والسخرية .
ومع بالغ الأسف فإن الأمم الأخرى تخطط وتبني وتعمل ، وأبناء المسلمين يعيشون حياة اللهو والضحك رغم تأخر المسلمين في كثير من المجالات . فنسأل الله تعالى أن يعفو عنا ، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً ، وأن يهدينا صراطه المستقيم إنه سميع مجيب ، وأقول قولِي هذا وأستغفر الله لي ولكم وللمسلمين فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم .

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - لعلكم تفلحون ، فالتقوى طريق الخير والفوز في الدنيا والآخرة ، ولن يُخْذَلَ عَبْدٌ آمَنَ ثُمَّ اتَّقَى ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ [يونس] .

أيها الإخوة المؤمنون: لا بد أن ننطلق في فرحنا ومرحنا من شرع الله تعالى حتى ننال الأجور ، ونسلم من الوقوع في المحذور . فالضحك من علامات السرور ؛ ولكن سرور المؤمن لا يكون طاغياً على عقله ،

بحيث لا يملكُ جوارحه وتصرفاته، أو يكون الضحك سمة من سماته .
وفي المقابل يُنهى المؤمن أن يكون عبوس الوجه، مقطب الجبين،
والخيرُ في ذلك هديُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو التبسمُ
دائماً، والضحكُ أحياناً من دون قهقهة، والقهقهة من خوارم المروءة
التي ترد بها الشهادة^(١٨).

والنفس تحتاج إلى مجاهدة من أجل بلوغ منزلة الوسط، بين الإفراط
والتفريط. قال الذهبي رحمه الله تعالى: «ينبغي لمن كان ضحوكاً
بسّاماً أن يُقَصِّرَ من ذلك، ويلومَ نفسه حتى لا تمجّه الأنفس. وينبغي
لمن كان عبوساً منقبضاً أن يتبسم، ويُحسِّن خلقه، ويمتق نفسه على
رداءة خلقه، وكل انحرافٍ عن الاعتدال فمذموم، ولا بد للنفس من
مجاهدة وتأديب». اهـ^(١٩)

وبعد - أيها الإخوة - فهذا بعض ما يقال في الضحك والتبسم،
وليحذر كلُّ مؤمن أن يعتمد إضحاك الناس بكثرة حتى لا يقع في الكذب،
أو الغيبة، أو السخرية بالناس؛ فويل لمن فعل ذلك، ويل له، ثم ويل
له، وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال: «ألا هل عسى رجل منكم أن يتكلم بالكلمة يضحك بها
القوم فيسقط بها أبعد من السماء. ألا هل عسى رجل منكم يتكلم بالكلمة
يضحك بها أصحابه فيسخط الله تعالى بها عليه لا يرضى عنه حتى

(١٨) المروءة وخوارمها (١٤٧).

(١٩) سير أعلام النبلاء (١٠/١٤١).

يدخله النار»^(٢٠)، فاتقوا الله ربكم، واحذروا أن تضحكوا الناس بسخط الله تعالى، وترفعوا عن كثرة الضحك؛ فإن كثرة الضحك تميم القلب، وجانبوا مجالس اللهو والضحك، وتبسموا في وجوه إخوانكم؛ فإن ذلك صدقة لكم.

ألا وصلوا وسلموا على النبي المختار محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك ربكم.

* * *

(٢٠) عزاه المنذري في الترغيب والترهيب لأبي الشيخ وحسنه (٥١٨/٣-٥١٩) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٧٧).

٨٨- الأمانة والخيانة

الجمعة ١٣/٥/١٤١٩هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن الجن والإنس خلقوا من أجل غاية كبرى، وحملوا أمانة عظمى. سخرت لهم المخلوقات من أجل أدائها، وامتنحوا من جراء تحملها. إنها الأمانة الكبرى، أي سعادة ينالها من أداها؟! وأي شقاء يطبق على من ضيعها.

عُرِضَتْ على السموات السبع الطباق، المزدانة بالنجوم والأفلاك فأبت حملها، وأشفقت منها. وعُرِضَتْ على الأرضين السبع الشداد التي شدت بالأوتاد، وذلت بالمهاد فأبت حملها، وأشفقت منها. وعُرِضَتْ على الجبال الرواسي، الشم الصعاب، والشوامخ الصلاب، فأبت حملها، وأشفقت منها. ثم عُرِضَتْ على هذا المخلوق الضعيف

العاجز، فلم يمانع حملها. فويل ثم ويل له إن ضيعها ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) ﴿[الأحزاب].

إنها أمانة التوحيد وأمانة الدين.. أمانة الإقبال على الطاعة والبعد عن المعصية.. الأمانة على الجسم والعقل، والعيال والأهل.. الأمانة في الولاية العظمى وفي الولاية الصغرى.. الأمانة في الأموال والأعراض، والأقلام والأسرار، والعلوم والمعارف، والبيع والشراء، والأخذ والعطاء، وفي كل مجال للأمانة فيه مدخل^(١).

وملخصها.. الأمانة فيما بينك وبين الله تعالى، بإقامة دينه، والمسارة في طاعته، ومجانبة معصيته. والأمانة فيما بينك وبين العباد ممن هم فوقك وممن هم دونك، القريب منهم والبعيد؛ بأداء واجباتهم وحفظ حقوقهم. والأمانة مع نفسك بإعطائها حقها المشروع من غير إفراط أو تفريط، ولا غلو أو تقصير.

ولا تحتقر الأمانة في أي شيء فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهي أمانة» أخرجه أحمد وأبو داود بسند حسن^(٢). تأملوا - أيها الإخوة - دقة الأمانة في هذا

(١) انظر في ذلك: أخلاقنا الاجتماعية للدكتور مصطفى السباعي (١٠٣) والضيء اللامع للشيخ ابن عثيمين (٦٠٢-٦٠٥) والأخلاق الإسلامية لعبدالرحمن الميداني (٦٤٩).

(٢) أخرجه أبو يعلى (٢٢١٢) وأحمد (٣/٣٧٩) وابن أبي شيبه (٨/٥٩٠) وأبو داود في الأدب باب في نقل الحديث (٤٨٦٨) والترمذي في البر والصلة باب =

الحديث؛ فإذا كَلَّم الرجل أخاه فالتفت كان ذلك علامة على سرية هذا الكلام حتى ولو لم ينص أخوه على سرية؛ لأن التفاته مشعر بأنه لا يريد أن يسمعه غيره فهو أمانة يجب حفظها.

وقد انحرف فهم كثير من الناس للأمانة؛ إذ حصروها في أضيق حدودها ومعانيها فلم يعرفوا منها إلا ردَّ الودائع إلى أهلها. وهذا جزءٌ منها وليس كلَّها؛ إذ الأمانةُ تتنظم الاستقامة في شؤون الحياة كلها من عقيدة وعبادة، وأدبٍ ومعاملة، وعلم وسياسة. والأمانةُ بهذا المعنى وهذه الحدود، سرُّ سعادة الأمم أو شقائها^(٣).

ويوم أن كانت أمةُ الإسلام تفهم الأمانة بهذا المعنى الشامل، وتدرك أبعادها إدراكاً صحيحاً؛ كانت في علياء المجد، وأوج التقدم والحضارة. ويكفي المسلم أن يخرج من الدنيا وقد حقق الأمانة بمفهومها الصحيح الشامل ولا عليه إن فقد الدنيا بأسرها ما دام متصفاً بالأمانة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أربع إذا كن فيك فلا عليك مافاتك من الدنيا: صدقُ الحديث، وحفظُ الأمانة، وحسنُ الخلق، وعفةُ المطعم» أخرجه أحمد^(٤).

= ماجاء في أن المجالس أمانة، وقال: هذا حديث حسن (١٩٥٩) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٣٨٦-٣٣٨٨) من حديث جابر رضي الله عنه وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٦) وفي السلسلة الصحيحة (١٠٩٠).
(٣) انظر: أخلاقنا الاجتماعية (١٠٢).

(٤) أخرجه أحمد (١٧٧/٢) وابن وهب في جامعه (٦٤١/٢) برقم (٥٤٦) والبخاري في الأدب المفرد (٢٨٨) والحاكم (٣١٤/٤) وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت =

والأمانة صفة الأفاضل من خلق الله تعالى ، اتصف بها رسولُ رب العالمين إلى الأنبياء والمرسلين ، جبريلُ الأمين ﴿وَأَنَّهُ لَنَتَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥)﴾ [الشعراء].

والتزم بأدائها أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام ، فهم أمانة الله على وحيه ، والمبلغون رسالته إلى الجن والإنس . فكان من أهم صفاتهم : الأمانة ، نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام كل واحد منهم قال لقومه ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧)﴾ [الشعراء] واشتهر خاتمهم عليه الصلاة والسلام بالأمانة حتى كان يعرف بالأمين صلى الله عليه وسلم .

وهي كذلك صفة للمؤمنين المفلحين ، والمصلين المحافظين على صلاتهم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨)﴾ [المؤمنون] فكان جزاؤهم أنهم ﴿يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾ [المؤمنون] .

والأمانة عنوانُ الصلاح ، وبرهانُ الاستقامة ، ودليلُ الديانة فلا يحققها إلا من صلح لسانه وقلبه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تستقيم أمانة رجلٍ حتى يستقيم لسانه ، ولا يستقيم لسانه حتى يستقيم قلبه »^(٥) .

= وحفظ اللسان (٤٤٥) والبيهقي في شعب الإيمان (٢٠٥/٤) برقم (٤٨٠١)
قال الألباني : صحيح موقوفاً ، وصح مرفوعاً انظر : صحيح الأدب المفرد (٢٢١) والسلسلة الصحيحة (٧٣٣) .

(٥) أخرجه أحمد (١٩٨/٣) وانظر : ج (٣) ص (١٥٨) من هذه المجموعة .

ومن أجل ذلك كان ارتباطها بالإيمان وثيقاً . . توجد بوجوده،
وتنتفي بانتفائه، وترتفع بارتفاعه كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم:
«لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له» أخرجه أحمد من
حديث أنس رضي الله عنه (٦).

وفي آخر الزمان - حين يكثُرُ الفساد في الناس - ترفع الأمانة
منهم؛ حتى لا يكادُ يُوجد من يتصف بها، قال حذيفة بن اليمان
رضي الله عنهما: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد
رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر
قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة، ثم
حدثنا عن رفع الأمانة فقال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من
قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه،
فيظل أثرها مثل أثر المجل، كجمر دحرجته على رجلك، فنفط فتراه
منتبراً وليس فيه شيء» ثم أخذ حصاة فدحرجه على رجله «فيصبح
الناس يتبايعون، فلا يكادُ أحدٌ يؤدي الأمانة حتى يقال: إن في بني
فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله،

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٥ و ١٥١ و ٢١٠) وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٥٩)
برقم (٣٠٣١١) وفي الإيمان (٧) والبيهقي في الكبرى (٦/ ٢٨٨) والبزار
(١٠٠) والقضاعي في مسند الشهاب (٨٤٨-٨٤٩-٨٥٠) وحسنه البغوي في
شرح السنه (٣٨) وصححه ابن حبان (١٩٤).

وما في قلبه مثقالُ حبةٍ من خردلٍ من إيمان...» متفق عليه^(٧)، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «والمراد برفعها إذهابُها بحيث يكون الأمين معدوماً أو شبه معدوم»^(٨) ولذا كان رفعُها من أمارات الساعة كما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا ضُبِّعَتِ الْأَمَانَةُ فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتُها يارسول الله؟ قال: إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فانتظر الساعة» أخرجه البخاري^(٩).

وإذا أدرك المسلم زمن تضييع الأمانة فهو مأمور بالاجتهاد في إصلاح نفسه ولو فسد الناس، والاهتمام بأداء الأمانة ولو ضيعها كل

(٧) أخرجه البخاري في الرقاق باب رفع الأمانة (٦٤٩٧) وفي الفتن باب إذا بقي في حثالة من الناس (٧٠٨٦) ومسلم في الإيمان باب رفع الأمانة والإيمان (١٤٣) والترمذي في الفتن باب ما جاء في رفع الأمانة (٢١٨٠) وابن ماجه في الفتن باب ذهاب الأمانة (٤٠٥٣) وقوله في الحديث: «جذر» بفتح الجيم وكسرها وإسكان الذال وهو أصل الشيء. والوكت: الأثر اليسير «والمجل» بفتح الميم وإسكان الجيم: هو تنقط في اليد ونحوها من أثر عمل وغيره. وقيل: غلظ الجلد من أثر العمل، «ومنتبراً»: المنتبر هو المنتفخ وليس فيه شيء، وكل شيء رفع شيئاً فقد نبهه، ومنه اشتق المنبر. وانظر: جامع الأصول (٣٢١/١) وشرح النووي على مسلم (٢٢٢/٢) ورياض الصالحين حديث (٢٠٠) وفتح الباري لابن حجر (٣٤١/١١) و (٤٣-٤٢/١٣).

(٨) فتح الباري (٣٤١/١١).

(٩) أخرجه البخاري في الرقاق باب رفع الأمانة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٦٤٩٦).

من على الأرض. أخرج ابن حبان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كيف أنت يا عبد الله ابن عمرو إذا بقيت في حثالة من الناس؟» قال: وذاك ما هم يا رسول الله، قال: «ذاك إذا مرجت أماناتهم وعهودهم وصاروا هكذا» وشبك بين أصابعه قال: فكيف ترى يا رسول الله؟ قال: «تعمل ما تعرف، وتدع ما تنكر، وتعمل بخاصة نفسك، وتدع عوام الناس»^(١٠).

وتنفع الأمانة صاحبها يوم القيامة؛ فتقوم مع الرحم على جنبتي الصراط يدافعان عن الواصل والأمين كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١١).

و ضد الأمانة: الخيانة التي هي من صفات المنافقين؛ حيث ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن من علامات المنافق «إذا أؤتمن خان»^(١٢).

(١٠) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٧٤١) وابن أبي شيبة (٩/١٥) وأحمد (٢/٢١٢) والبخاري معلقاً في الصلاة باب تشبيك الأصابع (٤٨٠) وأبوداود في الملاحم باب الأمر والنهي (٤٣٤٢-٤٣٤٣) وابن ماجه في الفتن باب الثبت في الفتنة (٣٩٥٧) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/٢٨٢) وابن حبان (٥٩٥٠-٥٩٥١) واللفظ له والطبراني في الكبير (٥٨٦٨-٥٩٨٤) والأوسط (٢٧٩٧) قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح (٧/٢٨٣). (١١) كما في حديث أبي هريرة وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهم عند مسلم في الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٥).

(١٢) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أحمد (٥/٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧) والبخاري في الإيمان باب علامات المنافق (٣٣) ومسلم في الإيمان باب بيان خصال المنافق (٥٩).

والخيانة كذلك من أخص صفات اليهود، وقليلًا ما تنفك عنهم؛ كما قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

ولما كانت الخيانة كذلك كان المتصفون بها مكروهين عند الله تعالى؛ لأنه تعالى يحب الأمانة والوفاء، ويحب الأمانة الأوفياء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (١٠٧) [النساء].

ولو قوبل المسلم بالخيانة، فإن دينه يحتم عليه أن يلتزم الأمانة، ولا يقابل الخيانة بخيانة مثلها، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك» أخرجه أبو داود والترمذي (١٣).

وما من شك أنه ينبغي للمسلم أن يتوقى الحذر، ويأخذ بالحيلة حتى يسلم من غائلة الخيانة، وشر الخائنين ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال].

(١٣) أخرجه أبو داود في البيوع باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده (٣٥٣٤-٣٥٣٥) والترمذي في البيوع باب (٣٨) وقال: حسن غريب (١٢٦٤) والدارمي في سننه (٢/٢٦٤) والدارقطني في سننه (٢٩١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الدارقطني (٢٩١٤) من حديث أنس رضي الله عنه، و(٢٩١٢) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وذكر الألباني أن الطبراني أخرجه في الكبير من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وقد صحح حديث أبي هريرة الحاكم وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٤٦/٢) والألباني في صحيح الجامع (٢٤٠) والصحيحة (٤٢٣).

وشرفُ الأمانة، وعظيمُ منزلتها، وسموُ مكانتها لا يبيح الحلف بها؛ إذ الحلف يجب أن لا يكون إلا بالله وحده، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «من حلف بالأمانة فليس منا» أخرجه أبو داود بسند صحيح^(١٤).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتَ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨)﴾ [النساء] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها الإخوة المؤمنون: من أجل أن تنتظم أمورُ الناس، وتتحقق مصالحهم، ويتشترَ العدل فيما بينهم، ويحصل الرضى من جميعهم، فلا بد من اتصافِ الناس بالأمانة، كبيرهم وصغيرهم، شريفهم ووضيعهم، غنيهم وفقيرهم. يتصف بها الوالي في ولايته، والمسؤولُ في وزارته، والموظفُ في دائرته. ومن وجد في نفسه ضعفاً يحول دون أداءِ الأمانة

(١٤) أخرجه أحمد (٣٥٢/٥) وأبو داود في الإيمان باب كراهة الحلف بالأمانة (٣٢٥٣)

والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢٩٨/٤) وصححه النووي في رياض الصالحين

(١٧٠٩) والألباني في السلسلة الصحيحة (٩٤) من حديث بريدة رضي الله عنه.

فلا يحل له أن يتطلع إلى المنصب أو يسأل الإمارة، أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ فضرب بيده على منكبي ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»^(١٥).

والعلماء والقضاة، وطلاب العلم والدعاة، هم أولى من يتصف بالأمانة؛ ليؤدوا حق العلم والقضاء، والدعوة والإفتاء ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. والمحاضر في جامعته، والتربوي في مؤسسته، والمدرس في مدرسته؛ لا بد أن يتخلقوا بالأمانة. فأولاد المسلمين تحت أيديهم، إذا ضيعوا الأمانة فيهم فقد ضيعوا مستقبل الأمة وأملها. لا بد أن يغرسوا فيهم محبة الله تعالى، والتزام دينه، والتأدب بأخلاق الإسلام وآدابه. ولا سيما مع تكالب العاديات على الدين والأخلاق والقيم ليست مهمتهم مقتصرة على تلقينهم المعارف والعلوم؛ إذ لا بد أن يظهر أثر هذه العلوم على أخلاقهم، وذلك لا يكون إلا بالتربية والتأديب والتهديب.

ويحتاج الأمانة الصحفي في صحيفته فلا يكتب إلا الحق ولا ينشر الباطل والأكاذيب.

والعامل عند أجيره، والتاجر في سوقه، والصانع خلف آلته،

(١٥) أخرجه مسلم في الإمارة باب كراهة الإمارة بغير ضرورة (١٨٢٥).

يجب أن يراعوا الأمانة في أعمالهم، فلا يمارسوا الغش في السلع، ولا ينتهبوا من المال ما ليس لهم؛ فذاك حرام وسحت يبنون به أجسادهم وأجساد أولادهم، وكلُّ جسد نبت من سحت فالنار أولى به. ورجل الأمن في دوريته يحتاج إلى الأمانة حتى يتحقق المقصود من عمله.

وأمانة الرجل في أهله وأولاده من أعظم الأمانات التي ضيعها كثير من أولياء الأسر، حتى قلَّ الحياء في كثير من نساءهم، وساءت أخلاق أولادهم!! أهملوهم، ثم أسلموهم لمربية كافرة، أو خادمة فاجرة، أو آلة لهو غازية.. ظنوا أن أداء الأمانة فيهم مَلءٌ بطونهم، وإشباع شهواتهم، وتحقيق رغباتهم! ثم لما شَبَّوا عن طوقهم، واستعصوا على أمرهم، وتمردوا عليهم؛ ضجوا بالشكوى والتذمر، وهرعوا يطلبون المشورة فيهم، والحلول لمشكلتهم، وقد أضاعوهم قبل ذلك!! فهذا زرعههم حصدوه.

وهكذا يعلم - أيها الإخوة - أن شأن الأمانة عظيم، وخطبها جليل، من أداها سعد في الدنيا والآخرة، ومن أضاعها شقي فيهما، قال عليه الصلاة والسلام «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاشٍ لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة» متفق عليه^(١٦).

(١٦) أخرجه البخاري في الأحكام باب من استرعي رعية فلم ينصح (٧١٥٠) ومسلم في الإيمان باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار (١٤٢) والطيالسي (٩٢٩) والدارمي (٣٢٤/٢) والبخاري في شرح السنه (٢٤٧٨).

فاتقوا الله ربكم ، وأدوا أماناتكم ؛ فإنكم مسؤولون عنها أمام الله يوم
القيامة وكلكم راع ومسؤول عن رعيته ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ
وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ
فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿ (٢٨) ﴾ [الأنفال] .

ألا وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك
ربكم ...

* * *

٨٩- آداب الأكل

الجمعة ١٦/٣/١٤١٩هـ

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى حق التقوى، واتبعوا ما أنزل من الهدى؛ تناولوا السعادة في الأولى والأخرى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور].

أيها الإخوة: لم يقتصر الإسلام على بناء العلاقة بين العبد وربه فحسب، ولم تنحصر تعاليمه في عمارة الدار الآخرة فقط؛ بل تعدى ذلك ليشمل علاقة الإنسان بنفسه وبالأخرين من المسلمين وغيرهم، وفصلت تعاليمه جزئيات بناء الدنيا والآخرة، فمن تمسك بها ضمن السعادة في الدارين، والفلاح في الحياتين. ومدار الأعمال صلاحاً وفساداً، قبولاً ورداً على صلاح النوايا، وحسن المقاصد، ولزوم السنة.

يحمل الرجل إلى بيته ألواناً من الطعام، وكثيراً من الأرزاق، يطعم أهله وعياله. يستوي في ذلك المسلم والكافر، والبر والفاجر بحكم جبلة الإنسان وطبيعته؛ ولكن المسلم التقى يحتسب تلك النفقة عند الله فيكتب

له بها أجر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا أنفق الرجل على أهله يحسبها فهو له صدقة»^(١).

ما أوسع فضل الله ورحمته!! نجلب الطعام إلى بيوتنا نتلذذ به، ونطعم أهلنا وأولادنا، ونؤجر عليه إذا أصلحنا النوايا. ومن أين الدلائل على صلاح النوايا: اتباع شرع الله تعالى في نفقتنا على بيوتنا، وفي أكلنا وشربنا وولائمنا، وفي كل شؤوننا؛ حتى نكون شاكرين لنعم ربنا تبارك وتعالى.

ولأن الغذاء قوام الجسد، وهو متكرر مع الإنسان ما دام حياً؛ فإن الإسلام أعطى اهتماماً كبيراً للأكل وتغذية الجسد، يتمثل ذلك في آداب وأحكام قبل الأكل وأثناءه وبعده. فحث الإسلام على الاكتساب المشروع، لتوفير اللقمة الحلال؛ لأن النار أولى بجسد نبت من سحت، ولأن الدعاء يرد من إنسان غذي بالحرام.

ومع أن الأكل من ضرورات الحياة، لا يعيش حي بدونه أبداً، فإن المسلم يستحضر نية التقوي بالطعام على طاعة الله تعالى؛ فيكون له فيما يأكل أجراً موفوراً. ومع استحضار تلك النية الطيبة يتحرى العبد السنة في مأكله ومشربه، بمراعاة الآداب الشرعية الثابتة.

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة واللفظ له (٥٥) ومسلم في الزكاة باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج (١٠٠٢) والنسائي في الزكاة باب أي الصدقة أفضل (٦٩/٥) والترمذي في البر والصلة باب ما جاء في النفقة على الأهل (١٩٦٥).

ومن تلکم الآداب: غسل اليدين والفم قبل الطعام وبعده، وقواعد الإسلام العامة تدل لهذا الأدب، وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم شرب لبنا ثم دعا بماء فتمضمض وقال: «إن له دسماً» متفق عليه^(٢)، وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا نام أحدكم وفي يده ريح غمر فلم يغسل يده فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه^(٣).

وإذا أراد الجلوس للأكل فينبغي له الاعتدال في جلسته ولا يتكئ؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إني لا آكل متكئاً»^(٤) وفي رواية «لا آكل وأنا متكئ» أخرجه البخاري^(٥).

قال الخطابي رحمه الله تعالى: «تحسب العامة أن المتكئ هو الآكل على أحد شقيه وليس كذلك؛ بل هو المعتمد على الوطاء الذي تحته، قال: ومعنى الحديث: إني لا أقعد متكئاً على الوطاء عند الأكل فعل

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء باب هل يمضمض من اللبن (٢١١) ومسلم في الحيض باب نسخ الوضوء مما مست النار (٩٥).

(٣) أخرجه الترمذي في الأطعمة باب ما جاء في كراهية البيتوتة وفي يده ريح غمر وقال: حسن غريب (١٨٦٠) وأبو داود في الأطعمة باب غسل اليد من الطعام (٣٨٥٢) وابن ماجه في الأطعمة باب من بات وفي يده ريح غمر (٢٢٩٧).

(٤) أخرجه البخاري في الأطعمة باب الأكل متكئاً (٥٣٩٨).

(٥) أخرجه البخاري في الأطعمة باب الأكل متكئاً (٥٣٩٩)، وأبو داود في الأطعمة باب ما جاء في الأكل متكئاً (٣٧٦٩) والترمذي في الأطعمة باب ما جاء في كراهية الأكل متكئاً (١٨٣٠) وابن ماجه في الأطعمة باب الأكل متكئاً (٣٢٦٢).

من يستكثر من الطعام؛ فإنني لا آكل إلا البُلغة من الزاد فلذلك أقعد مستوفزاً. . اهـ^(٦)

وفهم السلف هذا الحديث فعملوا به كما قال النخعي رحمه الله

(٦) فتح الباري لابن حجر (٤٥٢/٩)؛ وانظر: معالم السنن بهامش سنن أبي داود وهو أطول مما نقله الحافظ (١٤١/٤).

والعلماء مختلفون في معنى الاتكاء على ثلاثة أقوال مشهورة:

- ١- أن يتمكن في الجلوس للأكل على أي صفة كان، كما هو قول الخطابي.
- ٢- أن يميل على أحد شقيه وجزم به ابن الجوزي كما في الفتح (٤٥٢/٩).
- ٣- أن يعتمد على يده اليسرى من الأرض.

والمعنى الأول عليه عامة شراح الحديث - فيما وقفت عليه من مصادر - وهو القول الذي نصره الخطابي وخطأً من حصر الاتكاء في معنى آخر، والأثر المنقول عن النخعي يدل عليه، وورد في حديث ضعيف عند ابن عدي أن النبي صلى الله عليه وسلم زجر أن يعتمد الرجل على يده اليسرى عند الأكل، قال مالك: «هو نوع من الاتكاء»، وهذا يدل على أن مالكا لا يحصر الاتكاء في صورة واحدة، وهو ما يؤيد قول الخطابي؛ ولذلك قال الحافظ عقب ذكره قول مالك: «وفي هذا إشارة من مالك إلى كراهة كل ما يعد الأكل فيه متكئاً، ولا يختص في صفة بعينها» اهـ من الفتح (٤٥٢/٩).

وقال السندي في شرحه على ابن ماجه (٢٤٠): «الاتكاء هو أن يتمكن في الجلوس متربعا، أو يستوي قاعداً على وطاء، أو يسند ظهره إلى شيء، أو يضع إحدى يديه على الأرض، وكل ذلك خلاف الأدب المطلوب حال الأكل، وبعضه فعل المتكبرين، وبعضه فعل المكثرين من الطعام» ثم نقل عن الكرماني نحو قول الخطابي.

وقال القاري في المرقاة: «نقل في الشفاء عن المحققين أنهم فسروه بالتمكن للأكل، والعود في الجلوس كالمتربع المعتمد على وطاء تحته؛ لأن هذه =

تعالى: «كانوا يكرهون أن يأكلوا اتكاء مخافة أن تعظم بطونهم» أخرجه ابن أبي شيبة^(٧). والمقصود من ذلك عدم الراحة في الجلوس للأكل حتى لا يكثر منه. وعمومات الشريعة الدالة على استحسان التقليل من الأكل تشهد لهذا المعنى.

= الهيئة تستدعي كثرة الأكل، وتقتضي الكبر» اهـ نقلاً عن عون المعبود (١٠/ ٢٤٤) وانظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٩/ ٢٨٤٠) وسبل السلام (١٦٦/٦).

وهذا الحديث وما شابهه محمول على كراهة الأكل متكئاً، أو هو خلاف الأولى، ونقل عن جمع من السلف جوازه مطلقاً وفي ذلك آثار ذكرها ابن أبي شيبة في مصنفه (١٣٩/٤) عن ابن عباس وخالد وابن سيرين رضي الله عنهم أنهم أكلوا وهم متكئون، وعن عطاء قال: «إن كنا نأكل ونحن متكئون» وعن ابن سيرين قال: «دخلت على عبيدة فسألته عن الرجل يأكل متكئاً؛ فأكل متكئاً». ولأجل هذه الآثار فإن الصواب حمل الكراهة على الكراهة الطيبة كما هو قول إبراهيم النخعي، وليس على الكراهة الشرعية.

وحاصل ذلك: أن معنى الاتكاء هو كل جلسة تمكن الأكل من الأكل الكثير، وهي الجلسة التي يرتاح فيها سواء كان الأكل متربعاً متكئاً على مقعدته، أم مائلاً على أحد شقيه، أم متكئاً على جدار أو نحوه، أم معتمداً على يده اليسرى حال أكله؛ لأن ذلك يسبب كثرة الأكل، ووقوعه في المنهي عنه من السرف، وعدم إبقاء ثلث لشرابه وثلث لنفسه، والنصوص الشرعية تشهد لما قرره شراح الحديث. قال الشيخ ابن باز رحمه الله في شرحه لهذا الحديث من بلوغ المرام: «هذا الحديث يدل على أن الأفضل عدم الاتكاء ولا يدل على أنه لا يجوز الاتكاء؛ فإنه لم يقل: «لا تتكئوا» وفرق بين الصيغتين».

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٣٨/٥) برقم (٢٤٥٠٩).

فإذا أراد البدء بالأكل سمى، وإذا نسي يسمي حين يذكر، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل: بسم الله، فإن نسي في أوله فليقل: بسم الله في أوله وآخره» أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح^(٨).

والحكمة من التسمية: منع الشيطان من المشاركة في الطعام، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند الطعام قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء» أخرجه مسلم^(٩).

ويجب أن يكون أكله وشربه باليد اليمنى؛ لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله» أخرجه مسلم^(١٠). وكثير من المسلمين يتساهلون في الأكل والشرب بالشمال لا سيما مع استعمال آلات الأكل الحديثة، وتشبه كثير من المسلمين بغيرهم، وتقليدهم لهم حتى في طريقة أكلهم، فمائلوا الشيطان الرجيم في أكله وشربه.

(٨) أخرجه الترمذي في الأطعمة باب ما جاء في التسمية على الطعام وقال: حديث حسن صحيح (١٨٥٨).

(٩) أخرجه مسلم في الأشربة باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٢٠١٣).

(١٠) أخرجه مسلم في الأشربة باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٢٠٢٠).

ومن العادات الوافدة إلى المسلمين: عدم اجتماع الأيدي على الطعام حيث يأكل كل واحد في إناء مستقل عن الآخر، فقلّت البركة في الطعام وقد قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، إنا نأكل ولا نشبع؟ قال: «لعلكم تفترقون» قالوا: نعم، قال: «فاجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه» أخرجه أبو داود^(١١)، وقد بوّب النووي رحمه الله تعالى على ذلك فقال: «باب تكثير الأيدي على الطعام»^(١٢)، ثم ساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة» متفق عليه^(١٣)، فالاجتماع على الطعام وتكثير الأيدي فيه أولى من الافتراق، وأتبع للسنّة، وأحرى بالأجر.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأكل بثلاث أصابع^(١٤)، وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن الحكمة من ذلك عدم ازدحام الطعام

(١١) أخرجه أحمد (٥٠١/٢) وأبو داود في الأطعمة باب في الاجتماع على الطعام (٣٧٦٤) وابن ماجه في الأطعمة باب الاجتماع على الطعام (٣٢٨٦) والطبراني في الكبير (١٣٩/٢٣) وصححه ابن حبان كما في الموارد (١٣٤٥) ويشهد له حديث عمر عند ابن ماجه في الأطعمة (٣٢٨٧).

(١٢) رياض الصالحين (٢٦٨).

(١٣) أخرجه مالك في الموطأ (٩٢٨/٢) والبخاري في الأطعمة باب طعام الواحد يكفي الاثنين (٥٣٩٢) ومسلم في الأشربة باب فضيلة المواساة في الطعام (٢٠٥٨) والترمذي في الأطعمة باب ما جاء في طعام الواحد يكفي الاثنين (١٨٢١).

(١٤) كما في حديث كعب بن مالك عند مسلم في الأشربة باب استحباب لعق الأصابع (٢٠٣٢).

على آلات الجسم ومعدته فتتضرر بذلك، ولأن اللذة به أكمل من الأكل بالأصابع كلها^(١٥).

ومن الآداب المرعية في الأكل لحق الغير: الأكل مما يليه، وعدم الأكل من وسط الصحيفة أو طيشان اليد فيها، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «البركة تنزل وسط الطعام فكلوا من حافتيه ولا تأكلوا من وسطه» أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح^(١٦).

وإذا انتهى من أكله فالسنة أن يلحق أصابعه ويلحق الصحيفة، وإذا سقطت اللقمة فالسنة أن لا يتركها بل يزيل مابها من أذى ثم يأكلها، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها فليمط ما كان بها من أذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان، ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلحق أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه البركة» أخرجه مسلم^(١٧). وفيه عن أنس رضي الله عنه قال: «أمرنا أن نسلت القصعة»^(١٨).

وتبقى هذه السنة ثابتة في حال الغنى والفقر، ولا يصح أن يقال: إن ذلك كان في أول الإسلام لما كان الصحابة فقراء؛ لأنهم ثبتوا على

(١٥) انظر: زاد المعاد (٤/٢٢٢).

(١٦) أخرجه أبو داود في الأطعمة باب ما جاء في الأكل من أعلى الصحيفة (٣٧٧٢) والترمذي في الأطعمة باب ما جاء في كراهية الأكل من وسط الطعام وقال: حسن صحيح (١٨٠٥).

(١٧) أخرجه مسلم في الأشربة باب استحباب لعق الأصابع والقصعة وأكل اللقمة الساقطة بعد مسح ما يصيبها من أذى وكراهية مسح اليد قبل لعقها (٢٠٣٣).

(١٨) أخرجه مسلم في الموضع السابق (٢٠٣٤).

هذه السنة حتى بعد الفتوح والشراء، وإنما تتعطل هذه السنة حينما يسرف الناس في الطعام والولائم؛ فيصنع من الطعام ما يكفي لأضعاف الحاضرين!! وأهل البيت الواحد يصنعون من الطعام ما يزيد عن حاجتهم؛ فتتعطل بذلك سنة سلت الصحيفة، ولعق الأصابع، ويرتكب المحظور في الإسراف في الأكل، ورمي فائض الطعام.

ولو اعتدل الناس في ذلك لوفروا أموالهم، والتزموا سنة نبهم صلى الله عليه وسلم، وسلموا من أمراض التخمّة؛ ولكن الغنى يورث البطر في كثير من الأحيان.

وإذا انتهى من طعامه حمد الله تعالى وهو مستحضر نعمته تعالى في تسخير هذا الطعام، وفي تسهيل أكله، وفي التلذذ به؛ لأنه يمكن أن يكون الطعام موجوداً؛ لكنه لا يستطيع أكله، أو لا يلتذ به لعله من مرض ونحوه، وكذلك يستحضر نعمة الله تعالى في إيجاد مخرج لفضلات هذا الطعام؛ إذ لو انحبس في البطن لحصل له من الأذى ما لا يخفى. ولذا كان من حمد النبي صلى الله عليه وسلم إذا أكل أو شرب: «الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجاً» أخرجه أبو داود بإسناد صحيح^(١٩).

والالتزام بالحمد المأثور خير وأعظم أجراً؛ لكمال معناه، ولما فيه من سنة الاقتفاء، وقد روى أبو أمامة رضي الله عنه أن النبي صلى الله

(١٩) أخرجه أبو داود في الأطعمة باب ما يقول الرجل إذا طعم (٣٨٥١) وصححه النووي في الأذكار (٢٠٢).

عليه وسلم كان إذا رفع مائدته قال: «الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفي ولا مُودّع، ولا مستغنى عنه ربنا» أخرجه البخاري^(٢٠)، وفي حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من أكل طعاماً ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه^(٢١).

وإذا دُعِيَ إلى وليمة أو أكل عند أخيه فالسنة أن يدعو لصاحب الطعام، وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم: «اللهم بارك لهم فيما رزقتهم واغفر لهم وارحمهم» أخرجه مسلم^(٢٢)، وعند أبي داود من حديث أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم دعا فقال: «أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة»^(٢٣). ومن الأدب الرفيع: مراعاة شعور صانع الطعام بترك انتقاده ولو كان موضعاً للنقد، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما عاب رسول الله

(٢٠) أخرجه البخاري في الأطعمة باب ما يقول إذا فرغ من طعامه (٥٤٥٨-٥٤٥٩).

(٢١) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٢٣) والترمذي في الدعوات باب ما يقول إذا فرغ من الطعام وقال: حديث حسن غريب (٣٤٥٨).

(٢٢) أخرجه مسلم في الأشربة باب استحباب وضع النوى خارج التمر واستحباب دعاء الضيف لأهل الطعام (٢٠٤٢).

(٢٣) أخرجه أبو داود في الأطعمة باب ما جاء في الدعاء لرب الطعام إذا أكل عنده (٣٨٥٤) وصححه النووي في الأذكار (٢٠٣).

صلى الله عليه وسلم طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه» متفق عليه^(٢٤).

والانهماك في الأكل لا يمنع وعظ وتأديب من يسيء في أكله، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للغلام وكانت يده تطيش في الصفحة: «يا غلام: سم الله تعالى، وكل بيمينك، وكل مما يليك»^(٢٥) وأكل رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم بشماله فقال: «كل بيمينك، قال: لا أستطيع، قال: لا استطعت، مامنه إلا الكبر، فما رفعها إلى فيه» أخرجه مسلم^(٢٦).

ولقد طغت المجاملات على كثير من الناس؛ إذ يرى الواحد منهم من يأكل بشماله أو يشرب بشماله، فلا ينهاه عن هذا الفعل القبيح، وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الناس الأدب حتى على مائدة الطعام. والخير كل الخير في اتباع هديه، وتخري سنته وسنة أصحابه من بعده. نفعني الله وإياكم بهدي القرآن العظيم وسنة سيد المرسلين...

(٢٤) أخرجه البخاري في الأطعمة باب ما عاب النبي ﷺ طعاماً (٥٤٠٩) ومسلم في الأشربة باب لا يعيب الطعام (٢٠٦٤) وأبو داود في الأطعمة باب كراهية ذم الطعام (٣٧٦٤) والترمذي في البر والصلة (٢٠٣٢).

(٢٥) أخرجه البخاري في الأطعمة باب التسمية على الطعام والأكل باليمين (٥٣٧٦) ومسلم في الأشربة باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٢٠٢٢).

(٢٦) أخرجه مسلم في الأشربة باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٢٠٢١).

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى
يوم الدين.

أيها المؤمنون: إن من أهم آداب الطعام: عدم الإسراف في جلبه
وتناوله ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١) [الأعراف]
وكم من الفساد حصل في الأرض حينما لم يأخذ الناس بهذه الآية
العظيمة على مستوى الأفراد، ومستوى الجماعات والدول.

فحينما تلقي الدول الكبرى فائض إنتاجها من الأطعمة في البحار
حفاظاً على ثبات الأسعار يموت عشرات الآلاف من البشر في الدول
الفقيرة جوعاً ومرضاً!! وعلى مستوى الأفراد: ينفق الغني في وليمة
واحدة ما يسد جوع أسر كاملة العمر كله!! وإنك لتشهد أشخاصاً
يعانون أمراض الشبع والبطنة في الوقت الذي يتألم فيه آخرون من
الجوع وسوء التغذية، ولو دفع الغني ما فضل عن حاجته من الطعام
إلى الفقير ما شكى واحد منهما سقماً ولا ألماً. وهكذا يصدق المثل
القاتل: «بطنة الغني انتقام لجوع الفقير»^(٢٧).

(٢٧) انظر: النظرات للمنفلوطي (١/٦٥).

إن مشكلة الغذاء أضحت مشكلة عالمية، وأكثر الأمراض كانت بسبب سوء التغذية قلةً أو كثرة. فالكثير يعاني أمراض البطنة والتخمة، والذي لا يجد طعاماً يعاني الجوع وسوء التغذية! وحدث ولا حرج عن أمراض الصنفين.

إن انتشار الجوع وسوء التغذية في الأرض كان من عمل الإنسان وظلمه، ما ضنت السماء بمائها، ولا شحت الأرض بخيراتها، ولا منع الله رزقه؛ بل هو الجواد الكريم؛ ولكن أيدي البشر سعت بالفساد في الأرض حتى جاع كثير من سكانها.

إن من المخالفات اليومية التي تمارس على مستوى الأفراد، والتي تدخل في دائرة الإسراف: الفوضى في شراء الأطعمة، يخرج الرجل من بيته بقائمة يحتاجها البيت فإذا هو يحضر من أنواع الفاكهة والخضروات وسائر الأغذية أضعاف ما طلب منه إحضاره. هذا الصنف من الفاكهة أعجبه لونه، وذاك الصنف سره شكله، وثالث أخذه من أجل رائحته أو طعمه، وهكذا حتى يصير مصير ثلثي ما أحضر من طعام إلى النفايات. وإذا دخل السوق وهو جائع فحدث ولا حرج عن نهيمته في شراء كل ما تقع عليه عيناه، وهذا من الشره والجشع.

وامتدت هذه الفوضى داخل البيوت؛ حتى إن صانعة الطعام في المنزل لتضع على مائدتها ما يكفي أهل البيت والبيوت المجاورة.

والحفلات والولائم فيها من السرف والترف ما لا يخطر على بال من لا يحضرها. هذا وغيره أدى إلى فشو الطبقات في المجتمع الواحد،

وانتشرت بسببه كثير من الأمراض في العالم، أمراض البطنة وأمراض الجوع، كما أدى إلى كثرة النفایات، وتلوث الأجواء بحرقها. وكل ذلك يكلف اقتصاد العالم أموالاً طائلة، ولو أن الناس التزموا التوجيه الشرعي في عدم الإسراف والتوسع في المآكل والمشارب لوفرت المجتمعات والأفراد الكثير من الأموال.

فعلى المسلم أن يعلم أن القضية قضية شرعية قبل أن تكون اقتصادية أو بيئية أو إنسانية، وأن السرف مذموم وأن الله لا يحب المسرفين. سبحانه ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

٩٠- آداب الشرب

الجمعة ١/٤/١٤٢٢هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: نعم الله تعالى على عباده كثيرة؛ خلقهم، ورزقهم وهداهم، وأطعمهم، وسقاهم، وآواهم. ومن كل ما يحتاجون أعطاهم؛ ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

وأعظمُ نعمةٍ أنعم الله بها على عباده المؤمنين: أن هداهم صراطه المستقيم، وشرع لهم هذا الدين العظيم، وأنزل عليهم كتابه الكريم، وتعبدهم باتباع هدي رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم الذي ما ترك

خيراً إلا دلّ الأمة عليه، ولا شراً إلا حذرهما منه، وأوضح لنا ما نحتاج إليه من عقائد، وعبادات، ومعاملات، وآداب.

آداب لحق النفس، وآداب لحق الغير. آداب في مأكلا ومشربنا وملبسنا، وفي كل شؤوننا. نتعبد لله عزّ وجل بتلك الآداب، فتقلب عادتنا إلى عبادات تؤجر عليها. وما يكون من طبيعة الإنسان، وتدعوه إليه غريزته كالأكل والشرب والنكاح يكون المسلم مأجوراً بفعله لها متى ما صحت النوايا، وجُردت فيها المتابعة لهدي النبي صلى الله عليه وسلم. وشرب الماء من طبيعة الإنسان، ولا يعيش بلا ماء، بل هو من ضرورات الحياة، فكل الأحياء تشرب ولا تستغني عن الماء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ومع ذلك فإن الشريعة جأت بآداب وأحكام للشرب، من راعاها كان مع تنعمه بالشرب، والتذاذه به من المثابين عليه.

ولأن الماء من ضرورات الحياة، كان الناس فيه شركاء، ولا يجوز لمسلم أن يمنع فضل مائه عن أخيه؛ بل إن بغياً سقت كلباً، فشكر الله لها، فغفر لها^(١).

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم في الألفاظ من الأدب وغيرها باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٥)، وجاء في روايات أخرى أن رجلاً سقى كلباً فغفر الله له كما عند البخاري في الأدب باب رحمة الناس بالبهائم (٦٠٠٩)، ومسلم (٢٢٤٤)، وأبي داود في الجهاد باب ما يؤمر من القيام على الدواب والبهائم (٢٥٥٠).

والماء المبرّد المبذولُ في سوق أو مسجد أو غيره يشرب منه المحتاج إليه وهو العطشان سواء كان غنياً أم فقيراً.

سئل الإمام مالك رحمه الله تعالى عن الماء الذي يُسقى الناس في المساجد والأسواق، أترى الأغنياء أن يجتنبوا شربه؟ قال: «لا؛ ولكن يشربون أحب إليّ؛ إنما جعل للعطشان»^(٢).

وطلبُ الماء البارد الحلو ليس من الترفّة المذموم، ولا ينافي الزهد؛ بل تركُ ذلك زهداً يُعدُّ من الغلو والتشديد غير المشروع. فالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أزهد الناس كان أحبَّ الشراب إليه الحلو البارد^(٣). وقد بوّب العلماء على استعذاب الماء^(٤).

قال ابن بطال رحمه الله تعالى: «وأما شرب الماء الحلو وطلبه فمباح فقد فعله الصالحون، وليس في شرب الماء المالح فضيلة»^(٥).

(٢) البيان والتحصيل لابن رشد (٢٣/٨).

(٣) أخرجه الحميدي في مسنده (٢٨٧/١) برقم (٢٥٩)، وأبو يعلى في مسنده (٣٥١٦)، وأحمد (٣٨/٦ - ٤٠)، والترمذي في الأشربة باب ما جاء أي الشراب كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٨٩٥) والحاكم وصححه وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (١٣٧/٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٤) وفي صحيح الجامع (٤٦٢٧).

(٤) فعل ذلك البخاري فقال: باب استعذاب الماء. كما في كتاب الأشربة باب (١٣). وفيه حديث عائشة رضي الله عنها «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُستعذب له الماء من بيوت السقيا» أخرجه أبو داود في الأشربة باب في إيكاء الآنية (٣٧٣٥)، والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي (١٣٨/٤).

(٥) فتح الباري لابن حجر (٧٧/١٠).

فإذا أراد الشرب فالمشروع في حقه الجلوس ، ولا يشرب قائماً؛ لما روى أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يشرب الرجل قائماً. قال قتادة: فقلنا: فالأكل؟ فقال: «ذاك أشرُّ أو أخبث» رواه مسلم^(٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يشربن أحد منكم قائماً، فمن نسي فليستقيء» رواه مسلم^(٧).

(٦) أخرجه مسلم في الأشربة باب كراهية الشرب قائماً (٢٠٢٤)، والترمذي في الأشربة باب ما جاء في النهي عن الشرب قائماً (١٨٨٠)، وأبو داود - دون ذكر الأكل قائماً - في الأشربة باب في الشرب قائماً (٣٧١٧)، وابن ماجه في الأشربة باب الشرب قائماً (٣٤٢٤)، كآبي داود.

(٧) أخرجه مسلم في الأشربة باب كراهية الشرب قائماً (٢٠٢٦) وفي النهي عن الشرب قائماً أيضاً: حديث أبي سعيد عند مسلم (٢٠٢٥)، وحديث الجارود ابن المعلی عند الترمذي في الأشربة باب ما جاء في النهي عن الشرب قائماً (١٨٨٢). وقد عورضت هذه الأحاديث بما يلي:

أ - حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «شرب النبي صلى الله عليه وسلم قائماً من زمزم» أخرجه البخاري في الأشربة باب الشرب قائماً (٥٦١٧)، ومسلم في الأشربة باب في الشرب من زمزم قائماً (٢٠٢٧).

ب - حديث الثَّزَال بن سبرة قال: «أتى علي رضي الله عنه على باب الرحبة بماء فشرب قائماً فقال: إن ناساً يكره أحدهم أن يشرب وهو قائم وإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كما رأيتموني فعلت» أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين (٥٦١٥) و (٥٦١٦).

ج - حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «لقد كنا نأكل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نثمي، ونشرب ونحن قيام» أخرجه أحمد (١٢/٢ - ٣٤) والترمذي في الأشربة باب ما جاء في الرخصة في الشرب=

= قائماً وقال: حديث حسن صحيح (١٨٨٠)، وابن ماجه في الأطعمه باب الأكل قائماً (٣٣٠١)، وصححه ابن حبان (٥٢٤٣)، والشيخ شاكراً في تخريج المسند (٦٤٠١).

د - حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «رأيت رسول يشرب قائماً وقاعداً» أخرجه الترمذي في الأشربة باب الرخصة في الشرب قائماً، وقال: حديث حسن صحيح (١٨٨٤).

هـ - ما رواه مالك في الموطأ عن عمر وعثمان وعلي وابن عمر وابن الزبير أنهم كانوا يشربون قايماً، وأن سعد بن أبي وقاص وعائشة لا يريان في ذلك بأساً. انظر: الموطأ (٩٢٥/٢ - ٩٢٦).

قال ابن عبد البر بعد أن ساق هذه الآثار: «الأصل الإباحة حتى يرد النهي من وجه لا معارض له، فإذا تعارضت الآثار سقطت، والأصل ثابت في الإباحة حتى يصح الأمر أو النهي بما لا مدفع فيه» اهـ من الاستذكار (٢٨١/٢٦). ومن أجل هذا التعارض وقع الخلاف بين العلماء في حكم الشرب قائماً كما اختلفت توجيهاتهم لهذه الأحاديث:

١ - فأبطل بعضهم أحاديث المنع بحجة أنها لا تقاوم ما في الصحيحين مع أن منها أحاديث في صحيح مسلم.

٢ - وقال بعضهم بالنسخ. وهو احتمال لا دليل عليه، ولا يقين في المتقدم من المتأخر منها.

٣ - وأول بعضهم أحاديث النهي فيمن لم يسم عند شربه، وهو تأويل ضعيف لا دليل عليه.

٤ - وحمل بعضهم أحاديث الجواز على الحاجة كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: «وأما الشرب قائماً فقد جاءت أحاديث صحيحة بالنهي، وأحاديث صحيحة بالرخصة؛ ولهذا تنازع العلماء فيه، وذكر فيه روايتان عن أحمد؛ ولكن الجمع بين الأحاديث: أن تحمل الرخصة على حال العذر، فأحاديث النهي في الصحيح ... - ثم ساقها - وأحاديث الرخصة مثل ما في الصحيحين ... =

= وساقها ثم قال: وحديث علي هذا قد روي فيه أثر أنه كان ذلك من زمزم، كما جاء في حديث ابن عباس أن هذا كان في الحج. والناس يطوفون ويشربون من زمزم، ويستقون ويسألونه، ولم يكن موضع قعود مع أن هذا كان قبل موته بقليل؛ فيكون هذا ونحوه مستثنى من ذلك النهي، وهذا جار عن أحوال الشريعة أن المنهي عنه يباح عند الحاجة؛ بل ما هو أشد من هذا يباح عند الحاجة؛ بل المحرمات التي حرم أكلها وشربها كالميتة والدم تباح للضرورة... إلخ». مجموع الفتاوى (٣٢/٢٠٩ - ٢١٠).

ويشكل على كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى حديث ابن عمر رضي الله عنهما في أنهم كانوا يشربون قياماً ويأكلون وهم يمضون على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، كما يشكل عليه الآثار الواردة عن الصحابة رضي الله عنهم. ويصعب حملها كلها على أن لهم أعذاراً ولا سيما أن ألفاظها لا تدل على ذلك.

٥ - وحمل آخرون أحاديث الرخصة على الجواز، وأحاديث النهي على الكراهة التنزيهية، وهي طريقة الطبري والأثرم والخطابي وابن بطال والنووي وغيرهم، ورجحه الحافظ بقوله: «وهذا أحسن المسالك وأسلمها وأبعدها من الاعتراض» الفتح (٨٧/١٠) وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/٢٨٣ - ٢٨٥). وعلى هذا الوجه من الجمع لا يبقى إلا إشكالان:

الأول: قوله في حديث أنس عن الأكل قائماً: «ذلك أشر وأخبث».

الثاني: أمره عليه الصلاة والسلام من نسي فشرب قائماً أن يستقيء كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فالأول رواه مسلم وأصحاب السنن إلا النسائي، ولم يرد عند أبي داود وابن ماجه ذكر للأكل، وإنما جاء في رواية مسلم بلفظ: «قال قتادة: فقلنا: فالأكل؛ قال: ذلك أشر وأخبث» وعند الترمذي: فقيل: الأكل؟ قال: «ذاك أشد».

والقرطبي في المفهم (٥/٢٨٥) يرى أن هذه الجملة ليست من قول النبي صلى الله عليه وسلم بل هي من قول قتادة، قال رحمه الله تعالى: «وأما قول قتادة:»

.....
 = «الأكل أشر» فشيء لم يقل به أحد من أهل العلم فيما علمت، وعلى ما حكاه النقلة والحفاظ فهو رأي لا روايته، والأصل الإباحة والقياس خلي عن الجامع» اهـ. وقال أيضاً: «ولا خلاف في جواز الأكل قائماً وإن كان قتادة قال: «الأكل أشر وأخبث» اهـ من المفهم (٢٨٦/٥).

وظاهر الحديث أنه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم أو من كلام أنس رضي الله عنه، لا من كلام قتادة. وإذا كان من كلام أنس فهو موقوف عليه وليس له حكم الرفع؛ إذ للرأي فيه مجال. وأما إن كان من كلام النبي صلى الله عليه وسلم - وليس هو الظاهر بدليل روايتي أبي داود وابن ماجه - فالإشكال لا يزال قائماً. ولا مناص حيثئذ من حمل النهي على الكراهة التنزيهية كالشرب. وأما الإشكال الثاني: وهو أمره من شرب قائماً ناسياً بالاستقاء فأخرجه مسلم من رواية عبد الجبار بن العلاء حدثنا مروان - يعني الفزاري - حدثنا عمر بن حمزة، أخبرني أبو غطفان المري أنه سمع أبا هريرة يقول.. فذكره، فبعضهم حاول تضعيف الحديث - وإن كان في صحيح مسلم - بعمر بن حمزة كما فهمه النووي من كلام القاضي عياض، وعنف عليه في ذلك. قال الحافظ ابن حجر: «وأما تضعيفه - يعني عياضاً - لحديث أبي هريرة بعمر بن حمزة فهو مختلف في توثيقه، ومثله يخرج له مسلم في المتابعات وقد تابعه الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة كما أشرت إليه عند أحمد وابن حبان، فالحديث بمجموع طرقه صحيح» اهـ. انظر: الفتح (٨٦/١٠)، وقول القاضي عياض هو: «لا خلاف بين أهل العلم أن من شرب ناسياً ليس عليه أن يتقيأ» قال النووي: «فأشار بذلك إلى تضعيف الحديث، فلا يلتفت إلى إشارته، وكون أهل العلم لم يوجبوا الاستقاء لا يمنع كونها مستحبة؛ فإن ادعى مدع منع الاستحباب، فهو مجازف لا يلتفت إليه، فمن أين له الإجماع على منع الاستحباب، وكيف تترك هذه السنة الصحيحة الصريحة بالتوهمات والدعاوى والترهات» شرح النووي على مسلم (٢٨٤/١٣).

وسلك القرطبي مسلكاً آخر بعد أن نقل حكاية القاضي عياض الإجماع على=

وما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنه شرب قائماً فقد حمله بعض العلماء على الحاجة، وحمله الآخرون على الجواز مع الكراهة^(٨).

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن الأكل والشرب قائماً: هل هو حلال أم حرام أم مكروه كراهية تنزيه؟ وهل يجوز الأكل والشرب إذا كان له عذر كالمسافر أو الأكل والشرب في الطريق ماشياً، فأجاب رحمه الله: «أما مع العذر فلا بأس، فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم شرب من ماء زمزم وهو قائم فإن الموضع لم يكن موضع قعود،

= أن من شرب قائماً ناسياً ليس عليه أن يستقيء فقال: «قال بعض الشيوخ: والأظهر: أن هذا موقف على أبي هريرة رضي الله عنه... ثم قال: ويمكن أن يقال: إن القيء وإن لم يقل أحد بأنه واجب عليه فلا بُدَّ في أن يكون مأموراً به على جهة التطبب... وهو يؤيد قول من قال: إن النهي عن ذلك مخافة مرض أو ضرر؛ فإن القيء استفراغ مما يخاف ضرره». اهـ المفهم (٥/٢٨٦).

والذي يظهر لي أن لفظة: «فمن نسي فليستقيء» فيها غرابة؛ لأن النسيان مغفور للمكلف كما دلت على ذلك نصوص الشريعة؛ ولذا قال من قال: إن الأمر به من جهة الطب.

وبكل حال فإن نصوص جواز الشرب قائماً أقوى وأثبت من نصوص المنع والله أعلم.

(٨) جمهور أهل العلم حملوه على الجواز مع الكراهة، وشيخ الإسلام حمله على الجواز للعذر والحاجة كما مضى تفصيله. وانظر: شرح النووي على مسلم (١٣/٢٨٢ - ٢٨٥)، والمفهم (٥/٢٨٥)، والفتح (١٠/٨٥ - ٨٧)، ومجموع الفتاوى (٢٠٨/٣٢ - ٢١٠).

وأما مع عدم الحاجة فيكره؛ لأنه ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عنه، وبهذا التفصيل يحصل الجمع بين النصوص»^(٩) اهـ.

وقال الأثرم: «إن ثبتت الكراهة حملت على الإرشاد والتأديب لا على التحريم»^(١٠). وبذلك قال جمع من المحققين من العلماء.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وللشرب قائماً آفاتٌ منها: أنه لا يحصل به الري التام، وينزل بسرعة إلى المعدة، فيخشى أن يبرّد حرارتها ويشوشها ويسرع النفوذ إلى أسفل البدن بغير تدريج، وكل هذا يُضِرُّ بالشارب»^(١١).

فإذا أراد الشرب شرع له أن يسمي، وإذا انتهى أن يحمد الله تعالى. روى الطبراني بإسناد حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يشرب في ثلاثة أنفاس، إذا أدنى الإناء إلى فيه يسمي الله، فإذا أخره حمد الله، يفعل به ثلاث مرات»^(١٢).

وقد دل حديث أبي هريرة على أنه يشرع للشارب إذا أراد الشرب أن يسمي، فإذا قطع الشرب للنفس حمد الله، فإذا أراد الشرب ثانية

(٩) مجموع الفتاوى (٢١١/٣٢).

(١٠) فتح الباري (٨٧/١٠).

(١١) زاد المعاد (٢٢٩/٤).

(١٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٤٠)، وحسنه الحافظ في الفتح (٩٦/١٠)، وقال الهيثمي في الزوائد: «فيه عتيق بن يعقوب لا بأس به وبقيّة رجاله رجال الصحيح» (٨٤/٥).

سمى، فإذا قطع حمد الله، وهكذا حتى ينتهي من شربه .
وقد ورد النهي عن الشرب من ثلثة القدح أو أذنه^(١٣)، أو من في
السقاء. فقد روى الشيخان من حديث أبي سعيد رضي الله عنه «أن
النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن اختناث الأسقية: أن يشرب من
أفواهها»، وفي رواية: «واختناثها: أن يقلب رأسها ثم يشرب منه»^(١٤).
وذلك لمصلحة الشارب، لأنه لا يدري ما يخرج له، قال أبو هريرة:
«نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الشرب من في السقاء» رواه البخاري.
وفي رواية الإمام أحمد: قال أيوب: «فأبئت أن رجلاً شرب من في
السقاء فخرجت حية»^(١٥).

(١٣) كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله صلى الله
عليه وسلم عن الشرب من ثلثة القدح وأن ينفخ في الشراب» أخرجه أحمد
(٨٠/٣)، وأبو داود في الأشربة باب في الشرب من ثلثة القدح (٣٧٢٢)،
وصححه ابن حبان (٥٣١٥)، وروى الطبراني عن ابن عباس وابن عمر رضي
الله عنهم قالوا: «يكراه أن يشرب من ثلثة القدح وأذن القدح» قال الهيثمي في
الزوائد: ورجاله رجال الصحيح (٧٨/٥).

(١٤) أخرجه البخاري في الأشربة باب اختناث الأسقية (٥٦٢٥)، ومسلم في
الأشربة باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما واللفظان له (٢٠٢٣). وفي
رواية البخاري فسر الاختناث بكسر أفواهها والشرب منه، وفسر الحافظ الكسر
بالثني؛ أن يثنى ويشرب، وليس المقصود به حقيقة الكسر. انظر: الفتح
(٩٢/١٠)، وتفسير الاختناث في كل الروايات مدرج، وليس من أصل الحديث
كما بينه الحافظ، وقد جزم الخطابي أن تفسير الاختناث من كلام الزهري وهو
راوي الحديث عن عبدالله بن عبدالله عن أبي سعيد.

(١٥) أخرجه البخاري في الأشربة باب الشرب من فم السقاء (٥٦٢٨) والرواية
الثانية للإمام أحمد في المسند (٢٣٠/٢)، والحاكم وصححه وقال: على شرط =

وفي رواية: «وأن رجلاً قام من الليل إلى سقاءٍ فاختنثه فخرجت عليه منه حية»^(١٦).

ومن الأدب: أن لا يتنفس في الإناء، ولا ينفخ فيه؛ لما روى أبو سعيد رضي الله عنه: «أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن النفخ في الشراب فقال رجل: القذاة أراها في الإناء، قال: أهرقها، قال: فأني لا أروى من نفس واحد، قال: فأبني القدح إذاً عن فيك» رواه الترمذي وصححه^(١٧).

قال ابن العربي رحمه الله: «قال علماؤنا: هذا من مكارم الأخلاق؛ لثلاث يقع فيه من ريق النافخ فيتنقذه غيره». ثم قال ابن العربي: «بل هو حرام؛ فإن الإضرار بالغير حرام، فإن فعله في خاصة نفسه ثم ناوله لغيره فليعلمه به؛ لأنه إن كتبه كان من باب الغش وهو حرام»^(١٨).

والسنة أن يشرب بثلاثة أنفاس؛ لما روى أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتنفس في الإناء ثلاثاً ويقول: «هو

= البخاري ووافقه الذهبي (١٤٠/٤)، وتعقبه الحافظ بأن زيادة أيوب ليست على شرط البخاري؛ لأن راويها لم يسم، وليست موصولة، انظر: الفتح (١٠/٩٣)، وصحح هذه الرواية الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٧١٥٣). (١٦) هذه الرواية لابن ماجه في الأشربة باب اختنث الأسقية (٣٤١٩)، والحاكم وصححها على شرط البخاري ووافقه الذهبي (١٤٠/٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١٧) أخرجه مالك في الموطأ (٩٢٥/٢)، والترمذي في الأشربة باب ما جاء في كراهية النفخ في الشراب وقال: حسن صحيح (١٨٨٧).

(١٨) عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذي (٨٣/٨).

أروى وأمرأ وأبرأ». وفي رواية: «وأهنأ»^(١٩).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «يؤخذ من ذلك: أنه أقمع للعطش، وأقوى على الهضم، وأقل أثراً في ضعف الأعضاء، وبرد المعدة»^(٢٠).

فإن شرب في نفس واحد جاز له ذلك، قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى: «إنما نهى عن التنفس داخل الإناء، فأما من لم يتنفس فإن شاء فليشرب بنفس واحد»^(٢١) وقد ورد فيه حديث صحيح^(٢٢).

(١٩) أخرجه البخاري في الأشربة باب الشرب بنفسين أو ثلاثة (٥٦٣١)، ومسلم في الأشربة باب التنفس في الإناء (٢٠٢٨)، والترمذي في الأشربة باب ما جاء في التنفس في الإناء (١٨٨٥) من حديث أنس رضي الله عنه، وزيادة: «أروى وأبرأ وأمرأ» لمسلم والترمذي دون البخاري. وزيادة «وأهنأ» لأبي داود في الأشربة باب في الساقى متى يشرب (٣٧٢٧).

(٢٠) فتح الباري (٩٦/١٠).

(٢١) فتح الباري (٩٥/١٠)، وقال الحافظ: وهو تفصيل حسن.

(٢٢) وهو حديث أبي قتادة مرفوعاً: «إذا شرب أحدكم فليشرب بنفس واحد» أخرجه الحاكم وصححه وقال: على شرط البخاري ومسلم (١٣٩/٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٦) لكنه ساقه بلفظ: «فلا يشرب بنفس واحد» أي بالنهي لا بالأمر، وعزاه للحاكم وللحافظ في الفتح، وذكر في حاشية صحيح الجامع أنه في الأصل بالأمر لا بالنهي، ولم أجده في الجامع الصغير للسيوطي فعمله من الزيادات، ولفظ الحاكم كما ذكرته بالأمر لا بالنهي، وكذلك استدلال الحافظ به في الفتح في سياق الأمر لا النهي، ولعل الشيخ الألباني رحمه الله وهم في ذلك. ويكون الحديث دالاً على النهي عن التنفس في الإناء، فمن لم يتنفس فيه جاز له أن يشرب بنفس واحد.

والسنة أن لا يكثر الشرب، فإن كان لابد فاعلاً فثلث لطعامه،
وثلث لشربه، وثلث لنفسه، كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم^(٢٣).

فإذا انتهى من شربه حمد الله تعالى؛ مستحضراً نعمة الله تعالى
في تحصيل هذا الماء وجعله عذباً فرائاً، ولو شاء لجعله ملحاً أجاباً لا
يستطيع شربه، ويستحضر نعمة التذاده بهذا الماء، وإطفاء عطشه، وانتفاع
جسده..

وهذا الحمد لمن يستحق الحمد سبب لرضى الله تعالى، ولبقاء النعمة
وهو من شكر المولى سبحانه على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، قال
النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده
عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها» رواه مسلم^(٢٤)، كما يستحضر
نعمة الله تعالى عليه بأن جعل لفضلات ما يأكل ويشرب مخرجاً،
ولو انحبس في بطنه أو مثانته لحصل له من الأذى والضرر والألم ما
لا يخفى؛ ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أكل أو شرب قال:

(٢٣) وذلك في حديث معدي كرب عن أبيه عن جده المقدم عند الطبراني في
الكبير (٢٧٣/٢٠)، وابن المبارك في الزهد (٦٠٣)، والقضاعي في مسند
الشهاب (١٣٤٠)، وصححه ابن حبان (٢٥٣٦)، وحسنه الحافظ في الفتح
(٥٢٨/٩).

(٢٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل
والشرب (٢٧٣٤)، والترمذي في الأطعمة باب ما جاء في الحمد إذا فرغ من
الطعام (١٨١٧)، من حديث أنس رضي الله عنه.

«الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجاً» أخرجه أبو داود والنسائي وصححه ابن حبان^(٢٥).

ويحكى أن هارون الرشيد رحمه الله تعالى عطش يوماً فدعا بماء فأحضر له، فقال له أحد جلسائه: لو مُنعت هذا الكأس من الماء أشتريه بنصف ملكك؟ قال: نعم، قال: فإذا انحبس في جوفك أتدفع نصف ملكك لإخراجه؟ قال: نعم، قال: فملكك إذاً لا يساوي كأس ماء. وهذا يدل على نعمة الله تعالى على عباده، وأنهم محتاجون إليه أبداً، فحق عليهم أن يشكروا المنعم سبحانه وتعالى.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (٤٨) لُنَحْيِي بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿[الفرقان: ٤٨ - ٥٠].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم ..

(٢٥) أخرجه أبو داود في الأطعمة باب ما يقول الرجل إذا طعم (٣٨٥١)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٨٥)، وابن السني (٤٧٢)، وصححه ابن حبان كما في الموارد (١٣٥١)، والنووي في الأذكار (٢٠٢) من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ربكم وأطيعوه، واشكروا نعمته؛ فإن في الشكر زيادة، كما أن في الكفر نقمة ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكْرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

أيها الإخوة: إذا شرب المسلم، وأراد دفع الإناء إلى غيره؛ فالسنة أن يبدأ بمن هو عن يمينه، وكذلك الساقى يسقي من هم عن يمينه؛ لما روى أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بلبن قد شيب بماء، وعن يمينه أعرابي، وعن شماله أبوبكر، فشرب ثم أعطى الأعرابي وقال: «الأيمن فالأيمن» رواه الشيخان^(٢٦).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بشراب فشرب منه وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟» فقال الغلام: والله يا

(٢٦) أخرجه البخاري في الأشربة باب الأيمن فالأيمن في الشراب (٥٦١٩)، ومسلم في الأشربة باب استحباب إدارة الماء باللبن (٢٠٢٩)، وأبو داود في الأشربة باب في الساقى متى يشرب (٣٧٢٦)، والترمذي في الأشربة باب ما جاء أن الأيمن أحق بالشرب (١٨٩٤)، ومالك في الموطأ (٩٢٦/٢).

رسول الله، لا أوتر بنصيبك منك أحداً، قال: فتلّه رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده» رواه الشيخان^(٢٧).

(٢٧) أخرجه البخاري في الأشربة باب هل يستأذن الرجل من عن يمينه في الشرب ليعطي الأكبر (٥٦٢٠)، ومسلم في الأشربة باب استحباب إدارة الماء باللبن (٢٠٣٠) وقد دل هذا الحديث والذي قبله على تقديم من كان على يمين الشارب على غيره ولو كان غيره أرفع مقاماً أو أكبر سناً؛ إذ قدم النبي صلى الله عليه وسلم الأعرابي على أبي بكر كما في حديث أنس، وقدم الغلام على الأشياخ كما في حديث سهل. وقد يشكل على هذين الحديثين أحاديث أخرى ورد فيها تقديم الأكبر ومنها:

أ - حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أراني أتسوك بسواك فجاءني رجلان أحدهما أكبر من الآخر، فناولت السواك الأصغر منهما، فقليل لي: كبر، فدفعته إلى الأكبر منهما» أخرجه البخاري في الوضوء باب دفع السواك إلى الأكبر (٢٤٦).

ب - حديث سهل بن أبي حثمة في القسامة وفيه: أن عبد الرحمن بن سهل وكان أصغر القوم أراد أن يتكلم قبل صاحبيه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كبر» وفي رواية: «كبر الكبر» أو قال: «ليبدأ الأكبر» أخرجه البخاري في الديات باب القسامة (٦٨٩٨)، ومسلم في القسامة والمحاريق والقصاص والديات باب القسامة، والروايات له (١٦٦٩).

ج - حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سقي قال: «ابدؤوا بالأكبر أو قال: بالأكابر». أخرجه أبو يعلى (٢٤٢٥)، وفي المقصد العلي (١٥٢٠) والطبراني في الأوسط (٣٧٨٦) قال الهيثمي في الزوائد: ورجال أبي يعلى رجال الصحيح (٨١/٥) وقوى سنده الحافظ في الفتح (٨٩/١٠).

وأجيب عن هذه الأحاديث بما يلي:

١ - أنها محمولة على الحالة التي يجلسون فيها متساوين إما بين يدي الكبير أو عن

ومعنى تله: أي وضعه في يد الغلام.

قال النووي رحمه الله تعالى: «في هذه الأحاديث بيان هذه السنة الواضحة، وهو موافق لما تظاهرت عليه دلائل الشرع من استحباب التيامن في كل ما كان من أنواع الإكرام، وفيه أن الأيمن في الشرب ونحوه يقدم وإن كان صغيراً أو مفضولاً؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم الأعرابي والغلام على أبي بكر رضي الله تعالى عنه، وأما تقديم الأفاضل والكبار فهو عند التساوي في باقي الأوصاف»^(٢٨).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وفي الحديث أن سنة الشرب العامة تقديم الأيمن في كل موطن، وأن تقديم الذي على اليمين ليس لمعنى فيه؛ بل لمعنى في جهة اليمين وهو فضلها على اليسار، فيؤخذ منه أن ذلك ليس ترجيحاً لمن هو على اليمين، بل هو ترجيح لجهته»^(٢٩).

ومن يسقي يؤخر شربه إلى أن يشرب آخر من في المجلس؛ لما صح

= يساره كلهم أو خلفه أو حيث لا يكون فيهم؛ فتخص هذه الصورة من عموم تقديم الأيمن.

٢ - أو يخص من عموم هذا الأمر بالبداء بالكبير ما إذا جلس بعض عن يمين الرئيس وبعض عن يساره، ففي هذه الصورة يقدم الصغير على الكبير والمفضول على الفاضل. ذكره الحافظ في الفتح (٨٩/١٠ - ٩٠) وقال: «ويظهر من هذا أن الأيمن ما امتاز بمجرد الجلوس في الجهة اليمنى، بل بخصوص كونها يمين الرئيس، فالفضل إنما فاض عليه من الأفضل؟». ١ هـ.

(٢٨) شرح النووي على مسلم (٢٨٩/١٣ - ٢٩٠).

(٢٩) فتح الباري (٨٩/١٠).

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ساقى القوم آخرهم شرباً» رواه مسلم^(٣٠).

والسنة أن تغطى أواني الأكل والشرب؛ لئلا يسقط فيها شيء، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «غطوا الإناء، وأوكوا السقاء؛ فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباءٌ لا يمر بإناءٍ ليس عليه غطاء، أو سقاءٍ ليس عليه وكاءٌ إلا نزل فيه من ذلك الوباء» رواه الشيخان واللفظ لمسلم. وفي لفظ آخر لمسلم: «غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، وأغلقوا الباب، وأطفئوا السراج؛ فإن الشيطان لا يحلُّ سقاءً، ولا يفتح باباً، ولا يكشف إناءً»^(٣١).

ولا يجوز الشربُ في آنية الذهب والفضة، فمن فعل ذلك فإنما يجر جر في بطنه نار جهنم^(٣٢)، ومن شرب فيها في الدنيا لم يشرب

(٣٠) أخرجه أحمد (٢٩٨/٥) وابن أبي شيبة (٢٣١/٨)، ومسلم مطولاً في المساجد باب قضاء الصلاة الفاتية واستحباب تعجيلها (٦٨١)، والترمذي في الأشربة باب ساقى القوم آخرهم شرباً (١٨٩٤)، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

(٣١) أخرجه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما البخاري في الأشربة باب تغطية الإناء (٥٦٢٣ - ٥٦٢٤)، ومسلم واللفظ له في الأشربة باب الأمر بتغطية الإناء (٢٠١٢ - ٢٠١٣ - ٤١٤).

(٣٢) كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها عند البخاري في الأشربة باب آنية الفضة (٥٦٣٤)، ومسلم في اللباس والزينة باب تحريم استعمال أواني الذهب والفضة (٢٠٦٥).

فيها في الآخرة كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣٣)، قال القرطبي رحمه الله تعالى: «في هذا الحديث دليل على تحريم استعمال أواني الذهب والفضة للأكل والشرب، ويلحق بهما ما في معناهما مثل: التطيب والتكحل وما شابه ذلك»^(٣٤).

فإن لم يجد إناءً شرب بيده أو كرع كرعاً، أي شرب بفمه مباشرة لقول النبي صلى الله عليه وسلم لرجلٍ من الأنصار: «إن كان عندك ماء بات هذه الليلة في شنة وإلا كرعنا» رواه البخاري^(٣٥).

قال ابن الأثير رحمه الله تعالى: «الكرع: الشرب من النهر أو الساقية بالفم من غير إناء ولا باليد»^(٣٦). فإن سقط في مشروبه ذبابٌ فالسنة أن يغمسه ويخرجه ويشرب؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم

(٣٣) وذلك في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عند البخاري في الجنائز باب الأمر باتباع الجنائز (١٢٣٩)، ومسلم في اللباس والزينة باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء (٢٠٦٦).

(٣٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣٤٥/٥).

(٣٥) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه البخاري في الأشربة باب الكرع في الحوض (٥٦٢١)، وأبو داود في الأشربة باب في الكرع (٣٧٢٤).

(٣٦) جامع الأصول (٥/٨٨)، وفتح الباري (١٠/٨٠) قال الحافظ: «وإنما قيل للشرب بالفم كرع؛ لأنه فعل البهائم لشربها بأفواهها، والغالب أنها تدخل أكارعها حينئذ في الماء».

وساق الحافظ حديثين عند ابن ماجه يستفاد منهما النهي عن الكرع وضعفهما، ثم حاول الجمع بينهما وبين هذا الحديث.

فليغمسه كله ثم لينزعه فإن في أحد جناحيه شفاء، وفي الآخر داء»
رواه البخاري^(٣٧). فإن عافته نفسه فله أن يريقه ويشرب غيره^(٣٨).
وليحذر المسلم أن يشرب بشماله؛ لورود النهي عن ذلك، فالشيطان
يأكل بشماله ويشرب بشماله^(٣٩).

أيها الإخوة: كانت تلك جملة من آداب الشرب، من حافظ عليها
محتسباً كان مأجوراً في شربه، يتلذذ بشربه، ويطفئ عطشه، وينفع
جسده، ومع ذلك يؤجر على اتباعه السنة. فاتقوا الله ربكم، وخذوا
بآداب الإسلام، والتزموا هدي نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإن
الخير كل الخير في ذلك..

اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم
وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

(٣٧) أخرجه البخاري في الطب باب إذا وقع الذباب في الإناء (٥٧٨٢).
(٣٨) دل على ذلك حديث أبي سعيد عند الترمذي المخرج في الهامش (١٧)،
وفيه النهي عن النفس في الإناء، فلما قال رجل: «القدادة أراها في الإناء»،
قال: أهرقها.. الحديث. والقدادة أخف من الذباب، والذباب مستقذر أكثر
من استقذار القدادة، فإذا جاز إهراقها في الأخف ففي الأشد من باب أولى
على أنه يحتمل أن الإهراق للقدادة فقط؛ لكن الأظهر أنه يجوز والله أعلم.
(٣٩) كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند مسلم في الأشربة باب آداب
الطعام والشراب وأحكامهما (٢٠٢٠).

٩١- أدب الاستئذان

الجمعة ١٠/٨/١٤١٧هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن دين الإسلام كما هو دينٌ عقيدةٍ وأحكام، فهو أيضاً دين أدب وأخلاق. فللأدب من نصوص الإسلام حظٌّ وافر؛ إذ به يتعايشُ الناس فيما بينهم في محبة ووثام، وتوقير واحترام. ومن كان حظُّه من الأدب قليلاً كان مستهجنًا بين الناس ولو كان ذا علم وظاهره الصلاح. ومن تحلى بالأدب الجَم والخلق الرفيع، كان محبوباً ولو كان حظُّه من العلم قليلاً؛ لذا كانت عناية الإسلام بهذا الجانب كبيرة، حتى إنه أبان الدقائق فيه، وأفصحَ عن فنِّ التعامل مع الناس، وأرشدَ إلى ما يجلبُ محبتهم، ويملكُ قلوبهم، من أخلاقٍ وسجايا وطباع.

ومن ذلكم - أيها الإخوة - أدب الاستئذان، وكيفية الدخول في بيوت الغير، وكيفية قرع الأبواب. وهذا الجانب من الأخلاق جاء به القرآن العظيم، وفصلت أحكامه سنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور] حكى أبو الحسن المالكي الإجماع على وجوب الاستئذان^(١)، فلا تُدخل بيوت الغير إلا بعد إذنهم.

والاستئذان له طريقته الشرعية، قال ربعي بن حراش: «جاء رجل من بني عامر فاستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيت فقال: أألج؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخادمه: «أخرج إلى هذا، فعلمه الاستئذان، فقل له: قل: السلام عليكم، أَدْخِلْ؟» فسمع الرجل ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: السلام عليكم، أَدْخِلْ؟ فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل». أخرجه أبو داود^(٢).

(١) التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (١٩٨/١٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤١٤/٣) وأبو داود في الأدب باب كيف الاستئذان (٥١٧٧)

(٥١٧٨) (٥١٧٩) والبخاري في الأدب المفرد (١٠٨٤) والنسائي في عمل

اليوم والليلة من السنن الكبرى (١٠١٤٨) وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال

الصحيح غير محمد بن عرق وهو ثقة (٤٣/٨) وصححه الألباني في صحيح

الجامع (٤٦٣٨) وفي المشكاة (٤٦٧٣).

وإذا أراد أن يستأذن فليكن عن يمين الباب أو يساره؛ لئلا يطلع على عورات البيوت. قال عبدالله بن بسر رضي الله عنهما: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: «السلام عليكم، السلام عليكم...» أخرجه أبو داود^(٣). ولما وقف على بابه صلى الله عليه وسلم رجل يستأذن مستقبل الباب نحاه يميناً ويساراً وقال: «هكذا أو هكذا فإنما الاستئذان من أجل النظر» أخرجه أبو داود^(٤).

وعليه أن يقرع الباب بلطف؛ فلقد كان باب النبي صلى الله عليه وسلم يُقرعُ بالأظافر.^(٥) فإن أجيب أفصح عن اسمه أو كنيته أو ما يعرف به، وليس من الأدب أن يقول: (أنا).

عن علي بن عاصم الواسطي قال: «قدمت البصرة فأتيتُ منزلَ شعبة فدققت عليه الباب فقال: من هذا؟ قلت: أنا، فقال: يا هذا، مالي صديق يقال له أنا، ثم خرج إليّ فقال: حدثني محمد بن المنكدر

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان (٥١٨٦)، وأحمد (١٨٩/٤) وصححه الألباني في المشكاة (٤٦٧٣) وفي صحيح الجامع (٤٦٣٨).

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب باب في الاستئذان (٥١٧٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٠١٦).

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٨٠) والبخاري كما في كشف الأستار (٢٠٠٨) والحاكم في معرفة علوم الحديث (١٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٠٥) وذكره في الصحيحة (٢٠٩٢).

عن جابر بن عبد الله قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة لي فطرقت عليه الباب فقال: «من هذا؟» فقلت أنا، فقال: «أنا أنا»، كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره قولي هذا» أخرجه الخطيب وأصله عند الشيخين^(٦). قال الإمام أحمد رحمه الله: «ما أكثر ما نلقى من الناس يدقون الباب فيقولون: أنا أنا، لا يقول: «أنا فلان»^(٧).

فإن لم يجبه صاحب الدار كرر الاستئذان ثلاثاً، فإن أذن له وإلا فليرجع، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع» متفق عليه^(٨).

وقال قتادة في قوله تعالى ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾: «هو الاستئذان ثلاثاً فمن لم يؤذن له منهم فليرجع: أما الأولى فليسمع الحي، وأما الثانية

(٦) أخرجه البخاري في الاستئذان باب إذا قال: من ذا؟ قال: أنا (٦٢٥٠) ومسلم في الأدب باب كراهة قول المستأذن: أنا، إذا قيل: من هذا (٢١٥٥) وأبوداود في الأدب باب الرجل يستأذن بالدق (٥١٨٧) والترمذي في الاستئذان باب ما جاء في التسليم قبل الاستئذان (٢٧١١) أما قصة شعبة في أول الحديث فأخرجها أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب في جامعه كما في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٢/١٤٤).

(٧) غداء الألباب للسفاري (٣١١/١).

(٨) أخرجه البخاري في الاستئذان باب التسليم والاستئذان ثلاثاً (٦٢٤٥) ومسلم في الآداب باب الاستئذان (٢١٥٣) ومالك (٩٦٣/٢) وأبوداود في الأدب باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان (٥١٨٠) والترمذي في الاستئذان باب ما جاء في الاستئذان ثلاثاً (٢٦٩٠) من أحاديث أبي سعيد الخدري وأبي بن كعب وأبي موسى الأشعري في قصة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهم.

فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة فإن شأؤوا أذنوا وإن شأؤوا ردّوا. ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم فإن للناس حاجاتٍ ولهم أشغال والله أولى بالعذر»^(٩).

ومن غلب على ظنه أن صاحب الدار لم يسمعه جاز له أن يزيد على الثلاث، قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: «الاستئذان ثلاث، لا أحب أن يزيد أحد عليها إلا من علم أنه لم يسمع فلا أرى بأساً أن يزيد إذا استيقن أنه لم يسمع»^(١٠). وقال الطاهر بن عاشور رحمه الله: «وقد علّم أن الاستئذان يقتضي إذناً ومنعاً وسكوتاً فإن أذن له فذاك، وإن منع بصريح القول فذلك قوله ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨]»^(١١).

أيها الإخوة: إن من الناس من يكون ضيق الأفق، سيئ الخلق، إذا لم يُجَبَّ قرع الأبواب بشدة، ورابط عند المنزل، ولو قيل له: ارجع؛ ثارت ثائرتة، وحركه شيطانه، فلا يزال يقذف بالسوء من لم يأذن له، يدور على المجالس يغتابه، وينشر تلك الحادثة بين أصحابه. وصاحبُه حينما لم يأذن له لم يأت منكراً، وليس ذلك دليلاً على أنه لا يريدُه؛ بل قد يكون مشغولاً وقته ذاك، أو عنده من العذر ما يمنعه من الإذن له. وما علم أن الخير والأزكى أن يرجع إذا قيل له ارجع؛

(٩) تفسير ابن كثير (٤٤٩/٣).

(١٠) الجامع لأحكام القرآن (١٤٣/١٢).

(١١) التحرير والتنوير (١٩٨/١٨).

كيف وصحابي^{١٢} كان يتمناها عمره فلم يدركها، قال قتادة: «قال بعض المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها أن أستأذن على بعض إخواني فيقول لي: ارجع فأرجع وأنا مغتبط ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٨]» (١٢).

الله أكبر، ما هذا الأدب؟ وكيف الفهم؟ وانظروا إلى مدى الوقوف عند النصوص، وتعظيم القرآن والسنة.

قال الزمخشري: «وإذا نُهي عن ذلك لأدائه إلى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليه من قرع الباب بعنف، والتصحيح بصاحب الدار، وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم يتهذب من الناس» (١٣). وإذا لم يكن في الدار أحدٌ فلا يحل له الدخول إلا بإذن مسبق؛ إذ حرمة البيوت تبقى ولو غاب أصحابها ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨] قال ابن كثير رحمه الله: «وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه» (١٤).

ولا يحل له أن ينظر من خلل الباب ليرى ما في الدار فذلك خيانة ووقاحة، لا يفعله إلا من كانت نفسه ذنيئة، قد اعتاد التلصص واستراق النظر؛ فيحل لأهل المنزل حينئذ أن يفقؤوا عينه، وعينه هدر لا قصاص له ولا دية. روى أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن رجلاً اطلع من

(١٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥٠).

(١٣) الكشف (٣/ ٢٢٢) وعنه القاسمي في محاسن التأويل (٥/ ٢٩٧).

(١٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥٠).

جُحِرَ في بعض حُجَرِ النبي صلى الله عليه وسلم فقام إليه بمشقص - أو مشقص - وجعل يختلُ ليطعنه» متفق عليه^(١٥). وثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لو أن امرأً اطلع عليك بغير إذنٍ فحذفته بحصاة ففقت عينه لم يكن عليك جناح» متفق عليه^(١٦).

ويكون الإذن بما يدل عليه فلا يشترط فيه الكلام قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كان لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة آتية فيها، فإذا أتيت استأذنته فإن وجدته يصلي تنحنح فدخلت، وإن وجدته فارغاً أذن لي» أخرجه النسائي^(١٧).

وإذا استُدعي الرجلُ فإذنه استدعاؤه إذا جاء مع رسول صاحب الدار، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «رسول الرجل إلى الرجل إذنه» أخرجه أبو داود^(١٨).

وقد رُفِعَ الحرج عن البيوت التي ليس لها ساكن ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٩] قال ابن

(١٥) أخرجه البخاري في الديات باب من اطلع في بيت قوم ففقؤوا عينه فلا دية له (٦٩٠٠) ومسلم في الآداب باب تحريم النظر في بيت غيره (٢١٥٧).
(١٦) أخرجه البخاري في الديات (١٩٠٢) ومسلم في الآداب باب تحريم النظر في بيت غيره (٢١٥٨).

(١٧) أخرجه النسائي في السهو باب التنحنح في الصلاة (١٢/٣).
(١٨) أخرجه أبو داود في الأدب باب في الرجل يدعى أن يكون ذلك إذنه بإسناد حسن (٥١٨٩) والبخاري في الأدب المفرد (١٠٧٦) والبيهقي كما في الإرواء (١٩٥٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٣).

كثير: «إنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان له متاعٌ فيها بغير إذنه كالبيت المعد للضيف إذا أذن له فيه أول مرة كفى». (١٩).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)﴾ [النور] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على
نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا عباد الله، اتقوا الله كما أمر، واجتنبوا الفواحش ما
بطن منها وما ظهر.

أيها الإخوة المؤمنون: من تمام أدب الاستئذان أن يستأذن الرجل
على محارمه؛ لأنه لا يدري ما الحال التي هن عليها، روى مالك عن

عطاء بن يسار أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أستأذن على أمي؟» فقال: «نعم»، فقال: «إني معها في البيت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أستأذن عليها، أتحب أن تراها عريانة؟» قال: لا، قال: «أستأذن عليها» قال ابن عبد البر: مرسل صحيح^(٢٠). وإن من الناس من لا يُحسن الأدب في ذلك، فلا يستأذن على محارمه، من باب إسقاط الكلفة. والحق أن الاستئذان ليس فيه كلفة بين القربات، وإنما هو من باب الحفاظ على الأبصار أن تقع على ما لا ينبغي.

وإذا كان الاستئذان مشروعاً حتى في الدخول على المحارم فإن بعض النساء أصلحن الله تتهتك في اللباس أمام محارمها، وقد تبدي من مفاتنها وعوراتها ما لا يحل حتى للمحرم أن يراه سوى زوجها، وقد يكون من محارمها من هو فاسقٌ يداخل قلبه شيءٌ من الفتنة من جراء ذلك.

ومن البلاء الذي ابتليت به نساء المسلمين البنطال واللباس الضيق والقصير عند المحارم مما يكون سبباً في الفتنة بها حتى من قبل محارمها الفساق نسأل الله تعالى العافية والسلامة. فالمرأة يجب أن تتحلى بالستر والعفاف ولا تتهتك حتى عند محارمها. ولو كان ذلك مسموحاً به

(٢٠) أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الاستئذان باب الاستئذان (٩٦٣/٢) قال ابن عبد البر: لا أعلم هذا الحديث يتصل بهذا اللفظ مسنداً بوجه من الوجوه، وهو من صحاح المراسيل. انظر: الاستذكار (١٥١/٢٧) ونقل ابن عبد البر آثاراً في ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وطاووس وعطاء وغيرهم.

عند محارمها لما أمر الرجل بالاستئذان حتى في الدخول على محارمه .
ومن كمال أدب الاستئذان : أن لا يدخل الرجل على زوجته فجأة ؛
بل يسلم ويحرك نعليه ويتنحج ، قال قتادة : «إذا دخلت بيتك فسلم على
أهلك فهم أحق من سلمت عليهم»^(٢١) . وقالت زينب امرأة عبد الله بن
مسعود رضي الله عنه وعنهما : «كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى
إلى الباب تنحج وبزق كراهة أن يهجم منا على أمرٍ يكرهه» صححه
ابن كثير^(٢٢) . وقال الإمام أحمد : «إذا دخل الرجل بيته استحب له أن
يتنحج أو يحرك نعليه»^(٢٣) ، ومن أجل ذلك نُهي المسافر أن يطرق
أهله طروقاً لئلا يتخونهم كما ثبت في الصحيحين من حديث جابر بن
عبد الله رضي الله عنهما .

أيها الإخوة: تلك آداب لو التزمها الناس لقويت بينهم المودة وعظمت
المحبة ، ولما استثقل بعضهم بعضاً . قال ابن عاشور بعد ذكره آيات
الاستئذان : «وفي ذلك من الآداب : أن المرء لا ينبغي أن يكون كلاً
على غيره ، ولا ينبغي أن يُعرض نفسه إلى الكراهية والاستثقال ، وأنه
ينبغي أن يكون الزائر والمزور متوافقين متآسسين وذلك عون على توفر
الأخوة الإسلامية»^(٢٤) .

(٢١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/١٤٣) .

(٢٢) تفسير ابن كثير (٣/٤٤٨) .

(٢٣) تفسير ابن كثير (٣/٤٤٨) .

(٢٤) التحرير والتنوير (١٨/١٩٨) .

فاتقوا الله ربكم وخذوا بآداب الكتاب والسنة فالخير كل الخير
فيهما، ومن حاد عنهما فقد زاغ وهلك، ثم صلوا وسلموا على نبيكم
كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

٩٢- القناعة: مفهومها ومنافعها

الجمعة ١٧/٧/١٤١٩هـ

الحمد لله؛ خلق العباد، وقسم الأرزاق، يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ويرزق من يشاء بغير حساب. أحمدته وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ تفرد في ربوبيته وإلهيته، وأسمائه وصفاته، وخلقه وتديره، وعلمه وإرادته، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ أصلح العباد قلباً، وأغناهم نفساً، وأسخاهم يداً. خيّر ربه بين أودية الذهب وبين رزق الكفاف فاختار أن يشبع يوماً ويجوع يوماً. لم يمكّ درهماً ليوم فاقتته، ولا حبس طعاماً يسد جوعته، ومات ودرعه مرهونة في شيء من شعير. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ باعوا الدنيا بالآخرة، وآثروا الآجلة على لذة العاجلة، فساحوا في الأرض ينشرون دين الله. واجهوا المخاطر، وتحملوا المصاعب؛ ابتغاء الله والدار الآخرة، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عز وجل؛ فبالتقوى يُبارك الرزق، ويتحول العسر إلى يسر، ويصير الضيق إلى سعة ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۖ (٤)﴾ [الطلاق].

أيها المؤمنون: يزدادُ التسخطُ في الناس، وعدمُ الرضى بما رزقوا إذا قلت القناعة فيهم، وحينئذ لا يرضيهم طعامٌ يشبعهم، ولا لباسٌ يواريههم، ولا مراكبٌ تحملهم؛ إذ يريدون الزيادة على ما يحتاجون في كل شيء، ولن يشبعهم شيء!! لأن أبصارهم وبصائرهم تنظر إلى من هم فوقهم، ولا تبصر من هم تحتهم؛ فيزدرون نعمة الله عليهم، ومهما أوتوا يريدون المزيد؛ كشارب ماء البحر لا يرتوي أبداً.

وهم لن يحصلوا السعادة أبداً؛ لأن سعادتهم في أن يصبحوا أعلى الناس في كل شيء، وذلك من أبعد المحال؛ ذلك أن العبد إن كملت له أشياء قصرت عنه أشياء، وإن علا بأمور نزلت به غيرها، ويأبى الله تعالى الكمال المطلق لأحد من خلقه.

لذا كانت القناعة من النعم العظيمة، حتى كان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل ربه أن يمن بها عليه فيقول عليه الصلاة والسلام: «اللهم قنّني بما رزقتني وبارك لي فيه...» أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي^(١). ولأنه صلى الله عليه وسلم رزق القناعة فإنه رضي بالقليل حتى كان من دعائه «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً» متفق عليه^(٢).

(١) أخرجه السهمي في تاريخ جرجان (ص ٩١) برقم (٥٠) و الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣٥٦/٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتخليهم عن الدنيا (٦٤٦٠) ومسلم في الزكاة باب في الكفاف والقناعة (١٠٥٥) والترمذي في الزهد باب ما جاء في معيشة النبي صلى الله عليه وسلم (٢٣٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكان عليه الصلاة والسلام يفرق المال العظيم، الوادي والوادين من الأنعام ولا يجد ما يأكله إلا القليل، قالت عائشة رضي الله عنها: «لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين» أخرجه مسلم^(٣)، وفي حديث آخر قالت: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليالٍ تباعاً حتى قبض» متفق عليه^(٤).

ولم يكن هذا المسلك من القناعة إلا اختياراً منه صلى الله عليه وسلم وزهداً في الدنيا، وإيثاراً للآخرة، نعم! إنه عليه السلام رفض الدنيا بعد أن عُرِضت عليه، وأباها بعد أن مُنِحها، وسلط المال على هلكته في الحق، وبات طاوياً جائعاً. يقول عليه الصلاة والسلام: «عَرَضَ عليّ ربي ليَجْعَلَ لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يارب؛ ولكن أشبعُ يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرعتُ إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك» أخرجه الترمذي وحسنه^(٥).

إنها القناعة! كانت من أوصافه صلى الله عليه وسلم، وأثنى على

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٧٤).

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتخليهم عن الدنيا (٦٤٥٤) ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٧٠).

(٥) أخرجه أحمد (٤٥٢/٥) و الترمذي في الزهد باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه وقال: هذا حديث حسن (٢٣٤٨) والبخاري في شرح السنة (٤٠٤٤) وأبو نعيم في الحلية (٣٣١/٨) كلهم من حديث أبي أمامة رضي الله عنه وفي سنده علي بن يزيد وهو ضعيف الحديث.

من اتصف بها، وبشره بالفوز والفلاح؛ فقال عليه الصلاة والسلام «طوبى لمن هُدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به» أخرجه الترمذي وصححه^(٦)، وقال صلى الله عليه وسلم: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه» أخرجه مسلم^(٧).

من عمر قلبه بالقناعة نعم بالراحة، وعاش الحياة الطيبة، وأبشر بالعز والغنى. فسر عليّ وابن عباس والحسن رضي الله عنهم قوله تعالى ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] فقالوا: «الحياة الطيبة هي القناعة»^(٨)، وفي هذا المعنى قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «من قنع طاب عيشه، ومن طمع طال طيشه»^(٩).

(٦) أخرجه أحمد (١٩/٦) والترمذي في الزهد باب ماجاء في الكفاف والصبر عليه وقال: حسن صحيح (٢٣٤٩) والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٣٤/١) والطبراني في الكبير (٣٠٥/١٨) برقم (٧٨٦) وصححه ابن حبان (٧٠٥) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه.

(٧) أخرجه مسلم في الزكاة باب في الكفاف والقناعة (١٠٥٤) والترمذي في الزهد باب ما جاء في الكفاف (٢٣٤٩).

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره عن علي والحسن (١٧١/١٤) عند تفسير الآية (٩٧) من سورة النحل، وأخرجه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما وصححه ووافقه الذهبي (٣٥٦/٢) وعزاه السيوطي لابن جرير فوهم؛ لأن ابن جرير أخرجه عن علي ولابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب، انظر: الدر المنثور (٢٤٤/٤).

(٩) سير أعلام النبلاء (٣٧٢/٢١).

وحقيقة الغنى : القناعة كما قال النبي عليه الصلاة والسلام «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس» متفق عليه ^(١٠)، وأوصى سعد بن أبي وقاص ابنه فقال : «يا بني إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة ؛ فإنها مال لا ينفد» ^(١١)، وسئل الفقيه أبو حازم : ما مالك؟ فقال : «الرضا عن الله ، والغنى عن الناس» ^(١٢).

وتمام العز لا يناله العبد إلا بالقناعة ؛ ذلك أن طلب المزيد يُذلُّ العبد للناس ؛ إذ يجعله محتاجاً إليهم . ومن هنا قال القائل : «الحرُّ عبدٌ ما طمع ، والعبد حرٌّ ما قنع» ^(١٣)، «وأنت أخو العزِّ ما التحفت القناعة» ^(١٤)، وكان محمد بن واسع رحمه الله تعالى يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول : «من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد» ^(١٥).

وكمالُ الشكر لله تعالى على نعمه لا يكون إلا بالقناعة ؛ لأن غير القنوع يطلب المزيد حتى لا يرضيه ما عنده ، فلا يشكر المنعم تعالى ولذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام : «كن ورعاً تكن أعبد الناس،

(١٠) أخرجه البخاري في الرقاق باب الغنى غنى النفس (٦٤٤٦) ومسلم في الزكاة باب ليس الغنى عن كثرة العرض (١٠٥١) والترمذي في الزهد باب ما جاء أن الغنى غنى النفس (٢٣٧٤).

(١١) عيون الأخبار لابن قتيبة (٢٠٧/٣).

(١٢) عيون الأخبار (٢٠٥/٣).

(١٣) سير أعلام النبلاء (٤٨٩/١٤).

(١٤) عيون الأخبار (٢٠٦/٣).

(١٥) إحياء علوم الدين للغزالي (٢٩٣/٣).

وكن قنعاً تكن أشكر الناس» أخرجه ابن ماجه ^(١٦).

ومن تسخط من رزقه فإنما يتسخط على من رزقه، ومن شكا قلته للخلق فإنما يشكو الخالق سبحانه وتعالى للخلق. وقد شكا رجل إلى قوم ضيقاً في رزقه فقال له بعضهم: «شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك» ^(١٧). وكتب بعض بني أمية إلى أبي حازم يعزم عليه أن يرفع إليه حوائجه فكتب إليه أبو حازم يقول: «قد رفعت حوائجي إلى

(١٦) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب الورع والتقوى (٤٢١٧) والبيهقي في الزهد الكبير (٨١٨) وأبونعيم في الحلية (٣٦٥/١٠) وفي أخبار أصفهان (٣٠٢/٢) وحسنه البوصيري في الزوائد (٣٠٠/٣) وأخرجه أحمد (٣١٠/٢) والترمذي في الزهد باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس (٢٣٠٥) والبيهقي في الشعب (٩٥٤٣) بلفظ آخر قريب من حديث الحسن عن أبي هريرة، والحسن رحمه الله تعالى مختلف في سماعه من أبي هريرة رضي الله عنه، والراجح أنه سمع منه؛ لأن الحسن رحمه الله أدرك من حياة أبي هريرة رضي الله عنه سبعاً وثلاثين سنة وسأكنه في المدينة ستة عشر عاماً تقريباً؛ وثبت عن الحسن تصريحه بأنه سمع من أبي هريرة في حديث رواه النسائي، قال الحسن عقب ذكره: «لم أسمع عن غير أبي هريرة»، انظر: سنن النسائي كتاب الطلاق باب ما جاء في الخلع (١٦٨/٦) قال الحافظ ابن حجر بعد أن ساقه: «وهذا إسناد لا مطعن في أحد من رواه وهو يؤيد أنه سمع من أبي هريرة في الجملة» تهذيب التهذيب (٤٨٤/١) رقم الترجمة (١٤٤٩) وللحديث طريق أخرى من رواية أبي رجاة محرز بن عبدالله الجزري عن برد بن سنان عن مكحول عن وائلة بن الأسقع عن أبي هريرة به وسندها حسن. ورجال إسنادها ثقات، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٣٠).

(١٧) عيون الأخبار (٢٠٨/٣).

مولاي، فما أعطاني منها قبلت، وما أمسك عني قَنَعَتْ»^(١٨).
 والقناعة تدل على قوة إيمان العبد بربه؛ لأنه آمن أن الرزق من الله تعالى فسَلَّم الأمر له، وقنع برزقه، ولم يُنزل حاجته بخلقه. قال عامرُ بن عبد قيس: «أربعُ آياتٍ من كتاب الله إذا قرأتَهن مساءً لم أبال على ما أمسي، وإذا تلوتهن صباحاً لم أبال على ما أصبح ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢] ﴿وَأَنْ يَرْذُكَ بَخِيرٌ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [يونس: ١٠٧] ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (٧) [الطلاق]^(١٩)، فهل يليق بمسلم يسمع هذه الآيات البينات أن يتقالَ رزقه، ويُذل للناس نفسه، ولا يرضى عن ربه؛ حتى يشتكي للخلق من عطائه.

ليست القناعة تمنع التاجر أن ينمي تجارته، ولا أن يضرب العبدُ في الأرض يطلبُ رزقه، ولا أن يسعى المرء فيما يعود عليه بالنفع؛ بل ذلك كله مطلوب ومرغوب. وإنما الممنوع أن يغش التاجر في تجارته، وأن يتسخط الموظف من مرتبته، وأن يغضب العامل من مهنته، وأن ينافق المسؤول من أجل منصبه، وأن يحسد الأخ أخاه على نعمته، وأن يذل المرء نفسه من أجل زيادة مال أو جاه.

ليس من القناعة أن يشكو العبد خالقه ورازقه إلى الخلق، ولا أن

(١٨) إحياء علوم الدين (٣/٢٣٩).

(١٩) عيون الأخبار (٣/٢٠٦).

يتطلع إلى ما ليس له، ولا أن يغضب إذا لم يبلغ ما تمنى، فقد يكون الخير له عكس ما تمنى.

لا تأبى القناعة أن يملك العبد مثاقيل الذهب والفضة، ولا أن يمتلئ صندوقه بالمال، ولا أن تمسك يده الملايين؛ ولكنها تأبى أن تلج هذه الأموال قلبه، وتملك عليه نفسه، حتى يمنع حق الله فيها، ويتكاسل عن الطاعات من أجلها، ويرتكب المناهي حفاظاً عليها، أو تنمية لها. وكم من صاحب مال وفير، وخير عظيم، رزق القناعة، فلا غش في تجارته، ولا منع أجراه حقوقهم، ولا أذل نفسه من أجل المال، ولا منع زكاته، مع المحافظة على الفرائض، واجتناب المحرمات. إن ربح شكر، وإن خسر رضي، فهذا قنوعٌ وإن ملك مال قارون، وما أقل صنفه في هذه الأزمان!!

وكم من مستورٍ يجد كفافاً، ملأ الطمع قلبه؛ حتى لم يرضه ما قُسم له؛ فتجزع من رزقه، وغضب على رازقه، وبث شكايته للناس، فهذا منزوع القناعة وإن كان لا يملك درهماً ولا فلساً.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبُّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٣٢) [الزخرف]، بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، أحمدته وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أيها المؤمنون: لو تفكر العاقل في أحوال الدنيا لما حزن على فوات مرغوب، ولا جزع من حصول مكروه، ولما أت القناعة فؤاده . فليس في الدنيا أحدٌ لا يجد من هو أفضلُ منه في شيء، ومن هو أقلُّ منه في أشياء! إن كنت فقيراً ففي الناس من هو أفقرُ منك، وإن كنت مريضاً ففيهم من هو أشدُّ منك مرضاً، فلماذا ترفعُ رأسك لتنظر من هو فوقك، ولا تخفضهُ لتبصر من هو تحتك . وقضيةُ الرزق أدق من أن تدرك، وأبعدُ من أن تفهم؛ إذ هي قضاء محتوم، وقدر مكتوب، في لوح محفوظ . والأعمال ما هي إلا أسباب للرزق، والرازق هو الله تعالى . وانظر إلى الناس ترَّ منهم الغواصين الذين جعل الله رزقهم في قرارات البحار فلا يصلون إليه حتى ينزلوا إلى أعماق الماء، والطياريين الذين وضع رزقهم فوق السحاب فلا يبلغونه حتى يصعدوا أعالي الفضاء . ومن الناس من رزقه في الصخر الأصم لا يناله إلا بتكسيه، ومنهم من رزقه في نقل التراب، أو حمل المتاع، أو تعليم أولاد الناس، ومنهم من ينال رزقه بلسانه أو بعقله أو بيده أو برجله^(٢٠) .

(٢٠) بتصرف من: مع الناس للشيخ علي الطنطاوي (٥٨-٥٩) .

إن القنوع قد لا ينال من الطعام أطيبه، ولا من اللباس أحسنه، ولا من العيش أرغده، ولكنه ينعم بالرضى أكثر من الطماع وإن كان الطماع أرغده عيشاً منه؛ لأن القنوع ينظر إلى الموسر وما يملك، فيراه لا يتففع إلا بقليل مما يملك! هل يستطيع الغني أن يشتري مئة لباس فيلبسها في آن واحد؟ أو مئة لون من طعام فيأكلها في وجبة واحدة؟ أو مئة دار فيسكنها في وقت واحد؟ كلا! لكنه سيحاسب عن ذلك كله.

ثم ليعلم العاقل أن كل حال إلى زوال، فلا يفرح غني حتى يطغى ويبطر، ولا ييأس فقير حتى يعصي ويكفر. فإنه لا فقر يدوم، ولا يدوم غنى. وكم من رجال نشؤوا على فرش الحرير، وشربوا بكؤوس الذهب، وورثوا كنوز المال، وأذلوا أعناق الرجال، وتعبدوا الأحرار؛ فما ماتوا حتى اشتهوا فراشاً خشناً يقي الجنب عض الأرض، ورغيفاً من خبز يحمي البطن من قرص الجوع. وآخرون قاسوا المحن والبلايا، وذاقوا الألم والحرمان، وطووا الليالي بلا طعام، فما ماتوا حتى ازدحمت عليهم النعم، وتكاثرت الخيرات، وصاروا من سراة الناس. وسيسوي الموت بين الأحياء جميعاً، الغني والفقير، والشريف والضيع. فدود الأرض لا يفرق بين المالك والأجير، ولا بين الصعلوك والأمير، ولا بين الكبير والصغير. كلهم يصير إلى البلى والانحلال إلا من أكرم الله جسده عن دود الأرض، ثم يلقي العبد السعادة الخالدة، أو الشقاء الأبدي^(٢١).

فلا يجزع فقير بفقره، ولا يبطر غني بغناه، وما أجمل القناعة،
من التزمها نال السعادة، جعلني وإياكم من أهل السعادة، ورزقنا القناعة.
ألا وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

٩٣- الشفاعة الحسنة

الجمعة ١٤١٧/٧/٢٥ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فلقد فاوت الله تعالى بين العباد في الرزق والعمل، وفي الجاه والشرف، وفي العلم والعبادة، وفي غير ذلك من شؤونهم، وسخر بعضهم لبعض؛ حتى يتحقق الاستخلاف، وتُعمّر الأرض. إذ لو كانوا على مستوى واحد لما كان بعضهم في خدمة بعض، وحينئذ لا يمكن العيش، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

وإذا كان في الدنيا تفاضل بين الناس في المال والجاه وغير ذلك،
فالتفاضل في الآخرة أعظم وأكبر. فطوبى لمن كان حظه من الرفعة
والمنزلة في الآخرة، ويا شقاء من كان عظيماً في الدنيا، حقيراً في
الآخرة ﴿كَلَّا تُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا
(٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا
(٢١)﴾ [الإسراء: ٢٠، ٢١].

أيها الإخوة: من أجل تلك السنة الكونية، جاءت السنة الشرعية
بالتعاون بين الناس، وإعانتهم على قضاء حوائجهم، وبذل الشفاعة
الحسنة لهم ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً
سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كَفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتِنًا﴾ [النساء: ٨٥] قال مجاهد
رحمه الله تعالى: «نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض»^(١).
وأكد النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، قال أبو موسى الأشعري
رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً فجاء رجل
يسأل؟ فأقبل علينا بوجهه وقال: «اشفعوا فلتؤجروا، ويقضي الله على
لسان رسوله ما شاء» متفق عليه^(٢). وكان معاوية رضي الله عنه يقول:

(١) تفسير ابن كثير (١/٨٠٥).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ
نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ [النساء: ٨٥] (٦٠٢٨) ومسلم في البر باب استحباب الشفاعة
(٢٦٢٧) وأبو داود في الأدب باب في الشفاعة (٥١٣١) والترمذي في العلم
باب الدال على الخير كفاعله (٢٦٦٤) والنسائي في الزكاة باب الشفاعة في
الصدقة (٥/٧٨).

إن الرجلَ ليسألني الشيءَ فأمنعُه حتى تشفعوا فيه فتؤجروا وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اشفعوا تؤجروا...» أخرجه أبو داود والنسائي^(٣).

ويعظم شرف الساعي في حاجة أخيه حيث يكون الله تعالى في حاجته، فقد جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما «... ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته» متفق عليه^(٤).

وفي قضاء حاجة أخيك إدخالٌ للسرور على قلبه، وذلك أمره عظيم عند الله تعالى، ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لقي أخاه المسلم بما يحب ليسرهُ بذلك سرّه الله يوم القيامة» أخرجه الطبراني وحسنه الهيثمي^(٥). ومحبّة الله عز وجل تُنال بهذا العمل الجليل، ويكون العبدُ بنفعه

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب باب في الشفاعة (٥١٣٢) والنسائي في الزكاة باب الشفاعة في الصدقة (٧٨/٥).

(٤) جزء من حديث «المسلم أخو المسلم...» أخرجه البخاري في المظالم باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (٢٤٤٢) ومسلم في البر والصلة باب تحریم الظلم (٢٥٨٠) والترمذي في الحدود باب ما جاء في السر على المسلم (١٤٢٦).

(٥) انظر: مجمع الزوائد (١٩٣/٨) لكن ذكره بلفظ «من لقي أخاه المسلم بما يحب الله ليسره...» ولفظ الجلالة بعد (يحب) أظنها زائدة إما من الطبع أو من النسخ؛ إذ هو في المعجم الصغير للطبراني تحقيق كمال يوسف الحوت من دون لفظ الجلالة برقم (١١٤٥) وكذلك في الروض الداني إلى المعجم الصغير للطبراني تحقيق محمد شكور ومحمد الحاج أمريز من دونها (١١٧٨) قال الهيثمي: إسناده حسن.

لإخوانه، وبذلِ جاهه لهم خيرَ الناس فقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خير الناس أنفعهم للناس»^(٦)، وفي حديث آخر «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس» أخرجه ابن أبي الدنيا بسند حسن^(٧).

وإذا تمت النعمة على العبد فرزق مالا عظيماً، وجاهاً رفيعاً، فلا شيء أحب إليه من أن يستمر ذلك له، ويشد خوفه من زوال تلك النعمة، وودَّ لو بذل مالا كثيراً في سبيل بقاء جاهه عند الناس. ومن أعظم ما يُبقي ذلك صنعُ المعروف، ونفعُ الناس، وبذلُ هذا الجاه لهم، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة» أخرجه الطبراني بإسناد حسن^(٨).

(٦) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢/٢٢٣) برقم (١٢٣٤) من حديث جابر رضي الله عنه وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٨٩) وذكره في السلسلة الصحيحة ونقل عن السخاوي تقويته (٤٢٦).

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير في حديث طويل برقم (١٣٦٤٦) وابن أبي الدنيا في قضاء الحاجات من حديث ابن عمر برقم (٣٦) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٧٦) وذكره في الصحيحة (٩٠٦).

(٨) أخرج الطبراني في الكبير الشطر الأول منه (٨/٣١٢) برقم (٨٠١٤) و(٨٠١٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، قال الهيثمي في الزوائد: وإسناده حسن (١١٥/٣) وعزاه السيوطي في الجامع الصغير للحاكم في مستدركه من حديث أنس رضي الله عنه (٥٠٤١) ولم أعثر عليه في المستدرک. ورمز له السيوطي بالصحة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٩٥).

ومن صنع إليهم معروفاً سيدعون له ببقاء جاهه، والدعاء من أنفع الأسباب المبقية له، ولا سيما أنه دعاء بظهر الغيب.

وإذا كان صاحبُ الجاه أو المال أناني النفس، خبيث الطبع، عبداً لذاته، مؤثراً لنفسه، لا يعمل خيراً، ولا يسعى في خير. تكون عنده حاجات الناس فيتبرم منها، ويضيق بهم. لا يرى أن الله تعالى فضلاً حيث رزقه ومكّنه، ولا يرى للعباد حقاً في جاهه أو ماله. إذا راجعه الناس فيما يحتاجون من شؤونهم وجدوا أبوابه دونهم موصدة. وإذا طُلبت منه شفاعَةٌ حسنة يقدر عليها كلح وتقبّض، كأن ذلك يؤخذ من لحمه ودمه. لا يبذل الشفاعة، ولا يقضي الحاجة إلا إذا كان يرجو من ورائها نفعاً عاجلاً. يصيح بالمحتاجين لشفاعته، أو من حاجتهم عنده بأن قضاء ذلك مستحيل، فإذا ما تعارض ذلك المستحيل مع رغباته وحاجاته يصبح ذلك المستحيل معقولاً، وغير الممكن ممكناً، ويكون العسيرُ يسيراً، والصعبُ سهلاً؛ إما لأن الحاجة لقوي يستطيع أخذ حقه، أو لذي جاه يرجو وراءه نفعاً مقابلاً.

وما علم أن النفع العاجل والآجل إنما يكون في بذل جاهه للضعفاء، وقضاء حاجات المحتاجين، وصنع المعروف في سائر الناس، حينما يقضي حاجة ذلك الضعيف العاجز؛ فيمد يديه إلى السماء يدعو الله أن يحفظ من قضاها في جاهه وماله، ونفسه وأهله، فتلك الثمرة العظمى، والربح الأكبر، لمن كان يعقل.

ومن كان على غير ذلك فقد عرض نعمة الله تعالى عليه للزوال،

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الله أقواماً يختصهم بالنعم لمنافع العباد، ويقرهم فيها ما بذلوا لها فإذا منعوها نزعتها الله منهم فحولها إلى غيرهم» أخرجه الطبراني بسند حسن^(٩). وجاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من عبد أنعم الله عليه نعمةً فأسبغها عليه ثم جعل من حوائج الناس إليه فتبرم فقد عرّض تلك النعمة للزوال» أخرجه الطبراني بإسناده جيد^(١٠). وكان من سيرة السلف رحمهم الله تعالى أنهم يحبون قضاء الحوائج، وصنائع المعروف، ويرون أن من المصائب عدم قصد الناس لهم في حوائجهم، قال حكيم بن حزام رضي الله عنه: «ما أصبحت وليس بيابي صاحب حاجة إلا علمت أنها من المصائب التي أسأل الله الأجر عليها»^(١١).

وأعظم من ذلك أنهم يرون أن صاحب الحاجة منعمٌ على صاحب

(٩) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٢٩٥) وأبو نعيم في الحلية (١١٥/٦) وفي أخبار أصبهان (٢٧٦/٢) وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج (٥) والخطيب في تاريخه (٤٥٩/٩) وعزاه ابن مفلح للإمام أحمد كما في الآداب الشرعية من حديث ابن عمر رضي الله عنهما (١٨١/٢) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١٦٤) وذكره في الصحيحة (١٦٩٢).

(١٠) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٥٢٩) وقال الهيثمي: إسناده جيد، وقال المنذري: رواه الطبراني بإسناد جيد، انظر: الترغيب والترهيب (٣٩١/٣) ومجمع الزوائد (١٩٢/٨).

(١١) السير (٥١/٣).

الجاء، ومتفضل عليه حينما أنزل حاجته به، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ثلاثة لا أكافئهم: رجلٌ بدأني بالسلام، ورجلٌ وسَّع لي في المجلس، ورجلٌ اغبرت قدماء في المشي إليَّ إرادة التسليم عليّ، فأما الرابعُ فلا يكافئه عني إلا الله عز وجل، قيل: ومن هو؟ قال: رجلٌ نزلَ به أمر فبات ليلته يفكر بمن يُنزلُه ثم رآني أهلاً لحاجته فأنزلها بي»^(١٢).

وكان من السلف الصالح من يعتبر قضاء حوائج الناس، والشفاعة لهم خيراً من نوافل العبادات؛ لأن النوافل خيرها مقصور على صاحبه، أما الشفاعة فخيرها متعدداً لصاحب الحاجة وللشافع وللشفوع عنده. قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «لأن أقضي لمسلم حاجة أحب إليَّ من أن أصلي ألف ركعة»، وروي عنه أنه قال: «خيرٌ من أن أعتكف شهرين»^(١٣).

وما دفعهم لذلك إلا لأنهم يرون أن السعي في حوائج الناس زكاةٌ للجاء الذي أعطاهم الله تعالى. جاء رجل إلى الحسن بن سهل يستشفع به في حاجة فقضاها فأقبل الرجل يشكره، فقال له الحسن بن سهل: «علامَ تشكرنا ونحن نرى أن للجاء زكاةً كما أن للمال زكاة. وفي لفظ: ونحن نرى كتب الشفاعات زكاة مروأتنا»^(١٤).

(١٢) عيون الأخبار لابن قتيبة (١٩٧/٣).

(١٣) قضاء الحوائج لابن أبي الدنيا (٤٢).

(١٤) الآداب الشرعية لابن مفلح (١٧٦/٢).

ألا فاتقوا الله ربكم، وابدلوا جاهكم، وأعينوا إخوانكم في الحق؛
فذلك من أعظم أسباب محبة الله تعالى ومحبة الناس للعبد.
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ
نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
مُقِيتًا﴾ (٨٥) [النساء] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على
الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً
عبده ورسوله النبي الأمين، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه
والتابعين ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.
أما بعد: فإن للشافع وطالب الحاجة آداباً ينبغي أن يتحلى بها
المرء لتقضى حاجته، ولا يكون عرضه للرد، من تلکم الآداب:
أن لا يطلب المرء ما لا يستحق، وأن يُنزل حاجته بأهلها الأكفاء،
ويختار الوقت المناسب في طلبها، قال خالد بن صفوان: «لا تطلبوا
الحوائج عند غير أهلها، ولا تطلبوها في غير حينها، ولا تطلبوا ما لا
تستحقون منها؛ فإن من طلب ما لا يستحق استوجب الحرمان» (١٥).
وحينما يريد أن يشفع أو يطلب حاجته عليه أن يختار من الكلام
أطيبه، دخل ابن السَّمَّك على رئيس في شفاعته لفقير فقال: «إني
أتيتك في حاجة والطالب والمعطي عزيزان إن قضيت الحاجة، ذليلان

إن لم تقض فاختر لنفسك عزَّ البذلِ عن ذلِّ المنع، وعز النَّجح عن ذلِّ الردِّ»^(١٦).

وعليه أن لا يُلح في طلب حاجته، قال سفيان: «الإلحاح لا يصلح ولا يجمل إلا على الله عزوجل»^(١٧).

وإذا لم تقض حاجته، أو لم تقبل شفاعته فعليه أن يلتمس العذر لأخيه، وسيد الخلق صلى الله عليه وسلم قد رُدَّتْ شفاعته وهو أعظم الخلق حقاً، وأولى بكل مؤمن من نفسه. روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن زوج بريرة كان عبداً يقال له: مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعباس: «يا عباس: ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثاً؟» فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو راجعته؟» قالت يا رسول الله، تأمرني؟ قال: «إنما أشفع» قالت: فلا حاجة لي فيه»^(١٨) فردَّتْ شفاعته صلى الله عليه وسلم.

وقال محمد بن واسع لقتيبة بن مسلم: «إني أتيتك في حاجة رفعتها إلى الله قبلك فإن يأذن الله فيها قضيتها وحمدناك، وإن لم يأذن فيها

(١٦) سير أعلام النبلاء (٣٢٩/٨).

(١٧) الآداب الشرعية (١٧٩/٢).

(١٨) أخرجه البخاري في الطلاق باب شفاعته النبي صلى الله عليه وسلم في زوج بريرة (٥٢٨٣) وأبو داود في الطلاق باب في المملوكة تعتق وهي تحت حر أو عبد (٢٢٣١) والترمذي في الرضاع باب ما جاء في الأمة تعتق ولها زوج (١١٥٦) والنسائي في القضاة (٢٤٥/٨).

لم تقضها وعذرناك»^(١٩).

وإذا قُضيت حاجة المرء وجب عليه أن يبذل الشكر والدعاء للشافع والمشفوع عنده؛ فقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» أخرجه أحمد والترمذي^(٢٠) وفي حديث آخر: «... من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه» أخرجه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح^(٢١). وقال بعضهم: «إذا قصُرت يدك عن المكافأة فليَطلْ لسانك بالشكر»^(٢٢).

ومن آداب من طلبت منه شفاعاة أو حاجةً تقضى:
أن يبادر بقضائها ولا يتوانى في ذلك قال جعفر بن محمد: «إن الحاجة تعرض للرجل قبلي فأبادر بقضائها مخافة أن يستغني عنها أو تأتية وقد استبطأها فلا يكون لها عنده موقع»^(٢٣).

(١٩) الآداب الشرعية (١٧٧/٢).

(٢٠) أخرجه أحمد (٧٤/٣) والترمذي في البر والصلة باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك (١٩٥٤) وابن أبي الدنيا في الشكر (٣٣) وفي قضاء الحاجات (٧١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٩٠٩٦) وعزاه الألباني للضيء المقدسي وصححه في صحيح الجامع (٦٥٤١) وفي الصحيحة (٤١٧).

(٢١) أخرجه أبو داود في الزكاة باب عطية من سأل بالله (٦٨٢) والنسائي في الزكاة باب من سأل بالله عز وجل (٨٢/٥).

(٢٢) عيون الأخبار (١٧٨/٣).

(٢٣) عيون الأخبار (١٩٦/٣).

ومن أعظم ما يفسدُ المعروف: المنُّ به وذكره عند الناس، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا يتم المعروف إلا بثلاث: تعجيله وتصغيره وستره، فإنه إذا عجله هنأه، وإذا صغره عظّمه، وإذا ستره تممه»^(٢٤). وقد قيل: «المنّة تهدم الصنيعة»^(٢٤). وقال رجل لابن شبرمة: فعلتُ بفلان كذا وفعلتُ به كذا فقال: «لا خير في المعروف إذا أُحصي»^(٢٤). ومن منكرات الشفاعة: أن تشفع لأخيك في اقتطاع حق امرئ مسلم، أو إلحاق الضرر به، أو في تقديمه على من هو أولى منه، وكل ذلك لا يجوز.

والشفاعة في الحدود من أعظم المنكرات؛ ولذا أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على أسامة بن زيد شفاعته في التي سرت وقال له: «أتشفع في حدٍ من حدود الله تعالى...» متفق عليه^(٢٥).

أيها الإخوة: إذا ساد التعاون بين الناس، وقضى بعضهم حاجة بعض فإن ذلك كفيل بدوام الألفة، وبالقضاء على الرشوة. ومن أخلص النية لله تعالى فإنه سيوفقه، ويجعلُ قضاء الحوائج على يديه؛ حتى

(٢٤) عيون الأخبار (٣/١٩٨).

(٢٥) حديث عائشة في المرأة المخزومية التي سرقت وأهم قريشاً أمرها أخرجه البخاري في الحدود باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع (٦٧٨٧)، ومسلم في الحدود باب قطع السارق الشريف وغيره (١٦٨٨) والترمذي في الحدود باب ماجاء في كراهية أن يشفع في الحدود (١٤٣٠) وأبو داود في الحدود باب في الحد يشفع فيه (٤٣٧٣) والنسائي في السارق باب ما يكون حرزاً ومالا يكون (٨/٧٤).

إنه يشفع عند من لا يعرفه فتقبل شفاعته، ويكون محبوباً عند الله وعند الناس وكفى بذلك شرفاً.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «كان هارون الرقي قد عاهد الله أن لا يسأله أحد كتاب شفاعته إلا فعل، فجاءه رجل فأخبره أن ابنه قد أسر بالروم وسأله أن يكتب إلى ملك الروم في إطلاقه، فقال له: ويحك ومن أين يعرفني؟ وإذا سألت عني قيل: هو مسلم فكيف يقضي حقي؟ فقال له السائل: أذكر العهد مع الله تعالى، فكتب له إلى ملك الروم فلما قرأ الكتاب قال: من هذا الذي شفع إلينا؟ قيل: هذا رجل قد عاهد الله لا يسأل كتاب شفاعته إلا كتبه إلى أي من كان، فقال ملك الروم: هذا حقيق بالإسعاف، أطلقوا أسيره، واكتبوا جواب كتابه وقولوا له: اكتب بكل حاجة تعرض فإننا نُشفعك فيها»^(٢٦).

فاتقوا الله ربكم وأعينوا إخوانكم، وتواصوا بالحق والعدل، وتعاونوا على البر والتقوى؛ فلن يبقى للإنسان إلا عمله وذكره في الناس. فكم من شخص مات وذكره لا يزال حياً في الناس، يعطرون به مجالسهم، ويلهجون بالدعاء له، والترحم عليه؛ لما كان يقضي من الحوائج، ويبدل من الشفاعات، ويصنع من المعروف، ثم صلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم.

* * *

٩٤- التزاور في الله تعالى

الجمعة ١٧/١/١٤١٨هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن المسلم حينما يستحضر النية لله في شؤونه، ويخلص لله تعالى في أقواله وأفعاله، وحركاته وسكناته، فإنه لا يزال في عبادة مادام كذلك، وتنقلب عاداته إلى عبادات يؤجر عليها.

فالأكل والشرب ضروريان لقوام الجسد، والناس كلهم يأكلون ويشربون؛ لكن المؤمن يستحضر عند أكله وشربه التقوي على طاعة الله تعالى فأكله وشربه عبادة؛ لأنهما وسيلة إلى عبادة. والعمل والضرب في الأرض تدعو إليه الحاجة، والناس كلهم يسعون في طلب أرزاقهم. لكن المسلم يستحضر عند سعيه الاغتناء بالحلال عن الحرام، وأجر

النفقة على الأهل والعيال. فينقلب ذلك العمل والسعي إلى عبادة؛ لأنه أدى إلى عبادة.

والاجتماع مع الأهل والقراة عادة تحتمها الأعراف والتقاليد؛ لكن المسلم يستحضر حين اجتماعه بقراة صلة الرحم، وأداء الواجب؛ فيكون اجتماعه عبادة.

وهكذا يقال في التزاور بين الأقران، والاجتماع بالأصحاب، حيث تحصيل الأُنس والسرور، وترويحُ القلوب. ومع ما فيه من الانبساط والمتعة، ورغم أن سجية الإنسان تدعوه للقاء أصحابه وزيارتهم إلا أن المسلم إذا استحضر النية في ذلك، وأخلص لله تعالى فهو في عبادة يؤجر عليها مع ما في ذلك من تسلية النفس ومتعتها. وكذلك كل شؤوننا التي نرى أنها من قبيل العادات والأعراف، أو الحاجات والضرورات، إذا استحضرت فيها النوايا كانت عبادات؛ وذلك فضل من الله تعالى على عباده، فله الحمد والشكر لا نحصي ثناء عليه كما أثنى هو على نفسه.

أيها الإخوة: وهذا تذكير بأداب الزيارة بين الأصحاب، والاجتماع بالأحباب، في وقت استولت فيه الماديات على كثير من القلوب؛ حتى أصبح المعولُّ عليه في كثير من الزيارات النفع الذاتي، والمصالح الدنيوية. ويجهل الكثيرون ما للزيارة في الله تعالى من الأجر العظيم مع حصول الأُنس بالصاحب والقرين.

فثوابُ الزيارة في الله تعالى الجنة؛ كما روى أنس بن مالك رضي

الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من عبد أتى أخاه يزوره في الله إلا ناداه منادٌ من السماء أن طُبت وطابت لك الجنة وإلا قال الله في ملكوت عرشه: عبدي زارني، وعليّ قرأه فلم يرض له بثواب دون الجنة» أخرجه البزار وأبو يعلى بإسناد جيد^(١). وفي حديث أبي هريرة عند الترمذي وحسنه «ناداه منادٌ بأن طُبت وطاب ممثاك وتبوات من الجنة منزلاً»^(٢).

وزيارة الإخوان في الله سبب لنيل محبته تبارك وتعالى - وهل يعمل المسلم ما يعمل من الصالحات إلا لنيل محبته سبحانه وتعالى - عن أبي إدريس الخولاني رحمه الله قال: «دخلت مسجد دمشق، فإذا فتى شابٌ براقُ الثنايا، وإذا الناس معه إذا اختلفوا في شيء أسندوا إليه وصدروا عن قوله، فسألت عنه، فقليل: هذا معاذ بن جبل، فلما كان من الغد، هجرت فوجدته قد سبقني بالتهجير ووجدته يصلي، قال: فانتظرته حتى قضى صلاته ثم جئته من قبل وجهه فسلمت عليه، ثم

(١) أخرجه أبو يعلى كما في المقصد العلي للهيثمي (١٠١٩) والبزار كما في كشف الأستار (١٩١٨) ومختصر زوائد البزار لابن حجر (١٨١٣) وعزاه الحافظ في المطالب العالية لأبي بكر بن أبي شيبة (٢٥٩٣)، قال الهيثمي في المجمع: ورجال أبي يعلى رجال الصحيح غير ميمون بن عجلان وهو ثقة (١٧٣/٨) وجود إسناده الدمياطي في المتجر الرابع (١٥١٢).

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة باب ماجاء في زيارة الإخوان وقال: حديث حسن غريب (٢٠٠٨) وابن ماجه في الجنازات باب ماجاء في ثواب من عاد مريضاً (١٤٤٣) وحسنه الألباني في المشكاة (٥٠١٥).

قلت : والله إني لأحبك لله ، فقال : الله ؟ فقلت : الله ، فقال : الله ؟ فقلت :
الله ، فقال : الله ؟ ، فقلت : الله ، قال : فأخذني بحبوة ردائي فجذبني
إليه وقال : أبشر فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
« قال الله تبارك وتعالى : وجبت محبتي للمتحابين فيّ ، وللمتجالسين
فيّ ، والمتزاورين فيّ ، والمتبازلين فيّ » أخرجه مالك بإسناد صحيح^(٣) .

وقد يستهين بعض الناس في أمر السفرِ وشد الرحالِ لزيارة أحبائه في الله تعالى مع ما في ذلك من تحصيل محبة الله عزوجل ، فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم «أن رجلاً زار أخاه في قرية فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك من نعمة تربُّها؟ قال: لا غير أنني أحبته في الله، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحبته فيه» أخرجه مسلم (٤).

وهذه الزيارة التي هي لله يجب أن يُقضى وقتها في المعروف، فلا يكون الاجتماعُ فيها على منكر أو إقراره، فلا يُجتمع فيها على مشاهدة الحرام أو سماعه أو ممارسته. وإذا حصل فيها المنكر وأقرَّ خرجت عن

(٣) أخرجه مالك في الموطأ كتاب الشعر باب ماجاء في المتحابين في الله (٢/ ٩٥٣) وأحمد (٥/ ٢٣٣) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٥٠) والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٤/ ١٦٨) وصححه ابن عبد البر في التمهيد (٢١/ ١٢٥) والنووي في رياض الصالحين (٣٨٢) وقال الهيثمي عن رواية أحمد: ورجاله رجال الصحيح (١٠/ ٢٧٩).

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة باب في فضل الحب في الله (٢٥٦٧).

مقصودها فينقلبُ صاحبُها من مأجور إلى موزور .
 وليس من صفات الزيارة لله أن تكون مجالاً لقتل الوقت وتضييعه
 كما في زيارات البطالين ومنحطي الهمم الذين ينشئون أماكن التجمع
 والاسترواح من أجل قطع الأوقات لما يعانونه من فراغ . فالمسلم المستمسك
 بدينه لا فراغ عنده ؛ بل هو مستمر العمل فيما يصلحه في الدنيا والآخرة ،
 لا تجده إلا مصلياً ، أو تالياً لكتاب الله ، أو مواظباً على تحصيل العلوم ،
 أو ماشياً في برٍّ والديه ، أو صلة أرحامه ، أو عائداً مريضاً ، أو مشيعاً
 جنازة ، أو زائراً أخاً في الله ، أو ضارباً في الأرض مكتسباً ، فلا يكاد
 يوجد عنده فراغ حتى يعمل فكره وجهده كيف يقضيه فيما لا ينفع .
 ومن آداب الزيارة : أن يتجمل الزائر في لبسه ويمس من طيبه ؛
 إظهاراً لنعمة الله عليه ، ورعاية لحق من يزوره ، ولقد كان عند رسول
 الله صلى الله عليه وسلم جبة يلبسها للوفود ويوم الجمعة^(٥) ، وجاء أبو
 أمية إلى أبي العالية وعليه ثياب صوف ، فقال له أبو العالية : « إنما هذه
 ثياب الرهبان ، إن كان المسلمون إذا تزاوروا تجملوا »^(٦) .

ويُخلص نيته لله قبل خروجه للزيارة حتى يكتب ممشاه أجراً ، فإذا
 وصل إلى مقصوده راعى آداب الاستئذان ، فإذا أذن له ألقى السلام

(٥) كما في حديث عبد الله مولى أسماء عند مسلم في اللباس والزينة باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء (٢٠٦٩) والبخاري في الأدب المفرد (٣٤٨) .

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٤٨) .

الشرعي على من في المجلس، ويجلس حيث ينتهي به المجلس، وإذا رأى من إخوانه من يحب الجلوس بجواره وفي المكان سعة فلا بأس فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أكرم الناس علي جليسي الذي يتخطى رقاب الناس حتى يجلس إلي»^(٧).

قال الفقهاء: «وإن أمره صاحب المنزل أن يجلس في مكان منه لم يجز أن يتعداه لأنه ملكه وسلطانه وتكرمه؛ ولهذا لو لم يأذن في الدخول لم يجز، ولو أمره بالخروج لم يجز له المقام فيه.

ذكر ابن عبد البر أن خارجة بن زيد النحوي دخل على محمد بن سيرين بيته زائراً له قال: فوجدته جالساً بالأرض إلى وسادة فقلت له: إني قد رضيت لنفسي ما قد رضيت لنفسك فقال: إني لا أرضى لك في بيتي بما أرضى به لنفسي فاجلس حيث تؤمر فلعل الرجل أن يكون في بيته شيء يكره أن تستقبله» اهـ^(٨).

ويجتنب الثرثرة واللغو والكلام الذي لا يفيد فلقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مساويكم أخلاقاً، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون» أخرجه أحمد وصححه ابن حبان^(٩).

(٧) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان (١١٧).

(٨) الآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلي (٤٠١/١).

(٩) أخرجه أحمد من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه واللفظ له (١٩٣/٤) وابن حبان (٤٨٢) والبخاري في شرح السنة (٣٣٩٥) وأخرجه الترمذي في البر والصلة من حديث جابر رضي الله عنه وقال: حديث حسن (٢٠١٩).

وإن قُدِّمَ له طعام أكل منه ودعا لصاحبه فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «زار أهل بيت من الأنصار فطعمَ عندهم طعاماً، فلما أراد أن يخرج أمر بمكان من البيت فنضح له على بساط فصلى عليه ودعا لهم» أخرجه البخاري^(١٠). قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «وفي الحديث استحبابُ الزيارة، ودعاء الزائر لمن زاره وطعمَ عنده»^(١١).

وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «ومن آداب الزائر: أن لا يقترح طعاماً بعينه، وإن خير بين طعامين اختار الأيسر إلا أن يعلم أن مضيفه يُسرُّ باقتراحه ولا يَقْصُر عن تحصيل ذلك. قال: وينبغي أن لا يقصد بالإجابة إلى الدعوة نفس الأكل بل ينوي به الاقتداء بالسنة وإكرام أخيه المؤمن، وينوي صيانة نفسه عن سيء به الظن، فربما قيل عنه إذا امتنع هذا متكبر، ولا يكثر النظر إلى المكان الذي يخرج منه الطعام فإنه دليل منه على الشره»^(١٢).

قال ابن مفلح الحنبلي رحمه الله تعالى: «ومنه الأكل الكثير الذي يخرج عن العادة في ذلك الوقت؛ ولهذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إذا دعي أكل ما يكسر نهمة قبل ذهابه، ولعله تبع في ذلك

(١٠) أخرجه البخاري في كتاب الأدب من صحيحه باب الزيارة (٦٠٨٠) وفي الأدب المفرد (٣٤٧).

(١١) فتح الباري (٥١٦/١٠).

(١٢) الآداب الشرعية (٢٠٨/٣).

من مضى من السلف . وقد ذكر ابن عبد البر رحمه الله عن علي رضي الله عنه أنه كان إذا دعي إلى طعام أكل شيئاً قبل أن يأتيه ويقول : قبيح بالرجل أن يظهر نهمته في طعام غيره ، قال ابن مفلح : وهذا والله أعلم يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال» اهـ^(١٣) .

أيها الإخوة: هذه جملة من آداب الزيارة ، من راعاها نال محبة الله تعالى ومحبة الناس ؛ فيكتب له الأجر على زيارته لإخوانه ويكون محل تقدير الناس فلا يستثقلونه .

أسأل الله تعالى أن يؤدبنا بأدب الإسلام ، وأن يرزقنا الفقه في الدين إنه سميع مجيب ، وأقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم . . .

الخطبة الثانية

الحمد لله ، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين .
أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - بفعل ما أمر ، واجتنبوا الفواحش ما بطن منها وما ظهر .

أيها الإخوة المؤمنون: زيارة الإخوان كثرة وقلة تكون على حسبهم قرباً ومودة ، وذلك لم يحدّ ، بل متروك للأعراف والعادات ، وبحسب

انبساط الأصحاب؛ ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور أبا بكر في اليوم الواحد مرتين، قالت عائشة رضي الله عنها: «لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين، ولم يمرّ عليهما يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفي النهار بكرة وعشية...» الحديث أخرجه البخاري في صحيحه^(١٤)، وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم «زر غباً تزدد حباً»^(١٥) فيحمل على من ليست له خصوصية ومودة ثابتة، فلا ينقص كثرة زيارته من منزلته، قال ابن بطال رحمه الله: «الصدق الملاطف لا يزيده كثرة الزيارات إلا محبة بخلاف غيره»^(١٦).

وينبغي للأخ أن يعذر أخاه إذا تأخر في زيارته ولقياه؛ لأنه لا يدري ما يعرض لأخيه من شواغل وصوارف، قال يوسف القاضي لأبي إسحاق الحربي رحمهما الله: «يا أبا إسحاق لو جئناك على مقدار

(١٤) أخرجه البخاري في الأدب باب هل يزور صاحبه كل يوم أو بكرة وعشياً (٦٠٧٩).

(١٥) هذا الحديث جاء من طرق كثيرة جمعها أبونعيم كما ذكر الحافظ في الفتح (٥١٤/١٠) وقد أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١٩٢٢) والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان (٨٣٧١) من حديث أبي هريرة، وأخرجه البزار كما في كشف الأستار (١٩٢٣) والبيهقي من حديث أبي ذر وأخرجه الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرک (٣/٣٤٧) عن حبيب بن مسلمة وأخرجه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد (٨/١٧٥) وقال الهيثمي: وإسناده جيد عن ابن عمرو والخطيب في تاريخه (١٠/١٨٢) عن عائشة، وقوى طريق الحاكم ابن حجر في الفتح (٥١٤/١٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٦٨).

(١٦) فتح الباري للحافظ ابن حجر (١٠/٥١٥).

واجب حقك لكانت أوقاتنا كلها عندك، فقال: ليس كل غيبة جفوة، ولا كل لقاء مودة، وإنما هو تقارب القلوب»^(١٧).

ومن أعظم الزيارات أجراً: زيارة المريض - التي قصر الناس في زيارة من يعرفون من مرضاهم فكيف بمن لا يعرفون - عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من عاد مريضاً لم يزل يخوض في الرحمة حتى يجلس فإذا جلس اغتمس فيها» أخرجه أحمد بإسناد صحيح^(١٨). وفي صحيح مسلم من حديث ثوبان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل في خُرقة الجنة حتى يرجع» قيل: يا رسول الله: وما خُرقة الجنة قال: «جناها»^(١٩). وفي حديث علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من مسلم يعود مسلماً غُدُوَةً إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإن عادته عشية إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح وكان له خريف في الجنة» أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه. وفي

(١٧) سير أعلام النبلاء (١٣/٣٥٨).

(١٨) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/٢٣٤) وأحمد (٣/٣٠٤) والبيهقي (٣/٨٠) والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي (١/٣٥٠) وصححه ابن حبان (٢٩٥٦) وقال الهيثمي في المجمع: رجال أحمد رجال الصحيح (٢/٢٩٧) وصححه الدمياطي في المتجر الرابع (١٥٥٠).

(١٩) أخرجه أحمد (٥/٢٨٣) ومسلم في البر والصلة باب فضل عيادة المريض (٢٥٦٨) والترمذي في الجنائز (٩٦٧) وابن حبان (٢٩٥٧).

لفظ لأحمد وابن ماجه «... وما من رجل يعود مريضاً ممسياً إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح، ومن أتاه مصباحاً خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يمسي» (٢٠).

ومن الزيارات المأمور بها: زيارة القبور، قال النبي عليه الصلاة والسلام «نهيتكم عن ثلاث وأنا آمركم بهن: نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن زيارتها تذكركم...» أخرجه أبو داود عن بريدة رضي الله عنه (٢١). وعند الحاكم بسند صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها ترقُّ القلب، وتُدَمِّعُ العين، وتذكر الآخرة، ولا تقولوا هُجْراً» (٢٢).

وقد هجرت تلك الزيارة كما هجر غيرها من الزيارات: زيارة الإخوان وزيارة المرضى. وقلّ الإخلاص فيها حتى لا تؤدي إلا لمصلحة متبادلة أو خوفاً من ألسن الناس.

(٢٠) أخرجه أحمد (٩٧/١) وابن أبي شيبة (٢٣٤/٣) والترمذي في الجنايز باب ما جاء في عيادة المريض (٩٦٩) وقال: حسن غريب وأبو داود في الجنايز باب في فضل ما جاء في ثواب من عاد مريضاً (١٤٤٢) قال الهيثمي: ورجال أحمد ثقات (٣٠/٣) وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (١/٣٤١).

(٢١) أخرجه أبوداود في الأشربة باب في الأوعية (٣٦٩٨) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣١٤٥).

(٢٢) أخرجه الحاكم (٣٧٦/١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٨٤).

فاتقوا الله ربكم، وتمسكوا بهدي نبيكم صلى الله عليه وسلم،
واحرصوا على زيارة إخوانكم ومرضاكم، وزوروا القبور فإنها تذكركم
الآخرة، وأخلصوا أعمالكم لله رب العالمين، ثم صلوا وسلموا على
نبيكم كما أمركم بذلك ربكم.

* * *

٩٥- التحلي بالمواساة (١)

تحلي رسول الله صلى الله عليه وسلم بها

الجمعة ١٤٢٠ / ٦ / ٧ هـ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار .

أيها المؤمنون: من طبيعة العيش في الدنيا أنها لا تكمل لأحدٍ من الناس من كل وجه؛ فإن وجد الإنسان في عيشها لذةً من جهة، جاء ما ينقصها من جهةٍ أخرى. ولو كانت تكمل لأحدٍ من الناس من كل وجهٍ إذاً لزاحمت الآخرة .

ومن أجل هذا النقص الذي يعتري الإنسان في الدنيا، احتاج الناس

بعضهم إلى بعض، في قضاء الحاجات، وتنفيس الكربات؛ فكانت المواساة خلقاً من أخلاق الإسلام، دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم وحث عليه، ورغب فيه؛ حتى تتحقق الرابطة الإسلامية، وتحصل الأخوة الإيمانية. فادعاء الأخوة والمحبة يفقد مصداقيته إذا لم تبرهن عليه الفعّال.

وإن من عظيم ما تميزت به أمة الإسلام عن الأمم المادية النفعية: تحلي أفرادها بمواساة بعضهم بعضاً، وسعي بعضهم في حاجة بعض، حتى في الأزمنة التي عانت فيها أمة الإسلام من اختلاف أبنائها، وتآمر أعدائها؛ فإن خلق المواساة كان ظاهراً فيها في الجملة.

وليس على هذا الخلق خطرٌ إلا من جهة انغماس الناس في الدنيا، ومحبتهم لها، وهوسهم بها، على طريقة الماديين الملاحدة الذين لا يلقون للقيم والمبادئ بالاً، ولا يهتمون لمآسي الآخرين وحاجاتهم، ولو كانوا أقرب الناس إليهم، على اعتبار أن قيمة الإنسان في الدنيا تكمن فيما يملك من قوة، وليست فيما يتحلى به من أخلاق. وإذا انتشر هذا الشعور بين الناس فإن من ثمراته: الأثانية المفرطة، وحب الذات، وعبادة الدنيا، وزوال الرحمة، وانعدام الإحسان؛ حتى يصبح المرء كآلة الجامدة، التي لا إحساس فيها ولا مشاعر، مهما شاهد من المناظر المؤثرة، أو سمع من الأحداث المروعة، والقصص المبكية؛ كما هو الحال في كثير من المجتمعات الإلحادية المادية التي تنتشر فيها دور العجزة والمسنين، ويكثر فيها الأولاد غير الشرعيين،

ويحصل فيها طردُ الأولادِ من البيتِ في سنٍ معينة اكتفاءً بما مضى من النفقة عليهم وإعالتهم ورعايتهم؛ حتى لا تجدَ الرحمةُ سبيلاً إلى قلوبهم لرعاية أمٍ عجوزٍ بقية عمرها، أو حفظ فتاة من التشردِ والضياع، فليس لهذه المثل أي قيمة في المجتمعات المادية.

وما كان الإسلامُ ليجعل أتباعه أغلاظ أكباد، وقساة قلوب، لا يعرفون الرحمة والعطف، والإحسان والمواساة، كلا؛ بل هم أهلُ المعروفِ والبذل، والعطاء والمواساة، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم المثلُ الأعلى في ذلك، خطب الخليفة الراشدُ عثمانُ بنُ عفان رضي الله عنه فقال: «إنا والله قد صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في السفر والحضر، يعودُ مرضانا، ويتبعُ جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير، وإن ناساً يُعَلِّمُونِي به عسى أن لا يكون أحدهم رآه قط» أخرجه الإمام أحمد بسند حسن^(١).

كان صلى الله عليه وسلم يواسي أصحابه، يتألم لآلامهم، ويفرح لفرحهم، ويطعم جائعهم، ويواسي محرومهم، عن سهل بن سعد رضي الله عنه «أن امرأة جاءت النبي صلى الله عليه وسلم ببردة منسوجة فيها حاشيتها، أتدرون ما البردة؟ قالوا: الشملة، قال: نعم، قالت: نسجتها بيدي فجئت لأكسوكها، فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم محتاجاً إليها، فخرج إلينا وإنها إزاره، فحسَّنها فلان فقال: اكسنيها ما

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/٦٩-٧٠) وحسنه الشيخ شاکر في شرح المسند برقم (٥٠٤).

أحسنها، قال القوم: ما أحسنت، لبسها النبي صلى الله عليه وسلم محتاجاً إليها، ثم سأله وعلمت أنه لا يرد، قال: إني والله ما سألتها لألبسها؛ إنما سأله لتكون كفني، قال سهل: فكانت كفنه» أخرجه البخاري^(٢).

لقد كان صلى الله عليه وسلم يساوي في العطاء بين أولاده وبين الناس، ولم يكن يؤثر نفسه أو أهله أو ولده على الناس؛ بل يؤثر الناس عليهم، يأتيه المال العظيم والسبي الكثير فيقسمه بين الناس ولا يدع شيئاً لنفسه؛ إثارة لأصحابه، ومواساة للمحتاجين منهم. روى علي ابن أبي طالب رضي الله عنه في قصة زواجه: «أن النبي صلى الله عليه وسلم لما زوجه فاطمة بعث معه بخميلة ووسادة من أدم حشوها ليف، ورحيين وسقاء وجرتين، فقال علي لفاطمة ذات يوم: والله لقد سنوتُ حتى لقد اشتكيت صدري، قال: وقد جاء الله أباك بسبي؛ فاذهي فاستخدميه، فقالت: وأنا والله قد طحنت حتى مَجَلْتُ يداي، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ماجاء بك أي بُنيّة؟ قالت: جئتُ لأُسلم عليك. واستحييتُ أن تسأله ورجعت، فقال: ما فعلت؟ قالت: استحييتُ أن أسأله، فأتيناه جميعاً، فقال علي: يا رسول الله، والله لقد سنوتُ حتى اشتكيتُ صدري، وقالت فاطمة: قد طحنت حتى مَجَلْتُ يداي، وقد جاءك الله بسبي وسعة، فأخِدمنا، فقال رسول الله

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز باب من استعد الكفن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينكر عليه، واللفظ له (١٢٧٧) وأحمد في المسند (٣٣٤/٥) وابن ماجه في اللباس باب لباس رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣٥٥٥).

صلى الله عليه وسلم: والله لا أعطيكمما وأدعُ أهلَ الصفة تطوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم، فرجعا...» أخرجه البخاري وأحمد واللفظ له^(٣).

ومع مواساته لأصحابه كان يحبُّ أهلَ المواساة منهم فقد قال عليه الصلاة والسلام: «إن الأشعرين إذا أرملوا في الغزو أو قلَّ طعامُ عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوبٍ واحد ثم اقتسموه بينهم في إناءٍ واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم» متفق عليه^(٤).

وينبغي لمن آسأه أخوه أن لا ينسى مواساته؛ حتى لا يكون جاحداً للمعروف، ناكراً للجميل. فأبو بكر الصديق رضي الله عنه آسى النبي صلى الله عليه وسلم وأعانه على تبليغ دعوته؛ فحفظ له النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، وأثنى عليه به، وما نسيه، ولما حصلت خصومة بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما غضب النبي صلى الله عليه وسلم وقال مخاطباً عمر: «إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر:

(٣) أخرجه أحمد واللفظ له (١٠٦/١-١٠٧) والبخاري مختصراً في فرض الخمس باب الدليل على أن الخمس لنواب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمساكين وإيثار النبي صلى الله عليه وسلم أهل الصفة والأرامل (٣١١٣).

(٤) أخرجه البخاري في الشركة باب في الطعام والنهد والعروض من حديث أبي موسى (٢٤٨٦)، ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل الأشعرين رضي الله عنهم (٢٥٠٠).

صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟» أخرجه البخاري^(٥).

ولم ينس النبي عليه الصلاة والسلام مواساة خديجة له حتى بعدما توفيت؛ إذ كان يتعاهد صواحباتها بالهدايا، ويثني عليها. قالت عائشة رضي الله عنها: «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكر خديجة أثني عليها فأحسن الثناء، قالت: فغرت يوماً، فقلت: ما أكثر ما تذكرها! حمراء الشدق، قد أبدلك الله عز وجل بها خيراً منها، قال: «ما أبدلني الله عز وجل خيراً منها؛ قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذَّبني الناس، وواسني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء» أخرجه أحمد^(٦).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].
بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،
أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده

(٥) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب فضل أبي بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم (٣٦٦١).

(٦) أخرجه أحمد في المسند واللفظ له (١١٧/٦-١١٨) وأخرج مسلم بعضه في فضائل الصحابة باب فضل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها (٢٤٣٧).

لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله أيها المؤمنون ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أيها الإخوة: المواساة من أخلاق المؤمنين، وحقيق أن يتصف بها أولو الحكمة والعلم، وأهل الخير والصلاح؛ لأنها تدل على صلاح القلب تجاه الإخوان، والولاء في الإسلام، وهكذا كان حال السلف الصالح. قال أبو الأعرج رحمه الله تعالى: «لقد رأيتنا في مجلس زيد بن أسلم رضي الله عنه أربعين فقيهاً أدنى خصلة فينا التواصي بما في أيدينا، وما رأيت في مجلسه ممارين ولا متنازعين في حديث لا ينفعنا»^(٧).

وكان بكر بن عبد الله المزني رحمه الله تعالى يقول: «إني لأرجو أن أعيش عيش الأغنياء، وأموت موت الفقراء؛ فكان رحمه الله كذلك، يلبس كسوته، ثم يجيء إلى المساكين، فيجلس معهم يحدثهم ويقول: لعلهم يفرحون بذلك»^(٨)، أراد أنه رحمه الله يواسيهم بجلوسه معهم.

إن المواساة باب واسع من أبواب الإحسان، يدخل فيها إنفاق المال، وبذل الجاه، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجار، وإدخال

(٧) سير أعلام النبلاء (٥/٣١٦).

(٨) حلية الأولياء (٢/٢٢٧)، وطبقات ابن سعد (٧/٢١٠)، وسير أعلام النبلاء (٤/٥٣٤).

السرور على قلب أخيك، وجبرُ خاطره، وتعزيتُهُ في مصابه، وكفالةُ
 اليتيم، والمسحُ على رأسه، والسعيُّ على الأرملة والمسكين.
 والناسُ منهم من يحتاج إلى مواساة بالمال، ومنهم من مواساته
 بطلاقة الوجه وطيب الكلام، ومنهم من مواساته بالمشورة والرأي.
 وضابطها الذي يضبطها هو من لفظها، فهي: مواساة؛ فتواسي
 أخاك بنفسك: تحب له ما تحب لها، وتكره له ما تكره لها، وأنت
 على أحوال متعددة، حيناً تحتاج من يواسيك بكلمة طيبة، وحيناً
 تحتاج مالاً أو جاهاً أو نصيحة فهكذا إخوانك.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «المواساة للمؤمنين أنواع: مواساةُ
 بالمال، ومواساةُ بالجاه، ومواساةُ بالنصيحة والإرشاد، ومواساةُ بالدعاء
 والاستغفار لهم، ومواساة بالتوجع لهم، وعلى قدر الإيمان تكون هذه
 المواساة، فكلما ضعف الإيمانُ ضعفت المواساة، وكلما قوي قويت،
 وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الناس مواساة لأصحابه
 بذلك كله، فلا تباعه من المواساة بحسب اتباعهم له»^(٩) اهـ.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا
 تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

٩٦- التحلي بالمواساة (٢) مواساة الأنصار للمهاجرين

الجمعة ٢٤ / ١٠ / ١٤٢١ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: تعظم النفوس، وتتحرك القلوب، وتتعب الأجساد؛ إذا كان أصحابها يحملون همّاً كبيراً، ويتحملون مسؤولية عظيمة. وكلما كان الهمُّ أكبر، والمسؤولية أعظم، كان الحملُ أثقل، والتعبُ أكثر. فكيف إذا كان الهم المحمول أشرفَ هم! ومسؤوليته أعظم مسؤولية!

وأمانته أثقلَ أمانة: أمانة حمل هذا الدين، وتبليغه للناس، وإخراجهم من الظلمات إلى النور. فمن شرف بهذه المسؤولية، وتفانى فيها، وكرّس حياته لها، فقد حظي بأعظم الوظائف، وأكبر المهمات، وكان جزاؤه متناسباً مع ما حمل فأدى، وحفظ فبلغ؛ إذ جزاؤه - إن كان مخلصاً - رضى الرحمن، وجنة عرضها الأرض والسماوات.

وهذا هو الهمُّ الذي حمله أفاضل البشر: الأنبياء عليهم السلام، ثم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي الوظيفة التي أدّوها. لقد كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير أصحاب لأفضل نبي. بذلوا نفوسهم وأموالهم في سبيل الله، وصبروا على ما أودوا حتى أتاها نصر الله، فالمهاجرون تركوا ديارهم هجرةً لله تعالى، والأنصارُ نصرَهم فأوَّوهم وقاسموهم أموالهم ودورهم وبلادهم ابتغاء مرضاة الله تعالى. أنسوا غربتهم، وأزالوا وحشتهم، وشاركوهم همومهم، وواسوهم في أحزانهم، وساووهم بأنفسهم.

ضربوا أمثلة قلَّ أن يوجد لها نظير في تاريخ البشرية في المساواة والمواساة.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «قدم علينا عبد الرحمن بن عوف، وأخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع، وكان كثير المال، فقال سعد: قد علمت الأنصار أنني من أكثرها مالاً، سأقسم مالي بيني وبينك شطرين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك، فأطلقها حتى

إذا حلت تزوجتها، فقال عبدالرحمن: بارك الله لك في أهلك...»
أخرجه البخاري^(١).

ولم تكن تلك المواساة من الأنصار لإخوانهم المهاجرين حالات فردية كما يحصل في كل زمان من بعض النبلاء من البشر، وإنما كانت خلقاً جماعياً تخلق به الأنصار، وبذلوه للمهاجرين، رضي الله عن جميعهم وأرضاهم، فإنهم لما هاجروا إليهم قالت الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم: «اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: لا، فقالوا: تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا» رواه البخاري^(٢).

عجيب والله أمر الأنصار رضي الله عنهم!! فالأموال والنخيل والدور لها مكانتها في قلوب البشر، وكم تعادى من إخوان، وقطعت أرحام في سبيلها! وكم سفكت دماء من أجلها! فكيف يرضى الأنصار رضي الله عنهم أن يتناصف أملاكهم معهم غرباء هاجروا إليهم؟! بل إنهم رضي الله عنهم وعن المهاجرين راحوا يعرضون أموالهم ودورهم ونخيلهم عليهم، ويُلحون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسمها بينهم وبين إخوانهم المهاجرين.

ما كان لهم أن يفعلوا ذلك لولا ما في قلوبهم من الإيمان المتين،

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب إخوان النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار (٣٧٨١).

(٢) أخرجه البخاري في المزارعة باب إذا قال: اكفني مؤونة النخل وغيره وتشركني في الثمر (٢٣٢٥).

والعزم الصادق على البذل والتضحية، وتسخير كل ما يملكون في سبيل الله تعالى.

فلله هم، ما أقوى إيمانهم! وما أعظم نفوسهم!

إنهم رضي الله عنهم وأرضاهم ما قبلوا أن يُخصوا بشيء من العطاء دون إخوانهم المهاجرين؛ فقد روى البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: «دعا النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار إلى أن يُقطع لهم البحرين، فقالوا: لا إلا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: إما لا فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم بعدي أثر»^(٣).

ولما فرّق النبي صلى الله عليه وسلم ما أفاء الله عليه من مال بني النضير بين المهاجرين لحاجتهم وتركهم ديارهم وأموالهم، ولم يعط الأنصار منه شيئاً إلا فقيرين منهما لم يغضب الأنصار من ذلك ولم يعترضوا؛ بل إنهم رضي الله عنهم ما وجدوا في قلوبهم على إخوانهم المهاجرين رضي الله عنهم شيئاً، فامتدحهم الله تعالى بذلك، وأثنى عليهم به فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

لقد تعدت مواساتهم حدّ المساواة؛ فأثروا إخوانهم على أنفسهم،

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب قول النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار: اصبروا حتى تلقوني على الحوض (٣٧٩٤).

وقدموهم على أهلهم وأولادهم مع شدة حاجتهم، فكانوا كما وصفهم الله تعالى .

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من يضم أو يُضيفُ هذا؟» فقال رجل من الأنصار: أنا؛ فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاءً؛ فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأتها، فجعل يريانه كأنهما يأكلان، فباتا طاويين فلما أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ضحك الله الليلة أو عجب من فعالكما» فأنزل الله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقْ شَحْنُ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أخرجه الشيخان^(٤)

وقد أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على بذل الأنصار لإخوانهم المهاجرين، ونصرتهم ومواساتهم لهم، وحَفِظَ لهم حقهم وفضلهم فقال عليه الصلاة والسلام: «لو سلكت الأنصار وادياً وشعباً لسلكت شعب الأنصار أو وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار».

(٤) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب قول الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (٣٧٩٨)، ومسلم في الأشربة باب إكرام الضيف وفضل إثاره (٢٠٥٤).

قال أبو هرير رضي الله عنه: فما ظلم بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم، لأووه ونصروه، قال: وأحسبه قال: وواسوه» أخرجه البخاري وأحمد واللفظ له^(٥).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم..

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً يليق بجلال ربنا وعظيم سلطانه، وأشكره شكراً يوازي نعمه وآلاءه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - واعملوا صالحاً، فإن الدنيا لو كانت تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

أيها المؤمنون: من كثرة ما بذل الأنصار لإخوانهم المهاجرين، ومن شدة مواساتهم لهم، بل وإيثارهم عليهم في كثير من الأحيان؛ خاف

(٥) أخرجه أحمد واللفظ له (٤١٤/٢)، والبخاري في التمني باب ما يجوز من اللو (٧٢٤٤).

المهاجرون أن يستأثر الأنصار بالأجر دونهم، وقد كان جميعهم حريصاً على الأجر، مسابقاً في الخير رضي الله عنهم وأرضاهم، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم أتاه المهاجرون فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا قوماً أبذلَ من كثير، ولا أحسنَ مواساة من قليل من قومٍ نزلنا بين أظهرهم، لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المهناً حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا ما دعوتكم الله لهم، وأثنيتم عليهم» أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح^(٦).

إنهم رضي الله عنهم وأرضاهم ملكوا أخلاقاً عالية، وقلوباً حية، دفعتهم إلى التنافس في الخير، والبذل للإخوان، حتى حنا قلوبهم على ضعيفهم، وقادروهم على عاجزهم، وأطعم شعبانهم جائعهم؛ بل لقد أثر جائعهم أخاه بلقمته ولقمة أهله وعياله فبات طاوياً من أجل أن يشبع أخوه. فأين المسلمون من هذه المواساة العظيمة؟!

إن المسلمين - مع الأسف - قد تأثروا في الأزمنة المتأخرة بالنظريات المادية للحياة الدنيا؛ فكثير منهم يبني للدنيا ولا ينظر للآخرة، فضعفت المواساة فيما بينهم. احتاج القريب لقريبه فما وجد، والجار لجاره فما رآه!! لقد قست القلوب فما عادت تتأثر بمنابر المشردين المحرومين من

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ٢٠٠)، وأبو داود في الأدب باب في شكر المعروف (٤٨١٢)، والترمذي في صفة القيامة باب ثناء المهاجرين على صنيع الأنصار معهم وقال: حسن صحيح واللفظ له (٢٤٨٧)، والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٦٣/٢).

المسلمين في بقاع كثيرة من الأرض، فأين هي مواساة إخوانهم لهم؟! وقد واسى الأنصارُ إخوانهم المهاجرين، وقاسموهم دورهم ومزارعهم وأموالهم.

أين واقع المسلمين اليوم من واقع الأنصار بالأمس؟ ولماذا لا نحذوا حذوهم في نصره إخواننا؟! ومعونة المستضعفين منا ومواساتهم؛ فذلك باب من أبواب الإحسان والخير.

ألا فأحيوا الإحسان بينكم أيها المسلمون، وواسوا إخوانكم ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿[الزلزلة: ٧، ٨].

وصلوا وسلموا على نبيكم محمد كما أمركم بذلك ربكم.

٩٧- الإيثار (١)

صور من إيثار النبي ﷺ

الجمعة ٦/٤/١٤٢٤هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: قيمة كل شيء في بقائه، واستمرار الانتفاع به، مع عظيم الحاجة إليه. وما لا يبقى طويلاً، أو كان نفعه قليلاً؛ فإنه ليس بذي قيمة كبيرة.

وكل إنسان يُقَوِّمُ الأشياء بحسب نظرته إليها، نظرة دينية أو دنيوية، ويثمنها وفق معايير التي ارتضاها، دينية كانت أم أخلاقية أم عرفية.

وللمؤمن ميزانه الشرعي الذي لا يخطئ في الحكم على الأشياء، وإعطائها ما تستحق من قيمة بلا إفراط ولا تفريط. والدنيا عند المؤمن رخيصة؛ لأنها غير باقية، ومهما طال عمره فيها، وكثر عرضه منها، وتنوعت سعادته بمتاعها وزخرفها؛ فإن ذلك كله يزول بفراقه إياها، أو بهوموم وعلل يعالجها، لا تبقى له سعادة معها، ولو ملك الدنيا بأجمعها. ويكفي في ذلك ما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذئ الحليفة فإذا هو بشاة ميتة شائلة برجلها فقال: أترون هذه هينة على صاحبها، فوالذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها قطرة أبداً» رواه الترمذي وصححه وابن ماجه واللفظ له^(١).

(١) أخرجه الترمذي في الزهد باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل. وقال: هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه (٢٣٢٠)، وابن ماجه في الزهد باب مثل الدنيا (٤١١٠)، والحاكم وصححه (٣٠٧/٤)، والطبراني في الكبير (١٥٧/٦) برقم: (٥٨٤٠ - ٥٩٢١)، وفي سند ابن ماجه والحاكم وأحد إسنادي الطبراني: زكريا بن منظور بن ثعلبة بن أبي مالك وهو ضعيف، وفي سند الترمذي: عبد الحميد بن سليمان وهو ضعيف أيضاً؛ لكنه جاء من طرق أخرى، وله شواهد منها: حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند القضاعي في مسند الشهاب (١٤٣٩)، وآخر عن أبي هريرة رضي الله عنه عند القضاعي أيضاً (١٤٤٠)، وشواهد أخرى عند ابن المبارك في الزهد (٥٠٩ - ٦٢٠)، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة وقال: «الصواب أن الحديث صحيح لغيره؛ فإن شواهد تقويه» (٩٤٣).

أرأيتم لو أن فقيراً معدماً، لا يجد من الدنيا أي شيء، وأُعطي جناح بعوضة، أو زنته، فما هو ثمنه عنده من حيث القيمة ومن حيث المقدار؟! لا شيء! فكذلك الدنيا عند الله تعالى لا تساوي شيئاً!! قال شراح الحديث: «الكافر عدو الله تعالى، والعدو لا يُعطى شيئاً مما له قدر عند المعطي، فمن حقارة الدنيا عند الله تعالى أنه لا يعطيها لأوليائه كما أشار إليه حديث: «إن الله يحمي عبده المؤمن عن الدنيا كما يحمي أحدكم المريض عن الماء»^(٢).

وقال الطيبي رحمه الله تعالى في معنى الحديث: «لو كان لها أدنى قدر ما متّع الكافر منها أدنى تمتع»^(٣).

الله أكبر كبيراً!! هذه الدنيا بدولها وعمرانها وبشرها، بكل زخرفها ومتاعها، ومالها وجاهها، وكل ما فيها، بماضيها وحاضرها ومستقبلها؛ هي أهون عند الله تعالى من جناح بعوضة عند أحدنا في حقارته وقلته، وانعدام نفعه وقيّمته؛ وذلك دليل على عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وعلى هوان الدنيا وحقارتها وقلتها، وعلى عظيم ما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين في الآخرة، أسأل الله تعالى أن يجعل حظنا فيها الفوز والفلاح.

(٢) تحفة الأحوذى للمباركفوري مع بعض التصرف (٥٠٣/٦)، والحديث المذكور أثناء كلامه جاء من حديث قتادة بن النعمان رضي الله عنه عند الترمذي في الطب باب ما جاء في الحمية (٢٠٣٦)، وصححه ابن حبان (٦٦٩)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (٢٠٧/٤).

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٢٨٥/١٠).

إن المؤمن الحق هو من يزن قدر الدنيا بتلك الموازين الشرعية التي جاءت في نصوص الكتاب والسنة؛ فلا يترك شيئاً من دينه لأجلها، ولا يصرف وقته كله في سبيلها، ولا يقدم حظوظها على حظوظ الآخرة؛ لعلمه بزوالها، وفناء نعيمها ومتعتها.

ومن كان كذلك تراه يقدم الآخرة عليها، ويؤثر إخوانه على نفسه بالدنيا؛ كما كان حال النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ كان يجوع ليشبع غيره، ويأتيه اللباس وهو محتاج إليه، فيدفعه إلى غيره، وقدم الناس على نفسه وأهله وولده، وما كان يستأثر بشيء يأتيه لنفسه دون أصحابه. وهكذا كان صحابته رضي الله عنهم، متأسين به، ومؤثرين غيرهم على أنفسهم؛ حتى أنزل الله تعالى فيهم قوله سبحانه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَنَفسه فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

إن من عرف قدر الدنيا ملكها بيديه، ولم تجاوز ذلك إلى قلبه، فأنفقها ذات اليمين وذات الشمال، وآثر بها غيره، ولم يستأثر هو بها دون إخوانه، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم على أكمل حال من الإيثار بالدنيا، وعدم الاستئثار بها.

فإن دعي عليه الصلاة والسلام إلى طعام في حال جوع دعا أصحابه رضي الله عنهم ليأكلوا معه، وقدمهم على نفسه، فلا يأكل حتى يشبعوا. رآه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يوم الخندق وبطنه معصوب بحجر، وقد باتوا ثلاث ليال لم يذوقوا ذواقاً، فذهب جابر إلى امرأته

وقال لها: «رأيت بالنبى صلى الله عليه وسلم شيئاً ما كان في ذلك صبر فعندك شيء؟» فقالت: عندي شعير وعناق، فذبح جابر العناق، وطحنت امرأته الشعير، ثم همس جابر في أذن النبى صلى الله عليه وسلم يدعو للطعام من دون الناس لكثرتهم وقلة الطعام؛ وما كان النبى صلى الله عليه وسلم ليستأثر بالطعام ولو كان قليلاً، بل دعا أصحابه وهم كثير، وسأل الله تعالى البركة، فبورك لهم في طعامهم، فأكلوا كلهم حتى شبعوا^(٤).

وفي حادثة أخرى رأى أبو طلحة رضي الله عنه آثار الجوع على النبى صلى الله عليه وسلم فقال لامرأته أم سليم رضي الله عنها: «لقد سمعت صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً أعرف فيه الجوع فهل عندك من شيء؟» قالت: نعم، فأخرجت أقراصاً من شعير، ولفتها في خمارها، وأمرت ابنها أنساً أن يدعو النبى صلى الله عليه وسلم، فما جاء عليه الصلاة والسلام لوحده؛ بل جاء بكل من كان يحضره، فبارك الله في الطعام بدعائه عليه السلام حتى شبع من تلك الأقراص القليلة سبعون أو ثمانون^(٥).

وذات مرة جاع أبو هريرة رضي الله عنه جوعاً شديداً حتى قال:

(٤) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة الخندق (٤١٠١)، ومسلم في الأشربة باب جواز استتباعه غيره دار من يثق برضاه بذلك (٢٠٣٩).

(٥) أخرجه البخاري في المناقب باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٧٨) ومسلم في الأشربة باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك (٢٠٤٠).

«إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع» فجلس في طريق النبي صلى الله عليه وسلم لعله يصيب شيئاً يأكله، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم حين رآه، وعرف ما في نفسه وما في وجهه، فدعاه إلى بيته، ووجد لبناً قد أهدي إليه، فأمر أبا هريرة أن يدعو أهل الصفة كلهم - وكان أهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا أحد، فإذا أتت النبي صلى الله عليه وسلم صدقة أرسلها إليهم، وإن جاءت هدية أشركهم فيها ولم يستأثر بها دونهم - وساء أبا هريرة أن يدعو النبي صلى الله عليه وسلم أهل الصفة ليشاركوه في لبن هو محتاج إليه حتى قال رضي الله عنه في نفسه: وما هذا اللبن في أهل الصفة؟ وكنت أرجو أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها في يومي وليلتي، فدعاهم أبو هريرة فشربوا حتى رووا، وبارك الله فيه فشرب أبو هريرة، وما زال النبي صلى الله عليه وسلم يقول له: «اشرب» حتى قال أبو هريرة: «لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً، ثم أخذ النبي صلى الله عليه وسلم القدح فحمد الله تعالى وسمى وشرب الفضلة» رواه البخاري^(٦).

وأهديت له عليه الصلاة والسلام شملة وهو محتاج إليها، فسأله إياها أحد أصحابه رضي الله عنهم؛ فأثره بها، ودفعها إليه، فلامه

(٦) أخرجه أحمد (٥١٥/٥)، والبخاري في الرقاق باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتخليهم عن الدنيا (٦٤٥٢)، والترمذي في صفة القيامة باب رقم: (٣٦) (٢٤٧٧) وهو حديث طويل فاختصرته.

الناس على ذلك وقالوا: «سألتها وهو محتاجٌ إليها وأنت تعلم أنه لا يرد سائلاً، فقال: سألتها لتكون كفني، فكانت كفته» رواه البخاري^(٧). وجاءته ابنته فاطمة رضي الله عنها تشتكي ألماً في يديها من الطحن بالرحا، وتسأله أن يهب لها خادماً من السبي - وقد جاءه سبي - فدلها وزوجها علياً رضي الله عنهما على التسبيح والتحميد والتكبير قبل النوم، ولم يعطهما خادماً، وقال: «لا أعطيكم وأذر أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع» رواه أحمد^(٨).

هكذا كان صلى الله عليه وسلم، يجد ما يجد أصحابه، ويعاني معاناتهم، ويشاركهم في همومهم وأحزانهم.

جاع كما جاعوا، واحتاج إلى اللباس كما احتاجوا، وإذا ما جاءه الفرج، فدعي إلى طعام أو أهدي إليه لباس؛ أثر به أصحابه رضي الله عنهم، أو شاركهم فيه، وقدمهم على نفسه حتى لا يبقى له إلا الفضلة من الطعام والشراب، ولم يستأثر به دونهم، أو يقدم نفسه عليهم. وقد حمل عليه الصلاة والسلام أهله وولده على ما يراه خيراً لهم من البذل والعطاء، والتقلل من الدنيا، والزهد فيها، وإيثار الغير بها؛

(٧) أخرجه أحمد (٣٣٣/٥ - ٣٣٤)، والبخاري في الجنائز باب من استعد الكفن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينكر عليه (١٢٧٧)، وابن ماجه في اللباس باب لباس رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣٥٥٥).

(٨) أخرجه أحمد (١٠٦/١ - ١٠٧)، وابن سعد في الطبقات (٢٥/٨)، وابن ماجه في الزهد باب ضجاع آل محمد صلى الله عليه وسلم (١٤٥٢)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٨٣٨).

ليكمل لهم أجرهم، وتعلو في الآخرة منازلهم.
 هذه عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها، أم المؤمنين،
 وزوجها رسول رب العالمين، وأبوها أول خليفة للمسلمين، سألها
 مسكين وهي صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها:
 «أعطيه إياه، فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه، فقالت: أعطيه إياه،
 ففعلت. قالت: فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيتٍ أو إنسانٌ ما كان يهدي
 لنا: شاةً وكفنها، فدعنتني عائشة فقالت: كلي من هذا، هذا خير من
 قُرصك» رواه مالك في الموطأ^(٩).

قال ابن عبد البر رحمه الله تعالى: «هذا من المال الرابع، والفعل
 الزاكي عند الله تعالى، يُعَجَّلُ منه ما يشاء، ولا يُنْقَصُ ذلك مما يُدْخِر
 عنه، من ترك شيئاً لله لم يجد فقره، وعائشة رضي الله عنها في فعلها
 هذا من الذين أثنى الله عليهم بأنهم يؤثرون على أنفسهم مع ما هم فيه
 من الخصاصة، وأن من فعل ذلك فقد وقى شح نفسه وأفلح، فلا حاجة
 لإحسان بعده»^(١٠).

(٩) أخرجه مالك في الموطأ بلاغاً (٩٩٧). وقولها: «شاة وكفنها» معناه: ما يلف
 على الشاة قبل شوائها من عجين ونحوه، قال ابن عبد البر رحمه الله تعالى
 في الاستذكار (٤٠٧/٢٧): «فإن العرب، أو بعض وجوههم كان هذا من
 طعامهم، يأتون إلى الشاة أو الخروف، فإذا سلخوه غطوه كله بعجين دقيق
 البر، وكفنوه فيه، ثم علّقوه في التنور، فلا يخرج من ودكه شيء إلا في ذلك
 الكفن، وذلك من طيب الطعام عندهم».

(١٠) الاستذكار (٤٠٦/٢٧ - ٤٠٧).

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكْفِينَا شَرَّ أَنْفُسِنَا، وَشَرَّ الدُّنْيَا وَزَخْرَفَهَا، وَأَنْ يَقِينَا شَحَّ أَنْفُسِنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخْجَلُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفَهُ فَإِنَّكَ لَكِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - بفعل الأوامر، واجتناب النواهي؛ فلا فلاح للعبد إلا بتقوى الله تعالى.

أيها الناس: الإيثار خلق عظيم، يوجد في الناس إذا عرفوا حقيقة الدنيا، وأيقنوا بما أعد الله تعالى لعباده المؤمنين في الآخرة، حينها تزول الأثرة منهم، ويحل محلها الإيثار.

وإذا ما سيطرت الدنيا على قلوب الناس، وسلبتهم عقولهم، وعاشوا لأجلها؛ فإن الإحسان والرحمة لن تجد إلى قلوبهم طريقاً، فضلاً عن أن يكون الإيثار من أخلاقهم.

وعزيز على النفس البشرية أن تقدم غيرها على نفسها، فتؤثره بما هي محتاجة إليه، ولا يفعل ذلك إلا من قام في قلبه إيمانٌ بالله تعالى، ويقين بالدار الآخرة، يدفعانه إلى تقديم إخوانه على نفسه؛ طلباً لمرضاة الله تعالى وجنته.

وما أحوج المسلمين في هذا الزمن الذي استعبدت الدنيا فيه كثيراً من الناس، فأفسدت قلوبهم، ما أحوجهم إلى نشر الإحسان فيما بينهم، ومشاركة إخوانهم في همومهم وحاجاتهم، ومعاونتهم على نوائبهم. وكم يجد الجائع من لذة حين يقاسمه الواجد طعامه، ويأكل معه! وكم يفرح الفقير المعدم حين يلتفت إليه جيرانه فيتعاهدونه بحاجاته! وكم في المسلمين من أسر فقيرة، وبيوت معدمة، إذا طرق بابها اشربت أعناق أراملها وأيتامها لطعام يسد جوعهم، أو لباس يستر أجسادهم، أو مال يتبلغون به، وكم في أثرياء المسلمين من هم غافلون عن هذا الباب العظيم من الخير والإحسان؟!!

ومن أثر إخوانه على نفسه بحفظ الدنيا، فلا ينتظر منهم أن يؤثره كما أثرهم، بل يرجو ما عند الله تعالى؛ كما كان حال الأنصار رضي الله عنهم؛ فإنهم آثروا إخوانهم المهاجرين، وكانوا يأبون أن يُقسم شيء يُخصون به دون إخوانهم، وقد أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم سيلقون بعده أثرة، وأمرهم بالصبر حتى يلقوه على الحوض^(١١).

(١١) كما في حديث أنس رضي الله عنه عند البخاري في مناقب الأنصار باب قول النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض» (٣٧٩٤)، ومسلم في الإمارة باب الأمر بالصبر عند ظلم الولاة واستثثارهم (١٨٤٥).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «فتأمل سرَّ التقدير؛ حيث قدر الحكيم الخبير سبحانه استئثار الناس على الأنصار بالدنيا وهم أهل الإيثار؛ ليجازيهم على إيثارهم إخوانهم في الدنيا على نفوسهم بالمنازل العالية في جنات عدن على الناس، فتظهر حينئذ فضيلة إيثارهم ودرجته، ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، فإذا رأيت الناس يستأثرون عليك مع كونك من أهل الإيثار فاعلم أنه لخير يُراد بك»^(١٢).

ألا وصلوا وسلموا على خير البرية، كما أمركم بذلك ربكم، ، ،

(١٢) مدارج السالكين (٢/ ٢٧٨ - ٢٧٩).

٩٨- الإيثار (٢) صور من إيثار السلف الصالح

الجمعة ٢٧/٧/١٤٢٣ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: إذا عظم إيمان العبد بالله تعالى، وأيقن بالدار الآخرة وما فيها من الجزاء؛ هانت عليه الدنيا، وهان عليه ما فيها من زخرف ومتاع فلا يهتم لها، ولا يعلق قلبه بها، ولا يضيع حقوق الله تعالى من أجلها، ويكتفي منها بما يعينه على أداء حق الله تعالى وحقوق العباد

عليه ، على حد قول الحسن البصري رحمه الله تعالى : «والله لقد أدركنا أقواماً وصحبنا طوائف ما كانوا يبالون أشرقت الدنيا أم غربت ، والله الذي لا إله غيره لهي أهونٌ عليهم من التراب الذي يمشون عليه»^(١) .
إنها نفوس كبيرة ، رضيت بما قسم الله تعالى لها ، ولم تستشرف ما لم تملك ، أو تتطلع لما في أيدي الناس .

نفوس عزت بطاعة الله تعالى ، وشرفت بالقرب منه ، فكان همها فوق هم الناس ؛ فإن طلب الناس الدنيا تعلقت هي بالآخرة ، وإن ذلوا للمخلوقين ذلت هي للخالق سبحانه وتعالى .

نفوسٌ غنية في بيوت فقيرة ، وقلوب قوية في أجساد هزيلة ، لا يززعها الجوع والفقر ، ولا يصرفها متاع الدنيا عن هم الآخرة ، فكانت قوية أمام الشيطان وشهواته ، والنفس ومتطلباتها ؛ بل إنها في حال جوعها وقتلتها تؤثرٌ غيرها بما هي محتاجة إليه من طعام وكساء ومتاع ، ولا تؤثر نفسها على إخوانها بما قد يحصل لها من أمور الدنيا ، وهل يؤثر بالدنيا إخوانه على نفسه إلا من كان يرجو الله والدار الآخرة ؛ كما كان حال صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين وصفهم الله تعالى بهذه الصفة الجليلة فقال سبحانه : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩] نزلت هذه الآية الكريمة في بيت من الأنصار ، آثروا غيرهم بالطعام ، وباتوا جائعين ، فعجب الله تعالى من فعلهم ؛ كما روى أبو هريرة رضي الله عنه : «أن رجلاً أتى النبي صلى

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/٢٧٢) .

الله عليه وسلم فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من يَضُمُّ - أو يُضِيفُ - هذا؟» فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ما عندنا إلا قوتُ صبياني، فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلوا يُريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ضحك الله الليلة - أو عجب - من فعالكما» فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] ^(٢).

لقد كان الإيثار سجية مشهورة بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان رضي الله عنهم، يؤثرون غيرهم على أنفسهم في الري والشبع والمال والمتاع. ويرضون بالعطش والجوع وقلة المال.

أما مثال إيثارهم بالماء مع شدة ظمئهم، وحاجتهم إليه؛ فما رواه حذيفة العدوي رحمه الله تعالى قال: «انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعني شيء من ماء، وأنا أقول: إن كان به رمل سقيته ومسحت به وجهه، فإذا أنا به، فقلت: أسقيك؟ فأشار إليّ أن نعم،

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب قول الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] (٣٧٩٨)، ومسلم في الأشربة باب إكرام الضيف وفضل إيثاره (٢٠٥٤).

فإذا رجلٌ يقول: آه، فأشار ابن عمي إليَّ أن انطلق به إليه، فجئته فإذا هو هشام ابن العاص فقلت: أسقيك؟ فسمع به آخر، فقال: آه، فأشار هشام: انطلق إليه، فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات، رحمة الله عليهم أجمعين»^(٣).

وأما إيثارهم غيرهم بالطعام فأكثر من أن يحصى، ومن ذلك: ما رواه نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما اشتكى واشتهى عنباً، فأشري له عنقودٌ بدرهم، فجاء مسكينٌ فسأل، فقال: أعطوه إيَّاه، فخالف إنسانٌ فاشتراه من المسكين بدرهم، ثم جاء به إلى ابن عمر، فجاء ذلك المسكين فسأل، فقال: أعطوه إيَّاه، ثم خالف إنسان فاشتراه من المسكين بدرهم، ثم جاء به إليه، فأراد السائل أن يرجع فيسأله للمرة الثالثة، فمنع، ولو علم ابن عمر أنه ذلك العنقود ما ذاقه؛ لأن ما خرج لله لا يعود فيه»^(٤).

قال الحسن رحمه الله: «لقد رأيت أقواماً يميّس أحدهم ولا يجد عنده إلا قوتاً. فيقول: لا أجعل هذا كله في بطني، فيتصدق ببعضه، ولعله أحوج إليه ممن يتصدق به عليه»^(٥).

(٣) شعب الإيمان للبيهقي (٣٤٨٣)، والزهد لابن المبارك (٥٢٥).

(٤) الحلية (١/٢٩٧)، وصفة الصفوة (١/٥٧٣)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٩/١٨).

(٥) الحلية (٢/١٣٤)، وسير أعلام النبلاء (٤/٥٨٥).

وأما إيثارهم بالمال فمنه ما رواه يعقوب بن شيبه رحمه الله تعالى قال: «أظل العيد رجلاً وعنده مئة دينار لا يملك سواها، فكتب إليه صديقٌ يسترعي منه نفقة، فأنفذ إليه بالمئة دينار، فلم ينشب أن ورد عليه رقعة من بعض إخوانه يذكر أنه أيضاً في هذا العيد في ضائقة، فوجه إليه بالصرة عينها، قال: فبقي الأول لا شيء عنده فاتفق أنه كتب إلى الثالث وهو صديقه يذكر حاله، فبعث إليه الصرة بختمها، قال: فعرف أنها صرته وركب إليه وقال: خبرني ما شأن هذه الصرة؟ فأخبره الخبر، فركبا معاً إلى الذي أرسلها، وشرحوا له القصة، ثم فتحوها واقتسموها» قال ابن البهلول: «الثلاثة هم يعقوب بن شيبه، وأبو حسان الزياتي، وآخر نسيت» وقال الحافظ الذهبي: إسناده صحيح^(٦).

لقد كان من سلفنا الصالح رضي الله عنهم من يتنازل عن حقوقه؛ طلباً لزيارة إخوانه، وإيثار رؤيتهم على ماله عندهم من حقوق وأموال، وهذا من عظيم الإيثار أن يفضل الرجل رؤية أخيه على الأموال في حال تعارضهما، وقل في البشر من يفعل ذلك؛ إذ النفوس مجبولة على حب الأموال، وطلب الحقوق، والاختصاص من أجلها، والترافع عند القضاة بسببها؛ لكن الصحابي الجليل قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما كان يؤثر رؤية أصحابه على طلب أمواله التي له عندهم؛ حتى إنه مرض مرة فاستبطأ إخوانه في عيادته، فسأل عنهم، فقالوا: «إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال رضي الله عنه:

(٦) سير أعلام النبلاء (١١/٥٩٧).

أخزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو في حل، فما أمسى حتى كسرت عتبة بابه؛ لكثرة من عاده»^(٧).

ولما كان عمر رضي الله عنه خليفة للمسلمين أرسل غلامه بأربعمئة دينار إلى أبي عبيدة رضي الله عنه، وأمره أن يتأخر عنده حتى ينظر ماذا يصنع بها، فذهب الغلام إلى أبي عبيدة وقال: «يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك، فقال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره ووجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل رضي الله عنه، فذهب الغلام بها وقال لمعاذ: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك، فقال: رحمه الله ووصله. وقال: يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، وبيت فلان بكذا، فاطلعت امرأة معاذ فقالت: ونحن والله مساكين فأعطنا، ولم يعد في الخرق إلا ديناران فنحنا بها إليها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فسر بذلك عمر وقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض»^(٨).

وصور الإيثار في السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين لهم بإحسان كثيرة، ورغم أن الله تعالى قد أنعم عليهم بالغنى واليسار عقب الفتوح، وغنم كنوز كسرى وقيصر؛ فإنهم لم يغيروا

(٧) مدارج السالكين (٢/٢٩٢).

(٨) الزهد لابن المبارك (٥١١)، وصفة الصفوة (١/٤٩١).

ولم يبدلوا ولم تغرهم كثرة الأموال والمتاع؛ بل بقوا على زهدهم في الدنيا، وإيثارهم لإخوانهم على أنفسهم، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجمعنا بهم في دار كرامته، ومستقر رحمته.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ الْمُتَوَلِّونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - ولا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور.

أيها المسلمون: من نظر في أحوال الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين لهم بإحسان رحمهم الله تعالى، وما كانوا عليه من الخير العظيم، والإيثار بالقليل والكثير؛ علم مدى صلاح نفوسهم، وتعلقهم بالله والدار الآخرة، وظهر له ما كان يسود مجتمعاتهم من الأخوة في الله تعالى، والترابط فيما بينهم إلى حد أن الواحد منهم يرى أن ماله ومتاعه ملكٌ له ولإخوانه، لا يفضلُ به عليهم وإن كان هو يملكه،

كما قال ابنُ عمر رضي الله عنهما: «لقد رأيتنا وما الرجلُ المسلمُ بأحقَّ بديناره ودرهمه من أخيه المسلم»^(٩).

أي مجتمع هذا الذي يسود فيه الإيثار بتلك الطريقة؟! وأي نوع من النفوس يملكها أفرادها؟! وقارنوا بين ذلك المجتمع وبين حال المسلمين في هذا العصر.

إن المادية البغيضة التي صدرتها الحضارة المعاصرة إلى المسلمين أذهبت كثيراً من أخلاقهم، وقضت على كثير من مظاهر الإحسان والإخاء فيما بينهم؛ لأنها علقت قلوبهم بالدنيا، وأضعفت إيمانهم بالآخرة، فصاروا في سباق محموم على التزود منها ولو كان ذلك بالطرق المحرمة، وأضحت الدنيا غايةً يطلبها المسلم بعد أن كانت وسيلةً تبلغه إلى الدار الآخرة. لقد غدى كثيرٌ من المسلمين يعيشون للدنيا، في بعدٍ تام عن الله تعالى والدار الآخرة، فصار همُّهم كيف يجمعون، وكيف يستهلكون، وكيف ينافسون غيرهم في جمع المال وإنفاقه، ولو كان مصدر جمع المال حراماً، وإنفاقه سرفاً، ولقد اعتادت مجتمعات الأغنياء على السرف، فما يُلقى من فائض أطعمتهم اليومية أكثر مما يأكلون في وقت يحتاج فيه فقراؤهم إلى الطعام والكساء.

وانتقلت هذه الحمى المسعورة إلى كثير من المستورين والفقراء، فصاروا يسألون الناس تكثراً، وينافس بعضهم بعضاً في ذلك، ويؤذون الناس في المساجد والأسواق والطرقات، وانعدم الإيثار فيما بين الناس،

(٩) مكارم الأخلاق للخرائطي (٦٣٣)، والإخوان لابن أبي الدنيا (١٥٧).

وحلَّ محلّه الأثرة التي يستأثر بها الواحد منهم لنفسه على غيره، ولو كان غيره أحق منه بما استأثر به عليه.

إنها نفوسٌ ابتعدت عن وحي الله تعالى، وهدى سلف هذه الأمة؛ فأصابتها عدوى الماديين الذين يجعلون الغاية تسوغ الوسيلة، ولا مكان للإحسان والإيثار في قلوبهم، وإذا ما ساد هذا الشعور في البشرية كلها - وهو الآن يكاد يسود - فإن الحضارة والتطور حينئذٍ لن تزيد الناس إلا قسوة وتوحشاً وقطيعة فيما بينهم، نسأل الله العافية والسلامة.

ألا فاتقوا الله ربكم - أيها المسلمون - وأحيوا الإحسان والإيثار فيما بينكم، فإن الله تعالى حصر الأخوة فيكم حينما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وإياكم إياكم أن تقسوا قلوبكم على إخوانكم، أو تطفئ الأمانة في أوساطكم؛ فإن الله تعالى رحيم يحب الرحماء، وإنما يرحم الله تعالى من عباده الرحماء، وإن من أولى الناس برحمتكم: إخوانكم المحاصرين والمشردين واللاجئين الذين شردتهم القوى الظالمة في فلسطين وكشمير وأفغانستان والشيشان وكوسوفا وغيرها من بلاد المسلمين المنكوبة، فأعينوهم أعانكم الله، وأحسنوا إليهم، وتصدقوا عليهم؛ فإن الله يجزي المتصدقين..

ألا وصلوا وسلموا على نبينا محمد، كما أمركم بذلك ربكم، ، ،

٩٩- الحِلْم.. وكيف إدراكه؟

الجمعة ٢٧/٦/١٤١٧هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن أقدار الرجال تقاس بدينهم وأخلاقهم، فلا المال يبقى، ولا الجاه يستمر، والمرء ليس مخلصاً في الدنيا، ولن يبقى معه إلا عمله، وذكره في الناس. فإن كان ذا خلق حسن ذكر بخير، وإن كان سيئاً ذكر بشراً.

وتمام الأخلاق من كمال العقول، والسفة والغلظة نقص في عقل الإنسان، والحلم من أرقى الأخلاق وأرفعها؛ حتى قيل: «الحلم أرفع من العقل؛ لأن الله تعالى اتصف به»^(١) ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [٤١]

(١) الحلم لابن أبي الدنيا (٢٩)

[فاطر]، قال أكتثم بن صيفي: «دعامة العقل الحِلْم، وجماع الأمر الصبر»^(٢).

والحِلْم يغلب الشجاعة بمقتضى قول النبي صلى الله عليه وسلم «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(٣). وقال معاوية لعمر بن الأهتم: «أي الرجال أشجع؟ قال: من ردَّ جهله بحلمه»^(٤).

والحليم نادر في الناس؛ لأن شهوة النفس تأبى إلا الانتصار لها، حتى قال الأصمعي: «لا يكاد يجتمع عشرة إلا وفيهم مقاتل وأكثر، ويجتمع ألف ليس فيهم حليم»^(٥).

والحِلْمُ صفة يحبها الله تعالى، ويحبها رسوله صلى الله عليه وسلم، فقد أتى الأشجُّ العَصْرِيُّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في رفقة من عبد القيس ليزوروه، فأقبلوا، فلما قدموا رفع لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنأخوا ركابهم، فابتدر القوم ولم يلبسوا إلا ثياب سفرهم، وأقام العَصْرِيُّ فعقل ركائب أصحابه وبغيره ثم أخرج ثيابه من عيبته وذلك بعين رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أقبل إلى النبي صلى

(٢) موعظة المتقين للقاسمي (٢١٦)

(٣) أخرجه البخاري في الأدب باب الحذر من الغضب (٦١١٤) ومسلم في الأدب باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب (٢٦٠٩)

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) موعظة المتقين للقاسمي (٢١٦)

(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة (٤٠٢/١)

الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله»، قال: ما هما؟ قال: «الأناة والحلم» قال: شيءٌ جُبلتُ عليه أو شيءٌ أتخلقه، قال: «لا بل جُبلتَ عليه» قال: الحمد لله... » الحديث أخرجه ابن حبان وأصله عند مسلم^(٦).

ورسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أكملُ الناس خلقاً كان أحلمهم، قال الله تعالى يخاطبه بذلك ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال أمراً إياه بالحلم ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩) [الأعراف]، فامتثل صلى الله عليه وسلم أمر مولاه؛ حتى سجلت سيرته أروع الأمثلة في الحلم والعفو، قالت عائشة رضي الله عنها تحكي شيئاً من حلمه: «ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيئاً من محارم الله فينتقم لله عز وجل» أخرجه مسلم^(٧). وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

(٦) أصل الحديث أخرجه مسلم في الإيمان باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.. (١٧) والترمذي في البر والصلة باب ما جاء في التآني والعجلة (٢٠١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وأخرجه ابن ماجه في الزهد باب الحلم (٤١٨٧) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وهذه القصة أخرجه ابن حبان (٧٢٠٣) واللفظ له.

(٧) أخرجه مسلم في الفضائل باب مبادئه صلى الله عليه وسلم للآثام.. (٢٣٢٨).

«كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه بُرْدٌ نجرانيٌّ غليظُ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ فجبذ بردائه جبذة شديدة، قال أنس: فنظرت إلى صفحه عاتق النبي صلى الله عليه وسلم وقد أثرت فيها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك ثم أمر له بعطاء»^(٨). هكذا كانت أخلاقه، وهذا هو حلمه صلى الله عليه وسلم.

ووجد على مرِّ التاريخ رجالٌ شهِروا بالحِلْم، حتى عجب الناس من حلمهم، كان من مشاهيرهم معاويةُ بنُ أبي سفيان رضي الله عنه وهو الذي كان يقول: «لا يبلغُ العبدُ مبلغَ الرأي حتى يَغلبَ حلمُه جهله، وصبرُه شهوته، ولا يبلغُ ذلك إلا بقوة العلم». ولقد جاء في سيرته رضي الله عنه أنه خطب يوماً فقال له رجل: كذبت؛ فنزل مغضباً فدخل منزله ثم خرج عليهم تقطر لحيته فصعد المنبر فقال: «أيها الناس: إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان من النار، فإذا غضب أحدكم فليطفئه بالماء» ثم أخذ في الموضع الذي بلغه من خطبته^(٩).

وذات مرة قسم قُطُفاً على الناس فأعطى شيخاً من أهل دمشق قطيفة فلم تعجبه فحلف أن يضربَ بها رأسَ معاوية، فأتاه فأخبره

(٨) أخرجه البخاري في الأدب باب التبسم والضحك واللفظ له (٦٠٨٨) ومسلم

في الزكاة باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة (١٠٥٦).

(٩) عيون الأخبار لابن قتيبة (٤٠٥/١).

فقال له معاوية: «أوفِ بنذرِك وليرفق الشيخ بالشيخ»^(١٠).

وكان الأحنف بن قيس التميمي رحمه الله تعالى ممن يضرب به المثل في الحِلْم حتى يقال: أحلم من الأحنف، ويذكر أن رجلاً خاصمه فقال: «لئن قلت واحدةً لتسمعن عشراً»، فقال الأحنف: «لكنك إن قلت عشراً لم تسمع واحدة»^(١١).

ومن أقواله رحمه الله: «من لم يصبر على كلمة سمع كلمات، ورب غيظٍ قد تجرعتته مخافة ما هو أشد منه»^(١٢). وهذا يدل على أن الحُلماء يتحملون القليل من السفه والجهل دفعاً لما هو أكثر منه؛ ولذا كان الأحنف إذا عجبوا من حلمه قال: «إني لأجد ما تجدون ولكني صبور»^(١٣).

فالحليم ليس ملكاً من الملائكة، وإنما هو بشر يحب الانتصار لنفسه، وتوجدُ عنده الرغبةُ في الانتقام ممن آذاه؛ لكنه يملك نفسه ويمنعها مما يراه لا ينبغي.

والحِلْم وإن كان طبعاً جِلياً فمنه ما هو مكتسب يتعلمه الإنسان ويكتسبه كما يكتسب سائر العلوم. أما أن يكون الإنسان غضوباً جهولاً، ويتعلل بأن هذا طبعُ خلق عليه، فذلك من السفه والحمق. وقد ورد

(١٠) أدب الدنيا والدين للمارودي (٣٥٨).

(١١) سير أعلام النبلاء (٩٣/٤).

(١٢) عيون الأخبار (٣٩٩/١).

(١٣) بهجة المجالس لابن عبد البر (٦١٧/٢).

في الحديث: «إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم»^(١٤) وقال الأحنف: «تعلمت الحِلْم من قيس بن عاصم بينما هو قاعد بفنائه، محتب بكسائه؛ أئته جماعة فيهم مقتول ومكتوف، وقيل له: هذا ابنك قتله ابن أخيك، فوالله ما حلّ حبوته حتى فرغ من كلامه، ثم التفت إلى ابن له في المجلس فقال له: قم فأطلق عن ابن عمك، ووار أخاك، واحمل إلى أمه مئة من الإبل فإنها غريبة. ثم أقبل على القاتل فقال: قتلت قرابتك، وقطعت رحمك، وأقللت عددك، لا يُبعدُ الله غيرك»^(١٥). وقال أيضاً: «اختلفتُ إلى قيس بن عاصم في الحِلْم كما نختلفُ إلى الفقهاء في الفقه»^(١٥). فدل ذلك على أن من الحِلْم ما هو مكتسبٌ يكتسبه المرء من أقرانه وجلسائه كما يكتسبُ الغضب والسفه وسائر الصفات، والمرء على دين خليله.

(١٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٦٨٤) وأبو نعيم في الحلية (٢٣١/٦) والخطيب في تاريخه (٢١٠/٥) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً وفي سنده محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني وقد ضعفه الأئمة. قال الإمام أحمد: ضعيف الحديث، وقال النسائي: متروك الحديث، وكذبه ابن معين، وقال الذهبي: ضعفه جماعة. انظر: الضعفاء للعقيلي (٤٨/٤-٤٩) والمغني في الضعفاء للذهبي (٥٦٨-٥٦٩/٢) قال الهيثمي بعد أن عزاه للطبراني في الأوسط: وفيه محمد بن الحسن بن أبي يزيد وهو كذاب، انظر: المجمع (١٢٨/١) وقال السخاوي في المقاصد الحسنة: وابن الحسن كذاب (١٠٧). وقد جاء موقوفاً على أبي الدرداء بسند صحيح كما عند هناد في الزهد برقم (١٢٩٤) وأخرجه مرفوعاً من حديث أبي هريرة الخطيب في تاريخه (١٢٧/٨) وحسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٤٢) وفي صحيح الجامع (٢٣٢٨). (١٥) عيون الأخبار (٤٠٢/١).

ويُحمد المرء على ترقيه في الحِلْم واكتسابه حتى يبلغ منزلة مدافعة الإساءة بالإحسان، ومعاقبة الغضوب بمكافأته، وحمل الجهول العسر على الحِلْم بالردّ الجميل، والكلام الحسن. شتم رجلٌ عمر بن ذر فقال: «يا هذا لا تغرق في شتمنا، ودع للصالح موضعاً؛ فإني أمتٌ مشائمة الرجال صغيراً ولن أحييها كبيراً، وإني لا أكافئ من عصى الله فيّ بأكثر من أن أطيع الله فيه»^(١٥).

وما أجمل ردّ الإمام الشعبي على رجل غضب عليه فأسمعه كلاماً جارحاً فقال له الشعبي رحمه الله: «إن كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك»^(١٥). إن مثل هذا الردّ يدحرُ الشيطان، ويزيل الخلاف؛ بل يحمل المخاصم على الندم والخجل، وهو أبلغ في الردع، وأسلم في الدين من مقابلة الجهل بالجهل، والسفه بالسفه.

ومن قدرَ على مكافأة من أساء إليه فذلك أعظم في ردعه وتأديبه. سبَّ رجل علي بن الحسين رحمه الله تعالى فرمى له بخميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم، قال بعضهم: «جمع له خمس خصالٍ محمودة: الحِلْم، وإسقاط الأذى، وتخليص الرجل مما يبعده من الله عز وجل، وحمّله على الندم والتوبة، ورجوعه إلى المدح بعد الذم، اشتري جميع ذلك بشيء من الدنيا»^(١٦).

(١٥) عيون الأخبار (١/٤٠٢).

(١٦) الحِلْم لابن أبي الدنيا (٣١٦).

فاتقوا الله ربكم وتزينوا بالحِلْم فإنه من صفات عباد الرحمن .
 أَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى
 الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان] بَارَكَ اللَّهُ
 لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين،
 وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله
 النبي الأمين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين
 ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين .

أما بعد: فإن الحِلْم عاقبته محمودة، والسفه يعقبه ندامة، وخيرٌ
 للمرء قبل الندامة والحاجة إلى الاعتذار أن يملك نفسه عند غضبها .
 وهناك توجيهاتٌ نبويةٌ تحذُّ من الغضب، وتكون سبباً في الحِلْم،
 منها: أن لا يتكلم حال غضبه؛ لأنه إذا تكلم جاء بما لا ينبغي، وبما
 يندم عليه بعد سكون الغضب، وربما أذلَّ نفسه بالاعتذار لمن لا يستحق؛
 لأنه أخطأ عليه حينما غضب .

وكم من أُسرٍ شُرِّدت، وأولاد ضاعوا بسبب غَضْبَةٍ غضبها ربُّ
 الأسرة فأطلق لفظ الطلاق في حال طيش وسفه!! وكم من كريم اعتذر
 إلى لئيم؛ لأنه غضب فقال في حقه ما أخذ عليه!! والغاضبُ قد يقول
 ما لا يعي؛ لذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «علموا ويسروا ولا

تعسروا وإذا غضب أحدكم فليسكت» أخرجه أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما ^(١٧).

ولثلا يتجاوز الغضبُ مرحلة الكلام فتتمد الأيدي إلى الاقتتال، فتُزهقَ أرواحٌ، أو تُقطع أطراف، أو تُعطل حواس؛ جاء التوجيه النبوي بالجلوس في حال الغضب، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع» أخرجه أحمد وأبو داود ^(١٨).

ولأن الغضب من الشيطان كان التعود بالله منه يُذهبه؛ فقد جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لو يقول أحدكم إذا غضب: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب غضبه» أخرجه

(١٧) أخرجه أحمد (٢٣٩/١) و (٢٨٣/١) و (٣٤٨/١) والبخاري في الأدب المفرد برقم (١٣٢٠) والطيالسي (٢٦٠٨) وفي سننه ليث بن أبي سليم يضعف بسبب اختلاطه، وعزاه الهيثمي لأحمد والبخاري وقال: وفيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف. انظر: المجمع (١٣١/١) وفي موضع آخر قال: ورجال أحمد ثقات، لأن ليثاً صرح بالسماع من طاووس (٧٠/٨) وصححه الشيخ شاکر في شرحه على المسند برقم (٢١٣٦) و (٢٥٥٦) و (٣٤٤٨) لأن الشيخ شاکراً يرى توثيق ليث بن أبي سليم كما في شرحه على المسند (٢٨٤/٢) على حديث رقم (١١٩٩) وقد ذكر الألباني له متابعات وشاهداً من حديث أبي هريرة بإسناد حسن ثم قال: فالحديث صحيح إن شاء الله تعالى. انظر: السلسلة الصحيحة برقم (١٣٧٥) وصححه في صحيح الأدب المفرد برقم (٩٩١) وصحيح الجامع (٦٩٣).

(١٨) أخرجه أحمد (١٥٢/٥) وأبو داود في الأدب باب ما يقال عند الغضب (٤٧٨٣) وصححه ابن حبان (٥٦٨٨) والألباني في صحيح الجامع (٦٩٤) من حديث

الطبراني^(١٩). وأسمع رجلٌ عمر بن عبدالعزيز رحمه الله كلاماً فقال له عمر: «أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان، فأنال منك ما تناله مني غداً انصرف رحمك الله»^(٢٠).

وإذا تذكر العبد عظمة الله عزوجل، وأنه تعالى أقدر منه على البطش والانتقام؛ قاده ذلك إلى الحِلْم والعفو عند الاقتدار. قال محمد ابن السعدي لابنه عروة لما ولي اليمن: «إذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك، وإلى الأرض تحتك ثم عظم خالقهما»^(٢١).

ثم إن معرفة الإنسان أقدار الفضلاء تجعله لا يجهلُ عليهم، ومعرفته قدر نفسه تمنعه أن يتنزل إلى محاط السفهاء. قال الأحنف: «ما نازعني أحد إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال: إن كان فوقني عرفتُ له قدره، وإن كان دوني كرمته نفسي عنه، وإن كان مثلي تفضلت عليه»^(٢٢).

أبي ذر رضي الله عنه.

(١٩) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٠٢٢) والصغير (٢٠٢١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وعزاه الهيثمي للطبراني في الصغير والأوسط من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ولعله وهم، وقال: ورجاله ثقات وفي بعضهم خلاف، انظر: المجمع (٧٠ / ٨) وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند السهيمي في تاريخ جرجان (٢٥٢) وذكر الألباني أن له شواهد أخرى ثم قال: فالحديث بمجموع ذلك صحيح، انظر: السلسلة الصحيحة برقم (١٣٧٦) وصححه في صحيح الجامع (٦٩٥).

(٢٠) عيون الأخبار (٤٠٤ / ١).

(٢١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان (١٧٣).

أيها الإخوة: والحليم العاقل لا يجاري السفهاء؛ بل يترك السفهاء يتعاملون مع سفهاء مثلهم حتى قيل: إن ابن عمر رضي الله عنهما كان إذا سافر سافر معه بسفيه فقيل له في ذلك، فقال: «إن جاءنا سفيه ردّ عنا سفيه؛ لأننا لا ندرى ما نقابل به السفهاء». (٢٣)

كم نحتاج - أيها الإخوة - إلى الحِلْم!! يحتاج إلى حلم الرجل أهله وأولاده، ويحتاجُ إلى حلم المدير والمسؤول موظفوه ومن هم تحت إدارته وولايته. والعمالُ والخدمُ هم أحوج ما يكونون إلى حلم من يعملون عندهم. والجارُ لابد أن يحلم على جاره مراعاة لحق الجوار، والقريب على قريبه حفاظاً على حق الرحم التي بينهما، والعالم والأستاذ على طلابهم حتى يصل العلم إلى أذهانهم. وفي كل شأن من شؤوننا نجد أننا نحتاجُ إلى الحِلْم والتأني والظن الحسن حتى يصير العيش هنيئاً، والعينُ قريرة، ما لم تنتهك محارم الله فلا حلم في ذلك؛ لأن الغضب حينئذ لله تعالى وليس انتصاراً للنفس.

والحِلْم لا يعني السكوت عن المعصية، أو ترك إنكار المنكر؛ فذلك عجز أو فسوق تبطن بالحِلْم، وتسمى بالسكينة، وليس من الحِلْم والسكينة في شيء. فاتقوا الله ربكم وتزينوا بالحِلْم في مواضعه فعواقبه إلى خير، وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربكم.

(٢٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/٢١٥).

(٢٣) بهجة المجالس لابن عبد البر (٢/٦١٧).

١٠٠- الغيرة بين الشرع والواقع

الجمعة ٢٨/٣/١٤١٨هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم، واهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها المسلمون: اتقوا الله تعالى بفعل ما أمر، واجتنبوا الفواحش ما بطن منها وما ظهر، فالتقوى طريق الجنة؛ إذ هي محفوفة بالمكاره، والفواحش طريق النار فقد حفت بالشهوات والملذات.

أيها الإخوة المؤمنون: من أخلاق العرب السامية: خلق الغيرة. هذا الخلق كان العرب في جاهليتهم يُعرفون به، وقد أفرطوا فيه وغالوا وتشددوا، وتجاوزوا حده المشروع؛ حتى وصل بهم إلى وأد بناتهم خشية العار.

جاء الإسلام فأقر أصل الغيرة؛ لكنه هذبها وعدلّها لتكون بين الإفراط والتفريط، وبين الغلو والتقصير. وقلّة الغيرة من قلة الإيمان؛ لأن المؤمن يغار، يغار لنفسه إذا شورك في شيء يختص به، ويغار لله تعالى إذا انتهكت محارم الله تعالى، أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه»^(١)، وفي الصحيحين واللفظ لمسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس أحدٌ أحبَّ إليه المدحُ من الله عز وجل؛ من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحدٌ أغيرَ من الله؛ من أجل ذلك حرم الفواحش، وليس أحدٌ أحبَّ إليه العذر من الله؛ من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل»^(٢).

وميزان الغيرة الشرعية: ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «من الغيرة ما يحب الله، ومنها ما يبغض الله، فأما التي يحبها الله عز وجل فالغيرة في الريبة، وأما التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة» أخرجه أحمد وأبو داود^(٣). وفي حديث الكسوف قال لهم عليه الصلاة والسلام: «يا أمة محمد: ما أحدٌ أغيرُ من الله أن يرى عبده أو أمته تزني، يا أمة محمد: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» متفق عليه^(٤).

(١) أخرجه البخاري في النكاح باب الغيرة (٥٢٢٣) ومسلم في التوبة باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش (٢٧٦١).

(٢) هذا لفظ مسلم في كتاب التوبة باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش (٢٧٦٠) ونحوه عند البخاري في النكاح باب الغيرة (٥٢٢٠) والترمذي في الدعوات باب (٩٦) (٣٥٣٠).

(٣) أخرجه أحمد (٤٤٥/٥) والنسائي في الزكاة باب الاختيال في الصدقة (٥/٧٨) وأبوداود في الجهاد باب في الخيلاء في الحرب واللفظ له (٢٦٥٩) والدارمي (١٤٩/٢) والطبراني في الكبير (١٧٧٥) وصححه ابن حبان (٢٩٥).

(٤) أخرجه البخاري في النكاح باب الغيرة (٥٢٢١) ومسلم في الكسوف باب صلاة الكسوف (٩٠١).

ورسول الله صلى الله عليه وسلم أشدُّ الناس غيرةً، ثم صحابته من بعده رضي الله عنهم وأرضاهم. هذا عمر رضي الله عنه يقول له النبي صلى الله عليه وسلم: «بينما أنا نائم رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا؟ قال: لعمر، فذكرت غيرته فوليت مدبراً، فبكى عمر وهو في المجلس ثم قال: أو عليك يارسول الله أغار» متفق عليه^(٥). وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال سعد بن عباد: «يا رسول الله، لو وجدت مع أهلي رجلاً لم أمسه حتى آتي بأربعة شهداء»، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم»، قال: «كلا، والذي بعثك بالحق إن كنت لأعاجله بالسيف قبل ذلك»، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اسمعوا إلى ما يقول سيدكم، إنه لغيور، وإنني لأغير منه، والله أغير مني»^(٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وبين النبي صلى الله عليه وسلم أنه أغير من غيرة المؤمن، وأن المؤمن يغار، والله يحب الغيرة وذلك في الريبة، ومن لا يغار فهو ديوث. وقد جاء في الحديث «لا يدخل الجنة ديوث»^(٧). فالغيرة المحبوبة هي ما وافقت

(٥) أخرجه البخاري في النكاح باب الغيرة (٥٢٢٧) ومسلم في فضائل الصحابة باب فضائل عمر رضي الله عنه (٢٣٩٥).

(٦) أخرجه مسلم في اللعان (١٤٩٨) ونحوه في موطأ مالك (٧٣٧/٢) وسنن أبي داود في الديات باب فيمن وجد مع أهله رجلاً أيقئلته؟ (٤٥٣٢).

(٧) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٤٣٧) وأحمد (١٢٨/٢) وذكره ابن حجر في المطالب العالية (٢١٤٥) وعزاه لأبي داود من حديث عمار، ويشهد له حديث ابن عمر =

غيرة الله تعالى؛ وهذه الغيرة هي أن تنتهك محارم الله؛ وهي أن تؤتي الفواحش الباطنة والظاهرة. لكن غيرة العبد الخاصة هي من أن يُشركه الغير في أهله. فغيرته عن فاحشة أهله ليست كغيرته من زنا الغير؛ لأن هذا ما يتعلق به، وذاك لا يتعلق إلا من جهة بغضه لمبغضة الله؛ ولهذا كانت الغيرة الواجبة عليه هي من غيرته على أهله، وأعظم ذلك امرأته ثم أقاربه، ومن هو تحت طاعته؛ ولهذا كان له إذا زنت أن يلاعنها لما عليه في ذلك من الضرر بخلاف ما إذا زنا غير امرأته^(٨). وقال أيضاً: «فالغيرة الواجبة ما يتضمنه عن المخزي، والغيرة المستحبة ما أوجبت المستحب من الصيانة. وأما الغيرة في غير ريبة وهي الغيرة في مباح لاريبة فيه فهي مما لا يحبه الله». وقد قسم شيخ الإسلام رحمه الله تعالى بني آدم في الغيرة إلى أربعة أقسام:

«قومٌ لا يغارون على حرّمات الله بحال ولا عن حُرْمِها، مثل الديوث، ومثل أهل الإباحة الذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق، ومنهم من يجعل ذلك ديناً وطريقاً ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا﴾

= رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه والديوث ورجلة النساء» أخرجه أحمد (١٢٨/٢) والنسائي (٨٠/٥) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٧٢/١).

(٨) مكارم الأخلاق مجموع من كلام شيخ الإسلام لعبد الله بدران ومحمد الحاجي (١٥٦) وهو مأخوذ من الاستقامة لشيخ الإسلام (٧/٢).

وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ [الأعراف: ٢٨].

وقوم يغارون على ما حرمه الله وعلى ما أمر به مما هو من نوع الحب والكره، يجعلون ذلك غيرة؛ فيكره أحدهم من غيره أموراً يحبها الله ورسوله. ومنهم من جعل ذلك طريقاً ودينًا، ويجعلون الحسد والصد عن سبيل الله وبغض ما أحبه الله ورسوله غيرة.

وقوم يغارون على ما أمر الله به دون ما حرمه؛ فنراهم في الفواحش لا يبغضونها ولا يكرهونها؛ بل يبغضون الصلوات والعبادات؛ كما قال تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا (٥٩)﴾ [مريم].

وقوم يغارون مما يكرهه الله، ويحبون ما يحبه الله، هؤلاء هم أهل الإيمان». اهـ كلامه رحمه الله تعالى. ^(٩)

والذنوب والمعاصي سبب لنقص الغيرة واضمحلالها وذهابها؛ ولذا فإن أكثر الناس غيرة أتعاهم الله تعالى، وتنقص الغيرة من قلب العبد بقدر نقص تقواه.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: «ومن عقوبات الذنوب: أنها تطفئ من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن، فالغيرة حرارته وناره التي تُخرج مافيه من الخبث والصفات المذمومة كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة

والحديد. وأشرف الناس وأجدهم وأعلاهم همة أشدهم غيرة على نفسه وخاصيته وعموم الناس؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أغير الخلق على الأمة، والله سبحانه أشدُّ غيرة منه...

إلى أن قال: فإن كثيراً ممن تشتد غيرته من المخلوقين تحمله شدة الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعدار، ومن غير قبول العذر ممن اعتذر إليه؛ بل يكون له في نفس الأمر عذر، ولا تدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره. وكثير ممن يقبل المعاذير، ويرى عذراً ما ليس بعذر؛ حتى يعتذر كثير منهم - يعني على معاصيهم - بالقدر وكل منهما غير ممدوح على الإطلاق... وإنما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر؛ فيغار في محل الغيرة، ويعذر في موضع العذر، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقاً اهـ^(١٠).

وقال أيضاً: «والمقصود أنه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس، وقد تضعف في القلب جداً حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك. وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح، بل يُحسن الفواحش والظلم لغيره، ويزينه له، ويدعوه إليه، ويحثه عليه، ويسعى له في تحصيله. ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله، والجنة حرام عليه، وكذلك محلل الظلم والبغي لغيره ومزيئه له. فانظر ما الذي حملت عليه قلة الغيرة، وهذا يدل

(١٠) الداء والدواء لابن القيم تحقيق: علي حسن عبد الحميد (١٠٨).

على أن أصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له. فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح؛ فتدفع السوء والفواحش. وعدم الغيرة يميئ القلب فتموت الجوارح، فلا يبقى عندها دفع البتة. ومثل الغيرة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلاً، ولم يجد دافعاً فتمكن فكان الهلاك»^(١١).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ (٣٠)﴾ [الأعراف] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وبارك وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن الغيرة الموزونة بميزان الشرع تسبب الخير، وتدفع الشر، وتقمع أهل الريب والفساد. غضب أبو بكر رضي الله عنه لما

ارتد المرتدون، ومنع الزكاة المانعون.. غضب رضي الله تعالى عنه وقال لعمر لما حاول تهدئته: «يا عمر: أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام؟!»^(١٢) وانطلقت قولته المشهورة التي أصبحت نبأياً يستضاء به «والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه»^(١٣)، قال ذلك غيرة لله تعالى، وقاتل أهل الردة، فأعز الله به الإسلام.

وهكذا يكون أبو بكر رضي الله عنه أنموذجاً صالحاً، وأسوة حسنة لكل عبد غيورٍ على دين الله، قوي في الحق، أمر بالمعروف، ناه عن المنكر، لا كحال كثير من الناس يرون حرماً لله تنتهك فلا يغارون لله تعالى؛ ولكن كيف يغارون إذا كان في الناس من تنتهك حرماً ولا يغار!!

إن حدود الرجم والجلد والتغريب في الزنا ما شرعت إلا محافظة على الأعراض أن تنتهك. وإن آداب الاستئذان، وكيفية الدخول على البيوت والمحارم، ومنع النظر إلى الأجنبية ما جاء إلا حفاظاً على الأعراض. وإن جلد القاذف ما شرع إلا حفظاً للنساء الطاهرات العفيفات أن تقع فيهن الألسن الجارحة العاصية. واللعان بين الزوجين

(١٢) التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر (٦٨/٣).

(١٣) أخرجه البخاري في الاعتصام باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧٢٨٤-٧٢٨٥) ومسلم في الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله (٢٠).

ما شرع إلا ليضبط غيرة الرجل على أهله؛ فلا تتعدى حدود الريبة.
 ما شرع ذلك كله إلا لمكانة الأعراس وأهميتها في دين الله تعالى؛
 ولكن ما حال الناس أمام هذه الحرمة العظيمة؟ وما مقدار الغيرة في
 ظل بث الفضائيات الخبيثة التي تنشر الفساد والإباحية، وزمن انتشار
 المجالات الخالعة التي تسهل طرق الفاحشة؟

ما حال مراهق أو مراهقة يخلو كل واحد منهم في غرفته، تنتقل
 عينه من فضائية إلى أخرى فبالله عليكم، وبعيداً عن المزايدة في الكلام،
 والتسويغات السامجة، والأعذار الواهية، ماذا سيكون جواب صاحب
 البيت الآمن حينما جلب النار والعار ووضعهما في أيدي أبنائه وبناته؟
 ليس حديثي هذا للمنافقين؛ فالمنافقون أخبر الله عنهم بأنهم ﴿يُحِبُّونَ
 أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النور: ١٩] لذا لا غرابة أن يقلبوا
 الموازين، ويخلطوا المفاهيم، ويجعلوا الفاحشة رقيماً وتقدماً، وحضارة
 ومجداً، ويصفوا الغيرة وحفظ الأعراس بالجمود والقيود والأغلال.
 وإنما الحديث لأهل الإيمان والفطر السوية، التي ترفض الفاحشة،
 وتأبى الانحلال؛ لكن دفعها إلى استقبال خبيث الفضاء تقليد على
 غير هدى، في غفلة مع الغافلين.

كانوا يظنون أن الأمر سهل ويسير، وفيه متعة وتسليّة للأولاد؛ أما
 وقد بان لهم أمرها، وظهر أمامهم خبيثها ونتئها؛ فهل من عودة إلى
 الحق، ورجعة إلى الله تعالى، وتوبة وإنابة تقود إلى تنظيف البيوت الآمنة
 من أسلحة غزاة الفساد والفاحشة؛ حماية للأعراس، وغيره على المحارم؟!!

هذا هو الظن بهم، أن يستجيبوا لله ولرسوله، ويقطعوا طرق الشيطان والفاحشة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١].

فما أقوى نفوسهم إن تغلبت على الهوى والشيطان، وما أضعفها وأعجزها وأجبنها إن استمرت في غيها «والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربكم.

* * *

١٠١- حكم سوء الظن بالمسلم

١٤٢٤هـ / ٢ / ٢٣

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١] .

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: علاقة المسلم بأخيه المسلم أسست في شريعة الله تعالى على الأخوة والمودة، والتراحم والتعاطف، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠] .

فكل ما يحقق الأخوة، ويزيد في المحبة بين المسلمين فإن الإسلام قد جاء به، وحضت عليه الشريعة، ورُتب عليه من المثوبة بحسبه.

وكل ما يعكر صفو الأخوة بين المسلمين، ويؤدي إلى الاختلاف والفرقة، والتقاطع والتدابير نهى عنه الإسلام، وسدَّ الطرق المفضية إليه، وله في الشريعة من العقوبة الدنيوية والأخروية ما يناسبه.

وذلك من أجل أن يكون المسلمون عباد الله إخواناً، يتعاملون بالحسنى فيما بينهم، فلا يجدُّ الشيطان مدخلاً على قلوبهم لإفسادها، وملئها بالعداوة والشحناء، والدغل والضغينة.

ومن أعظم ما يكون سبباً في فساد القلوب، وتغير النفوس، وانقطاع الأواصر، وقطيعة الرحم، وانفصام عرى الأخوة، وزوال المحبة والمودة: سوءُ الظن بأخيك المسلم بلا سبب يوجهه، ولا بينة تدل عليه. وهو البداية التي يبدؤها الشيطان مع العبد، فإن استسلم له، وعمل بموجب ظنونه التي وسوسها الشيطان في صدره قاده ذلك إلى كبائر الذنوب، وعظائم الأمور، من التجسس إلى الغيبة والنميمة، والكذب والبهتان، والزور، وإشاعة الفاحشة في الأبرياء؛ وكل ذنب منها أعظم من صاحبه، وهي ظلمات بعضها فوق بعض.

وقد أمر الله تعالى باجتنب كثير الظن احترازاً من الوقوع في الإثم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال الزرقاني رحمه الله تعالى: «الظن تهمة تقع في القلب بلا دليل»^(١).

(١) شرح الزرقاني على الموطأ (٤/ ٣٣٠).

وقد روى الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»^(٢).

وإنما كان الظن أكذب الحديث لأن الشيطان هو الذي يقذفه في قلب العبد، والشيطان ساع أبداً في إغواء بني آدم ولو بالكذب، ولما صدق الشيطان مرة قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب»^(٣). فالصفة الملازمة له هي الكذب، فكان ما يقذفه في قلب المسلم على أخيه المسلم من وساوس وخطرات وظنونٍ من أكذب الحديث.

وخطورة الظن تكمن في أن صاحبه يعتقد أنه مستندٌ في ظنه هذا إلى أصل يتكئ عليه وليس كذلك على وجه الحقيقة، فيكون الاغترارُ به أكثر من الاغترار بالكذب المحض الذي يظهر عواره لكل أحد، ولا مستند لصاحبه^(٤).

ونقل الحافظ ابن حجر عن القرطبي رحمهما الله تعالى قوله:

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢] (٦٠٦٦)، ومسلم في البر والصلة باب تحريم الظن والتجسس والتناظر والتناجش ونحوها (٢٥٦٣).

(٣) أخرجه البخاري معلقاً مجزوماً به في بدء الخلق باب صفة إبليس وجنوده (٣٢٧٥)، ووصله النسائي والإسماعيلي وأبو نعيم كما ذكر ذلك الحافظ في الفتح (٥٦٩/٤).

(٤) انظر: فتح الباري لابن حجر (٤٩٧/١٠).

«المراد بالظن هنا التهمة التي لا سبب لها؛ كمن يتهم رجلاً بالفاحشة من غير أن يظهر عليه ما يقتضيها؛ ولذلك عُطف عليه ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وذلك أن الشخص الذي يقع له خاطرُ التهمة فيريدُ أن يتحقق، فيتجسس ويبحث ويستمعُ فنُهي عن ذلك، وهذا الحديث يوافق قوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، فدل سياق الآية على الأمر بصون عرض المسلم غاية الصيانة؛ لتقدم النهي عن الخوض فيه بالظن، فإن قال الظانُ: أبحث لأتحقق؛ قيل له: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾، فإن قال: تحققت من غير تجسس؛ قيل له: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾^(٥).

وإذا اعتبرت الظنون، واستمع إلى مُصدِّريها؛ فشت الشائعات، وانتشرت الغيبة والنميمة، وأخذ البرءاء بمجرد الظنون والأوهام؛ فيتولد عن ذلك الأحقاد والضغائن، والانتقام والثارات، وحينئذ لا يأمن الناس على أنفسهم! فإن سلموا من الوقوع في الظن السيئ بإخوانهم واتهام الأبرياء بمجرد الظنون لم يأمنوا من أن يلصق بهم ما ليس فيهم. من أجل ذلك نُهي رأس القوم من أمير أو وزير أو مدير أو شيخ قبيلة، عن الاستماع إلى نقلة الكلام، المتفكهين بالأعراض، الذين ليس لهم من البضاعة إلا القيل والقال، والظنون والأوهام؛ لئلا يصيبوا بريئاً بشراً، وحتى لا تريح سوق الكلام والشائعات؛ فإن كثرة الطلب تزيد في العرض. فإذا ما استمع لأهل الظنون كثر العارضون

(٥) فتح الباري (١٠/٤٩٦)، وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦/٢١٧).

لبضاعتهم الرديئة في أعراضِ الناس، وحصل للشيطان ما يريد من التحريش بين العباد. روى أبو أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم» رواه أحمد وأبو داود بإسناد حسن^(٦).

وروى أبو داود وصححه ابن حبان من حديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنك إن اتبعت عوارثِ الناس أفسدتهم، أو كدت أن تفسدهم» قال: يقول أبو الدرداء: «كلمة سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعه الله بها»^(٧).

وذلك أن معاوية رضي الله عنه صار رأساً للناس في وقته بتولية الخلافة، فكان لا يأخذ بالريبة، ولا يتتبع عوراتهم عملاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم.

إن الشريعة الغراء جاءت بحسم مادة الشر بين الناس، وإغلاق

(٦) أخرجه أحمد (٤/٦)، وأبو داود في الأدب باب في التجسس (٤٨٨٩)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٨٨)، والبيهقي (٣٣/٨)، والطبراني في الكبير (١٠٨/٨) برقم: (٧٥١٦) و (٢٢/١٧) برقم: (٣٠٢) وفي مسند الشاميين (١٦٦٠)، والحاكم وسكت عنه، وسكت عنه الذهبي في التلخيص (٣٧٨/٤) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٠٨٩).

(٧) أخرجه أبو داود في الأدب باب النهي عن التجسس (٤٨٨٨) والبخاري في الأدب المفرد (٢٤٨)، وأبو يعلى في مسنده (٧٣٨٩)، والطبراني في الكبير (٣٧٩/١٩)، برقم: (٨٩٠)، وصححه ابن حبان (٥٧٦٠).

الأبواب الموصلة إلى العداوة والبغضاء، وإخراص الألسن التي تلوك الأعراس؛ فلا يقبل قذفٌ إلا بشهود عدول، يرون الزنى صراحة بلا لبس ولا غموض، وإلا كان الحد في ظهورهم ثمانين جلدة. ولما وقع من وقع في الإفك وخاض في عرض الصديقة الطاهرة من خاض فيه؛ حدّهم النبي صلى الله عليه وسلم وهم من صالحى المؤمنين^(٨)، وعاتبهم الله تعالى فقال: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد داخلته الريبة في امرأته، وأحاطت به ظنون السوء فيها؛ لأنها ولدت غلاماً أسود على غير لونه ولونها، فأزال النبي صلى الله عليه وسلم ما في قلبه من ظن وريبة بسؤاله عن لون إبله، فقال: «ألوانها حمر». قال: هل فيها من أورق؟ قال: نعم، قال: فأنى ذلك؟ قال: لعله نَزَعه عرق، قال: فلعل ابنك هذا نَزَعه عرق» رواه الشيخان^(٩).

إن الواجب على المسلم أن لا يظن بإخوانه إلا خيراً، فإن وقع في قلبه شيءٌ من الظن حرم عليه العمل بموجب ظنه هذا، فلا يتجسس

(٨) ممن حدّهم النبي صلى الله عليه وسلم في الإفك: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثانة، وحمنة بنت جحش رضي الله عنهم.

(٩) أخرجه البخاري في الطلاق باب إذا عرض بنفى الولد (٥٣٠٥)، ومسلم في اللعان (١٥٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الحافظ في الفتح (٣٥٣/٩): «وفيه أن الزوج لا يجوز له الانتفاء من ولده بمجرد الظن، وأن الولد يلحق به ولو خالف لونه لون أمه».

ولا يتكلم في عرض أخيه، فإذا لم يعمل بموجب ظنه، وأمسك عن العمل والكلام فإن ما وقع في قلبه معفي عنه؛ لعجزه عن دفعه، فالقلوب لا يملكها إلا الله تعالى، قال سفيان الثوري رحمه الله تعالى: «الظن ظنان: ظن فيه إثم، وظنٌ ليس فيه إثم، فأما الظن الذي فيه إثم فالذي يتكلم به، وأما الذي ليس فيه إثم فالذي لا يتكلم به»^(١٠).

وقال ابن الأثير رحمه الله تعالى تعليقاً على الحديث: «إياكم والظن»: «إياكم وسوء الظن وتحقيقه، دون مبادئ الظنون التي لا تملك، وخواطر القلوب التي لا تُدفع، معناه: لا تبحثوا عن عيوب الناس، ولا تتبعوا عوراتهم»^(١١).

والواجب على المسلم أن يُدافع ما يقع في قلبه من ظنون على إخوانه، ويغالبها، ويخرجها من قلبه؛ حتى يكون قلبه سليماً على إخوانه المسلمين، فأسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل، وليس له مخرج من المخارج، فعند ذلك لا يمكنك أن تعتقد إلا ما علمته وشاهدته، وما لم تشاهده بعينك، ولم تسمعه بأذنك، ثم وقع في قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك، فينبغي أن تكذبه؛ فإنه أفسق الفساق،

(١٠) سنن الترمذي كتاب البر والصلة، باب ما جاء في ظن السوء (١٩٨٨) قال

الترمذي: سمعت عبد بن حميد يذكر عن بعض أصحاب سفيان، فذكره،

وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد (١٨/٢٠)، والاستذكار (٢٦/١٥١).

(١١) جامع الأصول (٦/٥٢٥).

وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] ^(١٢).

وإن كان ظنك بأخيك ناشئاً عن كلام نقل إليك فالواجب عدم تصديق الناقل بلا بينة، وناقل الكلام بين الناس غمام أو مغتاب، فهو فاسقٌ لا يُقبل قوله، ويجب نصحه.

وإن وقع الظن بسبب عمل أو كلمة محتملة قالها أخوك المسلم فلا تحملها على السوء ابتداءً وأنت تجد لها في الخير مخرجاً؛ لأن الأصل سلامة المسلم، فلا يُعدل عن الأصل إلا بيقين أو غلبة ظن، وهو ما لا تفيده كلمة محتملة.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يحل لامرئ مسلم سمع من أخيه كلمة أن يظن بها سوءاً وهو يجد لها في شيء من الخير مصدراً» ^(١٣).

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى: «كتب إلي بعض إخواني من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً» رواه البيهقي ^(١٤).

(١٢) إحياء علوم الدين (٣/ ١٥٠)، وانظر شرح الزبيدي: إتحاف السادة المتقين (٣٢٣/٩).

(١٣) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (١٨/ ٢٠)، وفي الاستذكار (٢٦/ ١٥١).

(١٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٨٣٤٥).

أسأل الله تعالى أن يحفظنا والمسلمين من وساوس الشيطان، ومن القيل والقال، وأن يجعل قلوبنا سليمة على إخواننا المسلمين، إنه سميع مجيب.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمدته وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وأطيعوه، واحذروا المعاصي فإنها سبب فساد القلوب والأعمال، ومن فسد قلبه وعمله فهو حري بالهلاك والعذاب ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

أيها المسلمون: كما نُهي المسلم عن الظن الباطل بأخيه المسلم، فهو منهيٌ كذلك عن الأعمال والأقوال التي تجعله محل التهمة، وتورد ظنون السوء فيه، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»^(١٥)، ولما ذهب النبى صلى الله عليه وسلم مع زوجه

(١٥) أخرجه من حديث الحسن بن علي رضي الله عنه أحمد (٢٠٠/١)، وعبد الرزاق (٤٩٨٤)، والطيايلى (١١٧٨)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٨)، وصححه ابن حبان (٧٧٢)، والحاكم ووافقه الذهبي (١٣/٢).

صفيه ليقبلها إلى البيت من معتكفه، ورآه رجلان فأسرعا قال عليه الصلّاة والسّلام: «على رسلكما، إنها صفية بنت حيي. فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكبرّ عليهما، فقال عليه الصلّاة والسّلام: إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإنني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً - أو قال - شيئاً» رواه الشيخان^(١٦).

قال ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى: «وهذا متأكد في حق العلماء، ومن يقتدى بهم، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلاً يوجب سوء الظن بهم، وإن كان لهم فيه مخلص؛ لأن ذلك سببٌ إلى إبطال الانتفاع بعلمهم، وقد قالوا: إنه ينبغي للحاكم أن يبين وجه الحكم للمحكوم عليه إذا خفي عليه، وهو من باب نفي التهمة بالنسبة إلى الجور في الحكم»^(١٧).

ومرَّ عمر رضي الله عنه برجل يكلم امرأة على ظهر الطريق فعلاه بالدرة، فقال: يا أمير المؤمنين، إنها امرأتي، فقال رضي الله عنه: «هلا حيث لا يراك أحد من الناس»^(١٨).

وأمر المسلم إذا سافر في رمضان وأفطر أن لا يجاهر بفطره أمام الناس لئلا يُظن به سوءاً، وإذا صلى وحضر الناس وهم يصلون فإنه

(١٦) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب صفة إبليس وجنوده (٣٢٨١)، ومسلم في السلام باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة وكانت زوجته أو محرماً له أن يقول: هذه فلانة؛ ليدفع ظن السوء به (٢١٧٥)، وأحمد (٣٣٧/٦).

(١٧) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (٤٥/٢).

(١٨) إحياء علوم الدين (٢٠٢/٢).

يصلي معهم مرة أخرى؛ لئلا يُظن به السوء أيضاً، فعن جابر بن يزيد بن الأسود عن أبيه أنه صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غلامٌ شاب، فلما صلى إذا رجلان لم يصليا في ناحية المسجد، فدعا بهما؛ فجيء بهما ترعد فرائصهما، فقال: «ما منعكما أن تصليا معنا؟! قالوا: قد صلينا في رحالنا، فقال: لا تفعلوا، إذا صلى أحدكم في رحله ثم أدرك الإمام ولم يصل فليصل معه فإنها له نافلة» رواه أبو داود والترمذي^(١٩).

ومن كان مجاهرًا بالمعاصي، مظهرًا لفسقه، معلناً منكرااته، فليس له حرمة، والأصل فيه التهمة؛ لقلة دينه وحيائه إلا أن يتوب من ذنبه، ويقطع عن غيه.

أيها الإخوة: في زمن الفتن تكثر الأقاويل، وتسري الإشاعات في الناس، وتروج سوق أهل الريب والظنون الفاسدة، ويُظن بأهل الخير والصلاح ما ليس فيهم؛ فتُلاك أعراضهم، ويقع الناس في غيبتهم! وإن كان في بعضهم ما يلصق به فليس من النصيحة التشهير والتعير، وتناقل العثرات، وتسليط الضوء على الزلات.

(١٩) أخرجه أحمد (٤/١٦١)، وعبد الرزاق (٣٣٤)، وأبو داود في الصلاة باب فيمن صلى في منزله ثم أدرك الجماعة (٥٧٥)، والترمذي في الصلاة باب ما جاء في الرجل يصلي وحده ثم يدرك الجماعة، وقال: حديث حسن صحيح (٢١٩)، والنسائي في الإمامة باب إعادة الفجر مع الجماعة لمن صلى وحده (١١٢/٢ - ١١٣)، والبيهقي (٣٠١/٢)، والدارقطني (٤١٣/١)، وصححه ابن خزيمة (١٢٧٩).

قال أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى : «ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته، وتدعو له بالخير؛ فإن ذلك يغيظ الشيطان، ويدفعه عنك بالدعاء والمراعاة. ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة، فانصحه في السر، ولا يخدعك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه؛ لينظر إليك بعين التعظيم، وتنظر إليه بعين الاستحقار، وترفع عليه بإبداء الوعظ. وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزينٌ كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصانٌ في دينك، وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحبَّ إليك من تركه بالنصيحة، فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ، وأجر الغم بمصيبته، وأجر الإعانة له على دينه» (٢٠).

ألا فاتقوا الله - أيها المسلمون - وظنوا بإخوانكم خيراً، وإياكم ووساوس الشيطان وخطراته وخطواته، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم، ، ،

١٠٢- العمل الجاد سبيل تقدم الأمة

الجمعة ١٥/٢/١٤١٨ هـ

الحمد لله، أوجد الخلق فأحصاهم عدداً، وخلق الموت والحياة ليلوهم أيهم أحسن عملاً. أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، لا قابض لما بسط ولا باسط لما قبض، ولا معطي لما منع ولا مانع لما أعطى، ولا مباعد لما قرب ولا مقرب لما باعد، وكل شيء عنده بأجل مسمى. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا رب لنا سواه، ولا نعبد إلا إياه، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤)﴾ [غافر] وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بُعث بالنور المبين، فأخرج الله به من الضلال إلى الهدى، وأنقذ العباد من سبل الردى، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أولي النهى، وأعلام الهدى، ومصابيح الدجى، والتابعين لهم بإحسان ومن تبعهم واقتفى.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عز وجل، فتقوى الله عصامٌ في البلاء، وجمالٌ في الرخاء، ومخرجٌ من الضوائق، وسلاح في الشدائد، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

أيها الإخوة المؤمنون: إن ارتفاع الأمم وهبوطها، وبقائها واندثارها

يرتبط ارتباطاً كبيراً بعمل أبنائها وتطلعاتهم واهتماماتهم. فلن ترتقي أمةٌ يميل أبنائها إلى الدعة والراحة والسكون، ويؤثرون على العمل الجاد - الذي يسهم في بناء الأمة - كلَّ عمل يحقق نصيباً أكبر من الكسل والخمول، مع السعي في تحصيل عائد مالي جيد يوفر متطلبات الرفاهية والترف.

وإذا كان أفراد الأمة بتلك الصورة فإن الدنيا ومتعلقاتها تنقلب في مفهومهم إلى غاية تقصد بعد أن كانت وسيلة تستثمر، لا يهم معها النظر في متطلبات الأمة وحاجاتها. فتبقى الأمة في تخلفها؛ بل يزداد تخلفها بقدر ازدياد ترف أبنائها، حتى تكون عرضة للانهيـار والسقوط.

ولذا يقول علماء الحضارات: «إن شيوع الترف، وتفشي الانحراف الجنسي، والتحلل الأخلاقي سببٌ لانـهيار الحضارات. ونجد ذلك ظاهراً في السنة المستخرجة من قوله تعالى ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء].

فترف ينضم إليه فسوق، يصاحبهما بلاغٌ وإنذار من المصلحين مع عدم استجابة من الناس تكون نتيجته دمار وانـهيار»^(١).

من أجل ذلك كانت الشريعة واضحة في التحذير من الانجراف وراء حظوظ النفس وشهواتها ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤]. والناس على فريقين: فريق يسعى لبناء

مجد أمته ، وآخر يلهث وراء شهوته ﴿فَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ [البقرة].

ويعيب الله على اليهود حرصهم على الحياة؛ لأن الحرص على الحياة لا يبني أمة ولا مجداً ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] ومع أن هذه الصفة فيهم إلا أنهم تقدموا على المسلمين وانتصروا - وإن كان ذلك مؤقتاً؛ لأن وعد الله حق لكنهم في هذا العصر انتصروا - لأنهم أخذوا بأسباب الرقي والتقدم. أما المسلمون فتخلوا عن كثير من دينهم مع توافرهم وتركهم الأخذ بالأسباب؛ فكان مرجع الفصل بينهم وبين عدوهم إلى الأسباب والعتاد.

والسنة النبوية زاخرةً بنصوص الجد والاجتهاد والحث على العمل والبناء؛ فلقد كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أسالك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد»^(٢)، وكان يتعوذ

(٢) أخرجه النسائي في السهو باب نوع آخر من الدعاء (٥٤/٣) والترمذي في الدعوات باب سؤال الثبات في الأمر (٣٤٠/٤) وأحمد (١٢٥/٤) والطبراني في الكبير (٢٩٣/٧) وأبو نعيم (٢٦٦/١) وصححه ابن حبان كما في الموارد (٦٢/٨) برقم (٢٤١٨) والحاكم وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (١/٦٨٨) برقم (١٨٧٢) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

بالله من العجز والكسل^(٣)، و يوصي بعضاً من أصحابه فيقول: «أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»^(٤)، ويخبرهم: «أن الله تعالى يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها»^(٥)، ويبين لهم: أن المعونة تأتي من الله للعبد على قدر المؤنة^(٦).

لقد فهم المسلمون الأوائل هذه النصوص، وأحسنوا تلقيها؛ فكانت حركتهم في سبيل بناء الحضارة والمجد تقوم على أساس أن الاستعانة بالله ثم الجد في العمل هو الذي يخطُ مصير الأمة في واقع الحياة،

(٣) كما في حديث أنس بن مالك الذي أخرجه البخاري في الدعوات باب الاستعاذة من الجبن والكسل (٦٣٦٩) ومسلم في الذكر والدعاء باب التعوذ من العجز والكسل (٢٧٠٦) وأبو داود في الصلاة باب في الاستعاذة (١٥٤٠) والترمذي في الدعوات باب دعاء اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن (٣٤٨٤) والنسائي (٢٥٧/٨).

(٤) كما في حديث أبي هريرة وأوله «المؤمن القوي...» أخرجه مسلم في القدر باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله (٢٦٦٤).
(٥) أخرجه من حديث سهل بن سعد أبو نعيم في الحلية (٢٥٥/٣) والحاكم وصححه (١١١/١) وعزاه السيوطي للطبراني في الكبير والبيهقي وصححه كما في الجامع الصغير (١٧٧١) ونقل المناوي عن الحافظ العراقي أنه قال: إسناده صحيح ونقل عن الهيثمي قوله: رجال الطبراني ثقات، انظر: فيض القدير (٢٥١/٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٩) وذكر له شواهد في الصحيحة (١٣٧٨).

(٦) كما في حديث أبي هريرة عند البزار (١٥٠٦) والقضاعي في مسند الشهاب (٩٩٢) وعزاه السيوطي للبيهقي والحاكم في الكنى والحكيم الترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٩٥٢) وذكره في الصحيحة (١٦٦٤).

وأن عَرَقَ الأحياء في عملهم هو الذي يتكفل ببناء حضارة هذه الأمة، وأن وجودَ الحق والانتساب إليه لا يكفي في التمكين له في الأرض إلا أن يكون من يحمل هذا الحق يعمل من أجل تمكينه ونصرته^(٧).

وانطلاقاً من هذه المقدمة الموجزة نصل إلى تحديد معلم مهم من معالم الأزمة التي تمرُّ بها اليوم عقلية كثير من المسلمين، هذه العقلية التي غدت طافحة بالأفكار النظرية المجردة؛ ولكنها ما تزال على الرغم من ذلك عاجزة عن وضع هذه الأفكار موضع التنفيذ العملي^(٨).

إن للمسلمين ديناً صحيحاً، ومنهجاً متكاملاً، من الله به عليهم يوم أكمل لهم الدين وأتم عليهم النعمة؛ ولكنهم في واقع الحياة يعانون الاستلاب الحضاري، وانطفاء الفاعلية؛ ولذلك فإنهم يزحفون وراء غبار الركب البشري مع الزاحفين المنقطعين^(٩).

أما البلادُ المتقدمة صناعياً فرغم كفرها وإلحادها، وفسادها وانحطاطها في جوانب الأخلاق والسلوك الاجتماعية؛ فإن العمل له أهميته في حياتهم، لا يتنصلُ الموظفُ عندهم من مسؤولياته، ولا يملُّ الجلوسُ على كرسي وظيفته، ولا يتذرعُ بأوهى الحجج من أجل قبول إجازته، ولا يشترطُ في الوظيفة أن تكون بجوار بيت والده ووالدته، ولا يسعى في الوصول إلى دائرة تكون أقلَّ عملاً وأكثر فراغاً؛ بل العمل يمثل

(٧) البيان العدد ٩٩ ص ٣٢ بتصرف.

(٨) هذا الدين لسيد قطب (٦).

(٩) البيان العدد ٩٩ ص ٣٣ بتصرف.

حياتهم. فالفرق بيننا وبينهم منحصرٌ في أن الثروة تكثر كلما قلَّ النشاط والحركة؛ إذ حيثما يسود الكلام تبطؤ الحركة. وميزانية التاريخ ليست رصيلاً من الكلام؛ بل كتل من النشاط المادي، ومن الأفكار التي لها كثافة الواقع ووزنه. ولذلك كانت المجتمعات التي لا تمتلك إلا رصيلاً الكلام هي المجتمعات المتخلفة والنامية، وكانت المجتمعات التي تملك رصيلاً العمل والنشاط هي المجتمعات المتقدمة مادياً^(١٠).

إن الأمة الإسلامية قادرةٌ على النهوض من تخلفها وعجزها وهوانها وواقعها الراهن كما نهض غيرها من الأمم التي كانت في السابق أكثر تخلفاً منها. ويكمن ذلك في القدرة على تسخير القوى المتاحة، وإيجاد القناعة لدى أفراد الأمة أن مفاتيح التقدم في أيديهم؛ لكن عليهم أن يعملوا بجدٍّ ونشاط. عليهم أن يقتنعوا بأن الأمة لن تتقدم إلا إذا تاب أبنائها من خطيئة الكلام الكثير والعمل القليل، وشمر كل واحد منهم عن ساعديه، وتعبد لله تعالى بالعمل الكثير. ودون ذلك سوف تبقى هذه الأمة بين مطرقة الغرب الحاقد، وسندان أفعال أبنائها الخاطئة^(١١).

أيها الإخوة: يطرح هذا الموضوع المهم ونحن على أبواب الإجازات، التي يُضيّعها أولاد المسلمين كل عام فيما لا ينفع ولا يفيد، إلا من رحم الله وقليل ما هم. هذا الوقت الثمين، وتلك الأيام الطويلة،

(١٠) مشكلة الثقافة لمالك بن نبي (١٠٧) وانظر: المصدر السابق.

(١١) المصدر السابق بتصرف.

التي ينحصر همُّ الكثيرين في مدى الاستمتاع فيها، لا في كيفية الاستفادة منها. وتنتهي الإجازة ولا أحد يسأل نفسه ماذا استفاد منها؟ وما عائداتها العلمية، أو الثقافية، أو التقنية، أو حتى المالية؟ إنما هي أوقات تضيع، وأعمار تهدر فيما لا ينفع في الدنيا والآخرة!!

سفرٌ محرم، أو لهوٌ محظور. سهر في الليل ونوم في النهار، وإيذاءٌ لعباد الله. تضييع للفرائض، وتقصير في الحقوق والواجبات. لسان الحال يقول: ليس مهماً ماذا استفدنا من الإجازة، وبماذا خرجنا منها؟ لكن المهم أن لا يتخلف لون من ألوان الترف والرفاهية. فبالله عليكم كيف تتقدم أمة وهي على هذا الحال في كل عام؟ وهل يمكن لرجال بهذا التفكير والعقليات الخروج بالأمّة من مرحلة القصعة المستباحة إلى التمكين والريادة؟! كلا؛ فهذه أحلامٌ وخيالات، هي رؤوسُ أموال المفلسين والبطالين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿فَإِذَا فَرَعْتَ فَانصَبْ﴾ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿﴾ (٨) [الشرح] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه

ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين .

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ، وعليكم بجماعة المسلمين فإن يد الله على الجماعة ، ومن شذ شذ في النار .

أيها الإخوة: ما أجمل أن نضع منهجاً واضحاً ، وخططاً محكمة لإفادة أولادنا في إجازتهم ، وملء فراغهم الذي ضاقت به نفوسهم . ملؤه بما يناسب ميولهم وطموحهم ؛ فإن كان ميولهم علماً شرعياً فالكتب كثيرة ، والعلماء موجودون . وإن كان مهنيّاً وتقنياً ؛ فالدورات كثيرة ، والمعاهد الرسمية والتجارية منتشرة . وإن كان ميولهم تجارياً ؛ فسبل التجارة كثيرة ، وطرائقها متنوعة . المهم انتشالهم من الفراغ والكسل والنوم ، وحمائتهم من قرناء السوء . يجب أن تتظافر الجهود في علاج تلك المشاكل التي أثمرت شباباً لا يبالي ، ولا يستطيع تحمل المسؤوليات الصغرى فضلاً عن الكبرى . همّ والديه أن يُسمّن ويحفظ جسده من الأمراض ؛ لكنهما غفلا عن أمراض القلب التي أودت به حتى ظن أنه خلق هملاً : يرتع ولا يُسأل ، يصيب فلا يشجّع ، ويخطئ فلا يعاتب ؛ حتى مات قلبه ؛ لأن الصواب والخطأ ، والجِد والكسل ، والاهتمام وعدمه في مجتمعه سواء . فلماذا يتعب ؟ ولماذا يعمل ويكافح ؟!

ترى كيف ستكون أحوال الأمة حينما يكبر هذا النشء المقتول في معنوياته ، ويتسلم أفرادها مواقعهم في قيادة الأمة وإدارتها ؟ .

فاتقوا الله ربكم، اتقوه في هذا النشء، في هؤلاء الشباب الذين حرصتم على بناء أجسادهم، لكن أهملتم بناء قلوبهم!! اتقوه في أولادكم، املؤوا قلوبهم بالإيمان والتوكل واليقين، وأعطوهم ما يستحقون من الأعمال والمسؤوليات وأعينوهم على قضاء إجازتهم فيما ينفع ويفيد في الدنيا والآخرة، ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم.

١٠٣- أوقات الشباب في الإجازة

الجمعة ٢٧/٢/١٤٢٠ هـ

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب] .

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

أيها المؤمنون: صلاحُ الذرية واستقامتهم على أمر الله تعالى ، وتحليلهم بالأخلاق السامية ، واهتمامهم بالأمور العالية ، واشتغالهم بما ينفعهم في دينهم ودنياهم ؛ سببٌ لسرور الآباء والأمهات ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤] سئل الحسن رحمه الله تعالى : في الدنيا أم في الآخرة؟ قال : «في الدنيا ،

يرى الرجل من ولده وزوجه عملاً تَقَرُّ به عينه»^(١). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أما إنه لم يكن قُرَّةً أعين أن يرونه صحيحاً جميلاً؛ ولكن أن يرونه مطيعاً لله عزوجل»^(٢).

ولأجل ذلك اهتم سلفنا الصالح بالشباب المسلم اهتماماً عظيماً، تعليمياً وتربياً، وتوجيهاً ورعاية؛ حتى الصبيان منهم والصغار كانوا يجدون أعظم اهتمام، يجلس إليهم كبار العلماء، وأئمة الحديث، يحدثونهم ويعلمونهم. هذا الأعمش الإمام المحدث المشهور يمرُّ عليه رجل وهو يحدث فقال له: تحدث هؤلاء الصبيان فقال رحمه الله: «إن هؤلاء يحفظون عليك دينك»^(٣)، أي: أنه يحدثهم فيحفظون حديثه فهم يحفظون الدين ثم يبلغونه. وقال: «كان إسماعيل بن رجاء يجمع صبيان الكتّاب يحدثهم حتى لا ينسى حديثه»^(٤).

كانوا يعلمونهم الأدب والعلم، وينشئونهم على طاعة الله عز وجل، ويزرعون فيهم الهمم العالية، ويوقدون في قلوبهم الحماسة للأعمال الجليلة، والمهام العظيمة، قال عروة بن الزبير لبيه: «أي بني، هلموا فتعلموا؛ فإنكم توشكون أن تكونوا كبار قوم، وإنني كنت صغيراً لا يُنظر إليّ؛ فلما أدركت من السن ما أدركت جعل الناس يسألونني،

(١) العيال لابن أبي الدنيا (٦٠٨/٢).

(٢) العيال (٦٠٩/٢) وانظر: الدر المنثور للسيوطي (١٤٩/٥).

(٣) شرف أصحاب الحديث للخطيب (٦٤).

(٤) العيال (٨٠٤/٢).

وما أشدَّ على امرئٍ أن يسأل عن شيء من أمر دينه فيجهله»^(٥).

قارنوا بين هذا الكلام المتين، والتوجيه الحكيم، وبين من يسلم أولاده لقناة منحرفة، أو مربية كافرة، أو يجعلُ مثلهم الأعلى مغنياً هابطاً، أو رياضياً جاهلاً، فما أبعد ما بينهما!!

وليس مقصود هذا الكلام أن يصبح الشباب كلهم علماء في الشريعة، فذلك حسن ولكنه غير ممكن؛ ولكن المطلوب حفظ أوقاتهم من الهدر، وشبابهم من الضياع، وأخلاقهم من الانهيار، وعقولهم من الجمود، وأجسادهم من الكسل.

ولنا في سلفنا الصالح قدوة؛ حيث كانوا يرفعونهم عن دنيا الأمور، ويربأون بهم عن رديء الأخلاق، وضياع الأوقات في العطالة والبطالة، ويحفظونهم من مصاحبة الأشرار وقرناء السوء، ويوجهونهم إلى ما ينفعهم حتى في أمور الدنيا. قال عليُّ بن جعفر: مضى أبي إلى أحمد بن حنبل وذهب بي معه، فقال له: يا أبا عبدالله هذا ابني، فدعا لي وقال لأبي: «ألزّمه السوق وجنبه الأقران»^(٦). فحذّره من قرناء السوء، وصحبة البطالين، ووجهه إلى السوق؛ حتى يتعلم ويكتسب. ولا يلزم من ذلك أن يكون محتاجاً إلى المال، ولو لم يشتغل إلا المحتاجون حاجة شديدة لتعطلت مصالح العباد، إنما العمل طاعة وعبادة، فيه نفع للنفس، ونفع للناس، ونفع للأمة بزيادة الإنتاج،

(٥) العيال (٢/٨٠٢).

(٦) الحث على التجارة والصناعة والعمل لأبي بكر الخلال (٥٩).

وذلك خيرٌ من القعود والكسل، يقول شعيب بن حرب: «لا تحقرن فلساً تطيعُ الله في كسبه، وليس الفلسُ يراد إنما الطاعةُ تراد، عسى أن تشتري به بقلًا فلا يستقر في جوفك حتى يُغفر لك»^(٧).

ولكن ربما يستحي بعضُ الشباب أن ينزل إلى السوق؛ فيبيع ويشترى مع أن هذا ليس من مواطن الحياء، فماذا عليه لو أصلح شؤون الدار، وما من دارٍ إلا وفيها ما يحتاج إلى إصلاح وصيانة، وربُّ الأسرة عن ذلك مشغول، وكثيرٌ من الأعطال في الدور لا تحتاج مهندساً خبيراً؛ لكنها تحتاج جاداً صبوراً، ومن المؤسف جداً أن تُستدعى إلى البيت شركة أو مؤسسة من أجل إصلاح خلل سهل يمكن إصلاحه من دونها، وفي البيت خمسة رجالٍ أو عشرة يمكنهم أن يبنوا بيتاً لو استثمروا؛ ولكنه سوءُ التربية، وضعفُ الشعور بالمسؤولية، والاتكالية المفرطة، والرفاهية المسرفة؛ التي تجعل الشاب يأنف من كل شيء، ولا يحسن أي صناعة أو عمل.

ولقد كان الإمام أحمد وهو إمام أهل عصره، يعمل شؤون داره بنفسه ولو أراد لأوماً بيده فبنت له الأمة عشرين داراً؛ ولكنه نبذ الكسل والتواكل. يقول ابنه صالح: «كان أبي ربما أخذ القَدُّوم وخرج إلى دار السكان يعمل الشيء بيده»^(٨).

(٧) الحث على التجارة والصناعة والعمل لأبي بكر الخلال (٥٤).

(٨) الحث على التجارة والصناعة والعمل (٣٩) وسير أعلام النبلاء (١١/٢٠٩).

وقال عمر بن الخطاب: «الخُرْقُ في المعيشة أخوف عندي عليكم من العوز، لا يقل شيء مع الإصلاح، ولا يبقى شيء مع الفساد»^(٩). وأعظم شيء تُقضى فيه أوقات الفراغ: تعلم العلم وتعليمه والدعوة إلى الله عز وجل، ماذا على الشاب الذي حفظ القرآن أو جزءاً منه أن يعلم غيره ممن لم يحفظ «وخيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(١٠). وإلحاق الأولاد في حلقات التحفيظ من أعظم وسائل نفعهم، وحفظ أوقاتهم من الضياع، وأخلاقهم من الفساد. وجزى الله القائمين على تعليم أولادنا القرآن خير الجزاء؛ إذ بذلوا أوقاتهم، وصرفوا أعمارهم في خدمة كتاب الله تعالى، ونفع شباب المسلمين به. والدورات العلمية، والدروس، والمحاضرات من الكثرة بما لا يدع فراغاً عند الطالب الجاد والحريص.

وأصحاب التخصصات التجريبية الذين ليس لهم ميول إلى العلوم الشرعية ماذا عليهم لو قضوا أوقاتهم فيما يستطيعون من التجارب والأبحاث في تخصصاتهم المختلفة؟! وهم في أبحاثهم وتجاربهم

(٩) الحث على التجارة والصناعة والعمل (٤٠-٤١) ومناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابن الجوزي (١٩٦) والزهد لهتّاد (١٢٨٩).

(١٠) حديث صحيح رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضي الله عنه وأخرجه أحمد (٥٧/١) والطيالسي (٧٣) والبخاري في فضائل القرآن باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٥٠٢٧) وأبوداود في الصلاة باب ثواب قراءة القرآن (١٤٥٢) والترمذي في ثواب القرآن باب ما جاء في تعليم القرآن (٢٩٠٧) وابن ماجه في السنة باب فضل من تعلم القرآن وعلمه (٢١٢).

في عبادة مادام قصدهم نفع المسلمين .

ولو وجد هذا الحس والشعور عند شباب المسلمين لقضي على كثير من مشاكلهم التي أنتجها الفراغ ، ولأحسوا بطعم الحياة حلوة في ميادين البحث والعلم والتجارب ، ولنفعوا أمتهم نفعاً عظيماً .

إن تعطيل إمكانيات الشباب ، وعدم توجيه طاقاتهم إلى ما ينفع يعود بالضرر على الجميع . وأعظم ضرر يجنيه بعد فساد دينهم وأخلاقهم تبدل إحساسهم ، وانحطاط همتهم ، وقصور إرادتهم ، والإنسان يختلف عن الحيوان في هذه الناحية . فالحيوان يولد مبرمجاً بمرمجة كاملة يظل إنتاجه كما هو منذ ولادته حتى وفاته ، فدودة القز مثلاً تنسج خيوط الحرير بنفس الطريقة ، وعلى نفس المستوى من الدقة منذ وجدت وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . أما الإنسان فهو بمنزلة مشروع مقترح ومفتوح لكل احتمالات التألق والانطفاء ، والطموح والجمود ، وإمكانيات الخير والشر . ومعضلة الإنسان أنه لا يشعر بالحاجة إلى المجاهدة ، فهو في الغالب يتوهم أنه قد ورث كل الكمال في العقل والجسم ، وأنه يمثل كل الكمال في الفعل والسلوك^(١١) .

وهذا ما يجعل كثيراً من الشباب يظنون أنهم ماداموا نجحوا في دراستهم فقد انتهى دورهم من الحياة حتى تُفتح المدارس مرة أخرى !! فلا يحفظون أوقاتهم ، ولا يستثمرون شبابهم . يقضون الليل في سهر لا يفيد ، والنهار في نوم وبطالة ، وهم مع ذلك يشعرون أنهم لم يقصروا

(١١) انظر: مدخل إلى التنمية المتكاملة للدكتور عبدالكريم بكار (١١٣) .

في شيء ما داموا قد نجحوا. وهذا هو عين المشكلة، وجوهر المعضلة. لا بد أن يزال هذا الشعور الخاطئ بخلفياته وتراكماته، ولا بد أن يغرس في قلوب الشباب أنهم قادرون على الإنتاج والعطاء والنجاح أكثر وأكثر، وأن الأمة في أمس الحاجة إلى عطاءاتهم وإبداعاتهم حتى في أيام إجازاتهم، أسأل الله تعالى أن يصلح شباب المسلمين، وأن يجعلهم قرة أعين لوالديهم إنه سميع مجيب. بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وحافظوا على أوقاتكم؛ فإن الأيام تمر سريعاً، وكل يوم يمر على العبد يباعده عن الدنيا، ويقربه من الآخرة، وهو شهيد عليه يوم القيامة.

أيها المؤمنون: قيمة الوقت في الإسلام عظيمة؛ ولذا أقسم الله بأجزائه وعلاماته في آيات كثيرة ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝ (١) وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا ۝ (٢)﴾ [الشمس] ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ۝ (١) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۝ (٢)﴾ [الليل] ﴿وَالضُّحَى ۝ (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى ۝ (٢)﴾ [الضحى] ﴿وَالْعَصْرُ ۝ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ (٢)﴾ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا

بِالصَّبْرِ (٣) ﴿[العصر]. وامتَن الله تعالى بنعمة الوقت على عباده في مواضع كثيرة من كتابه، وفي الفقه الإسلامي للوقت قيمته وأهميته؛ فقد قرر الفقهاء أن الأجل في البيع يقابل بشيء من الثمن؛ فمن اشترى بثمن مؤجل ليس كمن اشترى بثمن مقبوض، فقوِّم الزمن بالمال لأهميته. والدول المتقدمة في اقتصادها ونموها تدرك أهمية الوقت؛ ولذا فهي تحسب تكلفة السلع من خلال ساعات العمل التي تنفقها فيها؛ إذ لا تختلف قيمة الوقت عن قيمة المواد الأولية المستخدمة فيها^(١٢)، ولعل من الطريف أن تعلموا أن دولة من الدول الصناعية الكبرى عينت من ضمن وزرائها وزيراً للأوقات الضائعة^(١٣)، ومع بالغ الأسف فإن الأمة الإسلامية التي حثت نصوص دواوينها على الوقت أكثر من أية أمة أخرى تضيع أوقات شبابها في الإجازات هدرًا. سهر في الليل، ونوم في النهار. قلوب خالية من دوافع وأهداف، ونفوس لا تتحمل المسؤوليات، وذلك من سوء التربية.

ويزداد الأمر خطورة بسفر الشباب مع أسرهم أو وحدهم إلى بلاد الفجور والمواخير؛ للانغماس في الرذائل والشهوات. وتتحمل مؤسسات السفر والسياحة وزر الإعلانات المرغبة لهم في هذا السفر المحرم، ويساعد على هذا الإثم والبغي القروض الربوية الميسرة التي تعلن عنها

(١٢) المصدر السابق (٢١٦).

(١٣) المصدر السابق (٤٢) والدولة التي وضعت وزيراً للأوقات الضائعة هي فرنسا في فترة حكومة الهالك (فرانسوا ميتران).

دور الربا ومؤسساته بقصد جني الأرباح الربوية، فهل تهدم أمة شبابها بأيديها في وقت أيقن العالم كله أن بناء الأمة لا يكون إلا بسواعد أبنائها. فاتقوا الله ربكم، واحفظوا شبابكم، ووجهوهم إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك ربكم...



١٠٤- الإسراف في الأموال والمتاع

الجمعة ٣٠/٢/١٤٢١هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: من طبيعة البشر التوسع في النفقات، والمبالغة في الاستهلاك، وهدر الأموال عند أول شعور بالشراء واليسار. ولا يعرفون أي معنى لوفرة المال إذا لم يصاحبها استهلاك أكثر، ورفاهية أشمل، وتمتع بالكماليات أوسع. وقد صرح القرآن بأن من طبيعة الإنسان السرف عند الجدة، وتجاوز حدود القصد والاعتدال ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ (٦) أَن رَّاهُ اسْتَعْصَمَ﴾ [العلق: ٦، ٧]، ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ

لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿الشورى: ٢٧﴾.

ولتهذيب الإنسان وتربيته أمر الله تعالى بالقصد في الأمور كلها حتى في أمور العبادات كيلا يملها العبد، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «والقصد القصد تبلغوا» أخرجه البخاري وبوب عليه بقوله: «باب القصد والمداومة على العمل»^(١).

و ضد القصد: السرف، وهو منهي عنه ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]. قال عطاء رحمه الله تعالى: «نُهِوا عَنِ الْإِسْرَافِ فِي كُلِّ شَيْءٍ»^(٢).

ويُطلقُ الإسراف على الكفر، فمن أسرف على نفسه بالعصيان حتى وقع في الكفر فهو مسرف على نفسه، كما كان فرعون من المسرفين ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]، وعاقبة هذا الصنف من الناس: النارُ خالدين فيها إن لم يتوبوا ويؤمنوا ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٧] وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

والعبدُ مأمورٌ إذا أسرف على نفسه بالعصيان أن يتوب إلى الله

(١) انظر: صحيح البخاري كتاب الرقاق، وهو جزء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لن ينجي أحد منكم عمله» (٦٤٦٣).

(٢) الأدب المفرد للبخاري (١٨٢/٢) عن نضرة النعيم (٣٨٩٤/٩).

تعالى فإنه تعالى يقبلُ توبته مهما عظم جرمه ، وكثر إسرافه ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] ، ومن دعاء عبادِ الله الصالحين ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧] .

والإسرافُ في شراء الأطعمة وأكلها أو رميها من مواطن النهي الجلي في القرآن ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١] .

وكذا الإسرافُ في الملابس والمراكب والأثاث وغيرها محرم ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «كُلُوا وَتَصَدَّقُوا وَابْسُؤُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ» رواه النسائي وابن ماجه (٣) .

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من التمتع ولو كان بالمباحات؛ لأنه مظنةٌ للسرف وتضييع المال فقال عليه الصلاة والسلام: «إِيَّاكُمْ وَالتَّعَمُّقَ فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالْمَتَّعِينَ» رواه أحمد ورجاله ثقات (٤) .

وهذا التشديدُ في النهي عن السرف ما كان إلا لأجل الحفاظ على

(٣) أخرجه البخاري معلقاً مجزوماً به، انظر: الفتح (٢٥٣/١٠) والنسائي في الزكاة باب الاختيال في الصدقة (٧٨/٥) وابن ماجه في اللباس باب ألبس ماشئت ما أخطأك سرف أو مخيلة (٣٦٠٥) وصححه الألباني في صحيح النسائي (٢٣٩٩) .

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٤/٥) قال المنذري: ورجاله ثقات (١٤٢/٣) وذكره الألباني في الصحيحة (٣٥٣) وحسنه في صحيح الجامع (٢٦٦٥) .

الأموال والموارد التي يُسأل عنها العبد يوم القيامة، فهو يُسأل عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقته .

والسرفُ يعارض حفظ المال؛ بل يتلفه ويؤدي إلى إفقار نفسه، ومن ثم إفقار أهل بيته وقرباته وأمته، والله تعالى كره لنا قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال .

إن حفظ المال فيه حفظُ الدين والعرض والشرف، والأُمم التي لا تمتلكُ المالَ لا يحترمها الآخرون . والشخصُ الذي ليس له قوةٌ من مال أو جاه لا ينظر الناسُ إليه، ولا يأبهون به؛ ومن أجل ذلك قال الحكماء: «من حفظ ماله فقد حفظ الأكرمين: الدين والعرض»^(٥).

ولم تحرم الشريعة اكتساب الأموال ونماءها والتزود منها؛ بل حضت على ذلك، ولكنها حرمت الطرق المحرمة في كسبه وإنفاقه . وإن من الطرق المحرمة في إنفاقه: السرفُ فيه، وإهداره بغير حق؛ إما في سفر محرم، وإما في حفلة زواج باهضة الثمن . وإن ما ينفق من أموالٍ على السفر إلى بلاد الكفر والفجور ليعدل ميزانيات دولٍ كاملة، وما ينفقُ على حفلات الأعراس التي يُلقى فائضُ أطعمتها في النفايات لينقذ الملايين ممن يموتون جوعاً، وفي كل عام يموت الآلاف من البشر جوعاً، فهل من حفظِ المال هدرُهُ بأية طريقة؟! وهل من شكر الله تعالى على نعمته إنفاقه فيما يسخطه سبحانه وتعالى؟! هل جاء الصيف وجاء معه هدرُ الأموال وإتلافُها وفي المسلمين

(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة (١/٣٥١) .

مشردون محرمون، لا يجدون ما يسدُّ جوعتهم، ولا ما يكسوا عورتهم، في فلسطين والشيشان وكشمير وغيرها من بلاد المسلمين المنكوبة؟! هل من معاني الإخوة في الدين أن تستمتع - أيها المسلم - بما أعطاك الله تعالى فيما حرم عليك وأنت ترى مآسي إخوانك المسلمين؟ ولو لم يوجد مسلمٌ على وجه الأرض يحتاج إلى جزءٍ من مالك يسدُّ رمقه، ويُبقي على حياته؛ لما جاز لك أن تهدر مالك في غير الحق. فكيف والمسلمون يموت منهم في كل يوم العشرات بل المئات من جراء التجويع والحصار والحرمان؟!

إن عدم الاهتمام بذلك قد يكون سبباً للعقوبة، وزوال الأموال، وإفقار الناس؛ حتى يتمنى الواحد منهم ما كان يلقي بالأمس في النفايات عوداً بالله من ذلك، فاحذروا سخط الله تعالى، وارعوا نعمته، وإياكم وطاعة النساء والأولاد في السرف وتضييع الأموال في الحفلات الباهظة، والأعراس المتكلفة، والسفر المحرم؛ فإن لذة المحرم تزول، ويبقى الوزرُ على ظهره. وكلُّ من أمرك بمعصية الله تعالى، ودفعك إليها فهو عدوٌّ لك، فاحذره وإياك وطاعته ولو كان أقرب الناس إليك.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤)﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفَقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦)﴾ إِنَّ تَقْرُضُوا اللَّهَ فَرَضًا حَسَنًا يُضَاعَفْ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ

شُكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿[التغابن: ١٤-١٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ،

الخطبة الثانية

الحمد لله ، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ،
أحمده وأشكره ، وأتوب إليه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك
عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين .

أما بعد: فلم يكن من هدي السلف الصالح الإسرافُ وتضييع الأموال ،
بل كانوا مقتصدين ينفقون أموالهم في الحق ، ويحفظونها عن الإنفاق
فيما لا فائدة فيه ، قال الحسن رحمه الله تعالى : «كانوا في الرحال
مخاصيب ، وفي الأثاث والثياب مجاديب»^(٦) .

قال الزبيدي : «أي : ما كانوا يعتنون بالتوسعة في أثاث البيت من
فرش ووسائد وغيرها ، وفي ثياب اللبس وما يجري مجراها كما يتوسعون
في الإنفاق على الأهل»^(٧) .

لقد كانوا رحمهم الله مع زهدهم وورعهم يعتنون بقليل المال
ولا يحتقرون منه شيئاً مع اقتصادٍ في المعيشة والنفقة ؛ ولذا كان القليل
من المال يكفيهم .

(٦) إحياء علوم الدين مع اتحاف السادة المتقين (٦ / ١٦٠) .

(٧) اتحاف السادة المتقين للزبيدي (٦ / ١٦٠) .

وقد أبصرت أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها حبة رمان في الأرض فأخذتها وقالت: «إن الله لا يحب الفساد»^(٨).

وقال أحمد بن محمد البراثي: «قال لي بشر بن الحارث لما بلغه ما أنفق من تركة أبينا: قد غمني ما أنفق عليكم من هذا المال ألا فعليكم بالرفق والاقتصاد في النفقة؛ فلأن تبيتوا جوعاً ولكم مال أعجب إليّ من أن تبيتوا شباعاً وليس لكم مال» ثم قال له: «اقرأ على والدتك السلام وقل لها: عليك بالرفق والاقتصاد في النفقة»^(٩).

والتقط أبو الدرداء رضي الله عنه حباً منشوراً في غرفة له وقال: «إن من فقه الرجل رفقه في معيشته»^(١٠).

وقال عمر رضي الله عنه: «الخرق في المعيشة أخوفُ عندي عليكم من العوز، لا يقل شيء مع الإصلاح، ولا يبقى شيء مع الفساد»^(١١)، وأخبارهم في ذلك كثيرة.

إن السرف في العصور المتأخرة تحول من سلوكٍ فردي لدى بعض التجار والواجدين إلى ظاهرة عامة تجتاح الأمة كلها؛ فالواجد يُسرف، والذي لا يجد يقترض من أجل أن يسرف ويلبي متطلبات أسرته من الكماليات وما لا يحتاجون إليه. وهذا من إفرازات الرأسمالية العالمية

(٨) الطبقات الكبرى لابن سعد (٨/ ١١٠).

(٩) الحث على التجارة والصناعة والعمل لأبي بكر الخلال (٥٨-٥٩) برقم (٣٢).

(١٠) المصدر السابق (٤٢) والزهد لوكيع (٣/ ٧٨٢).

(١١) المصدر السابق (٤٠-٤١) برقم (١٤) ومناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي

التي أقنعت الناس بذلك عبر الدعاية والإعلان في وسائل الإعلام المختلفة .

إن المذاهب الرأسمالية ترى أن المحرك الأساس للإنتاج هو الطلب، فحيثما وُجدَ الطلبُ وُجدَ الإنتاج، ومن ثم فإن الإعلانات التجارية تتولى فتح شهية المستهلك للاستهلاك، وتلقي في روعه أنه إذا لم يستهلك السلع المعلن عنها فسيكون غير سعيد، وغير فعال، وسيظهر بمظهر غير لائق، وهذا كله جعل الناس يلهثون خلف سلع كمالية، ويكون عليها كما يبكي المولود في طلب الرضاعة^(١٢).

وأضحى رب الأسرة المستورة يستدين بالربا من البنوك لتلبية رغبة أسرته في السفر للخارج، أو لإقامة حفلة زواج لابنه أو ابنته تليق بواقع الناس. وهكذا يقال في العمران والأثاث والمراكب والملابس والمطاعم وغيرها، بينما نلاحظ أن منهج الإسلام تربية الناس على الاستغناء عن الأشياء بدل الاستغناء بها حتى لا تستعبدهم المادة كما هو حال كثير من الناس اليوم؛ إذ أصبحوا منساقين بلا إرادة ولا تبصر إلى الإسراف وهدر الأموال فيما لا ينفع تقليداً للغير.

فاتقوا الله ربكم، واحفظوا أموالكم، وخذوها من حق، وأنفقوها في الحق؛ فإنكم مسؤولون عنها يوم القيامة. وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم، ، ، ،

(١٢) انظر: مدخل إلى التنمية المتكاملة د. عبدالكريم بكار (٣٤٣).

الكشاف

رمضان والحج

- ٥٠ - رمضان والتوبة (١) ٥
- ٥١ - رمضان والتوبة (٢) ١٤
- ٥٢ - رمضان والتقوى ٢٢
- ٥٣ - رمضان والقرآن ٣٢
- ٥٤ - رمضان والجود ٤١
- ٥٥ - رمضان والمواساة ٥١
- ٥٦ - رمضان والمجاهدة ٦١
- ٥٧ - رمضان والمراقبة ٧٠
- ٥٨ - رمضان والقوة ٨٠
- ٥٩ - رمضان والصبر ١٠٣
- ٦٠ - رمضان والعفو ١١٧
- ٦١ - العشر الأواخر والدعاء (١) ١٢٩
- ٦٢ - العشر الأواخر والدعاء (٢) ١٣٨
- ٦٣ - العشر الأواخر والاعتكاف ١٤٦
- ٦٤ - توديع رمضان ١٥٦
- ٦٥ - خطبة عيد الفطر ١٤١٧هـ ١٦٦
- ٦٦ - خطبة عيد الفطر ١٤١٨هـ ١٧٦

- ٦٧- خطبة عيد الفطر ١٤١٩هـ ١٨٧
- ٦٨- خطبة عيد الفطر ١٤٢٠هـ ١٩٧
- ٦٩- خطبة عيد الفطر ١٤٢٢هـ ٢٠٦
- ٧٠- خطبة عيد الفطر ١٤٢٣هـ ٢٢٠
- ٧١- خطبة عيد الفطر ١٤٢٤هـ ٢٣٣
- ٧٢- ماذا بعد رمضان (١) ٢٥١
- ٧٣- ماذا بعد رمضان (٢) ٢٦٤
- ٧٤- فضل عشر ذي الحجة ٢٧٤
- ٧٥- خطبة عيد الأضحى المبارك ٢٨٦
- ٧٦- فضل أيام التشريق ٢٩٨

المحرمات

- ٧٧- منكرات الأفراح ٣٠٩
- ٧٨- الربا ضرر وإثم (١) ٣٢٠
- ٧٩- الربا ضرر وإثم (٢) ٣٣٢
- ٨٠- الخمر في الشريعة (١) ٣٤٠
- ٨١- الخمر في الشريعة (٢) ٣٥١
- ٨٢- الزنى وخطره على الأفراد والأمة ٣٦٥
- ٨٣- العجب ٣٧٥
- ٨٤- عاقبة الظلم ٣٨٥
- ٨٥- عاقبة الأمن من مكر الله تعالى ٣٩٥

التربية والآداب

- ٨٦- حسن الخلق ٤٠٧
- ٨٧- التبسم والضحك وإضحاك الناس ٤١٨
- ٨٨- الأمانة والخيانة ٤٢٩
- ٨٩- آداب الأكل ٤٤١
- ٩٠- آداب الشرب ٤٥٥
- ٩١- أدب الاستئذان ٤٧٥
- ٩٢- القناعة ٤٨٦
- ٩٣- الشفاعة الحسنة ٤٩٧
- ٩٤- التزاور في الله تعالى ٥٠٩
- ٩٥- التحلي بالمواساة (١) ٥٢١
- ٩٦- التحلي بالمواساة (٢) ٥٢٩
- ٩٧- الإيثار (١) ٥٣٧
- ٩٨- الإيثار (٢) ٥٤٨
- ٩٩- الحلم ٥٥٧
- ١٠٠- الغيرة بين الشرع والواقع ٥٦٨
- ١٠١- حكم سوء الظن بالمسلم ٥٧٨
- ١٠٢- العمل الجاد سبل تقدم الأمة ٥٩٠
- ١٠٣- أوقات الشباب في الإجازة ٥٩٩
- ١٠٤- الإسراف في الأموال والمتاع ٦٠٨